من هدى القرآن

١٣

تفسير سور

الدخان الى ق

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة الدّخان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة

قال الامــام أبو جعفر البــاقر (ع): «**من أدمن قراءة ســـورة الـــدخان في فرائضه ونوافله بعثه الله عز وجل من الآمنين يوم القيامة ، وظلله تحت عرشه ، وحاسبه حسابا يسيرا ، وأعطاه كتابه بيمينه**».

تفسير نور الثقلين / ج 4 / ص 619

الإطار العام

عـبر (59) آية قصـيرة نسـيبا تطالعنا سـورة الـدخان الكريمة بثلاث موضـوعات أساسـية : ليلة القـدر ، والفتن الكبرى ، وصور عن الجزاء الأوفى في الآخرة.

ما هي العلاقة بين هذه الموضوعات؟

كل شيء في الخليقة مقدّر سـلفا ، ولكل جزئية منها غاية محـدّدة سـلفا ، أو يمكن لهـذا الإنسـان الأكمل خلقا بينها أن يترك سدى .. كلا .. الذرة المتناهية في الصـغر ــ حسب علمنا ــ مخلـوق مقـدر بعلم ، ومسـير لهـدف ، وكـذلك المجـرة المتناهية في السـعة ــ حسب علمنا ــ مخلـوق مقـدّر بعلم ، ومسـير لهـدف .. أفلا يكـون لهـذا الإنسان تقدير وهدف؟

لعل عقلانية الخليقة هي محـور السـورة. تعـالوا إذا نوصل فروع بصائر السورة بهذا المحور.

أولا : القــرآن أنــزل في ليلة القــدر ــ المباركة ــ لأنه ينذر باسم مقدّر هذا الخلق ، وألّا يزيغـوا عن ذلك التقـدير الحكيم الذي قضي في ليلة القـدر ، حيث يفـرق فيها كـلّ أمر حكيم. امرا من عند الله ، الذي أرسل الأنبيـاء ينـذروا الناس به.

وكانت تلك رحمة من الله ان ينذر النـاس ألّا يتجـاوزا تلك السنن والأقدار ، فيتعرضوا للخطر.

وبعد أن يذكرنا بعظمة الخالق يقول : «(**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ**) (وهو سبب كفرهم بهذه الرسـالة وسـيبقى ضلالهم حتى يـأتيهم العـذاب) (**فَـارْتَقِبْ**) (يـوم العـذاب) (**يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ* يَغْشَى النَّاسَ**) (حيث يتسـاءلون ما هـذا) (**هـذا عَـذابٌ أَلِيمٌ**) (فينـادون) (**رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَـذابَ إِنَّا مُؤْمِنُـونَ**) (وهيهات) (**أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْـهُ**) (بعد أن انـــــــــــــذرهم بما فيه الكافيـــــــــــــــــة) (**وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ**) (ويـأتيهم الخطـاب)(**إِنَّا كاشِفُوا الْعَــذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ**) (ولعل هـــذا العـــذاب هو العذاب الأدنى ، الذي يأخذهم ليكون نذيرا للعذاب الأكبر ، وهذا بدوره من شواهد القيامـة) (**يَـوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَـةَ الْكُبْرى**) (فيومئذ لا ينفع الاستغفار) (**إِنَّا مُنْتَقِمُونَ**).

ويســوق القــرآن قصة فرعــون لتكــون شـاهدة على مجمل هذه البصائر التي سبقت. تقدير الله الحكيم ـ إنذار الرسل ، نزول العذاب ، والجـزاء الحسن الـذي أتـاه بـني إسرائيل ـ.

وتلك هي فتنة كـبري تعـرّض لها قــوم فرعــون فلم يفلحوا حيث جاءهم موسى بـالبلاغ المـبين ، فلما رجمـوه بالتهم دعا عليهم فجاءه النصر ، حيث أغـرق الله فرعـون وقومه ليـتركوا وراءهم ثـرواتهم دون أن تـذرف السـماء عليهم دمعـة. أو ليسـوا كـانوا خـاطئين ، حيث زاغـوا عن القدر الحكيم ، والصراط المستقيم. تلك هي سنة الجــزاء ،

ودليل على ان الله خلق كلّ شيء بالحق؟!

وكـــذلك فقد نجّى الله بـــني إســـرائيل من العـــذاب المهين ، واختـــارهم على علم (واســـتحقاق لـــديهم) على العالمين.

كيف يـــترك الإنســـان ســـدى ، وبلا محاســـبة ، وكيف تكـون حياته الـدنيا خاتمة المطـاف ، ولقد أهلك الله قـوم تبّع ، حيث كـانوا مجـرمين ــ وفي هـذا دليل على حكومة الله العادلة على مجريـات التـاريخ ــ كما انه يكشف عن جـانب من عقلانية الخليفة ، وأن الله لم يخلق السـماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ، وعدم علمهم دليل جهلهم لا عدم صحة هذه الحقيقة.

ويفصل الـــذكر الحكيم جانبا من جـــزاء الله في يـــوم القيامة ، ويقول : «**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقـاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**» في ذلك اليوم لا ينفع الأنداد الذين يشركون بهم «**يَـوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَـيْئاً**» وحـتى لو انهم نصـروهم فإنهم لا ينصرون.

وبعد بيان طعام شجرة الزقـوم ، وكيف يقيد المجـرم إلى عـــذاب النـــار ، يعـــرض الـــرب لنا جانبا من نعيم الله للمتقين ، ويختم القرآن السورة بـأن تيسـير الكتـاب كـان بهـدف تـذكيرهم فمنهم من يتـذكر (**وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِـرُ**) فارتقب انهم مرتقبون.

وهكـذا ينـذر القـرآن عبـاده بـالجزاء الأوفى الـذي هو رمز حقّانية الخليقة ، وعدالة الله وتقديره الحكيم.

سورة الدّخان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى

---

(4) (يُفْرَقُ) : يبيّن ويميّز ويفصّل.
(10) (فَارْتَقِبْ) : انتظر.

النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِـفْ عَنَّا الْعَـذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)

يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ

هدى من الآيات :

إنّ الصـيغة الـتي ورد فيها الحـديث عن ليلة القـدر لا يختص بها وحـدها ، وإنّما ينصـرف إلى حقيقة هامة أيضا ، وهي أنّ الإنسان محاط بتدبير الله قضاء وقـدرا ، وهاتـان الكلمتـان تـردان في كثـير من النصـوص الشـرعية كتابا وسنة وعلى ألسن المؤمنين ، فما ذا تعنيان؟

القـدر هو السـنن الإلهية الـتي تحكم الكـون ، فالنـار تحـرق ، والمـاء يطفئ النـار ، و.. و.. وأمّا القضـاء فهو الحكم الإلهي القاطع بإجراء هذه السنن أو تعطيلها ، ففي هذه السنن يظل فراغ لا قانون فيه ، وهو ما نسمّيه اليوم بالصـدفة ، ذلك انّ ارادة الله فـوق القـانون ، وقد أثبت العلم بعد التجـارب المتكـررة على مختلف القـوانين هـذه الحقيقة.

فمن واقع الإنسـان اكتشف العلمـاء دواء لعلاج فيروس الانفلونزة ، واعتقدوا

أنّهم بواسطته يستطيعون السـيطرة عليه سـيطرة تامة ، ولكنّهم وجدوا أنّ عشرات الألوف من الشـعب الأمـريكي يموتون بسببه بالرغم من تعاطيهم ذلك الدواء ، والسـبب أنّ أجسـامهم لا تسـتجيب لمفعوله .. فالـدواء إذن ينفع ولكن ليس إلى الأبد إنّما في حدود معيّنة.

ومثل آخر من واقع الطبيعة أنّ الخـبراء بعد التفكـير والتجـريب والتخطيط أطلقـوا (أبولو 13) الى الفضـاء ، وبعد أن وصل إلى المكـــان المعيّن تعطل عن العمل ، وعسكريّا حاولوا غـزو إيـران ، مع الأخذ بعين الإعتبـار كل الاحتمـالات والاسـتعداد لمواجهتها ، ولكنّهم عند التنفيذ فشلوا ، وتهـاوت طـائراتهم كـأوراق الخريف في صـحراء طبس ... ممّا يدل على وجود هامش لا قدرة للإنسان في السـيطرة عليه ، بل قد يبـدأ الهـامش من الإنسـان نفسه فـإذا به يفقد السـيطرة على ذاته فضلا عن عمله ، فربما يختل توازنه الذهني ، وربما يتعطّل شيء في جسده.

ومن المعايشات اليومية قد يـدفع الإنسـان صـدقة أو يعمل خيرا في أوّل يومه ، فيعـرض له حـادث مميت ينجو منه ، بينما يموت في يوم آخر بسبب تافـه. أليس كـذلك؟ إذن فهناك قـوة غيبية تـدبّر شـؤوننا ، ولا يوجد شـيء في الحيـاة يسـمّى بالصـدفة ، إنّما هي تـدابير إلهية فـوق الإرادات والسنن.

وروي أنّ أمـير المؤمـنين (ع) عـدل من حائط مائل إلى مكان آخر ، فقيل له : يا أمير المؤمنين تفرّ من قضاء الله؟ فقال (ع) : «**أفرّ من قضاء الله إلى قـدره**» [1] ، فقدر الله أنة الجدار المائل يسقط ، والـذي يجلس عنـده يتضـرّر ، وقد وهب الله للإنسـان العقل الـذي يتعـرّف به على هذه الحقيقة ، أمّا قضاؤه فإنّه تعالى يبعث في

(1) بح / ج (5) ص (97).

عقل الإنسـان كشـبه الهـزّة الكهربائية تثـيره وتـذكّره ، وابتعاد الإمام (ع) عن الجدار كان بقضاء الله عزّ وجل.

ونقل لي أحد الأشـخاص قـائلا : كنت واقفا في الشـارع أبحث عن سـيارة توصـلني إلى نقطة معينة في إحـدى العواصم ، وفي الأثنـاء تـوقفت إلى جـانبي سـيارة أجرة ، ولكنّ السـائق رفض جلوسي في المقعد الأمـامي إلى جانبه ، الأمر الـذي منعـني عن الركـوب في هـذه السيارة ، فاستقلّيت سيارة أخـرى ، وبينما كنّا نسـير رأينا جمعا من النـاس وكـأنّ حادثا ما وقع في الشـارع ، وحيث نـزلت لمعرفة الخـبر وجـدتها سـيارة الأجـرة الـتي رفض صاحبها ركوبي في المقعد الأمـامي ، وقد تحطّمت ومـات السائق والراكب الذي الى جانبه .. فالقدر الطـبيعي لهـذا الشخص أنّه يمـوت ، ولكنّ القضـاء يتـدخّل ليبـدّل الأمر ، وينقذ هذا الإنسان.

وأمثـال هـذه القصص والحـوادث تتكـرّر بكـثرة في حياتنا اليومية ، ونحن نعايشـها أو نسـمع عنها ، ولكنّنا لا نبصر ولا نعتبر. وفي هذه السورة تركيز على هـذا الـوعي (أنّ في الكون يدا غيبية تدبّر شؤونه) ، وذلك لا يعـني أنّها وحدها تفعل كل شيء مباشرة ، وأنّه لا نظام في الحياة ، كلّا .. إنّما النظـام موجـود ، ولكن هنـاك أيضا من يجريه ويهيمن عليه فيجريه أو يعطّله مـتى شـاء ، وهو الله عـزّ وجل ، فـإذا بالنـار الـتي تحـرق يتعطّل قانونها في قصة إبـراهيم (ع) ، وإذا بالعصا تصـير حية كأنّها جـان ، وهكـذا الكثير من الشواهد الأخرى.

بينات من الآيات :

[1] [**حم**]

بالإضافة إلى كون الكلمات المقطعة رموزا وإشارات تهـدينا إلى القـرآن ذاته ، أو أنّها رمـوز بين الله وأوليائه (وهو أفضل ما قيل فيها) ، فإنّها تنسجم بتناغمها

وأجراسها اللفظية مع طبيعة السورة ذاتها نفسيّا وأدبيّا.

[2 ـ 3] وفي هــذه الســورة يقسم ربنا بعد تلك الحروف بالقرآن نفسه ، والذي يتألّف منها ومن أشباهها ، للدلالة على مدى عظمته وجلالة قدره.

(**وَالْكِتابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ**)

هي ليلة القدر في شهر رمضان ، التي عـدلت بخيرها وبركتها ألفا من الشهور .. وإنّما أنـزل الله الكتـاب لهداية النـاس إلى الحق بـترغيبهم فيه وتحـذيرهم من عـواقب الضلال والباطل.

وقد تساءل المفسـرون : كيف نـزل القـرآن في ليلة القدر وقد تـنزلت آياته على امتـداد ثلاث وعشـرين عاما ، وقد بيّن ربنا حكمة تنجيم القـرآن بقوله : «**وَقـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُـزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنُ جُمْلَـةً واحِـدَةً كَـذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً**».[1]

قالوا ـ حسب النصوص ـ : إنّه أنزل جملة واحـدة إلى مقام سام في السماء الرابعة جعله الله مسـجدا لملائكته حيث يدخله كل يـوم سـبعون ألف ملك ثم لا يعـودون إليه أبـدا ، يســمّى بــالبيت المعمــور ، وقد جعل الله الكعبة بإزائه.[2]

وقــالوا : إنّ الرســول كــان على علم بما في الملأ الأعلى ، ولذلك أمره الله بألّا يعجل في بيان القرآن : «**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**».[3]

(**إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**)

---

(1) الإسراء (32).

(2) راجع موسوعة بحار الأنوار / ج (9) ص (163) وما بعد.

(3) القيامة / (16).

والإنذار هو هـدف القـرآن وسـائر الرسـالات الإلهية ، ذلك أنّ الأمم تبـدأ بـالانحراف عن هـدى الله حـتى تقف على شفا حفرة من النار والعذاب ، فيبعث الله لها بمنـذر وكتاب لإنقاذها.

[4 ـ 5] وقد شرّف الله ليلة القدر بأمرين :

أوّلا : حيث أنـــزل فيها كتابه الكـــريم الـــذي بعث به الإنسانية مقاما محمودا أهّلهم به لجناته ورضوانه والزلفى من مقامه الأعلى.

وإنّما شرف الزمان بما يقع فيه من حـوادث عظيمة ، وهل هنالك حادثة أعظم من وحي ربّ العزّة؟! أو سمعت كيف كـادت السـموات يتفطّـرن من فـوقهن لمّا مـرّ بهن وحي الله العظيم؟! أو ما قرأت أنّ القـرآن لو انـزل على الجبال لتصدّعت؟!

حقّا إنّها ليلة مباركة عظمت وشـرّفت في السـموات والأرض ، ويحق لنا أن نكرمها بالعبادة.

ثانيا : لقد جعل الله ليلة القـدر ليلة الـوحي في كـلّ عام حيث ينزل فيها ملائكته كل عام والروح من كل أمر ، وحيث يسـتقبل الأنبيـاء ومن بعـدهم الأوصـياء وصـيّا بعد وصي رسل الله الذين يفصـلون لهم ما قـدّره الله لعبـاده جميعا.

(**فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**)

شؤون العباد ليست تماما بأيديهم ، بل لعلّ أغلبها بيد القدر .. والتفريق ـ حسـبما قـال البعض ـ هو تفصـيل ما أجمله الله في غيب علمه من حكم الخلق وأهدافه.

(**أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**)

فــالأمر إذن يرسل من عند الله كما القــرآن ، أي أنّ القـرآن منهـاج عملنا في عـالم التشـريع ، بينما قـدر الله وقضاؤه يرسمان خريطة حياتنا في عـالم التكـوين ، فكما يقدّر الله في ليلة القدر ما يتصل بحياتنا جزء جـزء كـذلك يرسل الأنبياء ليفصّلوا منهاج حياتنا كلمة كلمة.

[6] وهذا التدبير الإلهي رحمة بالغة.

(**رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**)

إنّ اليد الإلهية الـتي تسـيّر شـؤون الكـون يد رحيمة وكريمة ، ومن هنا كـــانت البصـــيرة القرآنية إلى الحيـــاة توحي بالاطمئنان والثقة ، فالمسـلم الصـادق يسـلم لله ، وتطمئن نفسه لقـدره وقضـائه «**أَلا بِـذِكْرِ اللـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**» فهو لا يخشى من الطبيعة والناس من حوله ولا من المشاكل ، لذلك فهو ينفق في سبيل الله ما اسـتطاع دون الخوف من الفقر ، ويرجو من الإنفاق زيادة الـرزق ، ويقدم على الأمـور ، ولا يخشى العقبـات والمشـاكل ، بل ويرجو من ذلك تسـخير الطبيعة في صـالحه ، ولـذلك فهو قليل الفشل ، لأنّ الفشل أكثر ما يأتي من خشيته.

ثم إنّ رحمة الله لا تنتهي عند حـــدّ معيّن ، إنّما تتسع أيضا لحاجات الإنسان المتجدّدة التي تعكسها دعواته.

(**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**)

الذي يسمع دعاء عباده.

(**الْعَلِيمُ**)

بنو إيـاهم ، ثم يسـتجيب لهم ، أو لا يسـتجيب لحكمة يعلمها.

[7 ـ 8] وربنا هو رب الكـــون بأســـره ، ولكنّ بعض الناس يشرك به ، ويقسم الخليقة على آلهة شتى ، وهـذه النظــرة الضـالة للحيـاة ليس سـببها عـدم ظهـور آيـات الربوبية في الكــون من حــولهم ، وإنّما لأنّهم لم يرتفعــوا إلى مستوى المعرفة العميقة واليقين.

(**رَبِّ السَّـــــــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ**)

بلى. إنّ الموقـنين هم الـذين ينظـرون للحيـاة نظـرة توحيدية خالصة من الشـرك ، فلا يؤمنـون بإله إلّا الله عـزّ وجل.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ**)

فهو المتصـرّف في مصـائر الخلق ، ومن هـذه صـفته هو الإله ، والأولى بالعبـادة من كـلّ أحد سـواه ، وما دام ربنا هو الـذي يملك المـوت والحيـاة فلما ذا نخشى غـيره ونخضع له؟! لما ذا نتبع الطاغوت؟! ولماذا نقلّد آباءنا؟!

إنّهم ليسـوا بآلهة حـتى نعبـدهم ، إنّما هم عبـاد مثلنا خلقهم الله.

(**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**)

سواء عبده الآباء أم أشـركوا به ، ونحن يجب أن نتخذ هذه الحقيقة مقياسا لتقييم الأجيال وليس العكس ، وذلك لكي لا يؤثّر علينا انحراف الآخرين تأثيرا سلبيّا.

[9] والسـؤال الـذي يطـرح نفسه هنا : لمـاذا يضـلّ البشر عن هذه الحقائق ، ويشركون بالله؟

والإجابة : لأنّهم يظنّــون أنّ الحيــاة الــدنيا هي نهاية المطاف ، فهي الهدف في

اعتقادهم ، وهـذا يقـودهم إلى الشك في المسـتقبل حيث الدار الآخـرة ، ومن فـرّغ حياته من الآخـرة فقد أفقـدها ، هدفها ، وجعلها مجرّد لعب.

(**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ**)

إنّ المــؤمن لا يتخذ الــدنيا دار لعب ولهو ، لأنّه يعتقد بالمسؤولية والحساب عن كل قول وفعل يصـدر منه ، بل عن كل حــديث له مع نفسه ، بينما الــذين يشــكّون في الآخرة يقودهم شكّهم إلى النظـرة السـاذجة والهازلة إلى الحياة الدنيا.

[10] والقـرآن يحـذّر هـؤلاء من العاقبة الـتي سـوف يلاقونها نتيجة هذه النظرة للحياة ، فالشك في الآخـرة لن يلغي المسؤولية فيها.

(**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ**)

فكأنّها تشـتعل نـارا ولكن من دون ضـياء ، وذلك أنّ النار في يوم القيامة لا نـور فيها وبالـذات في جهنم ، إنّما هي ظلمات فوق ظلمات ، وفي المجمع : إنّ رسـول الله (ص) دعا على قومه لمّا كذّبوه فقال : اللهم سنينا كسني يوسف ، فأجـــذبت الأرض ، فأصـــابت قريشا المجاعة ، وكــأنّ الرجل لما به من الجــوع يــرى بينه وبين الســماء كالدخان ، وأكلوا الميتة والعظام [1]. وقد وعد الله رسـوله بانزال العذاب على المرتابين والمشكّكين في الجزاء.

[11] وحين يـنزل هـذا العـذاب فإنّه يغمر النـاس من كلّ ناحية.

(**يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ**)

جزاء لما قدّمتموه في الدنيا من الأعمال والإعتقادات المنحرفة ، فإذا بهم

(1) مجمع البيان / ج (9) ص (62).

يسـتغيثون الله ويتضـرّعون إليه طمعا في النجـاة ، ولكن دون جدوى.

[12] (**رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ**)

وهذه من طبيعة البشر. إنّه لا ينتبه حتى يرى العـذاب مباشـــرة ، بينما زوّد بالعقل الاستشـــفاف المســـتقبل ، وتجنّب الخطر قبل فوات الأوان.

وسواء أريد بهذه الكلمة المنذرة العذاب الـذي يغشى المجرمين في الدنيا أو عذاب الآخـرة فـإنّ موقف الشـاك في الآخرة منها واحد ، إذ أنّه لا يتذكّر إلّا والعـذاب يغشـاه فلا تنفعه الذكرى ، على أنّ عذاب الـدنيا لحظة بل لسـعة بل ظلال من عذاب الله في الآخرة ، نعوذ بالله منهما.

وفي بعض التفاسـير : إنّ الـدخان هـذا من أشـراط السـاعة ، حيث ذكر في الحـديث المـأثور عن أمـير المؤمنين عليه السّلام :

«عشر قبل السـاعة لا بـدّ منها : السـفياني ، والـدجّال ، والـدخان ، والدابّة ، وخـروج القـائم ، وطلـوع الشـمس من مغربها ، ونـزول عيسى ، وخسف بالمشـرق ، وخسف بجزيـرة العـرب ، ونـار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر» (1)

---

(1) عن بحار الأنوار / ج (52) ص (209).

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ

---

(16) (**الْبَطْشَةَ الْكُبْرى**) : الأخذ الشديد في يوم القيامة.

(18) [أدّوا] : أي أعطوا من الأداء كما يقال «أدّ الأمانة».

مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (27) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (28) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (29)

---

(24) [رهوا] : أي ساكنا على حاله بعد ان خرجتم منه ، بـان يبقى على حاله ذي طرق وسبل حتى يطمح فرعون في عبوره فيغرق ، وذلك لانّ ضربه بالعصي بقصد ارجاعه إلى ما كان ، كان بيد موسى.

وألّا تعلوا على الله

هدى من الآيات :

يتعرّض البشر إلى نوعين من الفتن في حياته :

الأوّل : الفتن اليومية ، وهي تشــبه ســائر متغــيرات حيـاة الفـرد الـتي تتكـرّر عليه ، فهو كما يجـوع فيشـبع ، ويظمأ فــيرتوي ، ويضــحى فيســكن إلى مــأوى ، فإنّه يصطدم بهذا النوع من الفتن ، ومن طبيعة الحياة انّها تحد من جانب واسـتجابة للتحـدي من جـانب آخر ، وهنا يكمن الابتلاء ، وإنّما يكتسب الإنسـان الخـبرة والإرادة والقـوة ، كما ينمو وتنمو معه المـواهب من خلال تحـدي المشـاكل والعقبات.

الثـاني : الفتن الكـبرى الـتي يتعـرّض لها الفــرد أو المجتمع ، وهي تتجدّد في كلّ عصر ، بيد أنّ قرار الإنسان فيها يكــون مصــيريّا ، فــالفرد الــذي ينتمي إلى حركة إصـلاحية ، ويتـدرّج في مراحل التوعية والتنظيم والعمل ، حـتى يبلغ مكانا حسّاسا فيهـا. إنّ كل لحظة تمر عليه من عمره الحركي تعتبر لحظة خطيرة تحمل الفتنة

والابتلاء ، ولكنّه لا يتعرّض للفتنة الكـبرى إلّا حينما يقع في قبضة السـلطات الإرهابية ، فيتعـرّض لألـوان التعـذيب الوحشي أو الانحراف الخادع ، فإن صـمد ولم يكشف لهم عن أسراره كتب خلوده ومجده بألمه ، وربما بدمه.

وصور اجتماعية لهذا النوع من الفتن نجدها في حيـاة الأمم ، ولكن ليس عند الفتن الـتي نسـمّيها بالتحـديات والتحديات المضـادة الـتي تتعـرّض لها في اقتصـادها وفي سياسـتها وتركيبتها ، وإنّما عند المواجهة الحاسـمة ، حين تقف هذه الأمة أمام عدوّ أقوى منها سلاحا ، وأرقى تقدّما ، وأكـثر عـددا ، فـإن صـمدت فإنّها تكتب مجـدها ، وإن انهزمت فإنّها تقرّر مصيرها.

وكشاهد على هذا اللـون من الفتن في التـاريخ الفتنة الـتي تعـرّض لها موسى وقومه من جهة وفرعـون وملأه وجنده من جهة أخرى ، والـتي انتهت بفشل هـؤلاء الـذين لم يرتفعـوا الى مسـتوى تحـدي الكبريـاء الكاذبة في أنفسهم ، فانحرفوا وانتهت حضارتهم للأبد.

إذن فالفتن الكبرى مصيرية وحاسمة ، والسؤال هنا : كيف يصـمد الإنسـان أو المجتمع أمامهـا؟ إنّه يحتـاج إلى إرادة قوية ، وهي لا توجد عند الإنسان في لحظة واحدة ، وإنّما بالتـدريج والتربية ، فكما أنّ البحر الطمطـام الـذي يمتد طولا وعرضا يتكون من القطرات الصـغيرة ، وهكـذا الصـحراء المترامية الأطـراف تتكـون من ذرّات الرمل ، فكذلك إرادة الإنسان تصنع من مجمـوع إرادات صـغيرة ، هو يتمكّن من اتخاذ الموقف الصـعب إذا مـارس المواقف الأقل منه في الحياة.

وكمثـال على موقف الإنسـان من الفتنة الكـبرى واتصال ذلك بمواقفة السابقة دعنا نستعرض قصة رجلين : أحدهما سقط في الفتنة ، بينما انتصر الثـاني ، فهـذا هو عمرو بن العاص حسبما يقول عنه ابن قتيبة الدينوري في كتابه الإمامة والسياسة :

لما انتهى اليه كتاب معاوية وهو بفلسطين ، استشار ابنية عبد الله ومحمدا ، وقال : يا ابـني ، إنّه قد كـان مـني في أمر عثمان فلتات لم استقبلها بعد ، وقد كـان من هـروبي بنفسي حين ظننت أنّه مقتول ما قد احتمله معاوية عني ، وقد قـــــدم على معاوية جرير ببيعة علي ، وقد كتب إليّ معاوية بالقـــدوم عليه ، فما تريـــان؟ فقـــال عبدالله وهو الأكـــبر : أرى والله أنّ نـــبيّ الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعـده كـذلك ، وقتل عثمـان وأنت غـائب ، فـــأقم في منزلك ، فلست مجعـــولا خليفة ، ولا تزيد على أن تكـــون حاشـــية لمعاوية على دنيا قليلة ، أوشـــكتما أن تهلكا فتســتويا فيها جميعا ، وقـال محمد : أرى أنّك شــيخ قريش ، وصاحب أمرها ، فإن ينصرم هـذا الأمر وأنت فيه غافل ، يصغر أمرك فـالحق بجماعة أهل الشـام ، واطلب بدم عثمان ، فإنّك به تستميل الى بني أميّة ، فقال عمـرو : أمّا أنت يا عبدالله فـأمرتني بما هو خـير لي في ديـني ، وأمّا أنت يا محمد فقد أمرتني بما هو خير لي في دنيـاي ، ثم دعا غلاما له يقـال له وردان ، وكـان داهيا ، فقـال له عمــــــــرو : يا وردان احطط ، يا وردان ارحل ، يا وردان احطط ، يا وردان ارحل ، فقال وردان : أما إنّك إن شـئت نبّأتك بما في نفسك ، فقال عمرو : هات يا وردان ، فقال : اعـــتركت الـــدنيا والآخـــرة على قلبك ، فقلت مع عليّ الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة ، فأنت واقف بينهما ، فقال عمرو : ما أخطأت ما في نفسي ، فما تـرى يا وردان؟ فقـــال : أرى أن تقيم في منزلك ، فـــإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ، فقـال عمـرو : الآن حين شـهرتني العـرب بمسيري إلى معاوية؟! [1]

وذهب عمرو إلى معسكر معاوية تاركا آخرته لـدنياه ، ثم لمّا دنت منه الوفاة وكان في فلسطين قال لمن حوله : احملوا جسدي إلى صحن الدار ، فلمّا حمل وطـرح على الأرض نظر إلى السماء فقال : لست بذي عـذر فاعتـذر ، ولا بذي قوة فانتصر ،

(1) الامامة والسياسة / ج 1 ص 96

فافعل بي ما تشاء ، ومات.

ونجد في مقابل هـذه الهزيمة صـورة للصـمود أمـام فتنة الحيـاة ، عند عمّـار بن ياسر (رضي الله عنـه) الـذي وقف مع الحق في حرب صـفين وهو ينـاهز التسـعين من العمر ، ولمّا رأى الإمام علي (ع) شيخوخته أمره أن يشدّ ظهره ، وحواجب عينيه حتى لا يبدو للناس ضـعيفا ، فـبرز (رضي الله عنه) للقتال ، وقال مخاطبا عمرو بن العاص : يا عمـــــرو بعت دينك بمصر فتبّا لك ، فطـــــال ما بغيت الإسـلام عوجا ، ثم قـال : اللهمّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أن أقذف بنفسي هذا البحر لفعلت ، اللهمّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضـاك في أن أضع ظبّة سـيفي في بطـني ثم انحـني عليه حـتى يخـرج من ظهـري لفعلت ، اللهمّ إنّي أعلم ممّا علّمتـني أنّي لا أعلم عملا هـذا اليـوم هو أرضى لك من جهاد هؤلاء القاسطين ، ولو أعلم اليـوم عملا هو أرضى لك منه لفعلته. وحارب حـتى استشـهد مع الحـق. ولكن لما ذا اختـار عمّـار (رضي الله عنـه) هـذا المواقف ، بينما اختـار ابن العـاص الهزيمة أمـام الفتنة والجـواب : لأنّ عمّـار كـان دائما مع الحق ، وحـتى في دقائق حياته ، ومنذ إيمانه بالرسول (ص) ، حـتى قـال فيه الإمـــام الصـــادق (ع): «**ما خيّر عمّـــار بين أمـــرين (كلاهما في الله) إلّا اختار أشدّهما**»

وربما عنـاه الإمـام علي (ع) بقوله : «**كـان لي فيما مضى أخ في الله ، وكـان يعظمه في عيـني صـغر الدنيا في عينه ... وكان إذا بدهه أمـران ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فيخالفه**» [1] فلا عجب إذن أن تنتهي حياة هذا العظيم بالشهادة ، بينما يمـوت ابن العـاص على فراش الـذنب والرذيلة ، لأنّ ابن العـاص كـان يخشى من شهرة العرب ـ حسب قول ابن قتيبة ـ أكثر من خوفه من الله ، وكـان يبحث عن الرئاسة قبل سـعيه لرضا ربّه ، إنّ تلك الصــــفات الرذيلة الــــتي تكرّست في نفسه عـــــبر عشرات

(1) نهج البلاغة / ص 526 حكمة 289

من المواقف الانهزامية أمـــام ضـــغوط الـــدنيا وإغراءاتها كوّنت أرضية هزيمته المصيرية باختيار الدنيا على الدّين.

ومن هنا نعي أهمية المواقف اليومية ومـــــدى تأثيرها على مســتقبل الإنســان ، فلا ريب أنّ الاختيــارات اليومية للأصــعب في الله ، هي الــتي صــنعت إرادة عمّــار حيث الــتزم بالخيــار الصــعب في نهاية الخط ، بينما صــنعت الإختيارات البسيطة للخطأ الهزيمة الحاسـمة أمـام الفتنة الكبرى في حياة الآخر.

وفرعون مع ملئه وجنده ــ الـذين تحـدّثت عنهم آيـات هذا الـدرس ــ إنّما فشـلوا في الفتنة الكـبرى لأنّهم كـانوا ينهزمون أمام الفتن الصغيرة ، وهذه من أهمّ العـبر الـتي نستفيدها من سورة الدخان.

بينات من الآيات :

[13 ـ 14] اختتم الـدرس السـابق بتصـوير الكـافرين يدعون ربّهم لكشف العذاب عنهم زاعمين أنّهم مؤمنون ، وهنا يؤكد ربّنا انهم كــاذبون ، أولم يكفــروا بالنــذير؟ بلى. إنّهم يعيشون اللحظة ، فاذا رأوا العذاب جأروا إلى ربّهم ، وإذا اســتجاب لهم تــراهم ينكثــون. إنّهم أبنــاء الظــرف الحاضر ، وليســوا ممّن يملك بصـيرة المسـتقبل أو تجربة الماضي.

(**أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى**)

أي بعدت واستحالت بالنسبة لهم ، لأنّهم حين رفضـوا الايمان قبل العـذاب لم يكن رفضـهم منطقيّا إذ لم يقصّـر الرسول في بيان الحق والـدعوة إلى الله ، حـتى عـذرهم بأنّ الأمر كان غامضا.

(**وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ**)

ولكنّهم عصوه.

(ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ)

إذ صاروا يختارون ما تـوحي به شـهواتهم ومصـالحهم وقيادتهم الباطلة على أمره ، وأكثر من ذلك اتهموه.

(وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ)

فهو ينتمي إلى الآخــرين في نظــرهم ، وهــذه تهمة يوجّهها الطغاة إلى كلّ ثائر ومجاهد ، حيث يسـمّونه عميلا ، ويدّعون عليه الارتباط بجهات خارجية ، ومن جهة أخـرى اتهموه بالجنون لما يقدم عليه من أعمال جريئة. حقّا إنّهم اعـترفوا بأنّه عـالم وشـجاع ، ولكن منعهم غـرورهم من الاعـــتراف بعظمته ففسّـــروا حكمته بـــالتعلّم ، وبطولاته بالجنون ، وإذا عرفنا أنّ رسالته لم تكن ناشئة من الثقافة المنتشرة في مجتمعة فانّ اعترافهم ماض في أنّه رسول ، وحين عرفنا أنّ شـجاعته كـانت محسـوبة فـانّ كلامهم اعتراف بأنّه توكل على الله فأيّده ربّه.

[15] ولكن مع ذلك قد يرفع الله العـذاب عن عبـاده رحمة بهم ، ذلك أن من أهـــــداف إنزاله على النـــــاس إعادتهم للحق ، وتصـحيح مسـيرتهم الخاطئة ، عـبر بعثهم نحو نقد الذات ، كما يقول تعالى : (فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْسـاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) [1] فاذا ما تضرّعوا رفعه الله عنهم لاقامة الحجة التامة عليهم ، وبيـــان زيف ادعـــائهم بأنّهم تائبون حقّا.

(إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ)

---

(1) الأنعام / 42

وربّنا يعلم بحقيقتهم ولكنّه يرفعه عنهم بلطفه ، فـاذا بهم يعـودون لما نهـوا عنه ، ممّا يجعلهم يسـتحقون أشـدّ العذاب.

[16] وربّنا يؤكد بأنّ العودة إلى المعصـية والانحـراف تستلزم إرجاع العذاب ولكن بصورة أشـدّ وأقسى ، وليس بهدف هدايتهم ، بل انتقاما منهم هذه المرة.

(**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ**)

إنّ العذاب الـذي يـراه الظلمة في الـدنيا ليس سـوى نفحة من العذاب الذي ينتظرهم بعد الموت.

[17] ووقـوع هـؤلاء طعمة للبطشة الكـبرى نتيجة طبيعية لفشلهم أمام أعظم فتنة يتعرّض لها البشر ، وهي فتنة التسليم للقيـادة ، حيث تولّـوا عن الرسـول وخـالفوا أمره ، فلن يكون مصيرهم ولا مصـير أمثـالهم بأفضل من أسلافهم الذين تحدّوا قيادة الرسل.

(**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجـاءَهُمْ رَسُـولٌ كَرِيمٌ**)

وانبعاث القيادة الرسـالية المتمثّلة آنـذاك في موسى (ع) وضع المجتمع كلّه أمـام فتنة كـبري ، فهو إمّا يختـار الانحطاط والدمار باتباع الباطل بقيمه ورمـوزه ، وإمّا يتبع الحق برسالته وقياداته.

[18] وقد بيّن موسى (ع) الهـدف الأوّل من رسـالته وهو تحرير الإنسان من العبودية للطـاغوت ، وقد أشـارت آيات عديـدة إلى أنّ صـبغة رسـالة الله إلى موسى كـانت تحرير بني إسرائيل من طغيان آل فرعون ، إذ كانت هـذه أعقد مشـكلة حضـارية في ذلك العصر ، وقد تحـدّت رسالات الله جميعا بـؤر الانحـراف وعقد المشـاكل ، فـاذا كـانت عقـدة الحضـارة العلو في الأرض ، كما نجـده في مجتمع عاد ، فانّ أخاهم هودا نهاهم عن أن يبغـوا الفسـاد في الأرض ، وأن يبطشوا بطش

الجبّـارين ، أمّا إذا كـانت العقـدة الفسـاد الخلقي كما عند قـوم لـوط نهـاهم رسـولهم من ذلك ، وقـال : «**أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَـلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُونَ**» ، وهكذا.

وهكذا جاء موسى محرّرا لبـني إسـرائيل من طغيـان فرعون ، وقـال : «**قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِـلْ مَعِيَ بَنِي إِسْـرائِيلَ**» [1] وقـال : «**إِنَّا رَسُـولُ رَبِّ الْعالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ**» [2].

وهنا يقول ربّنا :

(**أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ**)

يعني المستضعفين الذين استعبدتهم الفراعنة.

(**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**)

فلست أريد من تحرير المستضـعفين شـيئا لنفسي ، وإنّما أنا أؤدي أمانة الرسالة ، وألتزم بها كما يريد الله عزّ وجل.

[19] أمّا الهدف الآخر لموسى (ع) فهو القضـاء على الاستكبار بكلّ أبعاده وصوره ، وإعادة الإنسـان إلى واقعه الحقيقي ، وهو واقع العبودية لربّه تعالى ، وتكـبر فرعـون وقومه على موسى لم يكن تكـبرا عليه وحسب ، وإنّما كان تكبّرا على القيم الحقّة ، وبالتالي طلبا للتعـالي حـتى على الله ، وموسى (ع) أكّد على هـذه الفكـرة في دعوته لهم.

---

(1) الأعراف / 105
(2) الشعراء / 17

(**وَأَنْ لا تَعْلُــوا عَلَى اللـــهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُـــلْطانٍ مُبِينٍ**)

وإذا كـان فرعـون قد نصب نفسه إلها أعلى للنـاس «**فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى**» [1] ، فـانّ دعـواه هـذه باطلة يدحضها موسى بالحجج والبراهين الواضحة.

[20] وحيث يتوقع موسى (ع) موقف الرفض والظلم ضد الدعوة الصـادقة من قبل فرعـون وقومه أكّد بأنه لن يخشى أحدا ، لأنّه يستعيذ بالله منهم.

(**وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ**)

وتكشف هــذه الآية الكريمة عن سياسة الطغــاة في مواجهة الرســالة ، وعمـوم الأفكـار المخالفة لهم ، وهي سياسة القمع ، ذلك لأنّهم لا يملكـون قـوة المنطق حـتى يواجهونها ، فيواجهونها بمنطق القوة.

ولعـلّ في الآية تحـذير مبطّن من قبل موسى ، حيث أنـذرهم بأنّه سـوف يسـتعين بالله في مـواجهتهم ، وهل تصل أيديهم له لو نصره الله؟ بالطبع كلّا ..

والـرجم حسـبما يظهر لي يسـتبطن معـنى اغتيـال شخصية الرسول بالاشـاعات الباطلة ، ثم اغتيـال شخصه بطريقة يساهم كل الناس في قتله فيضيع دمه بينهم حتى لا يترك مجالا لوليّه بالثأر.

وهكذا تجمع بين معنين أشار إليهما المفسّرون لكلمة الرجم : الـرجم بالحجـارة ، والـرجم بالشـتم ، والواقع أنّ الرجم الأول هو نتيجة الرجم الثاني.

[21] ثم إنّه عليه السّـلام بيّن لهم خطأ منطق القـوة في مواجهة المنطق الحق ، وأنّ المنطق الموضــوعي هو قبول الرسالة والايمان بها ، أو اعتزال صاحبها وتركه

---

(1) النازعات / 24

والناس حتى يحكم الزمن بصدقه أو كذبه.

(**وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**)

[22] ولكنهم رفضوا إلّا منطق الجريمة.

(**فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ**)

فالذنب بالنسبة إليهم ليس عرضا يقعـون فيه بسـبب الغفلة أو النسيان ، وإنّما هو أسـاس تقـوم عليه حيـاتهم ، فهم مرتكزون في الجريمة.

وهذه الآيات وكثير من الآيات القرآنية التي تحدّثنا عن معانـاة الأنبيـاء مع أقـوامهم ، تؤكّد ثلاث مراحل تمـرّ كـلّ رســـالة بها ، المرحلة الأولى هي بعث النـــبي واختلاطه بالناس وسعيه لهدايتهم ، والمرحلة الثانية هي تكذيبهم له واعتزاله عنهم ، أمّا المرحلة الثالثة فهي حلــول العــذاب عليهم من قبل الله مباشــرة ، أو على أيــدي المؤمــنين بقيــادة الرســول أو من يمثّله في المجتمع ، وإنّما ينبغي إعتزال المجتمع الكافر لكي لا يشمل العـذاب المؤمـنين ، أو للاعداد للصراع ضد الكافرين.

[23] وقد أمر ربّنا موسى (ع) والـــذين آمنـــوا معه بالانفصال عن فرعون وقومه تمهيدا لحلول العذاب عليهم ، وأكّد ربّنا على أن يكون الاعتزال في ظروف سرية حتى تتم العملية بنجاح ، فكان الليل أكثر مناسبة للحركة.

(**فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ**)

من قبل فرعـــون وجنـــده ، ذلك أنّهم يرفضـــون أي حركة تحررية في المجتمع.

ولعل الحكمة من إضـافة كلمة «ليلا» لجملة «أسـر» التي هي تكفي دلالة على الحركة بالليل ، لتوضيح أنّ كـلّ السفر ينبغي أن يكون بالليل.

[24] وحيث انفلق البحر لموسى وبـــني إســـرائيل ، وعـبروا من خلاله للطـرف الآخر من اليابسة ، أمـره الله أن يتركه على حاله منشـــــطرا ، لكي يتبعهم الظلمة من خلاله فاذا توسّطوا البحر جميعهم أغرقهم.

(**وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ**)

وقد ذكـروا لكلمة الرهو معنـيين : الواسع والسـاكن (الخافض والـوادع) ومعـنى ذلك أن يـترك الطريق كما هو واسـعا وادعا ليغـري فرعـون بالسـير فيه تمهيـدا لهلاكه وقومه.

[25 ـ 27] واسـتجاب موسى لأمر الله فجمع بـني إسرائيل وأخبرهم بـالأمر ، فتحرّكـوا ليلا ، وعند ما وصـلوا الماء ضربه موسى (ع) بعصاه «**فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**» وسار بنوا إسـرائيل بأسـباطهم الاثـنى عشر على الفـــروق ، وقد تبعهم فرعـــون وجنـــده ، فلمّا توسّطوا البحر التقى الماء بـأمر الله فـأغرقوا بـأجمعهم ، وخلّفوا وراءهم كـلّ ما جمعـوه من حطـام الـدنيا الزائلة ، فخسروا بفشلهم أمام الفتنة الكبرى نعيم الـدارين وهكـذا ذهب آل فرعـون وخلّفـوا وراءهم حضـارتهم المادية الـتي أطغتهم عن القيم الالهية. لقد اجتهدوا لاستصلاح الأراضي وإنشاء بساتين على جانبي النيل ، تجري فيها عيون المـاء (من قنـوات متصـلة بالنيـل) ووراء جنـات الأشـجار كـانت الأراضي الخصـبة الـتي تـزرع فيها أنـواع الحبـوب ، وقد أعطتهم هذه الثروة الزراعية أموالا طائلة بنـوا بها بيـوتهم المرفهة المأثثة بكل وسـائل الراحة في ذلك اليـوم ، وقد طار صيتهم في الآفاق ، ونالوا مقاما كريما.

وقد بلغت حضـــــارتهم مســـــتوى تجـــــاوزت مرحلة الصـعوبات ، وبلغت مرحلة التفكّه والتلـذّذ فنقلـوا جميعا إلى النيل كعبة آمـــالهم ، ومعبد غـــرورهم وكبريـــائهم ، وأهلكوا ثمة دون أن يمسّ حضارتهم سوء.

(**كَمْ تَرَكُــوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُــونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقــامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ**)

فأصـبحوا عـبرة لغـيرهم عـبر الأجيـال ، بينما ينبغي للإنسان أن يعتبر بغيره لا أن يكون نفسه عبرة للآخرين.

[28 ـ 29] ثم يقول ربّنا :

(**كَذلِكَ**)

أي أنّ هذه سنة تجري في الحياة على كلّ من يــترك القيم ، ويرفض هدى الله ، وما هـذه النهاية المريعة الـتي صار إليها فرعون وجنده وملـؤه إلّا صـورة لعاقبة كـلّ أمة ترفض قيادة الحق ، وتسلم زمامها لقيادة الطغاة.

(**وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ**)

وهـؤلاء بـدورهم ممتحنـون بهـذه الأشـياء فلا بد أن يتجـاوزوا الفتنة بنجـاح ، وإلّا فلن يكـون مصـيرهم أحسن من سابقيهم ، الـذين دمّـرهم اللـه. ولعل الآية تشـير إلى وراثة بــني إســرائيل لأرض مصر بعد هلاك آل فرعــون ، وتدل على ذلك آيات أخرى.

(**فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ**)

قد يصل الأمر بالإنسان ـ وبالذات الحـاكم ـ أن يعتقد بـــأنّ الحيـــاة متوقفة عليه ، وأنّه مركز الكـــون ، ولكنّ الحقيقة ليست كــــذلك ، فهو لو تغيّر من موقعه أو انتهى أجله لا يطرأ أي تغيّر على الطبيعة سـوى ذهابه ، الـذي لا يغير شيئا من سننها أو واقعها.

إنّ الكثير من الناس يريدون الطبيعة بقوانينها وسننها تتبع أهواءهم ، وتتكيّف

مع مصالحهم وطريقة تفكيرهم ، بينما العكس هو الصحيح ، لأنّها تتحرّك باتجاه الحق.

بلى. إنّ الحياة قد تتأثّر لموت المؤمن الوليّ لله ، كما بكت على يحيى بن زكريا والحسين بن علي (عليهما السلام) ، عن الامام الصادق (ع) قال : «بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي عليهما السلام أربعين صباحا ، قلت : فما بكاؤها؟ قال : كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء» [1]. وقال عليه السّلام : «بكت السماء على الحسين (ع) أربعين يوما دما» [2].

أما الطغاة فانّهم لا يتأثّر المجتمع بذهابهم حزنا ولا بكاء ، بل بالعكس يفرح الناس بموتهم لأنّهم مصدر بليتهم وتخلّفهم ، كما تبتهج الطبيعة ، لأنّها لا تنسجم مع من يخالف الحق .. ثم إنّهم عند ما يحلّ بهم العذاب لا يعطون فرصة أخرى أبدا.

(**وَما كانُوا مُنْظَرِينَ**).

(1 ، 2) نور الثقلين ج 4 ص 628

وَلَقَـدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْـرائِيلَ مِنَ الْعَـذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنـاهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعـالَمِينَ (32) وَآتَيْنـاهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (33) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَـرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْـرٌ أَمْ قَـوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنـاهُمْ إِنَّهُمْ كـانُوا مُجْـرِمِينَ (37) وَما خَلَقْنَا السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38) ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِـالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُـونَ (39) إِنَّ يَـوْمَ الْفَصْـلِ مِيقـاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى

---

(35) (بِمُنْشَرِينَ) : بمبعوثين.

(37) (قَوْمُ تُبَّعٍ) : كان تبّع ملكا مؤمنا وقومه كافرين ، وكـانوا كثـيري الأموال والقوى.

عَنْ مَـوْلًى شَـيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَـرُونَ (41) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَـجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُـونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُـذُوهُ فَـاعْتِلُوهُ إِلى سَـواءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْكَـرِيمُ (49) إِنَّ هـذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقـامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (52) يَلْبَسُـونَ مِنْ سُـندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (53) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ

---

(43) (**شَجَرَةَ الزَّقُّومِ**) : هي شجرة تعطي ثمارا بشعة مرّة.

(45) (**كَالْمُهْلِ**) : النحاس المذاب أو ما أشبهه.

(47) (**فَـاعْتِلُوهُ**) : عتلة إذا دفعه بشـدة وعنف ، أي فـادفعوه من أطراف النّار.

(53) (**سُندُسٍ**) : هو الحرير الرقيق.

(**إِسْـتَبْرَقٍ**) : هو الحرير الخشن ، ولكل فضل ، فـالأوّل ألين مسـاو الثاني أكثر جمالا في العين.

فاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَـذابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْـلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّما يَسَّـرْناهُ بِلِسـانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59))

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

هدى من الآيات :

ينظر المؤمن إلى الحيـاة نظـرة عقلانية تنعكس على سـلوكه الشخصي الاجتمـاعي وعلى تعامله مع الطبيعة ، فهو يؤمن بالعدالة الالهية التي تحكم الخلق جميعا ، ويرى أنّ لكـلّ شـيء هـدفا خلق من أجله ، فللسـماء هـدف ، وللأرض هدف ، ولكلّ مخلوق هدف.

وانّ سـنة الجـزاء الـتي تتجلى في جميع أبعـاد حيـاة البشر مظهر لتلك الهدفيّة ، التي يشير إليها ربّنا الكـريم ، ولكن في الجانب الاجتماعي منه ، مما يثير السـؤال : لما ذا لا يـتركّز الحـديث عن الفـرد؟ والجـواب : لأنّ تفاعل الأفراد مع بعضهم ، وبالتالي انصهارهم في بوتقة المجتمع ، لا يدع المفسّر أو الموجّه يتحرّك عن الفـرد الواحد ، في تحليله أو توجيهاته ، فالمجرم لا يكون وحـده مجرما ، إنّما يمـارس الجريمة ضـمن مجمـوع متجـانس وبنية اجتماعية معينة ، ولو حـدث أن اقـترف الجـرم شـخص واحد فانّك تجد آثـار المسـاهمة الاجتماعية واضـحة فيه ، بالسـكوت والتشجيع تارة ، وبالتعاون تارة

أخرى ، ولذلك فـانّ الـذي يتحمّل الجـزاء ليس الفـرد في غالب الأحيان وإنّما المجتمع بأكمله.

وعند ما يبيّن القرآن حكمة الجزاء يضرب لنا مثلا من واقع المجتمعات الغابرة التي جـزيت بأفعالها على الـرغم من قوتها وكيـدها ، وهـذا الجـانب من التـاريخ البشـري يعكس هدفية الحياة وعقلانيتها.

إنّ الذي يعمل شيئا لا يستطيع الهـروب من الجـزاء ، فهو إن لم يلحقه عـاجلا فسـوف يلقـاه آجلا ، وفي دعـاء كميل نقرأ تعبيرا عن هذه الحقيقة عند قـول الامـام علي (ع): «**ولا يمكن الفرار من حكومتك**» [1].

ومن فكـرة الجـزاء نهتـدي إلى أنّ الـدنيا دار ابتلاء ، وأنّه لا بد من دار أخـــرى للجـــزاء ، ذلك أنّنا نجد البعض يموتون دون أن يلقوا جزاءهم في هذه الحيـاة ، أو يلقونه بأقـلّ ممّا يسـتحقّون .. فهل كـان جـزاء هتلر الـذي جـرّ العـالم إلى الحـرب الـتي أدّت إلى مقتل أكـثر من (60) مليون إنسان أن يمـوت انتحـارا؟ وهل جـزاء شـمر الـذي أدخل الحزن على قلـوب الملايين عـبر التـاريخ بقتل سـيّد شباب أهل الجنة أن يقتل قصاصا وحسب؟! كلا .. إنّ لهم جـــزاء أكـــبر من ذلك في دار أخـــرى يلقى فيها الجميع جزاءهم الواقعي.

إنّ منهج طـرح القـرآن للموضـوعات المختلفة منهج حكيم للغاية ، فهو من جهة يحـدّثنا عن جـزاء المجتمعـات السـابقة ، ومن جهة يحـدّثنا عن هدفية الخلق ، ثم يـذكّرنا بيوم القيامة ، وهذه الموضوعات الثلاثة حينما تتفاعل عبر النظرة الواحدة للحياة تنسجم مع بعضها ، وتصـير صـورة واحدة متكاملة ، فربّنا عاقب الأمم الغابرة مّما يهدينا إلى أنّه خلق الخلق لغاية لو زاغوا عنها عوقبوا بشدّة ، ويهدينا بالتالي إلى

(1) مفاتيح الجنان / دعاء كميل

أنّه سوف يجازي الأفراد في الآخرة الجزاء الأوفى.
ولكن لمـاذا لا يضـرب لنا القـرآن أمثـالا من حيـاة الأفراد ، كفرعون الذي أغرق في النهر ، أو قـارون الـذي خسف به وبداره الأرض ، أو إذا تكلّم عنهم بمفردهم كـان الحديث إشارة وحسب؟
والجواب : إنّ النظر إلى جزاء أمّة سيكون أجدى من النظر إلى جـزاء فـرد واحد ، لأن جـزاء الأفـراد قد يفسر بالصدفة ، ولكن جـزاء الأمم وبتلك الصـور المتميّـزة دليل على حكمة الباري ، وأنّه المدبّر للخليقة.

بينات من الآيات :

[30 ـ 31] بنو إسـرائيل مثل حي لجـزاء الأمم على أفعالهم خيرا أو شـرا ، والقـرآن ذكر هـذا المثل لأنّ حيـاة بني إسـرائيل تشـبه إلى حد بعيد مسـيرة الأمة الاسـلامية من حيث أنّهم كـانوا أمة مؤمنة بنو حضـارة رسـالية ثم انحرفـوا كما هو حـال المسـلمين ، وإذا فضّـلهم الله على علم على العـالمين فـانّ هـذه النعمة ليست من قبيل الـرزق الـذي يهبه الله بلا سـعي ، وإنّما هي من قبيل الكسب ، وبنو إسرائيل بلغوا هذه الدرجة السامية بعملهم لا بعنصرهم ، وهذا بـدوره يؤكّد عقلانية العـالم ، والحكمة الالهية التي يقوم عليها ، وبالتـالي يؤكد وجـود الجـزاء في الآخرة.
(**وَلَقَـدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْـرائِيلَ مِنَ الْعَـذابِ الْمُهِينِ* مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ**)
وأي اهانة أعظم من أن يسـلب الإنسـان حريته ، ويصير عبدا للطغاة ، يسحقونه لتعلو مكـانتهم ، ويسـلبونه لكي يبذّروا ويسرفوا؟!
إنّ فرعـون هو الآخر لقي جـزاءه العـادل في الـدنيا لضلاله وانحرافه ، فهو من جهة

كانت علاقته مع الناس العلـوّ والاسـتكبار ، وكـانت علاقته مع الطبيعة علاقة التبذير والإسراف.

وكلمة «عاليا» لا تـدل هنا على العلو في الإسـراف ، وإنّما العلو على الناس ، وربّنا عزّ وجـلّ يـبيّن ذلك في آية أخرى حين يقول : «**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِـرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً**» [1].

أي الـذين لا تكـون علاقتهم مع الآخـرين الاسـتكبار والتعالي ، ولا مع الطبيعة الفساد ، وهكـذا يفسّـر القـرآن بعضه بعضا.

[32] أمّا النعم الالهية الأخرى على بني إسـرائيل بعد النجـاة من حكم الطـاغوت ، فهي تفضـيلهم على سـائر الأمم ، واختيـار الله لهم حملة لرسـالته ، لا لشـيء فيهم سـوى أنّهم تجـاوزوا الفتنة الكـبرى في الحيـاة ، وأثبتـوا جدارتهم ـ بالسعي ـ لهذه المنزلة.

(**وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ**)

بجدارتهم ، وتميّزهم بايمانهم وصالح أعمالهم.

(**عَلَى الْعالَمِينَ**)

إذن فعلينا وعلى الأمم التي تنشد التقدم أن لا تسعى للاسـتعلاء في الـدنيا ، فلكي نحقّق هـذه الغاية علينا أن نوفّر عوامل الحضارة في أنفسـنا ، كالتزكية ، والتعـاون ، والتعوّد على الخشـونة ، والمثـابرة في العمل ، والصـبر ، والاسـتقامة على الحق ، وعنـدها سـوف يوفّقنا الله ، ويفضّلنا على غيرنا ، وسنتقدم ، ومعنى العالمين

---

(1) القصص / 83

ـ حسب المفسرين ــ الناس المعاصرين لهم ، إذ أنّ الله فضّل المسلمين على غيرهم حين امتثلوا أحكام الله فقال : «**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**» [1]

[33] وتفضيل الله لأمة من الناس على غيرهم لا يعني أنّهم يبقون الأفضل للأبد ، أو أنّهم يبعدون عن دائرة الامتحان والابتلاء ، كلّا .. فربّنا أعطى بني إسرائيل آيات القدرة والعلم والفضيلة ، ورزقهم النصر على عدوّهم ، وواتر عليهم أنبياءه ورسله ، ولكن هذه النعمة كانت تحمل في طيّاتها ألوانا من الامتحان.

(**وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ**)

الابتلاء سنّة ثابتة في الحياة لا يغيّرها شيء ، بلى. قد ينتقل الإنسان الفرد أو المجتمع من حال العسر إلى حال اليسر ، ولكنّه يبقى معرّضا للامتحان في الحالين سواء ، فاذا كان القهر والعذاب الذي حلّ ببني إسرائيل بلاء بالسيئة ، فانّ الاغراءات التي تنطوي عليها سائر النعم التي أعطيت لهم بعد النصر كانت بلاء بالحسنة ، وقد قال ربّنا سبحانه :

«**وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**» [2].

وهذا النوع من الابتلاء قد يكون أعظم خطورة على الإنسان من الأوّل ، وقد رأينا في تاريخ البشرية كيف أنّ الكثير من الناس يصمدون أمام الإرهاب والتعذيب ، ويتحدّون الطاغوت بصلابة واستقامة ، ولكنّهم ينهارون أمام الإغراء ، ولذلك يجب على الإنسان أن يحذر النعم كحذره من النقم وأشدّ من ذلك ، ولن يفلح في حياته إلّا إذا جعل حقيقة البلاء أمامه في كلّ حال ، وقد قال أمير المؤمنين

(1) آل عمران / 110
(2) الأعراف / 168

عليه السّـلام : «اتقـوا سـكرات النعمة ، واحـذروا بوائق النقمة» [1] ، وقـال : «أيّها النـاس لـيركم الله من النعمة وجلين ، كما يراكم من النقمة فرقين» [2].

[34 ـ 35] وبعد هذه الأفكار التمهيدية ينتهي السـياق إلى البصـيرة الأم في الـدرس ليؤكد العدالة والجـزاء ، ويسـتنكر مـزاعم لكفّـار والمشـركين بـأنّ الـدنيا هي آخر المطاف.

(**إِنَّ هـؤُلاءِ لَيَقُولُـونَ* إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ**)

لأنهم لا يدرسـون التـاريخ ، ولا ينظـرون إلى الحيـاة نظـرة موضـوعية ، وإلّا لاهتـدوا الى حكمتها ، وأنّها قائمة على أسـاس العـدل ، ممّا يؤكّد وجـود الـدار الآخـرة ، والموتة الأولى هي الوفـاة الـتي زعمـوا أنّها النهاية فلا نشـأة بعـدها ولا حيـاة ، كما قـالوا : «**إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**» [3].

[36] وإذ أنكـروا البعث والنشـور حـاولوا تـبرير هـذا الاعتقاد بطلب ، قالوا :

(**فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

ولو أنّ الله يحيي آباءهم ما كان ذلك يجعلهم يؤمنـون ، لأنّهم يتشبّثون بهذه الفكرة تـبريرا لكفـرهم ، ولو بطلت نظريّا أو عمليّا لبحثـوا لهم عن تـبرير آخر للإصـرار على الضلالة.

[37] لـذلك فـانّ القـرآن لا يجـازيهم ، وهل يغيّر ربّنا سنّته في الكون للاجابة على

(1) نهج البلاغة / خطبة 151
(2) نهج البلاغة / حكمة 358
(3) الأنعام / 29

تساؤل تافه للمشركين؟ كلّا .. وإنّما يوجّه أنظارهم إلى الآيات الكفيلة بهداية من يريد إلى الايمان بالبعث ، وذلك باثارتهم نحو التفكير في سنّة الجزاء الحاكمة في الكون من خلال دراسة شواهدها في التاريخ ، فهؤلاء قوم تبّع ومن يسبقهم من الأقوام لقوا جزاءهم حينما اختاروا سبيل الضلال والجريمة.

(**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ**)

وتبّع أحد ملوك اليمن الصالحين ، اقتفى آثار أحد الأولياء ، وتبعه في مسيرته ، وفي الأخبار نهي عن لعنه ، فعن النبي (ص) أنّه قال : «لا تسبّوا تبّعا فانّه كان قد أسلم» [1] وإنّما الذين أجرموا قومه فأخذهم الله بالعذاب ، وحيث يندرج هذا الجزاء في سنّة الهيّة كونيّة فانّ العذاب قد ينال كلّ بشر إذا انتحل الاجرام.

[38 ـ 39] وسنّة الجزاء ليست أمرا شاذّا عن طبيعة الحياة ، إنّما هي نابعة من صميم الخلق ، ذلك أنّ الله خلق السموات والأرض لغاية سامية ، الأمر الذي يقتضي الجزاء ويحتمه.

(**وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ**)

إنّما خلق الله كلّ شيء لهدف محدد ، مهما كان ذلك الشيء صغيرا وتافها في نظر الإنسان ، وقد تقرّر في علم الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) أنّ كلّ شيء في الإنسان يؤدّي دورا معيّنا ، ولا يكون الإنسان كاملا إلّا به ، حتى الشعرة الواحدة ، بل حتى جزء الخلية المتناهية في الصغر ، فهل يعقل إذن أن يكون ربّنا قد خلق الإنسان بأكمله عبثا؟! كلّا .. إنّ له هدفا في الحياة ، وهو مسئول عن كلّ شيء

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 629

أمام ربّه ، ولكن هذه الحقيقة الواضحة تبقى غامضة لـدى الجاهلين والضالين.

(**ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِ**)

وسيلة وغاية.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

وعـدم علمهم ليس لأنهم لا يـرون الآيـات الهادية إلى هـــذه الحقيقة ، وإنّما لأنّ هـــذه الآيـــات لا تتحـــول في ضـمائرهم وأذهـانهم إلى بصـيرة ، ذلك أنّ نظـرتهم إلى الحياة نظرة قشـرية مجـرّدة ، وإنّما الـذين ينظـرون إليها ببصيرة الايمان يهتدون إلى لبابها الحق.

[40 ـ 42] وحيث ميّز الله الإنسـان عن سـائر خلقه بالعقل ، وكرّمه بالحرّية ، فهو مســئول أمامه عن العمل وفق الغاية الـتي خلق من أجلها ، فـان تحمّل مسـئوليته نعمه في الجنة ، وإن نكص عنها عذّبه في النار.

ومع أنّه تعـالى جعل سـنّة الجـزاء جارية في الحيـاة الـــدنيا ، إلّا أنّها أكـــثر تجليّا في الآخـــرة ، حيث تنصب الموازين ، ويفصل بين الصالحين والأشرار.

(**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**)

وهـذا اليـوم ضـرورة حتمية تقتضـيها عدالة الله ، وإذ يسـمّيه ربنا «يـوم الفصـل» فلأنّه اليـوم الـذي يحكم فيه الحق بعيدا عن التبريرات أو التأجيل ، فهو يوم حاسم في حياة كلّ إنسان ، ويعتبر فيصلا يتقرّر فيه مصيره الأبدي.

وإذا أعطى ربّنا الحرية الكاملة للإنســان في اختيــار الحق دون أن تستطيع أيّة

قدرة سواه تعالى إكراه باتجاه معاكس لما يريد ، كان من أبـرز معـاني الفصل أن يتحمّل المسـؤولية شخصـيا حـتى يكون يومئذ مفصولا عن سائر الناس.

(**يَـوْمَ لا يُغْنِي مَـوْلًى عَنْ مَـوْلًى شَـيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**)

بلى. قد يضغط من حول الإنسان عليه باتجـاه معيّن ، ولكنّ الموقف الحاسم يبقى رهن إرادته وحـــــده ، ولكي يتجنّب التأثر بالضـغوط السـلبية صـوب الباطل يجب عليه أن يلقي نظـــــــرة إلى الآخـــــــرة ، حيث يخذله الجميع وينفصـلون عن نصـرته ، بل لا يجـدون الى ذلك سـبيلا ، ويقف هو وحده بعمله.

ثم إنّ السياق القرآني ينعطف بعد هذا التخويف ليثير فينا الأمل والرجـاء ، حينما يـذكّرنا برحمة الله إلى جـانب عزّته ، فبعزّته جعل سنة الجزاء ، وبرحمته جعل الشفاعة والمغفـرة لهـذا الإنسـان الضـعيف ، فقد اسـتثنى من بين سـائر النـاس الـذين تتقطّع بهم الوشـائج ، ويرتهنـون بأعمالهم السيئة ، وأولئك الذين تشملهم رحمته عـزّ وجل فقال :

(**إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ**)

فهداه إلى الايمان ، ووفّقه للعمل الصالح في الـدنيا ، وغفر له ذنوبه ، وشفّع فيه أولياءه في الآخرة ، فانّه تغني عنه شفاعة الصالحين ، وينصره الله على العقبات.

(**إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

قـال الشـحّام : قـال لي أبو عبد الله (ع) ونحن في الطريق في ليلة الجمعة : اقـــرأ فانّها ليلة الجمعة قرآنا ، فقرأت : «(**إِنَّ يَـوْمَ الْفَصْـلِ**) (الى قولـه) (**إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ**)» فقال أبو عبد الله (ع) : «نحن والله الذين اسـتثنى الله فكنّا نغني عنهم» [1].

---

(1) نور الثقلين / ج 4 ص 629

[43 ـ 46] وكنتيجة لحكم الله في يوم الفصل يحـدّثنا القـرآن عن صـورتين متناقضـتين ، وهما صـورة أصـحاب النـار الـذين يعـانون ألـوان العـذاب ، وصـورة أهل الجنة الذين يتقلّبون في نعيمها.

أمّا عن النار فانّ من أشدّ أنـواع العـذاب فيها شـجرة تنبت في أصـلها ، ويمتـدّ منها غصن لكـلّ شـخص فيها ، اسمها الزقوم ، وهي تجسيد لذنوب أهلها وآثامهم. [1]

(**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ* طَعامُ الْأَثِيمِ**)

وحيث يشـعر أهل الجحيم بشـدة الجـوع يبحثـون عن الأكل ، فيجدونه في هـذه الشـجرة ، ولا يجـدون بـدّا من التقامه ، وبمجـرّد أن يصل إلى جـوفهم يصـير كالرصـاص والصفر المذاب تنشوي منه وجوههم حتى تسـقط أشـفار عيونهم ، وتتقطّع منه مصرانهم حـتى يتقيّحـون دما ، وربّنا يشـبّه لنا الزقّـوم بالمهل لتقـريب المعـنى إلى أذهاننا المحدودة ، وإلّا فهي أشدّ وأعظم من ذلك.

(**كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ* كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**)

والحميم هو المـاء الحـار جـدّا ، وحيث يصل المعـدن كالرصـاص أو النحـاس إلى حد من الغليـان يصـير فيه كالماء فانّ حرارته لا تطاق.

[47] ولون آخر من العذاب يتجرّعه المجرمون حينما يأمر الله زبانية النار بسحبهم إلى وسطها وإهانتهم.

(**خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ**)

والاعتال هو السحب بغلظة وإيذاء ، وإن كان المعـني من ظاهر الآية أبو جهل إذ

(1) راجع تفسيرنا للآية (65) الصافات

جاءت الصيغة بالمفرد ، إلّا أنّها تشمل كلّ مجرم ، وصيغة المفرد بيان للخذلان الذي يلقاه أهل النار من أقرانهم وسادتهم في الدنيا حيث لا ناصر ولا معين لهم فيها.

[48 ـ 49] وبعد سحب كلّ واحد منهم إلى سواء الجحيم ، يأمر الله ملائكة العذاب باهانته ماديّا ، بصبّ العذاب على رأسه ، وهو أكرم موضع لدى الإنسان ، ومعنويّا بالكلمات الجارحة ، وهذا جزاء الاستكبار في الدنيا على الحقّ والمؤمنين.

(**ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ**)

وحيث الدلالة في «من» تنصرف للتبعيض ، تدلّ الآية على أنّ العذاب لا يصبّ مرة واحدة ، وإنّما مرات ومرات بلا انقطاع ، مبالغة في الإيذاء ، وهل ينتهي الأمر إلى هذا الحد وحسب؟ كلّا .. إنّما يهان بالكلام أيضا فيقال له :

(**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**)

وروي في جوامع الجامع أنّ أبا جهل قال لرسول الله (ص) : ما بين جبليها أعزّ ولا أكرم منّي. [1]

وفي تفسير علي بن إبراهيم قال : أنّ ذلك ردّ على أبي جهل ، وذلك أنّ أبا جهل كان يقول : أنا العزيز الكريم وفيعير بذلك في النار. [2]

وقال بعض المفسرين : إن ذلك إهانة واستهزاء إلى جانب العذاب المادي ، وهو نظير لاكرام الله المؤمنين في الجنة بالسلام عليهم إضافة لنعيمها ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : «**وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ**» [3] ، وهذا تفسير صائب ، ولكن يبدو لي تفسير آخر للآية وهو أن الله لم يخلق الإنسان ليلاقي

(1 ، 2) نور الثقلين / ج 4 ص 630
(3) الزمر / 73

هـذا المصـير السـيء ، وإنما خلقه ليرحمه فيعيش كريما معززا ، ولكنه اختار هذا المصير ، واشـتراه بعمله السـيء ، إذ لم يستطع الاستقامة على الفطرة والصبر على الحق ، والآية جاءت تذكيرا لهذه الحقيقة.

[50] أمّا عن السبب الذي يوصل الإنسـان إلى الـذلّ بعد العـــزة ، وإلى الهـــوان بعد الكرامة ، فهو شـــكّه في الجزاء ، لأنّ الشك فيه يجعله يعيش بعيدا عن المسـؤولية والرقابة تجاه سلوكه وأعماله.

(**إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ**)

أي تشكون والشك أعـدى أعـداء الايمـان ، لأنّه ينتهي إلى الكفر والجحود ، ويعطّل طاقات الإنسـان وقدراته أن يوجّها في صناعة المستقبل الأبدي ، فهو إنّما يلتزم بالحق ، ويضـحّي من أجله بكـلّ شـيء ، عند إيمانه بـأنّ هـذه التضحيات سوف ترد عليه في الآخرة في صورة الثـواب ، فكيف يضحّي إذا شك في الجزاء؟

وقد حذّر الامام علي (ع) من خطر الشك فقـال : «لا تجعلوا علمكم جهلا ، ويقينكم شـكّا ، إذا علمتم فـاعملوا ، وإذا أيقنتم فأقـدموا» [1] ، ومشـكلة أكـثر النـاس أنّهم يعلمـون الحق ويؤمنـون به ، ولكنّه لا يتحـوّل في حيـاتهم إلى منهاج عمل ، لجبنهم وفرارهم من تحمّل المسؤولية ، فاذا بهم يشكّكون أنفسهم.

إنّ على الإنسان أن لا يشك بـأنّ هـواجس الشـيطان تحيط به من كـلّ جـانب ، بل ويسـتعد لمواجهتها ، بخـوف العاقبة السوء ، وعزيمة الايمان.

[51 ـ 53] وفي مقابل هذه الصورة يـبيّن لنا القـرآن الحكيم نعيم المتقين وكــــرامتهم عند الله ، وتختلف نعم الآخرة عن الأخرى الدنيوية. إنّها خاصة بالمتقين ، وهم

(1) نهج البلاغة / حكمة 274

الــذين يحفظــون أنفســهم عن المحرّمــات ، ويؤلمــون أنفسـهم بـترك الهـوى ، وبالصـبر على المصـائب وألـوان الأذى في الله ، وأخيرا بالاستقامة على الحق حتى الموت ، ذلك أنّ طريق الجنة محفوف بالصعاب والمكاره ، يقول الامـام علي (ع) وهو يـوبّخ الـذين يريـدون الجنة بلا ثمن : «أفبهذا تريـدون أن تجـاوروا الله في دار قدمه ، وتكونـوا أعزّ أوليائه عنده؟ هيهات! لا يخدع الله عن جنته ، ولا تنال مرضاته إلّا بطاعته» [1].

نعم. إنّ الإنسان لا يسـتطيع بلـوغ طموحاته اليومية ، بالتمنيـــات والأحلام ، فكيف يبلغ بها الجنة وهي اســـمى الطموحــات ، وأعلى الأهــداف؟! ثم إنّ الإنســان يحقّق طموحاته في الدنيا بالسعي ، بينما لا يكفي السعي وحـده لـدخول الجنة ، إنّما لا بد من العمل الصـالح الـذي يخلص صاحبه فيه نيته ، إذ لا يتقبّل الله إلّا من المتقين ، والكثـير من الناس يصلّون ويصومون ويحجّون وينفقون ولكن عبثا ، ولا يبلغون بـذلك جنـات الخلد ، لأنّها ليست خالصة لله ، وكيف ترفع الصــلاة المحاطة بالشــرك والســهو؟! وكيف يتقبّل الصـيام ريـاء وسـمعة؟! وكيف يكـون سـعي الحـاج مشــكورا وحجّه مــبرورا وهو يخضع للطــاغوت؟! «**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**» [2] وفي الأخبـار أنّ العبـادة أو الشعيرة التي يمارسها صـاحبها لغـير وجه الله تصـير يـوم القيامة حجرا تصك بها جبهته.

ونتساءل : من هو المتقي إذن؟

إنّ المتقي هو الذي يتحـوّل فعل الخـير في حياته إلى سلوك مسـتمر ، أمّا الـذي يفعل الخـير إذا حقّق مصـالحه وأهواءه ، وأمّا إذا محّص بالبلاء تركه ، فانّه ليس بمتقي .. وربّنا وعد المتقين وحدهم بالمقام الأمين عند ما قال :

(1) المصدر / خطبة 129
(2) المائدة / 27

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ**)

والأمن والسلام من أهمِّ الحاجات النفسية للبشر ، ولا يبلغ غاية الاطمئنان في الدنيا والآخرة إلّا المتقون ، ذلك انه لا يحصل إلّا بذكر الله عزّ وجل ، وباتباع منهاجه في الحياة ، فقد أسّس الله الكون على الحق والعدالة ، ومن يتبع المنهج الربّاني وحده يستطيع العيش مطمئنا وفي مقام أمين من المكاره.

(**فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ**)

تلك الأجسام النضرة الناعمة تميس في الجنان الخضرة بين العيون الرقراقة ، وعليها ثياب الزينة من سندس (حرير ناعم لطيف) ومن إستبرق (حرير ضخم يتلألأ) وتراهم يتقابلون في مجالس الأنس لا يشوب صفاء قلوبهم حقد أو حسد أو غل أو كبر ، فهم إخوان متحابّون كما كانوا في الدنيا ترفرف على رؤوسهم رحمات الله وبركاته ، ونعم أجر العاملين.

[54] ويستمر القرآن في بيان جزاء المتقين فيقول :

(**كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**)

وكذلك تكتمل نعم الجنة بالزواج من نساء جميلات يتجلّى جمالهن في العيون الواسعة الحوراء ، ولعل صيغة الماضي في الزواج تدلّ على أنّ الله زوّج الحور العين لأوليائه بعلمه في الدنيا ، بما قاموا به من عمل ، بلى. لكلّ زواج مهر ، ومهرزيجات الجنة الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا.

[55] ومن نعيم الجنة أن يجد أهلها ما يطلبون دون أدنى تعب.

(**يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ**)

بعكس الــــدنيا تماما حيث لا بد للإنســـــان فيها من السعي لكي يصل إلى رغباته ، والتنازل عن شـيء للظفر بشيء آخر ، وصدق أمير المؤمـنين (ع) حيث قـال : «أيها الناس! إنّما أنتم في هذه الدنيا غـرض تنتضل فيه المنايا ، مع كل جرعة شرق ، وفي كلّ أكلة غصـص! لا تنـالوا منها نعمة إلّا بفراق أخرى ، ولا يعمّر معمّر منكم يوما إلّا بهـدم آخر من أجله ، ولا تجــدّد له زيــادة في أكله إلّا بنفــاد ما قبلها من رزقه ، ولا يحيا له أثر إلّا مات له أثر ، ولا يتجـدّد له جديد إلّا بعد أن يخلق له جديد ، ولا تقـــــوم له نابتة إلّا وتسقط منه محصودة» [1]. أمّا في الجنة فالمتقون آمنون من كلّ هذه العيوب والنواقص.

[56] (**لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى**)

الــتي ذاقوها في الــدنيا ، وهــذه الآية اشــارة لنعمة الخلـــود ، وهي من أعظم النعم والغايـــات الـــتي يتمنّاها البشر.

وإلى جانب هذه المنّة يذكّرنا ربنا بنعمة عظيمة أخرى ، وهي الوقاية من النار ، والـتي يعـدّها القـرآن في موضع آخر فـوزا عظيما ، حيث يقـول عـزّ وجل : «**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ**» [2].

(**وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ**)

تلتقي كلمة «المتقين» مع تعبير «وقـاهم» في نقطة هامة ، وهي أنّ التقـــوى الـــتي كـــانت تحجز هـــؤلاء عن ارتكاب المعصية في الحياة الدنيا ، هي الـتي تكـون واقية لهم من العذاب في الآخرة.

---

(1) نهج البلاغة / خ 145

(2) آل عمران / 185

[57] ومع ذلك يؤكّد ربنا بـأن هـذا الجـزاء ليس نتيجة الـتزام الإنسـان برسـالة الله وتعاليمه ، لأنّ ذلك واجب طـبيعي عليه فطـرة وعقلا ، فهو خالقه ورازقه ومالكه الـذي يهب له الحيـاة لحظة بلحظة ، ويـأتي هـذا التأكيد والتذكير ليعين المتقين على مواجهة الغرور والعجب.

(**فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

وبدون هذا الفضل الإلهي لا يفوز بشر أبـدا ، ولا ينجو من العـذاب ، وفي الحـديث القدسي قـال عـزّ من قائل : «فلا يتّكل العاملون على أعمـالهم الـتي يعملونها ، فـانّهم لو اجتهدوا وأتعبـوا أنفسـهم وأعمـارهم في عبـادتي كـانوا مقصّرين غير بالغين ما يطلبون من كرامـتي ، والنعيم في جناتي ، ورفيع درجاتي في جواري ، ولكن رحمتي فليبغـوا ، والفضل منّي فليرجوا ، وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا ، فـانّ رحمـتي عند ذلك تـدركهم ، وهي تبلّغهم رضـواني ومغفـرتي ، وألبسـهم عفـوي ما زكى منكم من أحد أبـدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم» [1] ، وحـتى الأنبيـاء والأوليـاء إنّما يـدخلون الجنة بفضل الله ، وحتّى أعمـالهم الصـالحة ، إنّما هي فضل من الله عليهم. أو لم يقل ربّنا مخاطبا سـيد البشر محمد بن عبدالله (ص) : «**إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً**» [2].

[58] وقبل أن يختم ربنا سـورة الـدخان يصف كتابه الكريم ، وهو المنهاج الذي يبلغ بالإنسان درجة التقـوى ثم الجنة ، وبالتالي هو فضل الله الـذي ينجي به من النـار إذا ما استذكر به واتبع آياته الميسّرة.

(**فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

---

(1) بح / ج 72 ـ ص 322

(2) الإسراء / 87

هكــذا يلخّص ربنا هــدف كتابه في التــذكرة ، لأنّه بما فيه من مواعظ ومعارف إنّما جـاء ليـذّكر الإنسـان بعهـده مع ربّـه. أوليس أعـدى أعـداء البشر في الحيـاة الغفلـة؟ بلى. وما وظيفة الأنبياء والرسل ـ عليهم السـلام ــ سـوى تبليغ هذه التذكرة وبيانها للنـاس .. ولو لا أنّ الله سـبحانه قد يسّــر القــرآن لم يكن البشر يعقلــون حرفا منه ، كيف وهو يــذكّرنا بــالغيب المحجــوب علمه عنّا ، بتلك الســنن الثابتة لحقائق الخلق ، بصفات الرب ، بأشراط الســاعة ، بما في الحيـاة الآخـرة الـتي قد تبعد عنّا ملايين السـنين ، وفي الحديث المأثور عن الامـام الصـادق (عليه السـلام): «**لــــولا تيســــيره لما قــــدر أحد من خلقه أن يتلفّظ بحرف من القـرآن ، وأنّى لهم ذلك وهو كلام من لم يزل ولا يزال**» [1].

وقد نستوحي من هذه الآية بصيرتين :

1 ـ إنّ الله جعل القـرآن عربيّا بلغة الرسـول وقومه تيسيرا لفهمه ، وبالتالي التذكّر به. أو رأيت لو كان القرآن بلغة أخرى هل كان يفهمه العـرب بيسر وسـهولة؟ ثم هل كـانوا يتعظـون بـه؟ كلّا .. ومن هنا فـانّ المنهـاج الأفضل لتيسير فهم القرآن للمسلمين غير العــرب ليس ترجمته ، وإنّما تعليمهم لغة القرآن نفسه.

2 ـ إنّ للرسول دورا هامّا في بيان القرآن ، وتقــريب الأذهـان الى معانيه الـتي لا تتيسّــر إلّا بكلامه (ص) ، ومن هنا فانّ أي منهج يبتعد عن السنة (أحاديث الرسول وأئمة الهدى) في فهمه وتدبّره لمعاني الوحي سـوف ينتهي الى تفسيرات وتأويلات خاطئة أو قاصـرة. أو لم يضـلّ الكثـير ممّن حاولوا فهم القرآن من خلال الفلسفات البشرية في متاهات خطيرة.

[59] وكالكثير من السور يختتم الباري عزّ وجل هـذه السورة ، بإنذار مبطّن

---

(1) تفســير نمونه / ج 21 ص 219 نقلا عن تفســير روح البيــان / ج 8 ص 433

لأولئك الـذين لا يسـتجيبون لدعوته ، ولا يتـذكّرون بآياته ، بأنّ تأخير الجـزاء ينسـجم وطبيعة الحيـاة الـدنيا حيث إنّها دار امتحـــان وبلاء ، فهو لا يعـــني بـــأنّ الله يهملهم ، بل العذاب آت ولا بدّ من ارتقابه.

(**فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ**)

ارتقب نصر الله ، ولــــيرتقبوا خذلانه ، ارتقب بعملك الصالح جزاء الله الحسن ، ولـيرتقبوا بسـيئاتهم الانتقـام ، بلى. إنّ الزمن في مصلحة الحق وأهله ، ولا يمرّ ردح منه إلّا ويقرّب أهل الباطل من العذاب.

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبدالله الصادق (ع) قال : «**من قرأ سـورة الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النـار أبـدا ، ولا يسـمع زفير جهنّم ولا شهيقها ، وهو مع محمّد ـ صـلّى الله عليه وآله وسلّم ـ**»

موسوعة بحار الأنوار / ج 92 / ص 301

الإطار العام

طف بفكرك آفاق السـماوات ، وأقطـار الأرض. مـاذا تـرى؟ ألا تـرى آيـات الله تتجلى في كل شـيء؟ إذا لمـاذا يكفر هؤلاء الناس؟! تجيب سورة الجاثية التي نستلهم من إطارها أنها تعـالج حالة الإفك عند البشر ــ تجيب عن ذلك ببســاطة ـــ : إن الآيــات ليست لكــلّ النــاس ، انما هي للمؤمنين ، ولقوم يوقنون ، ولقوم يعقلون (5).

وإذا كفروا بهذه الآيات فبماذا عساهم يؤمنون؟! انهم لا يؤمنــون بشــيء فويل لهم ، ولكل أفــاك أثيم ، يســمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصرّ مستكبرا (8).

وقد تنفذ آية في أفئدتهم ولكنهم لا يسعهم الاســتكبار دونها ، هناك يتخذونها هزوا إيغالا في الجحود.

كيف نعــالج هــؤلاء؟ لا بشــيء يمكن شــفاؤهم ، بل بشّرهم بعذاب أليم ومهين (9) في جهنم التي تــأتيهم من ورائهم ، فلا يستطيعون لها ردّا (10).

ثم يذكرنا السـياق بتلك الآيـات الـتي تهمنا مباشـرة : فهـــذا البحر كيف ســـخّره الله مطية للســـفن ، ومخزنا للطعام والزينة ، وآية تبعث نحو شكره .. كما سـخر لنا ما في السماوات والأرض ، كـلّ ذلك نعمة وفضل منه علينا ، لعلنا نبلغ هدفا ساميا هو التفكر.

ولكن كيف نفكّر تفكيرا سليما؟

الجــواب : لا بد أن نتجنب التــأثر بالبيئة الضــالة ، ولا نأبه بهـؤلاء الـذين يكفـرون ، لأنهم لا يرجـون أيـام الله ، فلهم أعمالهم التي سيجزون بها ، ولن تصـلكم سـيئاتهم ، كما لن تصلهم صالحاتكم.

والبعض ينتظر شيئا مجهـولا حـتى يهتـدي ولكن عبثـا. إذا لم تكن أنت الذي تبتغي الهدى فلن تنتفع بكل وســائل الهدايـة. وإليك مثلا من بـني إسـرائيل : لقد آتى ربنا بـني إسرائيل الكتاب ، والحكم ، والنبوة ـ من وسائل الهداية ــ ورزقهم من الطيبات ــ من النعم المادية ــ وفضـلهم على العــالمين ، ولكنهم ــ إذ اتبعــوا شــهواتهم ــ غرقــوا في الخلافات ، وضلوا عن الطريق بغيا بينهم.

وهـذا الكتـاب الكـريم من عند الله ، الـذي انـزل ذلك الكتاب ، فلا فرق بينهما ، والـذي لا يـؤمن بعد نـزول هـذا الكتاب ، وينتظر مثل التوراة لن يبلغ الفلاح أبدا.

وفي هــذا الكتــاب بصــائر وهــدى ورحمة ، ولكن هل ينتفع به كل الناس؟! لا بل الذين يريدون ذلـك. (أي لقـوم يوقنون).

ومن التمنيات الباطلة : الوهم الذي يعيشه الكثير من الناس ، حيث يزعمون أنهم والمؤمنون سـواء. كلا .. ليس الذين اجترحوا السيئات ، والذين آمنوا وعملوا

الصـــالحات ســـواء. لا في الـــدنيا ولا في الآخـــرة ، أو لا تعلمـون ان الله خلق السـماوات والأرض بـالحق ، فكيف يجعلهما سواء. أليس ذلك باطلا؟! انه يجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون.

ويبقى سـؤال : لمـاذا ينتهي البعض إلى هـذا المصـير الأسوأ؟ لأنهم يتخذون آلهتهم أهواءهم ، فتراهم لا يتبعـون الهوى فقط بل ويطيعونها إلى حد التقديس.

وحين يضل الله الـــذين يؤلهـــون أهـــواءهم يســـلبهم مصـادر العلم من العقل والاحاسـيس ، وآنئذ لا أحد قـادر على هدايتهم.

ويتخبطـــون في ظنـــونهم خبط عشـــواء ، فـــاذا بهم يقولـون : «**ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الـدُّنْيا نَمُـوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ**» ويتحدون النذر إذا قـالوا لهم : احـذروا الآخرة ، ويحتجـون ــ إذا تليت عليهم آيـات الله ــ «**فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**» وهكـذا يحجبـون أنفسـهم عن الحقيقة ببعض الشـروط التعجيزية ، وسـواء آمنـوا أم لم يؤمنـــوا فـــان الجـــزاء واقـــع. الله يحـــييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه.

وهل يضـــرون ربهم لو كفـــروا ولله ملك الســـماوات والأرض ، والمبطلون يخسرون يوم تقوم الساعة.

هنالك يتزيل الكفار عن المؤمـنين ، بل يتمـيز الكفـار فيما بينهم ـ كما المؤمنـون ــ ، إذ «**تَرى كُـلَّ أُمَّةٍ جاثِيَـةً كُـلُّ أُمَّةٍ تُـدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَـوْمَ تُجْـزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**».

هنالك يتجلى الفـــرق بين النـــاس حسب أعمـــالهم : (**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُـدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِـهِ**) ، بينما يحـــاكم الكفـــار ، ويســـألون : لما ذا استكبرتم عن

التسليم لآيـات الله ، وكنتم قوما مجـرمين ، وزعمتم انكم لسـتم على يقين من السـاعة ـ بينما السـاعة لا تحتمل الريب انها حق ـ؟ في ذلك اليوم تبـدو سـيئات أعمـالهم ، كما ان الحقـائق الـتي اسـتهزءوا بها تحيق بهم ، اما نسـيانهم للحقـائق ـ وهو واحد من الأفعـال القلبية ـ فانه يقابل بنسـيان مثله ، ويقـال لهم : «**الْيَـوْمَ نَنْسـاكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا**».

وفي خاتمة السـورة يعـود السـياق ويـبين : ان جـزاء اتخاذ آيات الله هزوا النار ، وسببه الاغترار بالحياة الـدنيا ، ولله الحمد (أولا وأخـيرا على رحمته وعدلـه) (**وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**).

سورة الجاثية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيــزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ لَآيـاتٍ لِلْمُـؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُـونَ (4) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّـماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّيــاحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيـاتُ اللـهِ نَتْلُوها عَلَيْـكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُـونَ (6) وَيْـلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ

---

(4) (يَبُثُّ) : ينشر.

(5) (تَصْـرِيفِ الرِّيـاحِ) : صـرفها هنا وهنـاك ، شـمالا وجنوبا ، شـرقا وغربا.

(7) (أَفَّاكٍ) : صيغة مبالغة بمعنى كثير الإفك ، أي الكذب.

اللهِ تُتْلى عَلَيْـهِ ثُمَّ يُصِـرُّ مُسْـتَكْبِراً كَـأَنْ لَمْ يَسْـمَعْها فَبَشِّــرْهُ بِعَــذابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَــيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَـبُوا شَـيْئاً وَلا مَا اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللـهِ أَوْلِيـاءَ وَلَهُمْ عَـذابٌ عَظِيمٌ (10) هـذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَـذابٌ مِنْ رِجْـزٍ أَلِيمٌ (11) اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْـرَ لِتَجْـرِيَ الْفُلْـكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً مِنْـهُ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) قُـلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْـزِيَ قَوْمـاً بِما كـانُوا يَكْسِـبُونَ (14) مَنْ عَمِـلَ صـالِحاً فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُـونَ (15)

---

(11) (رِجْزٍ) : الرجز هو أشدّ العذاب.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

هدى من الآيات

نقرأ في بداية سورة الجاثية أنّ هناك آيات في الكون لقوم يؤمنون ، ومن ثّمّ يوقنون بها ، وأخـيرا بها يعقلـون ، وهذا التدرّج في هذه الآيات يزيدنا معرفة بمنهج التكامل ، ففي البداية يجب أن يؤمن الإنسـان بالآيـات ويسـلّم لها ، ومن ثمّ يتحوّل إلى حالة اليقين بعد أن يرى آياته سـبحانه في الكـون ، ويـرى الانسـجام التـام بين رسـالة الله في الأرض وآياته في الســــماء والأرض ، ومن بعد اليقين يتحوّل إلى مرحلة العقل.

ومن معاجز القرآن الكريم تشابه الآيات ، وهذا يعـني أنّ كلّ الآيـات تسـير في خطـوط متقاربة ، تنتهي بالتـالي إلى هدف واحد ، فالتالي لآي الذكر الحكيم يــتراءى له أنّ كلّ الآيات ذات بعد واحد ، إذ أنّ الكلمـات هي الكلمـات ، والأهـداف هي ذاتها الاهـداف ، وحـتى تـركيب الكلمـات والموضـوعات العامة الـتي تـوحي إليها العبـارات وتشـير إليها واحـدة ، ولكن عند التـدبّر العميق يتـبيّن لنا أنّ وراء هذه

الوحدة وهـذا التشـابه حقـائق متنوعة ، وليس معـنى ذلك تناقضها ، أو أنّها ليست من سنن الله التي تنبع من قاعدة واحدة وتنتهي إلى هدف هو التوحيد.

وسمّيت هذه السـورة بهـذا الاسم لاية فيها تصـوّر لنا منظر الأمم في يــــوم القيامة وهم يجثـــون على ركبهم خشّعا خضّعا لله ، كـلّ أمّة تـدعى إلى كتابها ، وآيـات هـذا الدرس وما بعدها تعمّق فينا الايمان بالله سـبحانه وتعـالى والايمان بالبعث ، وبالرغم من أنّ هذه الحقيقة واحدة في مختلف السور إلّا أنّ كلّ آية من آيات القـرآن الكـريم في هـذا الموضـوع تثـير في البشر إحساسا خاصّـا ، وتضـرب على أوتار معيّنة في قلبه ، وبالتالي تعالج أمراضا محـدّدة ، ولـذا يجب قـراءة القـرآن كلّه ، وبـالرغم من أنّ قـراءة سورة واحدة أو مجموعة آيات تفيد الإنسـان وتنفعه إلّا أنّ قـراءة كـلّ القـرآن ضـروري ، لأنّ نـواقص البشر كثـيرة ومتنوّعة ولا علاج لها إلّا في القرآن.

بينات من الآيات :

[1] (**حم**)

ســبق وأن قلنا أنّ الحــروف المقطّعة ربما تكــون إشـارة للقـرآن ذاته أو أسـرارا بين الله وأحبّائه ، وقـال البعض : انّ «حم» اسم للسورة ، وإشارة إليها.

[2] (**تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**)

العزيز الــذي لا يغــالب ولا يقهر ، والحكيم الــذي لا يخطأ.

وبما أنّ الكتــاب تنزيل من الله فلتخشع له الأفئـدة ، ولتطأطأ أمامه الأفكـار. أو ليس ربّنا عزيــزا فكتابه تجـلّ لتلك العزّة؟ وهل ينبغي للعاقل أن يغـالب كتـاب ربّه ، ولا يخشى غضبته التي لا تحتملها السماوات والأرض؟!

وربّنا حكيم ، وكتابه آية حكمته ، أفلا ينبغي أن نستوحي الحكمة منه؟

[3] (**إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

إنّ الآيات الكثيرة المبثوثة في الكون تجعل الايمان عميقا في نفس البشر ، والمهم أن تزيدنا الآيات إيمانا به سبحانه ، إذ أنّ الله ضمّن كلّ شيء حقيقة العبودية ، فإذا ما نظرنا فيه وصلنا إلى تلك الحقيقة ، فنؤمن بالله ، وتخشع له قلوبنا.

ولكن يختصّ بمعرفة هذه الحقيقة المؤمنون الذين لا تمنع حجب الكبر والعناد قلوبهم عن معرفة ما تهدي إليه الكائنات من حقائق.

[4] (**وَفِي خَلْقِكُمْ**)

ألا ترى كيف يذرأ الله الخلق من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمّهات ، وكيف يطوّره خلقا من بعد خلق ، نطفة فعلقة ثم مضغة ثمّ عظاما فكسى العظام لحما ثمّ أنشأه خلقا آخر؟ ألا ترى كيف يخلقنا العليم القدير في بطون أمّهاتنا خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ، وأجرى علينا الغذاء ، وبعد أن ولدنا حنّن علينا قلوب الآباء والأمّهات؟ ألا ترى كيف خلقنا تامّين الخلقة ، في أحسن تقويم؟

وليس خلقنا كذلك بل كلّ الأحياء ، إذ أنّ الله كما البشر خلقهم عبر الانسلال كذلك الشجر ، فالبذرة تنبت الشجرة ، وهذه الشجرة تحمل بذرا ، لو زرعت هذه البذرة لأنبتت شجرا .. وهكذا.

وحين خلق الله الإنسان زوّده بمختلف الحاجات ، وأودعه العقل ليسخر به الحياة ، ويتغلّب على بعض قوانينها.

(**وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**)

فتجد في الأرض أحياء حسب طبيعة الأرض وحاجـات تكامل الأحياء فيها.

إنّ طريقة بثّ الله للدواب وانتشـارها وتكاثرها ، كـلّ ذلك آيات لقوم يوقنـون ، واليقين درجة أعلى من الايمـان ، ويبدو من الآية السابقة أنّها تـدعو إلى النظر في عمـوم الآيات وذلك يؤدّي إلى الإيمان ، بينما الآية هذه التي تدعو إلى اليقين تثير فينا التطلّع إلى تفصيلات الحياة.

[5] (**وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ**)

كذلك في اختلاف الليل والنهار آيات لمن يتبصّـر عـبر الأحـداث والظـواهر ، ويعقل ما وراء هـذا التـدبير الحكيم لتتابع الليل والنهـار ، وكيف سـخّر الله الشـمس وأقمارها لتخدم حياة البشر فـوق هـذا الكـوكب ، دون أن يسـتطيع أيّ واحد منها تغيير مساره قدر بوصة أو يتقدم سـاعة عن مواقيته أو يتأخّر ساعة.

(**وَما أَنْـزَلَ اللـهُ مِنَ السَّـماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**)

تفيض أشـعة الشـمس بما تحمل من بـواعث الحيـاة على الأرض الهامدة ، وينهمر الغيث حـاملا مـواد أساسـية من الفضاء المحيط ، ويرسل الربّ الرياح لواقح ، فيرزق عباده بكلّ ذلك بقدر مّا يشاء.

(**وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ**)

إنّ الله يصـرّف الريـاح حيثما يريد ، بعضـها مبشّـرات بالرحمة ، وبعضــها بالعــذاب ، وينشر اللقــاح أو يســقط الــورق ، أو يحمل الغيث أو الــبرد ... وهكــذا الريــاح كما الغيث مسخّرات بـإذن الله ، تجـري بـأمره حيث أصـاب ، كلّ ذلك :

(**آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)

فالــذين يســتوعبون دروس الخليقة ، ويحفظــون المعلومات ليضـيفوها إلى بعضـها ، ويتفكّـرون فيها جميعا ليعرفوا السـنن الـتي تجريها والأنظمة الـتي تسـيّرها ، هم أولئك الــذين يصــلون عــبر الآيــات الالهية إلى الحقــائق الكبرى.

ولعـلّ هـذا التـدرّج من الايمـان إلى اليقين إلى العقل يــوحي بــأنّ الايمــان هو تسـليم النفس البشــرية للحق ، واليقين درء للشـكوك والظنـون ، وترسـيخ للسـكينة في النفس ، أمّا العقل فهو لوعي تفاصيل الحقيقة للمحافظة على اليقين والزيادة فيه.

وبتعبير آخر : يكون الإنسان ضالا ، فـإذا أطـاع القلب الشــيطان يصــبح كــافرا ، وإذا خــرج الملك حــتى أتمّ الشـيطان هيمنته على القلب فقد أمسى صـاحبه جاحـدا مطبوعا على قلبه بـالكفر ، أمّا إذا هـزم القلب شـيطانه ، وأســـلم لربّه ، فقد آمن ، وإذا ازدادت هيمنة الملك على القلب حتى ثبّته الله على الايمان ، وألزمه كلمة التقـوى ، وطرد الشيطان بما له من وساوس وشكوك ، فقد أصـبح موقنا ، واليقين درجات فكلّما ازداد المـؤمن عقلا عن ربّه وعلما بآياته سبحانه يزداد يقينا.

[6] (**تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِ**)

الكـون يـدور كلّه حـول الحق ، والقـرآن يؤكّد هـذه الحقيقة فكـلّ آيـات الله في الطبيعة تقودنا إليه ولكن إذا لم يؤمن الناس بالحق ..

(**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ**)

إنكار الله بعد عرض هذه الآيات ليس إنكـارا لله فقط ، بل هو أيضا إنكــار للآيــات نفســها ، وهل في الكائنــات شــيء أشــدّ ظهــورا من تلك الحقيقة الـتي تشـترك في الشـهادة عليها والدلالة إليها كـلّ الكائنـات؟! وإذا أنكرناها فقد أنكرنا كلّ شيء. أو ليس في كلّ شيء آية لله؟

هكـذا جـاء في دعـاء الامـام الحسـين عليه السّـلام :
«**عميت عين لا تراك عليها رقيبا**» [1]
[7] وفي الآية التالية ينذر الله من لا يتبع هداه بالويل :
(**وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**)
ويطرح السـؤال التـالي : ما هي علاقة هـذه الآية بما تليها؟ يبدو أنّ هنالك علاقة واقعية ونفسية :
ألف : فالعلاقة الواقعية أنّ الـذين لا يؤمنـون بالله ولا يغمر قلـوبهم نـور المعرفة الالهية سـيأفكون عن الحق ، ويقولـون الكـذب ، بل إنّ كـلّ عمل يعملونه وكـلّ خطـوة يخطونها وكل هـاجس من هواجسـهم يحملهم إلى الافك والإثم ، ومثلهم مثل الآلة الحاسـبة الـتي تـركّب على أساس خاطئ فإنّ كلّ عمليّاتها خطأً ، وكـذا الآلة الطابعة التي تركّب الحروف فيها على أسـاس خـاطئ فكـلّ كلمة تكتبها تخـرج خاطئة ، ذلك أنّ الايمـان بالله لا غـيره هو الذي يحلّ طلاسم الحياة وأسرارها ، كيف وجد هذا الكون الهائل ، وإلى أين يصل ، وإلى أين ينتهي ، وما حكمة خلقه ، وما هي غاية وجودنا فيه؟
بلى. إنّ الإنسان الذي يسلب منه الايمـان لا يسـتطيع أن يعـرف طبيعة الحيـاة ، ولا يصـمد أمـام مشـاكلها ، ويمضي حياته في الكدح العابث.
بـاء : العلاقة النفسـية فهي أنّ قلب الإنسـان وعقله وفطرته قد خلق كـلّ ذلك على أسـاس معرفة الله (**فِطْـرَتَ اللـهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْها**) [2] ، ولكن بسبب العمل

(1) دعاء عرفة / الامام الحسين (ع) / مفاتيح الجنان
(2) الروم / 30

الفاسد الذي يرين على القلب ينتكس الإنسـان ، وتـتراكم عليه حجب الضلالة والعصبيات والعقد فلا يرى الحقائق.

ولذلك جاء في الدعاء المـأثور عن أمـير المؤمـنين ـ عليه السّلام ـ :

إلهي قلـــبي محجـــوب ، ونفسي معيـــوب ، وعقلي مغلوب ، وهوائي غالب ، وطاعتي قليل ، ومعصيتي كثير ، ولساني مقرّ بالذنوب ، فكيف حيلتي يا علّام الغيـوب ، ويا سـتّار العيـوب ، ويا كاشف الكـروب ، اغفر ذنـوبي كلّها بحرمة محمّد وآل محمّد ، يا غفّار يا غفّار يا غفّار [1]

فقلب الإنسان يحجب بالغفلة ، وسبب كلّ ذلك تراكم الـذنوب ، لهـذا يجـأر المـؤمن منها ، ويـدعو الله بغفـران ذنوبه ، متوسّلا بحرمة محمّد وآله ، حـتى يعـود القلب إلى فطرته النقيّـــة. ويزيل الله ســـبحانه الحجب عن القلب بطـــرق شـــتى ، منها إثـــارة حبّ الـــذات عـــبر التخويف والـترهيب ، وبيـان انّ الابتعـاد عن الحق لا ينفع الإنسـان شـيئا ، بل هو الويل وعـذاب الخـزي لكـلّ أفّـاك أثيم ، والويل هو الهلاك ، وهو واد في جهنّم ، ممتلئ قيحا ، والويل في الآخرة تجسيد للويل في الدنيا ، وقد أعدّه الله المنتقم الجبّار لكلّ أولئك الذين يأفكون الكذب باسـتمرار على الله عزّ وجل ، ويجترحون السيئات.

[8] (**يَسْـمَعُ آيــاتِ اللــهِ تُتْلى عَلَيْـهِ ثُمَّ يُصِـرُّ مُسْتَكْبِراً**)

يصرّ على كفـره اسـتكبارا على الحق الـذي يسـمعه. إنّه يسمع آيات الحق ولكنّه يمرّ ..

(**كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها**)

---

(1) دعاء الصباح / مفاتيح الجنان

ونستلهم من قوله سبحانه : «**ثُمَّ يُصِرُّ**» أنّ شدة وضوح آيات الله هي إلى درجة تكاد تكره الإنسان على الايمان ، ولكنّ المستكبر الذي عقد عزمات قلبه على الافك العقيدي والإثم العملي يستعمل شتى السبل ليستكبر على الحق ، وليقاوم آثار الهداية ، كالذي يحجب عن نفسه عبق الأزهار في فصل الربيع ، أو أشعّة الشمس في ظهيرة يوم قائض إنّه بحاجة الى مزيد من الجهد حتى يمكنه البقاء بعيدا عن تأثير أشعّة الهدى في قلبه.

(**فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**)

يتناسب والإصرار على الكفر واجتراح الإثم.

[9] وبالرغم من أنّ الكافر يحجب نفسه عن آثار الهدى تدخل حريم قلبه ، الذي يغلفه بسور من استكباره وإفكه وإثمه ، فإنّ موجات من الهدى تخترق الحجب ، وتستقرّ في فؤاده ، ولكنّه سرعان ما يتخذ منها موقف الاستهزاء والسخرية النابعة من احتقار الحقّ وأهله .. هنالك تتمّ حجة الله عليه إذ أنّه استصغر الحق بعد علمه به.

(**وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**)

وهذا الجزاء ينسجم والاستكبار أو الاستهزاء.

[10] (**مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ**)

أي أنّ جهنّم تنتظرهم ، وإذا زعموا أنّ بمقدورهم النجاة من جهنّم بأموالهم أو أولادهم فقد زعموا باطلا.

(**وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً**)

ولن تغني عنهم آلهتهم شيئا.

(**وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ**)

فليس في يـــوم القيامة لهـــذه الأصـــنام الحجرية أو البشرية قيمة حتى ينقذونكم من النار.

(**وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**)

والعذاب العظيم يتناسب وما عبدوا من دون الله ، إذ أنّهم اقترفوا جريمة عظيمة بالشرك فعاقبهم ربّهم بعذاب عظيم.

[11] (**هذا هُدىً**)

الهدى هو الطريق المستقيم الـذي ينجيك من عـذاب جهنّم.

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَـذابٌ مِنْ رِجْـزٍ أَلِيمٌ**)

لمــاذا يكــرّر ربّنا عــزّ وجل موضــوع العــذاب خمس مــرّات : «**وَيْـلٌ لِكُـلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**» ، «**فَبَشِّـرْهُ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ**» ، «**أُولئِكَ لَهُمْ عَـــــذابٌ مُهِينٌ**» ، «**مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ ... وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**» ، «**لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ**»؟ لعلّ السبب هو تـراكم العقد النفسـية على القلب ، التي يعتبر كلّ واحـدة منها حجابا سـميكا دون نفـاذ نـور الهـدى ، ولا بد من خرقها جميعا بالإنـذار الشـديد بـألوان العذاب ومراحله.

[12] وبعد أن يمطر الله الذين يكذّبون بآياته بالإنـذار تلو الإنذار ، لعلّ قلـوبهم تخشع للحق ، يـذكّرهم بآياته في الآفاق ، وبنعمه التي أسـبغها عليهم ، وانّ التفكّر في ذلك يهدينا إلى حسن التدبير ، وبديع الصنع ، وبالتالي : إلى أنّ خالق هذا الخلق ومنظّم أمره عليم حكيم ، وأنّه لم يبـدأه عبثا ، ولا يتركه سدى ، وهنالك نبلغ

حقيقة الجـزاء الـتي تحـاول النفس البشـرية الهـرب منها خشية منها ، وإشفاقا من ثقلها.

وهكـذا ينتقل المؤمنـون من التفكّر في خلق الله إلى خشية عقابه ، كما قال ربّنا سبحانه وتعالى في سـورة آل عمران :

(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ لَآيـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبـابِ* الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللـهَ قِيامـاً وَقُعُـوداً وَعَلى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَـذابَ النَّارِ* رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُـدْخِلِ النَّارَ فَقَـدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**)» [1]

هكـذا نـرى كيف أنّ التفكّر في الخلق أوصـلهم إلى خشـية النـار ، وهنا بعد أن ينـذر الله الكفّـار المسـتكبرين بالنار يعرج بنا إلى آياته فيقول :

(**اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ**)

البحر على عظمته مسـخّر للإنسـان ، أفلا يـدلّنا على النظم والتدبير؟

ولقد ذكّرنا السياق بفوائد ثلاث لتسخير البحر :

أوّلا : الملاحة التي تنقل الناس والبضائع إلى الآفاق.

(**لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ**)

ثانيا : صيد الأسماك واستخراج الثروات الأخرى.

(**وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**)

---

(1) آل عمران / 190 / 192

ثالثا : الاهتـداء من واقع تسـخير البحر إلى رحمة الله بالإنسان وكرامته له فينبعث لربّه شكرا وخضوعا.

(**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

فالهـدف من النعم تكامل روح الإنســان ، وتســامي نفسه.

[13] ثم انظر إلى ما في السموات من آيات القـدرة ، ومعـــالم الحكمة ، وكيف أنّ قـــانون الجاذبية ونظـــام الأفلاك ومجـاري الشـمس وأقمارها والنجـوم وما حولنا يخدم حياة الإنسـان فـوق الأرض. أفلا يهـدينا ذلك إلى أنّ لوجـــود البشر هـــدفا لا بد أن نتعـــرّف عليه ثم نســـعى لتحقيقه؟

(**وَسَــخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**)

وكـذلك ما في الأرض من أو كســجين الهــواء ، إلى أملاح الأرض ، ذلك ما فيها من معادن مختلفة تنفع الناس ، وإلى ما فيها من أحيــاء ، كلّها تخـــدم حيــاة الإنســان وسعادته. من الذي سخّر كـلّ ذلك للبشر ، أو ليس اللـه؟ أفلا نعبده؟!

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)

والتفكّر هو إثـــارة العقل ، لكي يربط المعلومـــات ببعضـــها ، ويـــرتقي من خلالها إلى الحقـــائق الكـــبرى ، وبـالرغم من أنّ ما في الحيـاة كلّها آيـات تشـير إلى تلك الحقائق إلّا أنّ من لا يستثير عقله لا يستفيد منها شيئا.

[14] (**قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِـرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُـونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

على المـــؤمن أن يعتـــبر نفسه أعلى من الـــذين لا يؤمنون ، لأنّهم كالأعمى والأصم ، فإذا قـاموا بعمل سـيء فعليه أن يغفر لهم ، ومن المعلـوم أنّ ذلك لا يعـني تـرك المسؤولية تجاههم ، بل ينبغي ألّا يسارعوا في محاربتهم ، بل يـــدعوا ذلك الامـــام لكي يـــرى الظـــرف المناسب للمواجهة ، ويومئذ يجـــزي الله الـــذين كفـــروا بما كـــانوا يكسبون ، وما دام المجرم لا يفوت ربّه فلما ذا البدار إلى أخذه ، إذ قد تكون المبادرة سببا لفشل خطط كثيرة.

وهذا التفسير يتناسب وما ذكره المفسرون من سبب نزول الآية ، من محاولة البعض من أصحاب الرسـول أخذ المخـالفين بالشـدة ، ممّا كـان يسـبّب حرجا للرسـول ، وعلى ذلك يمكن تفسـير قوله سـبحانه «**أَيَّامَ اللـهِ**» بأنّها أيّام نصره للمؤمنين ، حسبما احتمله البعض.

[15] (**مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ**)

يجده في الجنة.

(**وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها**)

مغرما عليه يوم القيامة.

(**ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**)

ففريق في الجنة ، وفريق في السعير.

وهـــذه الآية تـــبيّن لنا أهمية المســـؤولية ، وأنّ كلّا مســـئول عن عمله ، فلا ينبغي البـــدار إلى العقـــاب ، ولا انتظـار الثـواب العاجل ، بل لا بد أن يتمتع المـؤمن برؤية مسـتقبلية تضـفي عليه الطمأنينة والسـكينة والحكمة في التحرّك.

وَلَقَـدْ آتَيْنا بَنِي إِسْـرائِيلَ الْكِتـابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُـوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّـلْناهُمْ عَلَى الْعـالَمِينَ (16) وَآتَيْنـاهُمْ بَيِّنـاتٍ مِنَ الْأَمْـرِ فَمَا اخْتَلَفُـوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ فِيما كـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُـونَ (17) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُـوا عَنْـكَ مِنَ اللـهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيـاءُ بَعْضٍ وَاللـهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُـوا السَّـيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ

---

(21) (**اجْتَرَحُوا**) : أي اقترفوا وارتكبوا ، والاجتراح : الاكتساب.

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُــونَ (21) وَخَلَــقَ اللــهُ السَّــماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (22)

ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ

هدى من الآيات :

تشـترك الأمّة الاسـلامية وبنـوا إسـرائيل في عهـدهم الرســـالي في القضـــايا الجوهرية ، بــــالرغم من بعض الفــوارق ، فلقد فضّــل الله الأمة الاســلامية على ســائر الأمم بالرسالة الخاتمة ، كما فضّل الله بني إسرائيل على من عاصرهم برسالته التي أنزلها على موسى بن عمــران (عليه السلام) ، كما فضّلهما على الناس ببيّنـات من الأمر ، تبصّرهم سبيلهم المستقيم ، وتوفّر لهم فرصة الوحـدة ، ولكن لم تكن الرسالة لتعصم الناس عن أن يختلفوا لو لم يرد الناس أنفسهم ذلك ، ومن هنا فقد اختلف النـاس من بعد موسى كما اختلفــوا بعد نبيّنا محمّد (صــلّى الله عليه وآلـــــه) بغيا بينهم ، وليس لنقص في عوامل الوحـــــدة المتوافرة لديهم من عند الله سبحانه.

ولعــــلّ ســـبب المقارنة بين بـــني إســـرائيل والأمة الاسلامية يوجز في أمرين :

الأول : ما سـبق من حـديث الرسـول الـدال على أنّ الأمة الاسلامية ستحذو حذو

بني إسرائيل حذو القذّة بالقـذّة ، والنعل بالنعل ، حـتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه.

الثـاني : للدلالة على أنّ ما جـرى عند بـني إسـرائيل يشـبه القـانون الاجتمـاعي أو السـنّة الحياتية الـتي تتكـرّر عادة بين الأمم إلّا من عصم الله.

ونستوحي من هذه الآيات بصيرتين :

الأولى : لقد وفّر الله لبــني إســرائيل كــلّ أســباب السـعادة ، فأعطـاهم الكتـاب والحكم والنبـوة ، وفضّـلهم على العالمين ، وآتاهم بيّنـات من الأمر ، وأعطـاهم العلم والـوعي ، ولكنّهم اختلفـوا من بعد ذلك بغيا ، وجـرّوا على أنفسهم الـويلات ، ممّا يـدلّ على أنّ البغي ليس ذا طـابع فـــردي ، لأنّ من يظلم يشــجّع الآخـــرين على الظلم ، وتنتشر عادة البغي حـتى يظنّ كـلّ واحد أنّ من (لا يظلم الناس يظلم) أو (إذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب).

ثم إنّ الظـالم لا يلبث أن يبحث عن فلسـفة لظلمه ، ومحور يجتمع الظالمون حوله ، وينظّمون ويسنّون شرائع له ، وينصـبون له أعلاما يـدعون النـاس إلى الرضـوخ له ، وهكـذا يبـدو الظلم عملا فرديّا يرعـاه الحـرص والتعـالي ، وســـرعان ما يتحـــول إلى تيّـــار اجتمـــاعيّ منظّم ، له مؤسساته وقوانينه ودعائمه وقياداته و.. و.. ، حـتى يصـبح الناس فريقين : طبقة ظالمة مستكبرة متسلطة ، وطبقة مظلومة مستضـــعفة مقهـــورة ، وتلك الطبقة قد تختلف صورها ، ولكنّ جوهرها واحد ، كـأن تتسـمّى بـاللّوبي ، أو الاقطاعيّين ، أو اتحاد الشركات ، أو الحكومة ، أو .. أو ..

الثانية : وحينما ينحرف الناس ، وتتسلّط عليهم طبقة مستكبرة مستضـعفة ، تظلّل النـاس بسـحابة سـوداء من الإرهـــاب والاعلام المضـــلّل ، لا بد أن يقف الصـــالحون (أنبيـــاء كـــانوا أم تـــابعين لهم) متســـلحين بالشـــجاعة والاستقامة ، ويرفعوا أصابعهم إلى السـماء مشـيرين إلى الله الواحد الأحد ، فإذا رأى الله منهم الصبر على

البلاء نصرهم بعزّته.

بينات من الآيات :

[16] (**وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ**)

أوّلا :

(**الْكِتابَ**)

التوراة ، والإنجيل ، والزبـور ، الـتي أثـارت عقـولهم ، وبرمجت حياتهم.

ثانيا :

(**وَالْحُكْمَ**)

فلقد جعل الله في بني إسرائيل ملوكا حـاكمين ولقد فسّرنا ذلك في آية (98) من سورة الأنعام.

ثالثا :

(**وَالنُّبُوَّةَ**)

فقد جعل الله في بـني إسـرائيل أنبيـاء كثـير منذ يعقوب (ع) حتى عيسى (ع) ، وهذا العدد من الأنبياء نعمة كبيرة لبني إسرائيل وفخر عظيم ، لأنّ عظمة الأمة تقاس بعـدد ونوعية النخبة الطيبة فيها ، وعالمنا اليـوم يقيس تقـدّم الأمم بنسـبة الكفـاءات فيها ، وهكـذا أضـحت بنو إسرائيل أمّة متقدّمة بالنسبة إلى سائر الأمم في عصرهم ، ثمّ إنّ الله يحفظ النـاس ويمنع عنهم العـذاب بأنبيـائهم وصالحيهم ، قال تعالى : «**وَما كانَ اللهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**»[1].

---

(1) الأنفال / (33).

وبالنسـبة لنا كمؤمـنين يجب أن نعـرف أنّه كلّما كـثر فينا الصالحون والعلماء الربّانيون والرساليّون المخلصـون كلّما أمسينا أقرب إلى الانتصار بإذن الله.

رابعا :

(**وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ**)

فقد رزق الله بني إسرائيل رزقا حسنا بعد أن أمرهم بدخول باب حطّة إلى القرية المقدّسة التي بارك فيها.

خامسا :

(**وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ**)

في الحضـارة عن غـيرهم من سـائر الأمم من قبلهم ومن كانوا في زمانهم ، ولعلّ في الآية إشارة إلى أنّ هـذا التفضـيل كـان بسـبب تلك النعمة الآنفة ، فلمّا زالت زال فضلهم.

سادسا :

[17] (**وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ**)

يبدو انّ الأمر في لغة القرآن يعـني المسـألة العامة ، قـال تعـالى : «**وَإِذا جاءَهُمْ أَمْـرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَـوْفِ أَذاعُوا بِهِ**» [1] فقد أعطى الله بني إسـرائيل بصـيرة الأمر وبيّناته (أي تفصـيلاته) فعـرّفهم كيف يصـرّفون حيـاتهم ، وكيف يتعاملون مع غيرهم ، وكيف يرتّبون اجتماعهم.

(**فَمَا اخْتَلَفُـوا إِلَّا مِنْ بَعْـدِ ما جـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ**)

---

(1) النساء / (83).

اختلفـــوا ولم يكن اختلافهم لنقص في رســـالتهم أو شحّة طعامهم ، إنّما كـان ببغيهم بـالرغم من وجـود العلم الـذي كـان جـديرا بفضّ خلافـاتهم لو تجنّبـوا البغي ، ولقد كان العلم عند وصي موسى يوشع بن نون ، وكان النـاس يعلمــون ذلك ، إلّا أن حبّ الرئاسة وهــوى الســلطة لعب دورا خبيثا في إزالة الحــــقّ عن مرســــاه ، والولاية عن مستقرّها ، فاختلفوا أشدّ اختلاف.

ويضرب القرآن صـفحا عن ذكر ويلات الاختلاف ، من حـروب داخلية تـؤدّي الى زعزعة أسـاس المدنيّة ، وغلبة الأعداء الخارجيين.

ولا ريب أنّ العلم هنا هو علم الدّين الذي يقضي على الاختلاف بين أصـحاب الرسـالة ، ولا يعـني أيّ معلومـات كـانت ، لأنّ سـلاطين الجـور يحـاولون أبـدا الاسـتغناء عن علماء الدّين بمن يسـمّى عالما من أصـحابهم ، ويغـرونهم ليصنعوا لهم فلسفة ومذهبا.

(**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِـي بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ فِيما كـانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

إنّ الله سيقضي بينهم بـــالحق ، فلا تـــذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تعجل عليهم ، واطمـأن إلى أنّ الحق باق برغم التشويش عليه.

[18] (**ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ**)

الشريعة : الطريقة الواضحة ، فقد جعل الله الرسول (ص) على الطريق الحق ، والدين الواضح.

(**فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**)

ومن لا يتبع شــريعة الله فإنّه يتبع «أهــواء» قــوم لا يؤمنون بالله ، وهذه مشكلة

العلماء الـذين بـاعوا دينهم (شـريعة اللـه) بالـدنيا فـاتبعوا أهواء الطغاة ، ومن هنا فإنّ مسـئولية العلمـاء الاسـتقامة على هدى الله ، بالرغم من كـلّ الضـغوط الـتي يمارسـها أصحاب القوة والثروة.

وإذا بقي العلماء صامدين أمام أهواء الجاهلين فـإنّهم يكونــون مقياسا للحق ، ومحــورا لأهله ، وقيــادة موثوقة للثائرين من أجله.

أمّا إذا اتبعوا أهواء أولي القوة والمال فسـوف يضـيع الحق ، ويختلف الناس من بعد ما جاءتهم شريعة الله بغيا بينهم ، كما فعلت بنــوا إســرائيل من بعد نــبيّهم ، ودالت دولتهم ، وزالت الفضائل التي فضّلهم الله بها.

ونستفيد من الآية أنّ أهمّ بنود الشريعة هي التي تمنع الاختلاف ، وتحقّق العدالة ، وتقـــــاوم البغي ، ولا ريب أنّ كلّ ذلك موجود في نظام الحكم عند الدين.

[19] ثم يهدّد ربّنا هؤلاء العلماء الغاوين الذين يتبعون أهواء الظالمين :

(**إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً**)

يـوم القيامة ، فلا يـدفعون عنك العـذاب ، إذا أطعتهم وصاروا يسـتغلّونك من أجل تضـليل النـاس ، بل دخـولهم النار.

(**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ**)

فـالأفحش ظلما يتـولّى جمعهم ، ويـذيقهم من ويلات ظلمه ما يشاء ، ثم يتسلسل الظلم نازلا حـتى يصـبح كـلّ واحد منهم ظالما لمن دونه ، ومظلوما ممّن فوقه ، لا يذوقون برد العدالة والأمن أبدا.

ومن أيّدهم دخل في حزبهم ، واحتمل وزر أعمالهم الذي يتجسّد في الآخرة عذابا شديدا ، أمّا في الدنيا فيشمله ظلمهم الناشئ في مجتمعهم.

وقد دلّت آية كريمة على أنّ الله يولّي الظالمين بعضهم (قد يكون أشدّهم ظلما) ، حيث يقول ربّنا : «**وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً**» [1] ، وفي الحديث المعروف : «كما تكونون يولّى عليكم».

أمّا العلماء الذين يواجهون الظلم فإنّهم ينجون من آثاره في الدنيا وفي الآخرة.

(**وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**)

فهو سبحانه يؤيّد المتقين بنصره في مقاومة الطغاة.

[20] (**هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ**)

واضحة تهدي القلوب والعقول ، وطريقة للرؤية الصائبة ، ومنهج للتفكير السليم.

(**وَهُدىً**)

فالقرآن لا يكتفي ببيان البصائر ، بل ويقرّبنا حتى نلامسها ، ونتفاعل معها ، ونشهدها عن كثب ، وهذا هو الهدى.

(**وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**)

إذ أنقذهم من الغواية والاختلاف ، وهداهم إلى شريعته الواضحة السمحاء.

أمّا الذين لا يوقنون ، وبالتالي لا ينفّذون أوامره في الأوقات الحرجة ، وبالذات عند اختلافهم ، فإنّ القرآن لا يغني عنهم شيئا ، ولعلّ الآية هذه تشير إلى ما تدلّ

---

(1) نهج البلاغة / ج (211) / ص (506).

عليه الآية الكريمة : «**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**» [1].

[21] لان الدنيا دار ابتلاء فهي دار غرور يخيّل للإنسان ان المجرم والمحسن فيها سواء ، وما هي إلّا فتنة قصيرة الأمد ، وبعده يتميز المحسن بالثواب ، والمجرم بعقاب شديد.

ويوغل البعض في التمني والغرور حين يزعم أن الآخرة كما لبعض الحالات في الدنيا يتساوى بها المحسن والمسيء ، وهكذا تسوّل له نفسه الاسترسال في السيئات دون رادع ، كلا. إن ذلك حكم جائر بعيد عن سنن الله في الخليقة.

(**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ**)

والاجتراح : الاكتساب ، ونستوحي من الاية ان اجتراحهم للسيئات هو الذي جعلهم يظنون هذا الظن السيء ، ذلك لأن الشيطان يزيّن للإنسان عمله.

(**أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ**)

كلا فحياة المؤمن زاخرة بالاطمئنان ، والفلاح ، والأمل ، بينما يجعل الله صدر الكافر حرجا ضيّقا ، ويمنع عنه الالتذاذ الكافي بنعيم الدنيا ، ويجعله يأكل كما تأكل الانعام ، ويجعله عرضة للعذاب.

أما بعد الموت فان الملائكة يستقبلون المؤمنين بالترحاب ، بينما يغلظون على المجرمين ، ثم يتميزون الى الأبد عن بعضهم ، فهؤلاء في الجنة منعمون ، وأولئك في العذاب الأليم.

---

(1) الأنعام / (129).

(**ساءَ ما يَحْكُمُونَ**)

وعند هـذه الآية تتلاشى الامـاني الـتي يعيشـها بعض المسـلمين ، ويـبررون بها اجـتراحهم للسـيئات ، فبعض يقـول : سـيغفر لنا ، وبعض يـزعم انه يتـوب قبيل وفاته ، وبعض يتشـبث ببعض الطقـوس ويـزعم انها تغنيه عن الالتزام بالواجبات.

كلا .. ان ربنا عـدل لا يجـوز ، ولا يمكن أن يتسـاوى عنده المحسن والمسيء.

[22] حين نتفكر في خلق الله في السماء التي تظلّنا ، في الأرض الـتي تقلّنا ، في الظـواهر الطبيعية ، في الدورات النباتية ، في التفاعلات الحياتية ، في كل شيء ، فان حقيقة واحدة تتجلى بوضوح وهي : أنّ كل شيء حقّ ، ويدبر بحق. أرأيت الذي يزرع الشعير هل يحصد حنطـة. كلا .. ولما ذا لا نتمـنى للخامل ان يحصل على علم وافر ، وثروة طائلة؟ وكيف لا يحلم أحد ان تلد البقرة حصانا ، أو ان يطير الفيل في الجو كالغراب؟

لماذا العلم يتوغل في عمق الأشياء لمعرفة الأسـباب والنتائج ، أو خصـائص المعـادن والنبـات ، أو ليس لأن كل شيء خلق بحق ، ويجري ضمن سنة عادلة؟!

فكيف نتمـنى إذا ان نجـترح السـيئات ويكـدح ذلك المـؤمن في إقامة الصـلاة ، وإيتـاء الزكـاة ، والجهـاد ، ثم نجني نحن وهو ثمرات متشابهة. هل رأيت مثالا واحدا في عالم الخليقة حتى تقيس نفسك به مثلا؟

(**وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ**)

ويتجلى هذا الحق في حياة الإنسان عبر سنة الجزاء.

(**وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

بلى. قد يتــأخر الجــزاء أو تخفى علاقته بالعمل ، قد يشرب المرء ماء ملوثا ثم يصاب بمرض خطير بعد مـدة ، ولا يصــدق أن شر به ذلك المــاء كــان ســبب اصــابته بالمرض. قد يعيش مجتمع التخلف ولا يعترف ان خموله وتمزقه ، وجهله سبب ويلاته ، ولكن سـنة الجـزاء جاريـة. علمنا بها أم لا ، وصدقنا بها أم لا.

أفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلهَـهُ هَـواهُ وَأَضَـلَّهُ اللـهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَـلَ عَلى بَصَـرِهِ غِشـاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23) وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الـــدُّنْيا نَمُــــوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الـــدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِـــذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (24) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كـانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَــوْمِ الْقِيامَــةِ لا رَيْبَ فِيــهِ وَلكِنَّ أَكْثَــرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُــونَ (26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

---

(23) (**غِشاوَةً**) : غطاء.

(27) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُـلُّ أُمَّةٍ تُـدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29)

---

(28) (**جاثِيَةً**) : الجثو هو التهيؤ للقيـام ، وذلك لأنّ الإنسـان الخـائف لا يجلس جلسة الاطمئنان بل يرفع أليبه من الأرض حتى إذا نودي أو جـاء الفزع قام فورا بلا استبطاء ، والجثو يكون على الركب.

(29) (**نَسْتَنْسِـخُ**) : أي نـأمر الكتبة بنسح أعمـالكم ، والاستنسـاخ هو الأمر بالنسخ.

أرايت من اتخذ إلهه هواه

هدى من الآيات :

يسـتعرض السـياق في هـذا الـدرس وبعـده صـفات الكفّار ، كيف أنّهم اتخـذوا أهـواءهم آلهة عبـدوها من دون الله لمّا أطاعوها ، وكيف ختم الله على سمعهم وقلــوبهم ، وجعل على أبصــارهم غشــاوة ، فمن يهــديهم من دون اللـــه؟! وأنّهم كفــروا بما وراء الحيــاة حــتى يحــيي الله أمــواتهم فــيرونهم عيانا ، ولكن إذا قـامت القيامة وجثـوا على ركبهم ذلا وخشوعا فهل من محيص؟!

بينات من الآيات :

[23] هناك علاقة وثيقة بين العقل والايمـان ، فالعقل ينبعث من ذات المشـكاة الـتي ينبعث منها الايمـان ، فمن اتبع عقله هــدي إلى الايمــان ، ومن آمن أنقذ عقله ، أمّا من اتبع هواه فقد عطّل عقله ، ولن يهتـدي إلى الايمـان ، ويكون كمن أوصد منافذ قلبه حـتى لا يصل إلى الحقيقة ، ولن يصل إليها ، وحين يتبع الإنسان هواه تكثر

أنانيته وشــهواته ، حــتى لا يــرى إلّا نفسه وما يخــدمها مباشـرة ، ويبلغ به حبّ الـذات حـدّ العبـادة ، إذ يجعل ما تشتهيه نفسه شرعا يلـتزم به ، وحينئذ يسـجن في زنزانة نفسه ، ولا يؤمن بغيرها ، ولا يقدر أن يسـمو بها إلى حالة الايمان بربّ العالمين.

(**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ**)

لمـاذا يقـول ربّنا : «**أَفَـرَأَيْتَ**» ولا يخـاطب من اتبع هواه مباشرة؟

والجواب :

أوّلا : لأنّ مثل هـذا الإنسـان ليس من السـهولة أن يميّز خطأه ، بل هو كالميّت لا يستحقّ خطابا.

ثانيا : لكي يتخذ المخـاطب حـذره ، فلا يقع فيما وقع فيه عابد هـواه ، ويتعلّم عبـادة ربّه من عابد هـواه ، كما قيل لـذلك الحكيم : من أين تعلّمت الأدب؟ قـال : ممّن لا أدب له ، عمل ما سـاءني فلم أعمل مثلـه؟ كـذلك يكفينا عـبرة النظر إلى عاقبة من يعبد هـواه ، فلا نـدع شـهواتنا الطاغية تستدرجنا إلى هذا المصير ، بل نعتبر الهوى أشـدّ أعـدائنا ، ونعتـبر الوقـوف أمامه شـجاعة بالغة .. على أنّ أكثر الناس يطيعون أهواءهم بقـدر معيّن ، إلّا أنّ من يتخذ هـواه إلهه عـبرة لهم ، ليعرفـوا عاقبة الاسترسـال مع الهوى.

(**وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ**)

إنّه ما أضلّهم إلّا من بعد أن أعطاهم العلم ، فاختلفوا بغيا بينهم ، وقيل على علم من الله أنّه يسـتحق الإضـلال بسبب جحوده بعد اليقين ، وكفرانه بنعمة الهدى ، ويكـون كلا التفسيران إلى معنى واحد.

(**وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ**)

فلا يسمعون ولا يعون الحقائق ، لأنّ الله أبعدها عنهم ، وهل يعطي ربّنا دينه من يعرف أنّه يكفر به سلفا؟!

(**وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً**)

فعند ما يبصر الآيات لا يرى ما وراءها من العـبر ، وما قيمة ظـواهر الآيـات إذا لم يهتد الإنسـان إلى معانيها ، أو تنتفع من سماع لغة لا تعرفها ، أو ينتفع الأمّي إذا نظر في كتاب ، وهل يهتـدي غـير الطـبيب إلى حقيقة المـرض من رؤية أعراضه؟

كذلك نظرات الذين يعبدون أهواءهم تذهب عبثا ، لأنّ تركـيزهم إنّما هو على ظـواهر الأمـور ، ولا يريـدون بلـوغ الحقائق فهم محجوبون عنها.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين ـ عليه السّـلام ـ في صفة هؤلاء :

«**أقبلوا على جيفة (الدنيا) قد افتضـحوا بأكلها ، واصـــطلحوا على حبّها ، ومن عشق شـــيئا أعشى بصره ، وأمرض قلبه ، فهو ينظر بعين غير صحيحة ، ويسـمع بـأذن غـير سـميعة ، قد خـرقت الشـهوات عقله ، وأمـاتت الـدنيا قلبه ، وولهت عليها نفسه ، فهو عبد لها ولمن في يديه شـــــيء منها ، حيثما زالت زال إليها ، وحيثما أقبلت أقبل إليها**» [1]

(**فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ**)

لقد أنعم الله على الإنسـان بالعقل ، وآتـاه البينـات ، فـإن اهتـدى فلنفسه ، وإن أسـاء ، واتبع هـواه ، وانحـرف عن هدى عقله ، وكذّب بالبيّنات ، سوف يضلّه الله.

---

(1) نهج البلاغة / ج (109) / ص (159).

أرأيت من يعطيه العقل من بعد الله ، ومن يمنّ عليه بهدى البيّنات؟

والآية تحذّرنا من مغبّة الاسترسال مع الذنوب إلى أن تسدّ علينا منافذ الهدى كليّا فلا مناص من النار ، وقد قال ربّنا : «**ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّوای أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ**» [1].

وجاء في الحديث عن الامام الباقر ـ عليه السّلام ـ :

«**ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة! إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه ، فيصير أسفله أعلاه ، وأعلاه** أسفله» [2].

قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ : إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منه ، وإن زاد زادت ، فذلك الرين الذي ذكره الله تعالى في كتابه : «**كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**» [3].

وجاء في رواية أخرى عن الامام الصادق ـ عليه السّلام ـ : «إنّ الله إذا أراد بعبد خيرا نكت في قلبه نكتة بيضاء ، وفتح مسامع قلبه ، ووكل به ملكا يسدّده ، وإذا أراد بعبد سوءا نكت في قلبه نكتة سوداء ، وشدّ عليه مسامع قلبه ، ووكل به شيطانا يضلّه» [4].

(**أَفَلا تَذَكَّرُونَ**)

بهؤلاء وتعتبرون بهم.

---

(1) الروم / (10).

(2) روضة الواعظين / ص (414).

(3) المصدر.

(4) بحار الأنوار / ج (70) ص (57).

[24] ويبرّر هؤلاء عبادتهم لأهوائهم بقولهم :

(**وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الـدُّنْيا نَمُـوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ**)

لا شيء وراء ظـاهرة الحيـاة والمـوت ، ولا حـتى الله الذي قـدّر هما ، وما الـدهر سـوى الطبيعة ، وهل للطبيعة إرادة وحكمـة؟! أفلا ينظـرون إلى السـموات والأرض وما فيهما من عظمة التدبير ودقّة التقدير؟!

أفلا يهـديهم العقل إلى أنّ لكـلّ تـدبير مـدبّر ، ولكل تقدير مقـدّر؟! ويبـدو أنّ مـرادهم من المـوت فنـاء جيل ، والحياة نشأة جيل من بعدهم ، فالزمان في زعمهم يميت الأوّلين ، ويحـيى من بعـدهم الآخـرين ، وهكـذا في دورة متتابعة لا يعرف مبتداها ولا منتهاها ، وتبقى الأسئلة حائرة : من أين جئت ، إلى أين أسير؟ وينادي ليس ادري!

ويبـدو أنّ هـذه النظرية يفرزها القلب المختـوم عليه بسـبب عبـادة الهـوى ، وهي تحلّل الإنسـان من كـلّ قيد ، وتطلق عنانه في اتبـاع الشـهوات حـتى النفس الأخـير ، وهي نظرية قائمة على أساس الفراغ العقيدي.

(**وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**)

أي يتخيّلـــون أن لا بعث ولا حســـاب ، أفينبغي أن نرسي بنيـان أفكارنا وأسـاس مجمل ثقافتنا على قاعـدة الظن بعيـدا عن العلم؟! ولكن مـاذا يملك من عبد هـواه ، وأضله الله ، سوى الظنـون؟! إنّ العلم أعظم نعمة ، وهو من عند الله ، فلو سلبه من أحد ، أترى يعرف شـيئا؟ هل يقدر الحائط ــ مثلا ــ أن يعي ما في الحقل ، أم المكيـال ما في البيـدر؟! ولمـاذا؟ مسـتحيل أن يعرفـا. أو ليس لأنّ الله لم يرزقهما العلم؟ كـذلك محـال أن يعـرف من عبد هواه بداية الخلق ونهايته ، لأنّه قد سلب منه

هذا العلم ، وقد تمّ إضلاله على علم.

الـذي يـرى الريـاض الجميلة تتـوق نفسه إليها ، ولكنّ الأعمى يظل يتخيّل ، ويقول ليس ثمّة شيء أبدا. دعه في ضلاله أبدا.

[25] (**وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ**)

حـــتى تكـــاد تلـــزمهم بالحقيقة تهرّبـــوا منها دون أن يملكوا حجة ، بل :

(**ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

وهل إذا أحياهم يؤمنون؟

كلّا .. إنّهم يبرّرون بذلك تهرّبهم من مسئولياتهم.

[26] (**قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ**)

من بعد العـــدم ، بالقـــدرة الـــتي خلق بها الســـموات والأرض من العدم.

(**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**)

وليس الدهر كما زعموا أنّه يهلكهم.

ويبدو أنّ هناك فرقا بين الموت والهلاك : فالموت هو انفصال الروح عن الجسد ، أمّا الهلاك فهو اندثار الشيء ، وهو يتناسب مع الزوال بعذاب ومع الظـروف الـتي تمحي آثـــار الميّت وكأنّه قد تلاشى ، كما اســـتخدم الهلاك في قوله سبحانه : «**وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ**

قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً» [1] ، وقوله تعالى : «**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللـهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَـةِ إِنِ امْـرُؤٌ هَلَكَ**» [2] ، وقوله : «**كُلُّ شَيْءٍ هالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـهُ**» [3] ، فهلاك يوسف انــدثار رســالته ، وعــدم التقيّد بها ، وهلاك المرء انتهاء دوره حـتى أنّ الكلالة يتقاسـمون إرثه ، وكـذا في الآية الثالثة حيث يتمّ تلاشي كـلّ شــيء إلا وجه الله ، كما قال ربّنا سبحانه : «**كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ**».

والله القــادر على الأحيــاء والاماتة هو القــادر على البعث والنشور.

(**ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَـةِ لا رَيْبَ فِيـهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

إذا كان يوم القيامة لا ريب فيه ، فلما ذا نرى أكثرهم لا يعلمون بها؟

بلى. يوم القيامة لا ريب فيه واقعا ، أي لا محالة واقع ، وليس في ذلك تردّد ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمـون بهـذا الواقع ، ولا يغيّر جهل البشر من الواقع شــــــيئا ، فنحن نجهل ـ مثلا ـ وجـود منظومة شمسـية في آخر آمـاد هـذا الفضـاء ، فهل يجعل جهلنا بها وجودنا عـدما؟ كلّا .. ولعـلّ هذه الآيات في القـرآن تعـالج حالة نفسـية عند البشر أنّه يــزعم أنّ مجــرد شــكّه في شــيء يجعله في حــلّ من الالتزامات المرتّبة على وجـوده ، وبالتـالي يتجاهل أشـياء واضحة يزعم أنّه يدرأ عن نفسه أخطارها ، كالنعامة الـتي تخفي رأسها زاعمة أنّها إذا لم تر الصيّاد فإنّه لا يراها! كلا .. الواقع واقع ، ســواء آمنت به أو لم تـؤمن ، فـإذا كـان ذلك الواقع كيــوم القيامة الــرهيب فــإنّ تجاهله مأســاة حقيقية للإنسان.

[27] (**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُـومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ**

---

(1) غافر (المؤمن) / (34).
(2) النساء / (176).
(3) القصص / (88).

(**الْمُبْطِلُونَ**)

أولئك الجــاهلون يزعمـــون أنّ تكـــذيبهم بالســـاعة واســــتهزاءهم بها يكفيهم ، كلّا .. يقـــول ربّنا : إنّ ملك الســـموات والأرض لله ، والله لا يعطي شـــيئا منها لأحد باطلا ، وإنّما رزقهم منها ما يمتحنهم به ، فإذا عملوا باطلا فــإنّهم يخســرون يــوم القيامــة. أو ليست الــدنيا مزرعة الآخــرة؟ أو ليس ما بأيــدينا من قــوة ومــال وبــنين هو رأسمالنا الوحيد ، فـإذا لم نصـلح أمـره بل جعلنـاه في يد اللهو والباطل فإنّ ذلك الخسران؟

[28] ويقصّ علينا حالة الأمم الـــتي قـــالت وعملت باطلا في ذلك اليوم الرهيب ، ويقول :

(**وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً**)

الجثو : هو الجلوس على الركب بخشوع وذل.

(**كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا**)

إنّ الكتاب هو كتاب أعمال الأمم.

وهناك سـؤال : لمـاذا يقـول ربّنا : «**كُـلُّ أُمَّةٍ تُـدْعى إِلى كِتابِهَا**» ، ولم يقل : (كلّ فرد يدعى ..)؟

ولعــلّ الجــواب أنّ القــرآن الحكيم يشــير إلى حسّ التوافق مع المجتمع في الإنســان ، الـتي تجعل المجمـوع مسـئولا عن كـلّ فـرد ، كما أنّ الفـرد له مسـئولية تجـاه المجمـوع ، ذلك لأنّ كثـيرا من أعمـال الفـرد وعاداته إنّما المســؤول عنها المجمــوع ، ونســتطيع أن نشــبّه التجمّع بقافلة ركّاب ، فلو سقطت في الوادي لهلك أهلها جميعا.

والقــرآن يســفّه حالة الانســياق وراء المجتمع ، قـال رسول الله (ص) : «لا يكن

أحـدكم إمّعة ، يقـول : إن أحسن النـاس أحسـنت ، وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم».

ونستفيد من الحديث أنّه لا يوجد في الإسلام حتميّات اجتماعيّة ، ومن الممكن تغيـير الثـوابت والحتميّـات الاجتماعية بإصرار أبناء المجتمع ، ولكن من عـادة النـاس اتباع الحالة الاجتماعية ، إلّا من عصـمه الله ، ولـذلك فهم مشتركون في الجزاء.

(**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

لو قـال ربّنا : «**الْيَـوْمَ تُجْـزَوْنَ ما كُنْتُمْ**» لاحتمل أن يكـون الجـزاء من غـير جنس العمل ، ولكن حـذف البـاء يؤكّد أنّ الجزاء هو ذات العمل الذي اجترحه الإنسان.

[29] (**هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ**)

نطق الكتب قد يكـون بسـبب وضـوح الأعمـال ، وقد يكون النطق بالمعنى الظاهر للكلمة ، أي أنّ الكتاب يفرز الصوت ، وقد أشار القرآن الكـريم إلى مثل هـذا المعـنى في قوله : «(**حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَـهِدَ عَلَيْهِمْ سَـمْعُهُمْ وَأَبْصـارُهُمْ وَجُلُـودُهُمْ بِما كـانُوا يَعْمَلُـونَ* وَقـالُوا لِجُلُـودِهِمْ لِمَ شَـهِدْتُمْ عَلَيْنا قـالُوا أَنْطَقَنَا اللـهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَـيْءٍ**) ...» [1] ففي يـوم القيامة تجسـيد حي لعمل الإنسان ، فربما عرض عليه الصوت والصورة لعمله ، والفـرق بين كتابة العمل في الـدنيا عنه في الآخـرة أنّه في الـدنيا تكتب ظـاهر الأعمـال ، بينما في الآخـرة تثبت بخلفيّاتها ، وبكلّ مقاديرها ونسبها ، إذ تكتب صلاة الاثـنين ، ولكنّ لكلّ صلاة خصوصـيّاتها ، فصـلاة هـذا أكـثر إخلاصا وخشوعا وتأنّ من الآخر ، وكذا في سائر الأعمال.

---

(1) فصّلت / (20 ـ 21).

(**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

والاستنســـاخ هو إعـــادة كتابة الأصل ، فالأصل عند الإنســان ، والكتبة من الملائكة يكتبــون ما يعمل ، ويــدلّ على ذلك قوله : «**اقْـرَأْ كِتابَـكَ كَفى بِنَفْسِـكَ الْيَـوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**» [1].

وهــذا يقودنا إلى أنّ الأعمــال تنعكس على ظــاهر الإنسان في القيامة ، فقد جاء في القـرآن عند بيـان حالة المنــافقين : «**وَلَــوْ نَشــاءُ لَأَرَيْنــاكَهُمْ فَلَعَــرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**» [2] ويحفظ الله الأعمال أيضا على قلب الإنسان على شـكل نكت سـود لا نراها ، ولكنّ الله يعلمها ، وقد ينطقها يـــوم القيامة ، كما ينطق الله أعضـاء الإنســان ، ولعــلّ هــذا أحد مصــاديق الاستنســاخ ، والعلم الحـديث بـدأ بمعرفة الحقـائق عـبر أعضاء الإنسان ، عبر بصماته ، وعبر ضغط الدم في جهاز كشف الكــذب ، وعــبر تقاســيم الوجه ، ومــتى ما علم الإنسـان أنّ أعماله تصـوّر له في الآخـرة وتجسّـد فإنّه قد يئـوب إلى الله إذا كـان غـافلا ، لأنّ الكثـير إنّما يعملـون السيئات وهم في غفلة عن الآخرة.

---

(1) الإسراء / (14).

(2) محمّد / (30).

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31) وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37))

فلله الحمد وله الكبرياء

هدى من الآيات :

كــان الحــديث في الــدرس الســابق عن جثو الأمم خضـــوعا وذلّة يـــوم القيامة ، منتظـــرة كتابها ، ويتصل الحديث هنا بذلك الـدرس عـبر بيـان انقسـام الأمم يومئذ فريقين : مؤمـنين وكـافرين ، ونتسـاءل : لمـاذا يؤكّد الله سـبحانه على تمـايز البشر عند الحسـاب؟ لبيـان أنّ كـلّ إنسان يصنّف حسب عمله وسـلوكه ، لا حسب صـفاته أو لونه أو انتمائه أو حسب وحدته الجغرافية أو حالته التاريخية أو حتى انتمائه الديني ، ولا بد أن نعكس التمـايز في الآخـرة في الـدنيا ، بـأن نصـنّف الأمم والمجتمعـات والأفراد على أساس أعمالهم فقط (مؤمن وكافر).

وتســتعرض الآيــات الأخــيرة صــفات الكفّــار ، كيف استكبروا عن آيات الله وكانوا مجرمين ، وكذّبوا بالســاعة ، واتخذوا آيات الله هزوا ، وغرّتهم الحياة الدنيا ، وبالتـالي استحقّوا عذاب الآخرة.

بينات من الآيات :

[30] يميّز الله الناس يوم القيامة فريقين :

(**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ**)

الرحمة في الدنيا بالنسبة للمؤمنين تختلف عنها في الآخرة ، ففي الدنيا قد يشوبها البلاء والامتحان ، وفي الآخرة تأتيهم صافية من كلّ كدر ، ولعلّ هذا هو إيحاء كلمة «**فِي رَحْمَتِهِ**» حيث تحيط بهم رحمة الله من كلّ صوب ، كما أنّ في قوله «**رَبُّهُمْ**» لمسة حنان وعطف ، وإشارة إلى رحمات الله في الدنيا.

(**ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**)

الذي لا فوز فوقه ، فقد نجّوا من عذاب شديد ، وضمّهم الربّ في ضيافته ، وأدخلهم في بحار رحمته. أفيتصوّر القلب فوزا أعظم منه؟ تعالوا نسموا إلى حالة التطلّع إلى هذا الفوز العظيم ، لعلّنا ندركه بتوفيق الله.

[31] (**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**)

فإنّهم يدخلون النار ، ويطالبون بالاعتراف بجرمهم المتمثّل في استكبارهم ذلك الذي أرداهم في جهنّم.

(**أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ**)

في هذه الآية مصطلحات ثلاثة : الكفر والاستكبار والاجرام ، أمّا الاستكبار فهو منطلق الكفر ، بينما الجريمة عاقبته ، ذلك لأنّ الإنسان إذا استقبل آيات الله من دون حجب ، ومن دون مفاهيم وعقائد مسبقة ، فإنّ فطرته وعقله يقودانه إلى تقبّلها ، ولكن إذا ما استقبل الإنسان آيات ربه عبر نظّارة الاستكبار السوداء ، ورأى نفسه

أكبر من الحق ، أو أنّ ذاته هي المحور وليس الحق ، فإنّه لن يتقبّلها ، ومـتى ما جعل الإنسـان نفسه فـوق الحق أو اعتبرها هي الحق ، فإنّه سوف يتجـاوز الآخـرين ويظلمهم ويجرم بحقّهم ، ونقرأ في الروايات ما يهدينا إلى ذلك :

1 ـ عن أبي عبدالله (ص) قـال : «الكـبر أن تغمص الناس ، وتسفّه الحق» [1].

2 – وعنه (ع) : «قـال رسـول الله ـ صـلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّ أعظم الكبر غمص الخلق ، وسفّه الحق» ، قال (الراوي) : قلت : وما غمص الخلق ، وسفه الحـق؟ قـال : «يجهل الحق ، ويطعن على أهله ، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه» [2]

[32] ولكي نتخلّص من الكفر والاسـتكبار والاجـرام يجب أن نجعل الحـقّ هو المحـور ، وأن نتـذكّر بـالآخرة ، ونخشى الجزاء فيها.

(**وَإِذا قِيـلَ إِنَّ وَعْـدَ اللـهِ حَـقٌّ وَالسَّـاعَةُ لا رَيْبَ فِيها**)

لم ينكـرون الآخـرة على شـدّة وضـوحها ، فالإنسـان يـرى بفطرته أنّ الجـزاء واقع ، كما يـرى تحقيق ذلك في الدنيا ، فمن يظلم يبتليه الله ، بينما يحصل المحسن على جزاء حسن ، ولكنّه يرى أنّ سنّة الجـزاء ليست دائمة في الدنيا ولا وافية ممّا يهديه إلى يوم الجزاء الأوفى.

وحين يراجع قلبه يـــــراه مقتنعا به ، إلّا أنّه يجحد به لاسـتكباره عنـادا وعتـوّا ، ويتسـاءل : ما السـاعة؟ أيّـان مرساها ، وما أشراطها ، وكيف يبعث الله الرميم ، وكيف تتمثّل الأعمال فيها تمثّلا؟

---

(1) بحار الأنوار / ج (73) / ص (217).

(2) المصدر / ص (218).

(**قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ**)

كذلك يجعلون جهلهم بالساعة (كيف ومتى ...) عـذرا لانكارها ، بينما العقل يـدعوهم إلى الإيمـان بالحقيقة إذا توافرت لـديهم الشـواهد ، ثم السـعي لمعرفة المزيد من تفاصـيلها. أرأيت لو تكـاملت الحجة على وجـود مدينة في أقصى الشـرق ، ولكن لا تعـرف عنها شـيئا كثـيرا ، فهل تنكر وجودها رأسا أم تعترف بها ثم تبحث عن التفاصيل؟

والواقع : إنّ كثيرا من الناس ينكرون حقائق الرسـالة لأنّهم لا يعرفون التفاصيل عنها ، بل تراهم يعادونها بمجرّد جهلهم بأبعادها ، وقد قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : «**الناس أعداء ما جهلوا**»

(**إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**)

هكذا شكّكوا أنفسهم حتى زعمـوا أنّهم لا يملكـون إلّا الظنّ دون اليقين ، ولكن هب أنّهم يظنّـون أفلا تـدعوهم عقـولهم إلى أخذ الحيطة والحـذر؟! فـالظن ليس مـبرّرا للجحـود بالسـاعة. أو ليس مجـرّد الظن بوجـود أسد في الغابة كـاف لأخذ الحيطـة؟ وكـذا الظن بالسـاعة يجب أن يدفعنا إلى تجنّب خطرها.

[33] (**وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا**)

ونتساءل : لمـاذا قـال ربّنا : «**وَبَـدا لَهُمْ سَـيِّئاتُ ما عَمِلُوا**» ، ولم يقل : (**وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا**)؟

ربما لأنّهم في الآخـرة لا تبـدو لهم الأعمـال السـيئة ، ولكن نتيجة عمل السيئات ، كالحيّـات والعقـارب والحميم والعذاب.

«**وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**»

ففي الآخـرة تـنزل بهم نتيجة الاسـتهزاء ، وتحيط بهم إحاطة الســـوار بالمعصم ، وقد قــــال البعض أنّ كلمة «**حـاقَ**» مشـتقّة من مـادة الحق ، ويكـون معناها آنئذ أنّ ذلك الذي سـخروا منه ـ زعما بـأنّ باسـتطاعتهم التهـرّب منه ــ قد نــزل بهم ، وأصــبح حقّا واقعا لا منــاص من الاعتراف به.

[34] (**وَقِيـلَ الْيَـوْمَ نَنْسـاكُمْ كَما نَسِـيتُمْ لِقـاءَ يَوْمِكُمْ هذا**)

لقد تغافلوا عن الآخرة ونعيمها حـتى كـأنّهم نسـوها ، وهنـاك يغفل عنهم حـتى لكـأنّهم منسـيّون ، فلا يقـدّر لهم خير ، ولا يـدفع عنهم ضـرّ ، جـزاء وفاقا لتناسـيهم الحق ، وإمعانا في إذلالهم عقابا على استكبارهم.

وبـالطبع لا يعـنى نسـيان الله جهله بهم ، كما لا يـدل نســيانهم جهلهم بــالآخرة ، قد ذكر في الرواية أنّه جــاء بعض الزنادقة إلى أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ وقـال : لــولا ما في القــرآن من الاختلاف والتنــاقض لـدخلت في دينكم ، فقال له علي ـ عليه السّـلام ـ : وما هـو؟ قـال : قوله : «**نَسُــوا اللـــهَ فَنَسِـــيَهُمْ**» وقوله : «**فَــالْيَوْمَ نَنْسـاهُمْ كَما نَسُـوا لِقـاءَ يَـوْمِهِمْ هـذا**» وقوله : «**وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**» ... إلخ.

قال أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ : فأمّا قوله تعالى : «**نَسُـوا اللـهَ فَنَسِـيَهُمْ**» يعـني إنّما نسـوا الله في دار الـدنيا ، لم يعملـوا بطاعته ، فنسـيهم في الآخـرة ، أي لم يجعل لهم من ثوابه شـيئا ، فصـاروا منسـيّين من الخـير ، وكذلك تفسـير قوله عـزّ وجـلّ : «**فَالْيَوْمَ نَنْسـاهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا**» يعني بالنسـيان أنّه لم يثبهم كما يثيب أولياءه ، الذين كانوا في دار الدنيا مطيعين ذاكرين ، حين آمنوا به وبرسوله ، وخافوه بالغيب.

وأمّا قوله : «**وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**» فإنّ ربّنا تبارك وتعالى علوّا كبيرا ليس بالذي ينسى ولا يغفل ، بل هو الحفيظ العليم ، وقد يقول العرب : قد نسينا فلان فلا يذكرنا ، أي أنّه لا يأمر لهم بخير ولا يذكرهم به [1].

(**وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ**)

وكثيرا ما يؤكّد الله عدم النصرة في الآخرة ، لأنّه لا ينجي من عذاب الله ناصر ـ إن وجد فعلا ـ فلا الطواغيت والأخلّاء ولا الثقافة الفاسدة والأهواء تنصرنا من الله ، وتنجينا من عذابه ، وهذا غاية الضعف والمسكنة في الآخرة ، فالإنسان يقف فريدا ، وأمامه النار ، ولا يجد من يذبّ عنه ، فتراه مستسلما.

[35] لماذا يحيق بهم العذاب ، وينساهم الله ، ولا يجدون لهم نصيرا؟

أوّلا :

(**ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً**)

ثانيا :

(**وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا**)

وتصوّرتم أنّكم فيها ماكثون ، وكفرتم بآخرتكم.

(**فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**)

إنّهم لا يخرجون من النار لأنّها حاقت بهم ، وصارت مأواهم ، ولا يعاتبهم الله لأنّه لا داعي للعتاب ، ما دام قد أدخلهم النار ، والعتاب نوع من الإكرام وهم

---

(1) بحار الأنوار / ج (93) / ص (98 ـ 99).

لا يستحقّونه ما داموا قد استهزءوا بالحق.

[36] (**فَلِلَّهِ الْحَمْـدُ رَبِّ السَّـماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

ربما لأنّ الله أراد أن ينهي سورة الجاثية الـتي كـانت شـديدة الوقع على النفـوس بما فيها من آيـات الإنـذار والعـذاب بإعطـاء الأمل ، فلله الحمد لأنّه تعـالى يفعل ما يسـتحقّ الحمد ، وله الحمد لأنّه ربّ السـموات والأرض ، إذ بثّ فيهما آياته ، وجعلها هـدى للمؤمـنين ، ولأنّه يمسك السموات والأرض أن تزولا ، وله الحمد ربّ العـالمين لأنّه خلقهم ورزقهم ، وفطرهم على الايمان ، وهو بهم رحيم.

(37) وكما أنّ له الحمد في السـموات والأرض فله السلطان والملك.

(**وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

فلما ذا تتكبّرون عن آياته ، ما دام هو واسع الكبرياء ، وإنّ آيـات كبريائه سـبحانه تتجلّى في كـلّ شـيء في السموات والأرض.

(**وَهُوَ الْعَزِيزُ**)

فهو المقتدر القاهر على عباده ، يجـري فيهم سـننه ، ويمضي فيهم قدره ، شاؤوا أم أبـوا ، ولكنّه لا يفعل إلّا ما تقتضيه حكمته البالغة.

(**الْحَكِيمُ**)

فلا يظلم ولا يجـور ، ويعطي كـلّ ذي حـقّ حقّه ، سبحانه.

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قـال الامـام ابو عبدالله الصـادق (ع): «**من قـرأ كل ليلة أو كل جمعة سـورة الأحقـاف لم يصـبه الله عز وجل بروعة في الحياة الـدنيا ، وآمنه من فـزع يـوم القيامة إن شاء الله**».

تفسير نور الثقلين ج 5 ص 7

الإطار العام

لكي نبصر حقيقة الأشــياء لا بد أن نعــرف الحقــائق الكبرى التي هي غيب كلّ حقيقة وهي :

أوّلا : حقيقة الخلق ، وأنّ كــلّ شــيء قد أنشأ وقــدّر ودبّر أمره من لدن عزيز حكيم.

ثانيا : حقيقة الواقعية ، وأنّ الأشــــياء حق لا وهم ولا خيال.

ثالثا : حقيقة الزمن وأنّ لكلّ شيء أجلا.

ولكن لماذا لا يفقه أكثر الناس هذه الحقائق الواضحة ، وحــتى حين ينــذرهم الله عــبر الرسل تــراهم يعرضــون عنها؟

لعلّ أهم قضية تعـالج في القـرآن هي هـذه القضـية ، لأنّه من دون معالجتها لا يبلغ الإنسان علما ولا حكمة.

والسـؤال : ما هي الحجب الـتي تغشى أبصـار الخلق عن رؤية هذه الحقائق؟

إنّها عديــدة ، ولعــلّ الســياق في ســورة الأحقــاف يعالجها مع التركيز على بعضها ، شأنها شأن سائر السور.

أوّلا : الشـرك بـدعوة غـير الله ، ويتسـاءل السـياق : تــرى هل خلقــوا ما يــدعونهم شــيئا من الأرض أم لهم مساهمة في إدارة السموات؟

كلا .. ثمّ أنهم لا يســتجيبون لهم بشـــيء إلى يـــوم القيامة ، ويعادونهم يوم الحشر.

ثانيا : كيل التهم (والأحكـام المسـبقة والباطلـة) على الرســـالة والرسل ، ممّا يحجبهم عن معرفة حقيقتهما ، فقالوا أنّها سحر وأنّه مفتر.

وكيف يكـون مفـتر والله يحيط قـدره بمن يفـتري ، ويحيط بكلّ شيء علما ، وهو شهيد على صدق الرسالة؟! وهذا الرسول ليس بدعا فلقد بعث الله أنبياء سابقين.

ثم أنّ الرســـول متمحّض في رســـالته فما عليه إلّا البلاغ ، ثمّ أنّ بعض علماء بني إسرائيل قد شهد بصـدقه ، بينما استكبر الجاهلون.

وقد يكـون الحسد والضـغينة والعصـبية تجـاه صـاحب الدعوة سببا للكفر بها ، ولكن لما ذا يحرم الإنسـان نفسه من الحق لموقفه الشخصي ممّن يـدعوه إليـه؟ وأساسا : لماذا هذا الموقف الظالم الذي يصدّ الإنسان عن الهـدى ، ذلك أنّ الله لا يهدي القوم الظالمين؟

وكتـاب موسى (الـذي يتعصّـب البعض له ، ويصـدّون عن النسخة الأكمل منه) ما نزل لتأييد الظلم ، بل رحمة ، وهكذا القرآن ، فهو نذير للظالمين ، وبشرى للمحسنين.

وأصحاب الرسالة بحاجة إلى الاسـتقامة لمواجهة تلك العقبات ، وآنئذ لا خوف

عليهم ولا هم يحزنون.

والموقف السـليم من الجيل الماضي يسـاهم في توفير فرض الإيمان ، ويبيّن السياق وصية ربّنا بالوالـدين ، كما يـبيّن التطلّع المشـروع عند الإنسـان في إنشـاء ذرّيّة صالحة.

ويعد التـائبين في سـنّ الأربعين المسـلّمين لـربهم غفران الذنوب ، ودخول الجنّات.

أمّا المتمـرّد على والديه وهما يدعوانه للايمـان ، لأنّ وعد الله حق ، فيقول ما هذا إلّا أساطير الأوّلين فانّه مثل لمن أعاقته نزوة الشباب عن اتباع الحق الذي يـدعوا إليه آبـاؤه (وهو بالتالي مثل للظالم الـذي منعه تمـرّده على أبيه عن اتباع الحق لمجرّد أنّه دعوة أبيه).

وبعد أن يـبيّن القـرآن أنّ درجـات النـاس على قـدر أعمـالهم ، يعـرض لنا صـورة أهل النـار تسـتقبلهم جهنّم بلظاها ، وهم يحـاكمون هنالك لأنّهم أذهبـوا طيبـاتهم في حياتهم الدنيا ، (ويبدو أنّ الإسراف في اللذات عقبة أخرى في طريق الإيمـان) ، ولعـلّ الإسـراف في الاسـتمتاع بالطيبـات سـببه الاسـتكبار في الأرض ، وعاقبته الفسق عن حدود الشريعة.

وأيّة عقبة كـأداء كالاسترسـال مع العـادات البالية والتقاليد الباطلة ، كما فعلت عاد حيث أعرضوا عن أخيهم هود وهو ينـذرهم بالأحقـاف ويسـتعجلونه العـذاب ، ولكن حين استقبلهم عارض في الأفق زعموا من فـرط غفلتهم أنّه عارض ممطرهم ، بينما كان ريحا تدمّر كلّ شيء بأمر ربّها.

لما ذا كفـرت عـاد ، هل لفقر وحاجة ، أم لنقص في وسائل المعرفة من السمع

والأبصــار؟ كلّا .. إنّما لجحــود آيــات الله والاســتهزاء بها ، فكانت عاقبتهم الدمار.

أفلا نعتــبر بمصــيرهم قبل أن نصــبح عــبرة لمن يتعظ من بعدنا؟ أفلا نزور الأطلال التي بقيت من القرى الهالكة ، وننتفع بالآيات التي صرّفها الله لإيقاظنا من الغفلة؟

إنّ هذه الآية التي يعتمد عليها الإنسان في كفره بربّه ، ويــزعم أنّها مانعته من عــذاب الله ، هلّا منعت عن تلك القرى العذاب.

وتــرى بعضــهم يســتعيذون بــالجن ، ويزعمــون أنّهم يكفونهم العذاب ، بينما الجن كما الانس أنذروا بالرسالة ، ولقد صــرف الله نفــرا منهم فاســتمعوا للقــرآن فأصــبحوا منذرين ، ودعوا قومهم للاستجابة للرسالة ، وبيّنوا لهم أنّ من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض.

وتــبيّن الآيــات الأخــيرة من الســورة قــدرة الله على إحيــاء المــوتى ، وأنّ الكفّــار يؤمنــون بــذلك حين يــرون العــذاب ، وأنّ على الرســول الصــبر في دعوته دون أن يستعجل لهم ، لأنّه مهما طــال بهم العمر فــانّ مكثهم في الدنيا يشبه ساعة إذا قيس بالخلود في النار.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيــزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْـذِرُوا مُعْرِضُـونَ (3) قُـلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللــهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُــوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِــرْكٌ فِي السَّــماواتِ ائْتُـونِي بِكِتـابٍ مِنْ قَبْـلِ هـذا أَوْ أَثـارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَـلُّ مِمَّنْ يَـدْعُوا مِنْ دُونِ اللـهِ مَنْ لا يَسْـتَجِيبُ لَـهُ إِلى يَـوْمِ الْقِيامَـةِ وَهُمْ عَنْ دُعــائِهِمْ غــافِلُونَ (5) وَإِذا حُشِــرَ النَّاسُ كـانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كــافِرِينَ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا

---

(4) (أَثارَةٍ) : بقية.

سِـحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُـونَ افْتَـراهُ قُـلْ إِنِ افْتَرَيْتُـهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُــونَ فِيــهِ كَفى بِــهِ شَــهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُــوَ الْغَفُــورُ الرَّحِيمُ (8)

---

(8) (**تُفِيضُونَ فِيهِ**) : أي ما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه أنه سحر.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ

بينات من الآيات :

[1] تبــدأ هــذه الســورة المباركة بكلمة قصــيرة ، مقطّعة تشبه سائر المقطّعات القرآنية التي مررنا بها في السور المتقدمة ، وسبق الحديث عن تفسيرها ، وهي :
(**حم**)

[2] (**تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**)

سمّي الكتاب كتابا لأنّه مكتوب مثبّت ، وكذلك القرآن ، فهو مكتــوب ودائم وثــابت ، ولهــذا ســمّي باسم «الكتاب» ، وثبات القـرآن يختلف كثـيرا عن سـائر الكتب لأنّه كما قــال الرســول الأعظم (ص): «**فضل القــرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**» [1].

والسؤال : لماذا لا يقـاس القـرآن بـالكتب البشـرية؟ لماذا بينهما مسافة لا تحد؟

(1) بحار الأنوار / ج 95 / ص 19

والجواب : لأنّه نزل من الله ، والله هو العزيز الحكيم ، فبعزّته يفـرض الكتـاب على الإنسـان والطبيعة فرضا ، وبحكمته يجعله كتـــاب هداية وبصـــيرة ، ومصـــدر توجيه للإنسان إلى الحق وإلى ما فيه صلاحه.

[3] وفيما يلي من الآيـات يحـدّثنا القـرآن الحكيم عن تجلّيات اسمي العزّة والحكمة في الكون ، وعن الظــواهر ذات الدلالة الواضـحة على عـزّة الـربّ وحكمته ، ونحن لا بد أن نفقه تلكم التجلّيــات وهــذه الظــواهر ، لأنّ فهمنا للخليفة من حولنا لا يكـــون فهما عميقا إلّا إذا كـــان فهما مترابطا متفاعلا ، فلا بد أن نربط ـ مثلا ـ بين ارتفاع القمر ونزوله وبين المدّ والجزر في البحر ، كما نربط بين طلوع الشمس وبين التفاعلات الكيماوية التي تحـدثها في أوراق الأشـجار ، فالكائنـات حقـائق مترابطة يتصل أدنى شـيء منها بأقصاها ، والكبير والصغير والقــريب والبعيد في ذلك سواء ، كلّهم متفاعلون مع بعضهم يجري ربّنا عليهم حكما واحــدا ونظاما مطّــردا ، ولا نســتطيع أن نفهم القــوانين الثابتة الــــتي تجــــري في الخلق إلّا بفهم ذلك التفاعل ، فالقانون الذي تتحرّك على أساسه أكـبر مجـرّات الفضـاء هو نفس القانون الذي تتحرّك وفقه الكريات المتناهية في الصغر داخل الـدرّة المتواضـعة ، ثم إنّ كـلّ ذلك التواصل والتفاعل والخضـوع للسـنن الواحـدة يهـدينا إلى الحقيقة العظمى الا وهي التوحيد : ان ربّنا العزيز الحكيم هو الخالق لها جميعا ، وهو المدبر لها.

ويبدو انّ منهج القـرآن لانمـاء هـذا الـوعي الشـمولي للكائنــات الــذي يشــكل مســتوى رفيعا من تكامل عقل الإنسان يتمثل في انّ القرآن يذكّرنا باسم من أسماء الله الحســنى ، تم يتــدرّج نــازلا من ذلك الاسم إلى مختلف الظـواهر الـتي يتجلّى فيها ذلك الاسم الكـريم ، في عـالم الطبيعة (الآفـاق) وعــالم الإنســان (الأنفس) ، في حاضر الإنســان أو ماضـيه أو مسـتقبله ، لكي تتمـاوج بنـور الله اشعة فكـره صـاعدة من بعض ظـواهر الخلق إلى أسـماء الخالق ، ونازلة من أسماء الربّ إلى سائر الظواهر ،

ومن ماضي البشرية إلى حاضرها وإلى مستقبلها ، فتتسع آفــاق معرفته ، وتغــور في أعمــاق الغيب بصــائر وعيه ، ويســمو في درجــات اليقين عقله ، وتزكو بنــور الايمــان نفسه ، ويهديه الله الى نــوره الأبهى ، قويا عزيــزا كما أنّ ربّه قــوي عزيز ، ويصــبح حكيما خبــيرا كما أنّ ربّه حكيم خبير ، كلّ ذلك بمعرفة أسماء الله الحسنى.

وربما تدرّج المنهج القــرآني بصــورة عكســية ، فيــبين ظاهرة في آفاق العالم أو أغوار النفس أو أبعـاد التـاريخ ، ثم يــذكر اســما من أســمائه الحســنى ، ونهايـات الآيـات القرآنية مثل : (**وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**) ، (**وَاللـهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) ... مفيدة جـدا لو تـدبّرنا فيها ، لأنّ الـرب يـذكّرنا بظـاهرة ثم يربط بينها وبين اسم من أســمائه الحســنى ، فـاذا وعينـاه حـقّ الـوعي عرفنا تجلّياته في سائر الظواهر أيضا.

وحيث ذكّر الســياق في الآية الثانية أنّ هــذا الكتــاب مــــــنزل من الله ، والله هو العزيز الحكيم بيّن في الآية الثالثة بعض تجليات العزّة والحكمة ، فقال :

(**ما خَلَقْنَا السَّــــــماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى**)

لقد خلقها على عظمتها الهائلة فهو إذا قـــوي عزيز ، ولانّ بناءها كان قائما على أساس الحق فهو إذا حكيم.

ونســــتوحي من هــــذه الآية أنّ حكمة الله اقتضت محدودية الخليقة ، فلكــلّ شــيء يه أجل معــدود ، وحد محـدود ، هكـذا يكـون الزمـان جـزء من حقيقة الخليقة ، وربما انفتحت أمامنا آفاق واسعة لو تدبّرنا أكثر فأكثر في حرف البـاء الـذي يسـتخدم للاسـتعانة ، وتسـاءلنا : لمـاذا ذكـره السـياق فيما يتصل بالأجل كما ذكـره عند الحـديث عن الحق ، فهل يمكن أن نســــتنتج أنّ الحق والأجل هما ركيزتا الخلق ، على أن يكون الحق هو المعبّر عن النظـام الحق الذي يسيّر الخليقة ، والأجل هو الجانب

المادي للخليقة ، ثمّ هل نستطيع أن نقـول أنّ الحق تجـلّ لاسم الحكمة ، والأجل لاسم العـزّة؟ أنّى كـان فـانّ الله يشير في مواقع عديدة من القرآن إلى مثل ذلك ، فيقـول ـ مثلا ـ في سـورة الأعـراف (آية 54) ـ : (**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ**) ، ويقـول في سورة فصّلت (آية 9 ـ 10) ـ : (**قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ**).

ولا بد أن نعيش هـذه الحقيقة فيما يتصل بموقفنا من الوقت الذي هو جزء من حقيقتنا ، وانّ وعي الزمن ركيزة أساسـية في حكمة البشر ، وسـلامة عقله ، وتنـامي حضارته.

لا بـدّ أن نعـرف أنّنا ـ نحن البشر ـ كسـائر الأشـياء الأخـرى ، يحـدونا الليل والنهـار ، ويتعقّبنا المـوت ، وإذا ينبغي علينا أن نخـاف ونخشى ، ليس لأنّ حياتنا الـدنيا ستنتهي ويقفل المـوت أبوابها ، بل لأنّ النهاية سـتلقي بنا وإلى الأبد في واحـدة من اثنـتين إما روضـات النعيم وإمّا حفر الجحيم.

ولأهمية العلم بهذه الحقيقة كـان الامـام علي ـ عليه السّـلام ـ يـذكّر بها أبنـاءه وأنصـاره في مواعظه البليغة ، فـترى يـذكّر بها ـ مثلا ـ في وصـيته لابنه الحسن ـ عليه السّلام ـ حيث يقول في أوّلها :

«من الوالد الفـان ، المقر للزمـان ، المـدبر العمر ، المستسلم للـدنيا ، السـاكن مسـاكن المـوتى ، والظـاعن عنها غـدا ، إلى المولـود المؤمّل ما لا يـدرك ، السـالك سـبيل من قد هلك ، غـرض الأسـقام ، وأسـير المـوت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحزان ،

ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأمـوات». ثم يشـرع فيها (ع) وكـان ممّا قاله خلالها : «وذلّله ــ قلبك ــ بذكر الموت ، وقرّره بالفناء ، ... ، وحذّره صـولة الـدهر ، وفحش تقلّب الليالي والأيـام» ، «واعلم أنّ مالك المـوت هو مالك الحيـاة ، وأنّ الخـالق هو المميت ، وأنّ المفـني هو المعيد» ، «واعلم انّ أمامك عقبة كؤودا ، المخفّ فيها أحسن حـــالا من المثقل ، والمبطئ عليها أقبح حـــالا من المســـرع ، وأنّ مهبطك بها لا محالة امّا على جنة أو على نــــار ، فارتد لنفسك قبل نزولك ، ووطّئ المـــــنزل قبل حلولك ، فليس بعد المـــوت مســـتعتب ، ولا إلى الـــدنيا منصرف» ، «واعلم يا بنيّ أنّك انّما خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفنـاء لا للبقـاء ، وللمـوت لا للحيـاة ، وأنّك في قلعة ، ودار بلغة ، وطريق إلى الآخـــرة ، وأنّك طريد المـــوت ، الــــذي لا ينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، ولا بـــــدّ أنّه مدركه ، فكن منه على حـذر أن يـدركك وأنت على حـال سـيئة ، قد كنت تحـدّث نفسك منها بالتوبة ، فيحـول بينك وبين ذلك ، فـاذا أنت قد أهلكت نفسـك» ، «يا بـنيّ أكـثر من ذكر الموت ، وذكر ما تهجم عليه ، وتقضي بعد الموت إليه ، حـتى يأتيك وقد أخـذت منه حـذرك ، وشـددت له أزرك ، ولا يأتيك بغتة فيبهـرك» ، «رويـدا يسـفر الظلام ، كـأن قد وردت الأضـغان ، يوشك من أسـرع أن يلحـق! واعلم يا بـــنيّ أنّ من كـــانت مطيّته الليل والنهـــار ، فانّه يسار به وإن كان واقفا ، ويقطع المسافة وإن كـان مقيما وادعـــــا» ، «واعلم يقينا أنّك لن تبلغ أملك ، ولن تعــــدو أجلك» [1]

هكذا أشـبع (ع) وصـيته بتلك الحقيقة ، ولو نظرنا في خطبه ورســــائله وحكمه في نهج البلاغة لرأينا أنّ أغلبها يركّز على تلك الحقيقة وتحوم حولها.

وهكذا القـرآن الحكيم يـذّكر البشر بـالموت والنشـور والحساب والجزاء ، وأنّ الإنسـان محـدود ، وأنّه إذا جـاءه أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ، ولكنّ أكثر

---

(1) نهج البلاغة / رسالة 31

الناس لا يعقلون هذه الحقيقة ، سـادرين في الغفلة حـتى ينتهي أجلهم ، ويفاجئهم الموت.

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ**)

والعلاقة متينة بين خاتمة الآية وفاتحتها ، حيث أنّ الذين كفروا يعلمون أنّ الله لم يخلق السـماوات والأرض وما بينهما إلّا بـالحق وأجل مسـمّى ، ثم تـترى عليهم نـذر ربّهم فيعرضون عنها.

[4] وقد يتهـرّب الإنسـان من هـذه الحقيقة بالشـرك الذي هو حجاب بين الإنسان وبين فهم الحقـائق ، فـيزعم بأنّ شيئا ما يستطيع إنقاذه من قبضة المـوت أو الحسـاب من بعده.

قـال الامـام علي (ع): «**ما رأيت إيمانا مع يقين أشبه منه بشك على هذا الإنسان ، إنّه كلّ يوم يودّع إلى القبور ويشيّع ، وإلى غـرور الـدنيا يرجع ، وعن الشهوة والذنوب لا يقلع**» [1].

وقال الامام الصادق (ع): «**لم يخلق الله عـزّ وجـلّ يقينا لا شك فيه أشـبه بشك لا يقين فيه من الموت**» [2].

إنّ الناس كلّهم يموتـون ، وهـذه حقيقة لا شك فيها ، ولكنّ أغلبهم يتصـوّرون في خبيئة أنفسـهم أنّهم يبقـون ويخلدون في الـدنيا ، ولعـلّ سـبب ذلك هو فظاعة تصـوّر الموت وما وراءه من حساب دقيق وجـزاء أوفى ، ولـذلك تراهم يتشبّثون بأيّ تبرير ليقنعوا أنفسهم بأنّهم لا يموتـون أو لا يحاسبون ، وهنا تنعقد نطفة الشرك والتوسّل بغير

(1) بحار الأنوار / ج 6 / ص 137

(2) المصدر / ص 127

الله ابتغاء إنقاذهم من مصيرهم المحتوم ، فقد يتصـوّرون المال منقذا لهم من الموت ، فتراهم يجمعون البلايين من الدولارات ، ويحرصون في الحصول على الأكـثر ، بـالرغم من أنّ تلك الأمــوال الهائلة تكفيهم وتكفي ذريّــاتهم إلى عشـرات الأجيـال ، ولكنّهم لا يريـدون المـال للعيش به ، وإنّما لسد النقص الـذي يشـعرون به في أنفسـهم ، إنّهم فعلا يفتّشون عن الخلود ، ويخافون العاقبة المرّة ، يقـول تعالى موضحا هذه الحقيقة : (**الَّذِي جَمَـعَ مـالاً وَعَـدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ**) [1] ، «**وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**» [2] ، وقد يتصوّرون السـلطة سـببا للفـرار من المـوت ، ووسـيلة للهـروب من الفنـاء ، قـال تعـالى عن فرعون : (**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُـونَ**) [3] ، وقد يتصـوّرون أنّ القوة المحـدودة الـتي يملكونها تحجز عنهم أمر الله فيهم بـالموت أو الحسـاب أو العـذاب ، قـال تعـالى : (**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ**)» [4].

ولكن كلّ تلك التصوّرات زائفة ، ولهذا يقـول الـرب : (**أَيْنَما تَكُونُـوا يُـدْرِكْكُمُ الْمَـوْتُ وَلَـوْ كُنْتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**) [5] ، ويقول عزّ وجل : (**وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَـوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ**) [6] ، فأنت كنت تخاف من سكرة الموت ، وحـتى تخلّص نفسك منها ولو عـبر عملية الخـداع الـذاتي أشـركت بالله ما ليس لك به علم ، والآن هل يمكن أن يغـني عنك ذلك الشـريك شـيئا؟ كلّا .. فهي قد جاءتك ، وسـتذوق مـرارة المــوت ، وتتحسس عنفه وفظاعة نزعاته.

---

(1) الهمزة / 2 ـ 3
(2) الشعراء / 129
(3) القصص / 39
(4) الحشر / 2
(5) النساء / 78
(6) ق / 19

وفي الحقيقة : لو يتفكّر الإنســـــان ويتعمق في واقع أمر الشركاء يعلم بفطرته أنّهم لا يغنون عنه شيئا ، ولكنّه يشبه ذلك الغريق الذي يتشـبث بكـلّ حشـيش ، مع علمه بعدم جـدوائيتها ، وإنّما يريد أن يقنع نفسه بأنّه يعمل على إنقاذها.

كلّا .. إنّ فطرة الإنسان تهديه إلى أنّ الشـريك الـذي يتخذه من أجل إنقاذ نفسه لا بد أن يكـون ذا قـوة كافية ، لا بد أن يخلق شـيئا في الأرض (حـتى يتسـاوى مع خـالق الكائنات ولو بقـدر محـدود) أو يمتلك سـلطة ما في إدارة السماوات.

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ**)

وهم يعرفون ـ حقا ـ أنّ شركاءهم ليسـوا كـذلك ، ولا لهم علاقة بالله يوظّفونها لمصـلحة المشـركين إذا فـأين حجتهم في ذلك؟

(**ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا**)

فـــأي كتـــاب من الكتب الســـماوية دلّ على أنّ لله شريكا؟

(**أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ**)

وأي بقيّة من بقايا العلم ، دلّت على أنّ له شريكا؟

(**إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

إذا كان بامكانكم أن تأتوا ببرهان فأتوا به ، من كتـاب يتلى أو حديث يروى؟

ولكن من لا برهان له يتشبّث بأفكار باطلة ، مع علمه بكـــــــذبها ، وإنّما لكي يخلّص نفسه من مواجهة الحقيقة المرّة ، وهذه ضلالة خطيرة ، فهو كمن يفقد عزيزا

ويصعب عليه امتصاص صـدمة فقـده فيبـادر قـائلا : كلّا .. إن غير ميت.

[5] (**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللـهِ مَنْ لا يَسْـتَجِيبُ لَـهُ إِلى يَـوْمِ الْقِيامَـةِ وَهُمْ عَنْ دُعـائِهِمْ غافِلُونَ**)

هكذا هم الشركاء. إنّهم لو دعـاهم الإنسـان إلى يـوم القيامة لما اســـتجابوا له ، بل هم غــــافلون عن دعائه يشغلهم شأنهم الخاص عن شؤون الداعين ، وسـواء كـان الشـــركاء الحجرية ، أو الأمــوات ممن يــزعم الشـــركاء المشـــركون انهم شـــفعائهم يـــوم القيامة ، أو الأصـــنام البشـرية الـتي تعبد من دون الله ، فـان لكـلّ واحد منهم سببا لغفلته عمّن يدعونهم ، أمّا الأحجار فانّها لا تعي شـيئا ، وأمّا الأمــوات فهم عند ربّهم مجزيّـون بأعمـالهم ، وأمّا سـلاطين الجــور والمــترفون وأشـــياعهم فهم لا هـــون بمصالحهم عن مصالح من يشرك بهم.

[6] (**وَإِذا حُشِـرَ النَّاسُ كـانُوا لَهُمْ أَعْـداءً وَكـانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ**)

ويوم القيامة يكفر المشركون بشركائهم ويعـادونهم ، ويقولـون لهم : أنتم الـذين ضـيّعتمونا ، وأدخلتمونا النـار ، وقد قال ربّنا سـبحانه في آية كريمة يصـوّر لنا العلاقة بين الطرفين يوم القيامة : (**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُـوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَـذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْـبابُ* وَقـالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَـوْ أَنَّ لَنا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَـرَّؤُا مِنَّا**) [1].

[7] وأمّا الرسالة ، فكيف كانوا يتعاملون معها؟

(1) البقرة / 166 ـ 167

والجـــــواب : إنّهم من أجل رفض الأفكــــار القرآنية السليمة كانوا يلفّقون تهما ويلصقونها بها.

(**وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ**)

إنّها واضحة بيّنة ، حتى لتكاد تكرههم بقبولها ، ولكنّهم يصدّون عنها بقوّة ، ويمنعون عن أنفسهم نورها بإصـرار ، كالـذي يهـرب من الغيث أن يصـيبه رذاذه أو الشـمس أن تحوطه أشعّته.

(**قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَـقِّ لَمَّا جـاءَهُمْ هـذا سِـحْرٌ مُبِينٌ**)

حينما يـأتيهم الحق يقولـون بكـلّ وقاحة : إنّه سـحر مــبين. لما ذا؟ لأنّه يهيمن عليهم ، ولا يـــدعهم يواجهونه بدليل وبرهان.

إنّهم يقولـون : هو سـحر ، فيقـال لهم : ما هو دليلكم على بطلانه؟ فيقولون : ليس عندنا دليل ، ولكنّه سحر!

هكــذا يعــادي الإنســان الحق ، حــتى أنّه يتهم نفسه بفقدان الارادة والوعي ويقول : أنا أصبحت مسحورا ، كلّ ذلك ليخلّص نفسه من مسئولية الايمان بالرسالة.

[8] والبعض الآخر يقـول : إنّه افـتراء على الله ، وإذا كان قولهم أنّه سحر دلّ بوضوح على مدى تـأثير الرسـالة عليهم وأخــذها بمجــامع قلــوبهم ، وســدّ الطريق أمــام تخرّصــاتهم ، حــتى أنّهم اعـترفوا بقـدرتها وبعجـزهم عن مقاومتها ، فانّ كلمتهم التي زعموا بها أنّ الرسالة افـتراء دلّت على أنّ الرسول لم يكن يـدعو النـاس إلى نفسه بل إلى ربّه ، ممّا دعاهم إلى اتهامه بأنّه مفتر.

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ**)

ولكن الرسول (ص) هو أوّل من كان يعلم بوخامة الافتراء ، وأنّه لو افترى حديثا على الله فسوف يعذّبه عذابا شديدا ، وكان يعترف بذلك عبر ذكر آيات القرآن .. فكيف يدين نفسه بنفسه؟! كيف يفتري على الله الكذب ، ثم يقول : إنّ جزاء الذين يفترون على الله الكذب أنّهم لا يفلحون ، ولهم عذاب شديد؟!

(**قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً**)

فالرسول (ص) يعلم يقينا بأنّ الله محيط به علما ، وإنّما يفتري على الله الكذب من لا يؤمن به ، ومن لا يعلم بأنّه يحيط به علما ، ويعلم ما يدور بينه وبين الآخرين من حديث ، علنا أو سرّا.

(**هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ**)

من تخرّصات أو تهم حول الرسالة ، وهو يحاسبكم عليها جميعا.

(**كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**)

ويبدو أنّ هاتين البصيرتين (علم الله بما يسترسلون فيه من كلام ، وشهادته عليه) هما العلاج النفسي والحجة البالغة عليهم. أو ليس كلّ واحد منهم يؤمن في قرارة نفسه بكذبه ، ولكنّه غافل عن أبعاد جريمة نكرانه للحق ، فيذكّرهم القرآن بالله الذي يحيط علما بما يقولون ، ويشهد عليهم شهادة تتمثّل بنصره للحق وخذلانه للباطل وأهله.

(**وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)

ما هي العلاقة بين المقطعين : (**كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**) و(**وَهُوَ الْغَفُورُ**

الرَّحِيمُ)؟

ربما العلاقة هي أنّ الله شــهيد على الإنســان ، يعلم انحرافه وضــــــــلاله ، ولا يرضى عنه ويبغضه ، ولكنّ لانّه غفور رحيم فهو يمهله لفترة معيّنة

إذا لا تقل أيّها الإنسان : أنا سأكفر بالله وليأخـذني إن كان يحب رسالته ، لأنّه غفـور رحيم ، يتركك تعصي لمـدّة معينة رحمة بك ، وإذا لم ترعو ولم تراجع نفسك ولم تعد إلى الحقيقة فانّه يأخذك أخذ عزيز مقتدر.

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُـلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَـلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِــعُ إِلاَّ ما يُــوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَــذِيرٌ مُبِينٌ (9) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَــهِدَ شــاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْــرائِيلَ عَلى مِثْلِـهِ فَـآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللـهَ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظّالِمِينَ (10) وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آمَنُـوا لَـوْ كـانَ خَيْـراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَـيَقُولُونَ هـذا إِفْـكٌ قَـدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِـهِ كِتـابُ مُوسى إِمامـاً وَرَحْمَـةً وَهذا كِتابٌ مُصَـدِّقٌ لِسـاناً عَرَبِيًّا لِيُنْـذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْــتَقامُوا فَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُــونَ (13) أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَنَّةِ خالِـدِينَ فِيها جَـزاءً بِما كـانُوا يَعْمَلُونَ (14)

---

(9) (بِدْعاً) : جديدا بديعا.

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ

هدى من الآيات :

الحقّ هـدفنا ، والحق القـديم الـذي يصـدّقه الرسـول الجديد يتّبع ، بينما الباطل المبتـدع لا بد من نبـذه ، حـتى ولو احتفظ بطراوة الحداثة.

يبدو أنّ هذه الحقية هي محور الدرس الذي يفتتح بأنّ نبيّنا الأكرم جـاء خاتما لسلسـلة الأنبيـاء الكـرام فهو ليس بـــدعا ، وهو لا يـــدّعي الالوهية إنّما إبلاغ رســالات ربّه ، ويصـدّقه شـاهد من بـني إسـرائيل (فكتابه امتـداد لتلك الرســالة الــتي أوحيت الى موسى عليه الســلام) ، وإنّما اســـتكبر عنه البعض لظلمهم والله لا يهـــدي القـــوم الظالمين.

وحين يبادر الصالحون للإسلام يرفضه المسـتكبرون ، ويقولون : (**لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْـهِ**)! ثمّ يتهمـون الرسالة بأنّها إفك قديم ، لأنّهم لم يهتدوا بها.

وفعلا الرســالة ذات امتــداد في عمق التــاريخ لأنّها تصدّق ما نزل على موسى إماما

ورحمة.

ثمّ يـأمر القـرآن بالاسـتقامة على التوحيد (ومواجهة البدع) وهي ثمن الجنة.

بينات من الآيات :

[9] للناس في الرسالات والرسل مذاهب ثلاث :

الأوّل : النفي المطلق ، وإذ لم يعـــرف هـــؤلاء كيف يبعث الله الرسل اتبعوا جهلهم وأهواءهم وأنكروا الرسالة رأسا.

الثاني : إنّ صلة الرسل بربهم صـلة تكوينية ، بمعـنى أنّ الرسل ـ عليهم السلام ـ هم قطعة منفصـلة عن الإله ونازلة الى الدنيا.

وبهذا يزعمون أنّهم يحلّـون المشـكلة ويعرفـون كيف يتم الاتصـال بين الخـالق والمخلـوق ، إذ أنّ هـذه الصـلة كـانت قديمة ، وهي أساسا صـلة تكوينية ، فكيف يكـون واحد منهم يأكل الطعـــــام ، ويمشي في الأســـــواق ، ويشـبههم في كـلّ شـيء من حياته ، كيف يكـون أعلى وأفضل منهم؟! لا بد أن يكون جنسه مختلفا عن جنسهم ، وذاته غير ذواتهم ، ولا بد أن يكون من أنصاف الآلهة ومن طبيعتها.

الثـالث : انّ الأنبيـاء والرسل هم مثل سـائر البشر ، ولكنّ الله تعالى ميّزهم بالرسـالة ، حيث جعلها فيهم جعلا ، ولو شاء لسلبها منهم ، فهي تشبه المصـابيح في الغرفة فـإن لم يكن وهّاجا لن يحـوّل الغرفة إلى واقع نـوراني ، إنّما سينعكس النور عليها ما دام الضوء متّقدا.

هكذا الرسالة ، فما دام روح القدس مؤيّدا للنبي فهو نـبي ، فـاذا افترضـنا ــ جـدلا ــ أنّ ربّنا أراد ــ بمشـيئته المطلقة ـ أن يسلب روح القدس منهم فانّهم يصبحون

كسائر الناس.

وعلم الرسل هكـــــــــذا ، ليس علما ذاتيّا ، وإنّما هو مضـــاف إليهم من عند الله الـــذي يهب لهم موجـــات من المعرفة تلو موجات من العلم بقدر ما شـاء ، وإذا أراد أن يســلبها منهم فانّه على ذلك قـــدير .. ولهـــذا ينبغي أن لا نذهب بعيدا فيما يتصل بالأنبياء عليهم السلام ، بل نعــرف أنّهم يعلمون ما يشاء الله ويجهلون ما سـوى ذلك ، فكيف لم يكن يعقـــوب (ع) وهو من أنبيـــاء الله العظـــام يعلم بمكان يوسف (ع)؟! وكيف لم يكن إبراهيم (ع) يعلم بـــأن السـكّين الـذي وضـعه على أوداج إسـماعيل لا يفريهـا؟! الجواب ببسـاطة : لان الأنبيـاء بشر ، والله يغيّب عنهم ما يشاء من العلم.

وهذا يفسّـر قوله تعـالى : «**عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِـرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَـداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُـولٍ**» [1] فغيب الله له وليس لأحد ، وهو علّام الغيـــوب ، وعنـــده مفـــاتح الغيب ، ولا يعلم الغيب إلّا هو ، ولكنّه يعطي قـــــــدرا منه لأنبيائه لحكم معينة.

وهكذا تحلّ عقدة الغرابة من ابتعاث الرسل ، وتعـالج المعضلة التي يتشبّث بها الكافرون ، والتي كـانوا يعـودون إليها كلّما بعث إليهم نـبي جديد مع أنّه ســبقه إخوانه في الرسالة.

(**قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ**)

إنّ بعض الظواهر الكونية تتكرّر كلّ يوم ، وبعضها كلّ أسبوع ، وبعضها تتكرّر كلّ سنة ، وبعضها كلّ قـرّن ، ومن الظـواهر الـتي تتكـرّر بين فـترة وأخـرى الحـروب ، فهي إحـــدى الظـــواهر الاجتماعية الـــتي تقع عـــادة بين الحين والآخر ، ونحن نعـــــترف بوجودها بـــــالرغم من غرابتها الشديدة ، لأنّها واقعة وتقع في المستقبل

---

(1) الجن / 26 ـ 27

وهكـذا بالنسـبة للرسل ، فهم حتما وجزما يرسـلون من قبل الــرب ، ما دامت العوامل المؤيــدة لإرســالهم متوفّرة.

وهنا يـأمر الله عـزّ وجـلّ رسـوله الأكـرم (ص) بـأن يوضّح للناس هذه الحقيقة ، فكونه رسـولا مبعوثا من قبل الله ظاهرة متكررة وسنّة جارية ، ولا داعي للغرابة.

ولكن ـ من جهة أخرى ـ ليس علم الرسول من ذاته.

(**وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ**)

فهو لا يعلم ما يفعل به ولا بهم إلّا بقـدر ما يشـاء الله ، بمعـنى أنّه لا يـدري كـلّ ما يفعل به وبهم إلّا في حـدود رسـالته ، لأنّ الرسـول (ص) بشر كسـائر النـاس لا يعلم ماذا سيحدث مستقبلا بذاته بلى. إنّ الرسول ـ مثلا ـ يعلم أنّ النـاس جميعا سـيموتون ونحن كـذلك نعلم ذلك ، أمّا معرفة التفاصـيل والاطلاع على دقـائق الأمـور فـانّ الله سبحانه يزيده منها بقدر مشيئته الحكيمة.

والرسـول ــ كما يبـدو من هـذا المقطع من الآية ــ لا يعلم كلّ التفاصيل المستقبلية ، وإنّما عليه أن يتبع الوحي الذي ينزل عليه حسب الحكمة الالهية.

(**إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ**)

وقد ذهب المفسرون مذاهب شـتى في تفسـير هـذه الآية ، ويبدو لي أنّها ظـاهرة بل صـريحة فيما قلنـاه آنفا ، فانّ عدم معرفة الرسول بما يفعل به أو بهم لا يشـمل ما يوحى إليه ، ولا ريب أنّه سبحانه أوحى إليه أنّ له عند ربّه مقاما محمودا ، وأنّ المجرمين من أعدائه في سقر.

(**وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

فأنا لست كفيلكم ، ولا وكيلا عنكم.

وهذه الفكرة تتكرّر كثـيرا في القـرآن الحكيم ، وذلك لما لها من أهمية في دفع الإنســان للايمــان بالرســالة وتحمّل المسؤولية ، لأنّ الإنسان الذي تـدعوه إلى الله لو علم بحقيقة أنّك لست مســئولا عنه ، وأنّه هو المســؤول عن نفسه ، فانّه ربما يكون ذلك مشـجّعا له على التحـرّك الذاتي ، وبالتالي يهتدي إلى الحق.

[10] عند ما يكـون الخطر كبيرا يكفينا أذنى احتمـال في وقوعه لكي نتخذ التـــدابير اللّازمة لدرئـــه. أرأيت لو خشـيت من انفجـار يقع في بيتك أفلا تتركه فـورا ، حـتى ولو كان افتراض وقوعه بنسبة 5 خ فقط؟

إنّ أكثر إجراءات السلامة في أوقات الحرب بل حتى ايّـام السـلم تهـدف درء احتمـالات ضـئيلة ، إلّا أنّ أهميتها تنبع في أنّ الأخطار التي تهدف درءها عظيمة.

إنّنا لا نتخذ إجراءات وقائية كبـيرة إذا خشـينا الاصـابة بنزلة بـرد طارئة ، حـتى ولو كـان الخـوف بنسـبة 50 خ ، ولكنّنا نتقي خطر المـوت حـتى ولو كـان بنسـبة 10 خ أو حتى 1 خ. أليس كذلك؟

وكما في الجانب السلبي كذلك في الجانب الايجابي ، فلا ريب أنّنا لا نعــير اهتماما لاحتمــال حصــولنا على ربح ضئيل ، وإن كـانت إمكانية ذلك كبـيرة مثلا بنسـبة 90 خ ، ولكن كلّما ازداد الربح فانّ اهتمامنا باحتمالاته يزداد حــتى يصل إلى الاهتمام به إذا كان بنسبة 01 ، 0 خ الا ترى كم هي نسبة حصولك على الجـائزة في عملية اليانصـيب ، لا ريب أنها أقل من واحد بـــالألف ، ولكن لما ذا تهتم بهـــا؟ أليس لان الجائزة كبيرة يسيل لها اللعاب؟

والآن دعنا نتساءل : اولا تستحق الحياة الأخـرى ، بما تحمل من إنذار بعذاب

شديد خالد ، ومن بشـارة بنعيم عظيم دائم ، الاهتمـام بها وبإمكانية وقوعها حتى ولو كان بنسبة ضـئيلة جـدا؟! كيف وأن نسبة احتمالها مرتفعة حتى عند الجاحـدين بها لتـواتر الأدلة عليها؟!

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ**)

فكم تكـــون خســـارة البشر عظيمة عند ما يكفر برسالة ربّه ، ويتحدّى خالقه ورازقه ومن إليه مصيره؟!

إنّ هــذا التســاؤل يهزّنا من الأعمــاق ، ويجعلنا نبــدأ مســيرة الشك المنهجي فيما نسترسل فيه من الأفكــار والقناعات.

وحتى بالنسبة إلى المؤمـنين برسـالات الله ينبغي أن يكسروا حالة الجمود الفكـري ، ويتسـاءلوا في أنفسـهم : كم هي عظيمة رســالات ربّهم ، وكم حظهم عــاثر لو استخفّوا بها أو لم ينفّذوا كـلّ تعاليمهـا؟ حقّا : إنّه يسـقط عنا ـ نحن المؤمنين ـ حجـاب العـادة الـتي تمنع إيماننا من التسامي ، كما يسقط عن الآخرين حجاب الاستكبار الذي يمنعهم عن رؤية شواهد صدق الرسالة ، فتراهم ـ مثلا ـ يغفلون عن شهادة العلماء بصـدق الرسـالة ، ولا يسـألون أنفسـهم : كيف أسـلم علمـاء بـني إسـرائيل للرسـالة الجديـدة ، كأمثـال عبد الله بن سـلام الـذي كـان معروفا عندهم بالصدق والنزاهة.

(**وَشَــهِدَ شــاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْــرائِيلَ عَلى مِثْلِــهِ فَآمَنَ**)

بـالرغم من مخالفة الايمـان ظـاهرا لمصـلحته. أليس يفقد مكانته عند قومه كقائد ، ويصـــبح جنـــديّا في جيش الإسلام؟

(**وَاسْتَكْبَرْتُمْ**)

عن الحق ، فلم تؤمنـوا به بـالرغم من البينـات الـتي تواترت على صدقه.

بلى إنّ الحجـاب الكبـير الـذي يحجز نـور الايمـان عن قلـوبهم هو اسـتكبارهم في الأرض ، وظلمهم للنـاس. أو ليس الظلم ظلاما دامسا؟

(**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

[11] ما الذي يمنع الظـالمين من الايمـان بالرسـالة؟ إنّه استكبارهم على النـاس ، واعتقـادهم بتميّـزهم عنهم ، حتى لو سبق طائفة منهم إلى الايمان بالرسالة كفـروا بها ترفّعا عن التساوي معهم ، وقـالوا : كيف نسـمح لأنفسـنا أن نكــون عند النــاس من اللاحقين ، بينما يســبقنا إلى الرسالة من هم أدنى منّا؟ إذا دعنا نكفر بها خشية العار!

(**وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْـراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ**)

لقد كانت القبائل العربية في الجاهلية شديدة الخلاف بينها ، تتعــالى على بعضــها ، ولا ترضى أن تعــترف بأيّة فضيلة لبعضها ، فاذا آمنت قبيلة كفرت المنافسة لها حتى لا تسجّل لخصمها نقطة عليها.

مثلا كــانت قبيلة غفــار البدوية تستصــغر من قبل قريش ، وتسمّيها الحلفاء استهانة بها ، فلمّا أسـلم أبو ذر الغفــاري وأســلمت معه قبيلته قــالت قــريش : غفــار الحلفاء!! لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه. (1)

(1) قال ابن المتوكل أنّ الآية نزلت فيهم (تفسـير القرطـبي ج 16 ص 189).

وهكذا كفرت بنو عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة وأشـــجع ، وقـــالوا لمن أســـلم من غفـــار وجهينة ومزينة وخزاعة : لو كـان ما جـاء به محمّد خـيرا ما سـبقنا إليه رعاة البقر البهم إذ نحن أعز منهم. [1]

كما أنّ اليهود الدين استوطنوا الجزيرة العربية بـزعم انتظـارهم للنـبي الموعـود فيها كفـروا بـالنبي بعد إيمـان العرب به ، وقالوا : (**لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ**).

كما أنّ قريشا كفـــرت بالرســـالة حين رأت مبـــادرة الموالي من أمثال بلال وصـهيب وعمّـار إليهـا. إنهم كـانوا يبحثون عن دين يقـوّي نفـوذهم في الطبقـات الـدنيا لا أن يساويهم بها.

وهكذا اليوم نجد الدعوات الصلاحية التي يستجيب لها المحرومون والمستضعفون تلقى الصدّ من قبل المترفين والمستكبرين ، بـدعوى أنّنا أعـرف منهم وأعلى مقاما فلا يجـوز أن نعـترف بحقـوقهم أو بمـيزتهم علينا في السـبق إليها. أو ليس السابقون هم المقرّبون؟!

كما أنّ بعض السـفهاء يخـالفون الحق ويمنعـون عن أنفسهم خيراته لمجرّد أن منافسيهم سبقوهم إلى الايمان بـه. إنّ ذلك من بقايا العصـبيات الجاهلية الـتي تمنع نـور الهدى.

(**وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ**)

بسبب عصبياتهم وظلمهم واستكبارهم فانّهم يبحثـون عن تـــبرير لجحـــودهم يقنعـــون به الضـــعفاء منهم ، بل ويريحـون نفوسـهم الـتي تلـومهم أبـدا على تـرك الحق ، فتراهم يتهمون الرسالة بالإفك.

---

(1) قـال الكلـبي والزّجـاج وحكي عن ابن عبـاس ان الآية نـزلت فيهم (المصدر ص 190).

(**فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ**)

وهكـذا يتسـافل الجاهل في دركـات الكفر ابتـداء من ظلمه للناس واستكباره عليهم ، ومـرورا بالتشـبّث بـدليل ضـعيف أنّه لو كـان خـيرا ما سـبقونا إليه ، وانتهـاء بوضع نظرية معادية واتهام الرسالة بأنّها إفك قـديم ، كما قـالوا بأنّها أساطير الأوّلين.

[12] كلّا .. إنّها رسـالة الله الواحـدة الـتي تشـهد حقـائق التـاريخ بصـدقها ، وأعظم ما يصـدّقها أنّ بعضـها مصدّق البعض.

(**وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً**)

فهو برنامج للاقتداء ، ورحمة لمن اقتدى به.

(**وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا**)

فهو ليس إفكا قـديما كما زعمـوا ، بل صـدق شـهدت أحداث التاريخ على نفعه العام للانسـانية. أفلا تـرون كيف كان كتاب الله النازل على موسى لبني إسرائيل ، أنقذهم من الضلالة والاستضعاف والحرمان حين طبّقوه؟

(**لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا**)

فالطغـاة والمسـتكبرون والمـترفون الـذين ظلمـوا الناس لا يمكنهم اتخاذ القـرآن وسـيلة لاسـتثمار الآخـرين كما تهـواه أنفسـهم ، بل جـاء الكتـاب لانـذراهم ولانقـاذ المحرومين من ظلمهم.

(**وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ**)

من أيّة طبقة كــانت ، فــاذا آب أولئك إلى رشــدهم وتابوا وأحسنوا فان لهم البشرى كما للمحرومين.

[13] التوحيد هو عبــادة الله أبــدا ، وعــدم التســليم للآلهة المزعومة الــتي تعبد من دون الله باسم الســلطة السياسية أو النظـام الاقتصـادي أو الضـغوط الاجتماعية ، وإنّما يتبين توحيد الإنسان عند ما يتعرّض لإرهاب السلطة وترغيب الثروة ومقاطعة المجتمع إذا اسـتقام على الـدين ، والكتــاب بشــرى للمحســنين الــذين يتحــدّون كـلّ تلك الصعاب.

ولعلّ سياق الآية يـدلّ على ضـرورة الاسـتقامة أمـام البــدع الجديــدة الــتي تخلقها القــوى المتســلطة ، وتتهم الرسالة بأنّها إفك قديم سعيا وراء تغيير بعض بنودها الذي يخـالف مصـالحها ، كلّا .. لا بد من الاسـتقامة على أحكـام الدين بلا تحريف أو تأويل أو نقص أو زيادة.

(**إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)

[14] بالرغم من إرهاب الطغاة فانّه لا خوف عليهم ، لأنّ العاقبة لهم ، وغـدا حين ينتصر الحق لا يحزنــون على ما فاتهم من الخيرات.

(**أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَنَّةِ خالِــدِينَ فِيها جَــزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

وحين يـدخلون الجنة يعلمـون أنّ الثمن الـذي قـدّموه لها كــان زهيــدا نســبة بما حصــلوا عليه من ثــواب الله العظيم.

ونســتوحي من كلمة «جــزاء» هنا أنّ الجنّة لا تعطى بالتمنّيات ، إنّما هي ثمن الاستقامة والصبر والتحدّي.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16) وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ

لا يُظْلَمُـونَ (19) وَيَـوْمَ يُعْـرَضُ الَّذِينَ كَفَـرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الـدُّنْيا وَاسْـتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُـقُونَ (20) وَاذْكُـرْ أَخا عـادٍ إِذْ أَنْـذَرَ قَوْمَـهُ بِالْأَحْقـافِ وَقَـدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخـافُ عَلَيْكُمْ عَـذابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (21) قـالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِـدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْـدَ اللـهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِـلْتُ بِـهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْمـاً تَجْهَلُـونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضـاً مُسْـتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قـالُوا هـذا عـارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْـبَحُوا لا يُـرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

---

(24) (**عـارِضٌ مُمْطِرُنا**) : أي شـيئا كالسـحاب ذي المطر عـرض في أفق السماء.

ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا

هدى من الآيات :

لكي ينظّم الإنســان علاقة ســليمة مع والدية والجيل السابق لا بـدّ أن يختـار الرشد الـذي يدعونه إليه ، ويـترك الغي ، امّا التمـرّد الـذي يحـدو إليه الـنزق ، والـذي يـدفع بعض الأبنـاء إلى اتّهـام آبـائهم بالرجعية ، والافـتراء على الـدين الـذي يـدعون اليه بأنّه من أسـاطير الأوّلين ، فانّه ســفه وطيش لا يقل ســوء عن تقــديس الآبــاء وتقليد عاداتهم ، وردّ الدعاة الى الإصلاح.

في هذا الدرس يوصينا الرب بالإحسـان إلى الوالـدين الـــذي هو عنـــوان العلاقة الســـلمية ، حيث أنّه الطريق القويم بين التقليد الأعمى والتمرّد الطائش.

كما يــذكّرنا بــأنّ عاقبة الطيش والتمــرّد الــنزق على الآباء هي الخسران.

بينما نقرأ في الدرس التالي قصة الذين اتبعوا آباءهم الضّـالين ، ولم يسـتجيبوا لـداعي الله هـود الـذي أمـرهم بالإصلاح ، فكانت عاقبتهم الدمار.

وتعتـبر العلاقة السـليمة مع الآبـاء سـمة إيمانية ، كما أنّ العلاقة الشاذّة عقبة كأداء في طريق الايمان.

بينات من الآيات :

[15] بما تتميّز الوصـيّة عن الحكم؟ ولمـاذا نجد في القرآن التعبير بالوصيّة حينا وبـالحكم حينـا؟ لعـلّ الوصـية تتصل بـالقيم الـتي هي محتـوى الأحكـام ، بينما يعبّر عن النظام ، والذي هو منهج تطبيق القيم ، فـاذا كـان التعبـير بالحكم فلا بد من الالتزام بحدوده وحروفه وتفاصيله بدقّة وصرامة ، بينما إذا جاء التعبير بالوصية فلا بد من الالـتزام بـالقيم بأيّة طريقة ممكنة ، وبـالمنهج الـذي يـراه العـرف مناسبا.

وحين يأمر ربّنا بالعدل فانّ التعبير يأتي بصيغة الأمر : «**اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْـوى**» ، ذلك لأنّ العدالة قيمة تتحقق بالأحكام المفصّلة ، والنظام الشامل ، أمّا إذا كـان الحـديث عن الإحسـان فانّه يـأتي بصـيغة الوصـية ، لأنّ الإحسـان يتحـدّد بـالعرف وحسب ظـروف كـلّ شـخص ومنهجه.

(**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً**)

لا بدّ أن يهتم الإنسان ــ أيّ إنسـان ــ بوالديه أنّى كانا اهتماما يبلغ درجة الإحسـان ، وهي فـوق أداء حقـوقهم القانونية.

ويختلف الأمر بالإحسـان عن الأمر بالطاعة اختلافا كبـيرا ، ذلك أنّ الإحسـان ينبعث من اليد العليا ، بـدافع الاحساس بالاستقلال والقدرة ، وصاحبه يقدّر مـتى وكيف وبأيّ قدر يمارسه ، بينما الطاعة حالة التسـليم والخضـوع وفقـدان الاسـتقلال وحسب الأمر الموجّه إليه دون أن يكون لصاحبه الحق في تقدير أيّ أمر منه.

ولم يأمر الإسلام بطاعة الوالدين بل بالإحسان إليهما ، لأنّ الطاعة لله وللرسول

ولأولي الأمر ، ولا يســـتطيع الوالـــدان أن يحرّما حلالا أو يحلّلا حراما ، بل أمر بالإحســـــــان إليهما ، وقد يتجلّى الإحسان في قبول أمر هما فيما لا يخالف الشــرع والعقل ، ويكون فيه فائدة عائدة إليهما.

والـدليل الـذي يبيّنه السـياق للوصـية بالإحسـان إلى الوالدين يعمّ المؤمـنين والكـافرين ، الـبرّين والفـاجرين ، حيث يعزي السياق ذلك إلى الجهـود الكبـيرة الـتي بـذلاها في سبيل تنشئة الولد.

(**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً**)

فمنذ الســـاعات الاولى من الحمل يمتص الجـــنين طاقات الأم ممّا يعرّضها للارهـاق والأخطـار ، وكلّما تقـدّم بها الحمل كلّما زادت الصـــعوبات الجســـدية ، كما تزيد عندها المخاوف والهموم.

(**وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً**)

وقد تكـون الـولادة عسـرة ممّا تجعل الأم تقـول : يا ليتني متّ قبل هذا اليوم وكنت نسيا منسيّا.

ثم أنّ ذلك لا يتمّ عبر فترة بسيطة ، بل يمتـدّ أشـهرا عديدة ، ممّا يجعل دين الأم عظيما في ذمّة الولد.

(**وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً**)

فخلال تسعمائة يـوم تقريبا تنشـغل الأمّ بوليـدها. أفلا ينبغي للولد بعد أن يشـتد عـوده وتخـور طاقـات أمّه أن يحسن إليها؟

بلى. وهذا من ديـدن الرجل الصـالح الـذي قد تسـتمرّ رعاية الوالدين إليه حتى

يبلغ أشدّه ، بل ويبلغ أربعين سنة وتكتمل رجولته.

(**حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَ**)

ومتى يبلغ الإنسان أشدّه ، هل عند ما يصل إلى سنّ البلوغ الشرعي الذي هو عند الفتى كمال سن الخمسة عشر أو الاحتلام ، وعند الفتاة كمال التاسعة من عمرها ، أم عند ما يبلغ سنّ الرشد الذي قيل أنّه بلوغ الثامنة عشر؟

قال البعض : إنّ الإنسان لا يبلغ أشدّه إلّا عند سنّ الأربعين ، بيد أنّ الأقرب الى ظاهر الآية هو بيان نوعين من البلوغ : الأوّل : البلوغ الأوّلي الذي يجعل الفرد مستعدّا لدخول الحياة ، الثاني : البلوغ الأتمّ الذي يحدث عند سنّ الأربعين حيث يكتمل نموّ خلايا المخ ، وتتراكم تجارب الحياة ، ويكون الإنسان في قمّة عمره حيث ينحدر من بعدها شيئا فشيئا إلى نهايته ، ومن هنا جاء في الحديث أنّ الشيطان يمسح يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ، ويقول : بأبي وجه لا يفلح.

ويؤيد ذلك أنّ الإنسان يمثّل في العقد الأربعين من عمره دور الولد الذي أكمل الوالدان دورهما في نموّه وتطوّره ، كما يمثّل الوالد الذي ذاق ـ بدوره ـ الصعوبات التي تحمّلها والداه في أمره فعرف قدرهما ، ووعي قدر النعم التي أسبغها الله عليه. فطفق يشكر الله شكرا جزيلا ، ولكنّه كلّما ازداد وعيا بالحياة ومشاكلها كلّما عرف عجزه عن أداء شكر الله فأخذ يدعو الله أن يوفّقه لشكر هما بفضله ، لأنّ منبعث الشكر الرؤية الايجابية إلى الحياة ، وهي تطلق قدرات الإنسان من عقال اليأس والتشاؤم والسلبية ، وتزرع في قلبه حبّ السعي ، وروح النشاط ، وهمّة التقدّم ، والتطلّع إلى الأهداف السامية.

(**وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ**)

ونســـتوحي من الآية مقياســـين لصـــلاح العمل : المقيـاس الـذاتي الـذي يتمثّل في فائـدة العمل وصـحته بحكم العقل والعـرف ، والمقيـاس الشـرعي الـذي يتمثّل في مرضـاة الله الـتي نعرفها بـالقيم الدينية .. والمـؤمن يتطلّع لتحقيق العمل الصالح في ذاته الذي يقـرّ به شـرعا إلى الله ، وهو بالطبع ليس كلّ عمل صالح ، بل الذي يقع ضـمن اسـتراتيجية الرسـالة ، فمثلا : تعبيد الطـرق عمل صالح ، إلّا أنّه قد لا يكـون مرضـيّا عند الله ، كما لو ابتغى الفرد منه علـوّا في الأرض أو فسـادا ، كـذلك حين يكـون هذا الفعل الصالح معارضا لعمل أوّلي كالدفاع عن الوطن أو مقاومة الطاغية.

وهكذا يدعو الإنسان السويّ ربّه التوفيق للقيام بعمل صالح مرضي عنده وليس كلّ عمل صالح ، كما يـدعو إلى أن يكـون امتـداده في الحيـاة وذريّته من الصـالحين. لقد سـهر الآبـاء لتربية هـذا الجيل على الفضـيلة والتقـوى ، وأنفقـوا في سـبيل إنشـاء المـدارس والمعاهد ، وتوفـير الثقافة الحكمية ، وبنـاء الجوامع ومراكز التوعية والتوجيه ، وقد أثمـرت جهـودهم في بنـاء هـذا الجيل الصـالح. أفلا نسـعى نحن في سـبيل بنـاء الجيل الصـاعد على ذات الأسس الصـالحة؟ بلى. إنّ ذلك هو الشـكر العملي على نعمة الصلاح التي أسبغها علينا الرب.

وأصلح لي في ذرّيّتي

إنّ صلاح الذريّة يكرّس مكاسب هذا الجيل الحضـارية ، ويبقى لهم الـذكر الحسن ، ويكـون بمثابة صـدقة جارية تغدق عليهم الثواب وهم مستريحون في أجـداثهم ، ولعلّه لهذه الأسباب جاء التعبير القـرآني «لي» ، بلى. إنّ فائـدة صلاح الذريّة لي قبل غيري.

إنّي تبت إليك

فخلال رحلة العمر ذات الأربعين ربيعا أزاغته الــذنوب عن صـــــراط ربّه العزيز الحميد ، وقد ذهبت الآن شــــرّة السهو عنه ، كما تلاشت لذّات الشهوات ، وأزالت طوارق الزمن سكرة الشـباب ، واكتمل عقله ، وعـرف أنّ طريق الفلاح ينحصر في التوبة إلى الله عزّ وجل.

لقد قــرأت أخــيرا في مجلّة غربيّة واســعة الانتشــار مقالا يدعو من بلغ الأربعين ألّا يحاول تغيير عاداته ، ويبـدو أنّ الكاتب كـان يعتمد في ذلك على أنّ الإنســان في مثل هذا الوقت لا يملك إرادة التغيير ، وهذا ينسجم مع النظرة المادية إلى الإنســــان ، وتلخيص دوافعه في الشــــهوات الدنيوية الــتي تـتراجع عند ســنّ الأربعين ويتلاشى بعضـها ممّا لا يجد دافعا نحو التغيــــير ، بينما البصـــــيرة القرآنية تدعونا إلى التوبة عند سنّ الأربعين ، حيث يكتمل العقل ، وتلتهب جـذوة الضـمير ، وتتهيّأ فرصة الإصـلاح ، وتتنـامى دواعي الخير وبواعث الفضيلة فيه.

وهكــذا يكــون عقد الأربعين أفضل مناســبة للثــورة الذاتية ، بالتوبة إلى الله ، والتســـليم للشـــريعة الــــتي تخاطب العقل ، وتذكي دواعي السعي للآخرة التي يكـون صاحب الأربعين أقرب إليها من غيره.

(**وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**)

فــاذا دعتــني ســكرة الشــباب الى التمــرّد ردحا من الزمن فها أنا ذا اليوم أعترف بالــذنب ، وأخضع لك يا ربّ خضوعا تامّا ، وأفتّش في صفحات تـاريخي ، فـاذا وجـدت فاحشة هنا وخطيئة هناك ، وظلما للناس ، وغصبا للحقوق ، وانحرافا في العقيدة ، وزيفا في الثقافة ، وعادات سيئة وما أشــبه ، فـــانّي أســعى لتغييرها والتخلّص من وزرها وتبعاتها بتوفيقك. أو ليس كلّ ذنب وزيغ وانحراف يخلّف

أثـــره في قلب الإنســـان ، دعنا إذا نتخلّص منه بالتوبة ، لنطهّر القلب من أدرانه ، والسلوك من سيئات العـادات ، ونـترك جانبا الاسـتخفاف بـالقيم ، والتهـاون بالواجبـات والسهو عن الصلاة والزكاة و.. و..

[16] وبالرغم من ابتعاد هـذا الفريق من النـاس حينا عن الصـراط السـوي فـانّ تـوبتهم مقبولة ، ويتقبّل الله حسـناتهم ، ويتجـاوز عن سـيئاتهم ، ويـدخلهم الجنة مع الصالحين من عباده.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا**)

وإنّما يتقبّل الله من المتقين ، وقد يتقبّل من غـــيرهم بعد تـوبتهم حيث يعتـبرهم كالـذين لم يـذنبوا أبـدا وهم المتقون من عباده.

وقـال المفسّـرون : إنّ المـراد من أحسن الأعمـال الواجبـات والمنـدوبات ، بينما المباحـات لا ثـواب عليها بالرغم من حسنها.

وقد يقال : إنّ لقبول الحسنات أيضا شروطا لا تتوافر فيها جميعا فلا يتقبّل الله منها إلّا الأحسن ، ممّا يبعث الإنسان إلى السـعي لتحقيق كـلّ شـروط العمل الصـالح. مثلا لا يقبل الله من الصـلاة إلّا ما التفت العبد فيها إليه ، فلنقم الصـلاة بحيث يتقبّلها الله جميعا لا جـزء منها هو الأحسن.

(**وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ**)

أو ليسـوا قد تـابوا إلى الله منها توبة نصـوحا ، والله سبحانه هو التوّاب الرّحيم؟

(**فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ**)

أولئك الصـالحين الـذين أخلصـوا لله حيـاتهم ، وأيّة كرامة أعظم لأمثالنا أن

يدخلنا الله في الصالحين من عباده ونحن ممّن خلط عملا صالحا وآخر سيّئا؟!

(**وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ**)

[17] ويضـــرب القـــرآن مثلا من واقع الصـــراع بين الأجيـــال ، حيث يتمـــرّد الجيل الصـــاعد على قيم الحق وتقاليد الصـــلاح عند الجيل الســـائد ، لنعتـــبر به ألّا نهلك باتباعه.

(**وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما**)

بينما الدّين أوصانا بالإحســان إليهما نجد هـذا الفاسق يضجر من والديه اللذين هما أصل وجوده وكـلّ خـير فيه ، ويقول لهما : أفّ لكما.

وكلّما يحـذّره الوالـدان من مغبّة الإيغـال في الخطيئة ينهرهما ، ويكفر بالجزاء قائلا :

(**أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ**)

بعد المــوت للحســاب ، كلّا .. إنّه وعد مكــذوب ، ثمّ يستشـهد بما درج عليه الجاحـدون للجـزاء : بـأنّ القـرون المتطاولة قد مضت ، ولمّا يخــرج منهم أحــد. أرأيت ميّتا أحياه الله بعد أن أقبر وأوقفه للجزاء؟! كذلك لا أخرج أنا.

(**وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي**)

أفلا يعلم أنّ الحيـاة الآخـرة تـأتي بعد انقضـاء الحيـاة الأولى ، ويومئذ يبعث الله الأوّلين والآخــرين معا ، ويحقّق وعده الحق؟

وهكذا يتمرّد الفاسق على تربية الوالدين وهما يبذلان كلّ جهد ممكن لإقناعه

بـالحق ، فـاذا شـعرا بالفشل اسـتغاثا بالله أن يعينهما في إصلاح ابنهما الضّال.

(**وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ**)

والتربية الحق هي الـتي تـزرع في قلب الولد خشـية الله ، إذ ما قيمة السـعادة في الـدنيا إذا أعقبها الشـقاء الأبدي؟!

(**وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ**)

ونستلهم من هـذه الآية المنهج السـليم لتربية الطفل الذي كـان يتبعه الوالـدان المؤمنـان ، والـذي أنشأ الله به ذلك الجيل الصالح الذي احـترم الجيل الماضي بالإحسـان إليه والاستغفار له ، كما عمل في سبيل إنشاء جيل صالح بالـدعاء والعمـل. وهـذا المنهج قـائم على أسـاس توسـيع رؤية الطفل ليرى الحياة الأخرى فيـوازن بينها وبين الـدنيا في قراراته ، فيسعى لهما سعيا عادلا ، ولا يترك إحـداهما للأخرى ، لأنّهما في الواقع حياة واحـدة ممتـدة من اليـوم حتى يوم الجزاء.

بيد أنّ بعض الآباء يخفقون في هذا السـبيل ، وعليهم ألّا يقلقـــوا فقد أدّوا مســـئوليتهم ، وما جعل الله لهما سـلطانا يكرهـان به ولـدهما على اتبـاع الحـق. كيف وقد خاطب الله رسوله الكريم : «**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**» ، وقـال : «**لا إِكْـراهَ فِي الـدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الْغَيِ**».

وقد خلق الله النـاس أحـرارا يبتليهم ، ولعلّنا نسـتفيد من هذه الآية أنّ مسئولية الـدعاة وحملة الرسـالة تقتصر على البلاغ ، وحـــتى لو كـــانت لـــديهم قـــوة رادعة فلا يستحسن التوسّـل بها لاكـراه النـاس على اتبـاع الرشد ، فبالرغم من أنّ للوالدين السيطرة الطبيعية على الولد إلّا أنّهما حين يقومـــان بـــدور الداعية يســـتفرغان الجهد في إقناعه بالحجة ، وليس بإكراهه ، وعـادة ينجحـان ، أمّا إذا فشلا فذلك أمر يعود الى

وجـود حرية القـرار عند الولد الـذي قد يتمـرّد على الحق بحجة أنّه تقاليد بالية وأفكار رجعية.

(**فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)

ويبـــدو من هـــذه الكلمة أنّه متمـــرّد على الماضي ، ويتهمه بأنّه يمثّل الخرافة والـدجل ، وهـذا شـأن صـراع الأجيال الذي يحرم الجيل الصاعد من ثقافة الجيل السائد وتجاربه وعبره وعظاته ، ويقضي على التواصل الحضـاري الذي هو عنوان تقدّم الأمم.

وقد كـان لهـذا النفس المشـؤوم آثـاره السـيّئة علينا نحن المســـــلمين في العصر الحـــــديث ، حيث لم يميّز الشـــباب بين المســـلمين والغثّ من تجـــارب آبـــائهم فرفضوها ، وسـعوا نحو تقليد الأجـانب ، فكـانوا كـالغراب الذي حـاول تقليد الطـاووس في مشـيته فلم يفلح فضـيّع المشيتين!

إنّ من لا يملك أصـالة لا يسـتطيع الانتفـاع بتجـارب الآخرين ، لأنّه لا يملك مقياسا سليما يميّز به ما ينفعه من تجـاربهم وما يضـره ، فيكـون كمن يبـني على الرمـال سرعان ما ينهار بناؤه.

وقد دلّت تجـارب التـاريخ على أنّ الأمم ذات الأصـالة هي الأقدر على احتواء تجـارب غيرها من الأمم المتمـرّدة على تاريخها ومكاسب حضارتها.

ونحن اليوم بانتظـار ذلك الجيل المـؤمن الـذي يعيش بثلاثة أبعاد : متفـاعلا مع حاضـره ، مسـتفيدا من ماضـيه ، متطلّعا لمستقبله.

[18] الـدّين والكفر قـديمان عند البشر ، فكما كـان منذ القدم رجال صـالحون ملـتزمون بالـدّين كـان آخـرون يكفرون به ، فاذا كان كلّ قديم رجعية فانّ الكفر هو

الآخر قديم! وهـذه الأفكـار الـتي يروّجها الجـاهليّون باسم التقدّمية موغلة في الرجعية ، إذ أنّها تــــــــدعو إلى حالة البدائية حيث لم يكن لـدى أهلها الـتزام بـالقيم والعـادات الصالحة ، وهذا الذي يكفر بالبعث ويدّعي أنّه من أساطير الأوّلين سـوف يحشر مع أولئك الكفّـار من الأوّلين ، حـتى يتبيّن له أنّ الكفر ـ وليس الدّين ـ هو من أساطير الأولين.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ حَـقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ فِي أُمَمٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ**)

وكيف حقّ القول عليهم؟

لقد كفـروا فطبع الله على قلـوبهم ، وسـلبهم توفيق الايمان ، فظلّوا كافرين حـتى أدخلهم الله النـار في الأمم الغابرة.

(**إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ**)

وعلينا أن نعتبر بمصـيرهم فلا نبـادر إلى الكفر فيغلق الله علينا بـاب التوبة إلى الأبد ، ولا يقـولنّ الواحد : أكفر الآن فاذا أردت الايمان فالطريق مفتـوح أمـامي. كلّا .. إنّ فرصة الايمان محدودة ، وقد تسلب منك حتى الأبد.

وفي هــذا درس للداعية ألّا يهلك نفسه أسـفا على بعض النـاس إن لم يؤمنـوا ، فلعلّهم ممّن طبع الله على قلبه فلا يستطيع الايمان أبدا.

[19] ولكي لا يزعم الإنسـان أنّ تقسـيم النـاس على الجنّة والنار اعتبـاطي ، يزيـدنا السـياق هـدى بـأنّ أعمـال الناس هي التي تسـوق أصـحابها إلى المصـير النهـائي إمّا الجنة أو النـار ، وتأكيـدا على ذلك أنّ للجنّة درجـات كما للنـار دركـات ، ومنـازل أهل الجنة أو أهل النـار تحـدّد بأعمالهم أيضا ، حتى لا يدع للشك مجالا في أنّهم لا

يظلمون ، بل هم يجزون بما كانوا يعملون.

(**وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا**)

يبدو أنّ المراد من «ولكلّ» أهل الجنة وأصحاب النار لكلّ درجته ومنزلته حسب عمله.

(**وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ**)

أى ليجزيهم أعمالهم جزاء تامّا وافيا.

(**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

فمن يعمل مثقال ذرّة خـيرا هنا ، يـره هنـاك بدرجاته المتعالية في الجنّة ، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا هنا ، يره هناك بعذاب دركات النار.

[20] ولا يدع كتاب ربّنا الحكيم الإنسـان في غمّة من أمره بل يكشف له أسباب الكفر فيبيّن له علاجها ، لكي لا تكون للناس حجة بعد البيان ، ذلك أنّ النار شيء عظيم ، فكيف يلقي ربّ الرحمة عبـــده العاصي فيها دون أن يتمّ عليه الحجة كاملة.

(**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ**)

هنالك حيث تسـتعدّ النـار لاسـتقبال أفـواج الكفّـار والعصـاة بألسـنة اللّهب المتصـاعدة والشـهقات الواسـعة التي تبتلع الملايين ، هنالك إذ تتوضّح الحقائق ، فلا غفلة ، ولا استرسال ولا تبرير ، ولا إهمال ، هنالك تقال لهم كلمة الحق التي لو عرفوها في الدنيا إذا ما أهملوا ، ولا تشـبّثوا بالأعذار التي لا تغني شيئا.

(**أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا**)

فهـذا هو السـبب المباشر للمأسـاة. الـوقت والطاقة والفراغ وسائر النعم هي ذخيرة الإنسان ليـوم الحسـاب ، فمن بذّرها للمتعة العاجلة في الـدنيا فما ذا يبقى له ليـوم فاقته؟

إنّما السعيد من قدّم شيئا ممّا عنده لحياته الخالــدة ، وقسّم وقته وطاقاته بين السـعي للـدنيا والعمل للآخـرة ، ولم يكن همّه التمتّع بكل ما يملك في دنيــاه فيكــون مثله كذلك الشاب الذي أبلى شـبابه في اللّـذات فـاذا تقـدّم به العمر إلى خريف الحيــــاة لم يجد إلّا الحرمـــــان والألم والحسرات.

ولكن ما الذي يدعو الإنسان إلى التبذير بالطيّبات في الـــدنيا ، هل الحاجة الضـــرورية؟ كلّا .. ذلك أنّ حاجـــات الإنســان محـدودة ، ويمكن له توفيرها ببعض قدراتـه. إنّه يوفّر لقمة عيشه وسكناه وأمتعته بأيسر الجهد ، إنّما لهث البشر يكون عادة وراء الكماليّات. إنّه يختار ألـذّ الطعـام ، وأرفه المســاكن ، وأرقى المتــاع ، حــتى ولو كــان على حســاب آخرته ، فيظلم النــاس بالســرقة والغش ، وقد يصـبح أداة للطغـاة من أجل الحصـول على الكماليّـات ، ولأنّ الكماليّـات بـدورها درجـات ولا يمكنه أن يبلغ مـداها فانّك تراه دائب اللهث وراءها ، فاذا بنى قصرا ووجد قصر صـاحبه أفخم عقد العـزم على بنـاء ما هو أعظم من بنـاء صاحبه ، وإذا اقتنى سيارة وعلم أنّ أخرى خـيرا منها دخل السوق سعيا نحو شرائها بكلّ وسيلة ممكنة ، وهكذا ..

وهنا نتسـاءل : ما هو جـذر التنـافس على الكماليّـات بهذه الشدّة ، مع أنّ بعضها لا يمسّ شـهوات الإنسـان من قريب؟.

الجواب : إنّه الاستكبار. حيث يبحث الإنسان أبــدا عن التعــالي على أقرانه بحق أو بباطل ، وإذا نــزع الإنســان رداء الكبريــاء ، وتســربل بالخشــوع والقنــوع ، فانّه يقتلع جذر الانحــراف من نفسه ، هنالك يكتفي بالضـرورات وما يتيسّر له من زينة الدنيا ،

فيقسّم طاقاته بعدالة بين حياته هنا وحياته الأبديّة هناك. أمّا إذا استكبر فانّه يشتري هوان العذاب في الآخرة ، ويقال لمثله :

(**فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ**)

والفسق هو الخروج عن الحدود ، ممّا يدلّ على أنّ المستكبر بغير حق يتجاوز حدود الشرع ممّا يوجب له أليم العذاب.

الحياة بين الحكمة والمتعة :

إنّ حياتنا في هذه الدنيا ذات حكمة تنبسط على كلّ ممارستنا فيها ، ممّا يجعل لكلّ بعد منها هدفا محدّدا لو سعينا نحوه كانت الحياة شريفة. أمّا إذا فرّغنا أعمالنا من أهدافها ، ومارسناها لذاتها ، فإنّها تصبح متعة زائلة ، فمثلا : الطعام سبيلنا إلى القوّة فمن طعمه لشهوة الأكل (لا لبلوغ سلامة البدن وقوّته) كان ممّن أذهب طيباته ، والثياب وسيلة للستر والزينة فمن استهدف المفاخرة بها أذهب طيباته ، وهدف التعلّم العمل فمن تعلّم العلم للعلم دون أيّ هدف آخر ضلّ سبيله وأضلّ عمله ، وليس صحيحا أن نجعل الفنّ للفنّ ، إنّما لتوعية الناس ، وتحسيسهم بالحقائق ، وإثارة حوافز الخير فيهم ، ومن دون ذلك يصبح الفنّ هراء ، ويذهب بطيباتنا.

وحين يفقه الإنسان حكمة الحياة ومفرداتها يعتدل سلوكه فيها. يبصر الهدف من طعامه فيزهد فيما لا ينفع جسده ، ويعرف الهدف من ثيابه فلا يفاخر ولا يبذّر ، ويضع علمه في خدمة قيمة ، وإذا مارس الفنّ حقّق أهداف أمّته من ورائه.

ألا ترى كيف كان يعيش رسول الله والأئمة الصالحون من خلفائه عليهم جميعا

صلوات الله.

روي في الحـــديث أنّ عمر ابن الخطّـــاب قـــال : استأذنت على رسـول الله (ص) فـدخلت عليه في شـربة أمّ إبـراهيم ، وإنّه لمضـطجع على خصـفة وإنّ بعضه على التراب ، وتحت رأسه وسادة محشوّة ليفا ، فسلّمت عليه ثمّ جلست فقلت : يا رسـول الله أنت نـبيّ الله وصـفوته وخيرته من خلقه ، وكسـرى وقيصر على سـرر الـذهب وفـرش الـديباج والحريـر؟!! فقـال رسـول الله (ص) : «**أولئك قـــوم عجّلت طيّبـــاتهم ، وهي وشـــيكة الانقطاع ، وإنّما أخّرت لنا طيّباتنا**» [1].

أمّا الإمام أمـير المؤمـنين فيقـول عنه حفيـده الإمـام الباقر (عليهما السلام):

«والله ان كـان علي يأكل أكلة العبد ، ويجلس جلسة العبد ، وإن كـان يشـتري القميصـين فيخيّر غلامه خيرهما ثمّ يلبس الآخر، فإذا أجاز أصـابعه قطعه ، وإذا جـاز كعبه حذفه ، ولقد ولّي خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أورث بيضاء ولا حمـراء ، وإن كـان ليطعم النـاس خـبز الـبرّ واللحم ، وينصـرف إلى منزله فيأكل خبز الشـعير والـزيت والخل ، وما ورد عليه أمـران كلاهما لله عـزّ وجل فيه رضا إلّا أخذ بأشـدّهما على بدنه ، ولقد أعتق ألف مملـوك من كـدّ يمينه ، تـربت منه يـداه ، وعـرق فيه وجهه ، وما أطـاق عمله أحد من النـاس ، وإن كان ليصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة ، وإن كـان أقـرب الناس به شـبها عليّ بن الحسـين ما أطـاق عمله أحد من الناس بعده» [2]

وهكذا كان يربّي النبي أصحابه ، فقد ورد في الحديث أنّه (صـلّى الله عليه وآلـه) دخل على أهل الصّـفة وهم يرقّعون ثيابهم بالأدم [3] ما يجدون لها رقاعا ، فقال :

---

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (15).

(2) المصدر / ص (16).

(3) الجلد المدبوغ.

«أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلّة ويروح في أخرى ، ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بـأخرى ، ويسـتر بيته كما تسـتر الكعبـة؟ قـالوا : نحن يومئذ خير ، قال : بل أنتم اليوم خير» [1].

[21] عـذاب الـدنيا أهـون من جهنّم ، ولكنّه شـاهد عليها ، ولقد استمتع الكفّار بدنياهم ، وأذهبوا فيها طيباتهم ، فـابتلوا بعـذاب بـئيس هنا قبل الآخـرة. ألا يكفينا ذلك عبرة؟

هؤلاء قوم عاد ملأ قلوبهم حبّ الدنيا حتى حجبهم عن فهم حقائق الآخرة ، فإذا بهم يعرضـون عن النـذر بـالرغم من بلاغ إنذارهم.

ويبدو أنّ السـياق يضـرب لنا من قصّـة عـاد مثلا على جملة البصائر التي تقدّمت في هذا الدرس ، والـتي منها : تشبّث الإنسان بالتقاليد ، وتوغّله في شهوات الدنيا.

(**وَاذْكُرْ أَخا عادٍ**)

دعنا نذكرهم لنتعظ بمصيرهم.

وكان هود من ذات القبيلة فكان إنذاره بليغـا. أو ليس يتحدّث بلسانهم وحسب مستواهم العقلي؟ وبالإضافة إلى ذلك هو من أنفسهم يحبّ لهم الخير.

(**إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ**)

قالوا : الأحقـاف هي الكثبـان الرملية الـتي تتجمّع هنا وهناك.

وقـالوا : إنّها كـانت وسط الجزيـرة العربية بين نجد والأحساء وحضرموت

---

(1) نور الثقلين / ج (5) / ص (17).

وعمان.

وقال بعضهم : كانت جنوب الجزيـرة باتجـاه اليمن أو في سـواحل بحر العـرب بين عمـان وعـدن ، وقيل أنّهم كانوا مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشّحر. [1]

ويبدو أنّ ذكر الأحقـاف هنا للدلالة على أنّ الله أسـبغ عليهم نعمة المـــاء والكلأ في موقع ينـــدران فيه أي بين التلال الرملية المتحرّكة ، وكـان عليهم أن يشـكروا نعمة الله ، ويسـتجيبوا للنـذر. أو لا يـرون طبيعة الأرض من حـولهم ، وكيف تكـاد الرمـال المتحرّكة تبتلع حضـارتهم الهشّة ، ولكنّهم اغتروا ، وتجـبروا ، واسـتكبروا في الأرض بغير الحق ، وفسقوا عن أمر ربهم فجاءتهم عاصفة رملية دمّرت حياتهم.

(**وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**)

لعلّ المراد من هـذه الكلمة : أنّ النـذر تـوالت عليهم في فترات متعاقبة قبل بعثة هود ، فبعضهم كـانوا قريـبين من عصره «**مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ**» ، بينما كـان بعضـهم بعيـدين من عصره «من خلفه» ، والله العالم.

(**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ**)

هذه هي الرسالة بصورة مختصرة ، وهي تحتوي على سائر التعـاليم ، فمن عبد الله وحـده تعبّد بالشـريعة الـتي أمر بها ، ومن عبد الله وحـده كفر بالطـاغوت وكـلّ مستكبر وظالم ، ورفض التبعية ، ومن عبد الله وحـده لم يسترسل مع شهوات الدنيا حتى الهلاك.

(**إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)

---

(1) راجع التفاسـير وبالـذات تفسـير القرطـبي / ج (16) ص (204) وتفسير نمونه (بالفارسية) / ج (21) ـ ص (351).

[22] أمّا عاد فقد تشبّثوا بالواقع الراهن رغم فسـاده ، لأنّهم زعمـــوا أنّ مصـــالحهم تتعـــرّض للخطر لو آمنـــوا بربهم.

(**قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا**)

وكأنّ آلهتهم التي كانت رمزا لقوى الظلم والاسـتكبار هي المقدّسات التي أراد هود أن يصرفهم إفكا عنها.

وربما يـوحي الاسـتفهام بـأنّهم لم يصـدّقوا أنفسـهم كيف يجرأ أحد على مقاومة تلك الآلهة ، لذلك تحدّوا هـودا بكلّ صلافة قائلين :

(**فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

وهكذا الذي يـركن إلى المـادة يسـتبدّ به الغـرور إلى درجة تراه يتحدّى من ينذره ، ويستعجل لنفسه العذاب.

[23] وكعادة الكفّار بـالغيب زعمت عـاد أنّ هـودا هو الـذي يـنزل عليهم العـذاب ، وأنّ بيـده أمـره ، فنفى ذلك بصراحة :

(**قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ**)

وإنّما هو رسول يبلّغهم أمر الله.

(**وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ**)

وهذه مسـئولية أصـحاب الرسـالة الأساسـية ، بيد أنّ ذلك لا يعـني أنّه مجـرّد سـاعي بريد ، كلّا .. بل له بـدوره كلام ينصحهم به ألّا يكذّبوا بالرسالة :

(**وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ**)

ذلك أنّ تحـدّي جبّـار السـموات والأرض ، واسـتعجال عذاب الإبادة والتدمير ، لا يكون إلّا عن جهل مطبق.

[24] وها هي إرهاصـات العـذاب تلـوح في الأفـق. أرأيت الأعاصير الترابية كيف تبدو من بعيـد؟ كأنّها سـحابة سوداء ، وبما أنّهم قد منع عنهم الغيث لفترة حتى أجـدبت أرضـهم استبشـروا خـيرا بما رأوا ، وزعمـوا أنّه غيث يستقبل أوديتهم العطشى.

(**فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا**)

ولعـلّ تـأخّر المطر عنهم كـان بهـدف إنـذارهم عمليّا لعلهم يتضـرّعون إلى ربّهم ، كما كـانت بين يـدي غـرق فرعون وجنوده آيات تهدف إيقاظهم من سباتهم ، ولكنّهم أصرّوا على كفرهم ، فجاءهم النداء :

(**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ**)

من العذاب.

(**رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ**)

[25] إنّها عاصـفة رملية مـأمورة من عند الله بـأن تدمّر كـلّ شـيء ممّا عند قـوم عـاد في الـوقت المحـدّد ، فهي إذا ليست هو جاء تمضي من دون أمر.

(**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها**)

تتصل ظـواهر الطبيعة بعمل الإنسـان حـتى لا تكـون حادثة صغيرة أو كبيرة إلّا ولها علاقة بما يختلج في قلبه أو تكسبه يداه ، أو تبلو به سرائره وتختبر إرادته ، فحتى

الأمواج الهادرة التي تحيط بالسـفن الشـراعية وهي تمخر عباب البحر ليست بعيـدة عمّا يجـري في داخل السـفينة. أرأيت كيف تتســاقط أغشــية الشــرك عن أبصــارهم فيهرعون إلى الدعاء لكي ينقــذهم الله من ورطتهم ، كما يصف ربنا ذلك بقوله : «**هُـوَ الَّذِي يُسَـيِّرُكُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْـكِ وَجَـرَيْنَ بِهِمْ بِـرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَـوْجُ مِنْ كُـلِّ مَكـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيـطَ بِهِمْ دَعَـوُا اللـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الـدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هـذِهِ لَنَكُـونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**» [1].

بلى. إنّ هـذه البصـيرة تجعل الإنسـان يـزداد تحسّسا بالمســؤولية ، واتقــاء للأخطــاء ، وانضــباطا في أعماله وأقواله ونيّاته ألّا تفسق عن الحدود التي رسـمها له اللـه. أو ليس كلّ شيء يحدث بـأمر ربّـه؟ أو ليس الله حكيما لا يقضي بشيء من دون اسـتحقاق؟ إذا دعنا نكن حـذرين ، نتورّع عن ما يغضب الرب ، ونعتبر بمصير الغابرين.

إنّ الجهل والعنــاد والجحــود لا تنفعنا شـيئا ، بل هي مسئولة عن وقوع أكثر الناس في المهالك. إنّهم يزعمـون أنّ الطبيعة عميـاء تصـيب ضـحاياها بلا قـانون! كلّا .. إنها مأمورة ، وربّها الذي يدبّرها عليم حكيم.

وها قد نزلت الكارثة بقوم عـاد بـأمر الله ، واجتـاحت العاصفة ديارهم ودمّرتهم.

(**فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ**)

ودليل أنّ الـــريح كـــانت مـــأمورة أنّها لم تأخذ إلّا المجرمين منهم.

(**كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**)

---

(1) يونس / (22 ـ 23).

فهي سـنّة عامة لا تخصّ عـادا وحـدهم ، فـأيّ قـوم مجرمين لا بد أن يحيق بهم عملهم يوما.

أمّا هود والمؤمنون معه فقد أنجاهم الله. قالوا : إنّهم اعتزلوا في حظيرة ، ما يصـيبه ومن معه إلّا ما يلين أعلى ثيابهم ، وتلتذ الأنفس به ، بينما كانت تمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا. [1]

وقد جـاء في التـاريخ : أنّ الخليفة العباسي المهـدي أمر بحفر بـئر بقـرب قـبر العبـادي (وهو حسب قـول الحمـوي : مـنزل في طريق مكة من القادسـية إلى العذيب) لعطش الحاج هناك ، فحفروا أكثر من مـأة قامة ، فبينما هم يحفـرون إذ خرقـوا خرقا وإذا تحته هـواء لا يدرى قعره ، وهو مظلم ، وللريح فيه دويّ ، فأدلوا رجلين فلما خرجا تغيّرت ألوانهما فقالا : رأينا هواء واسعا ، ورأينا بيوتا قائمة ، ورجـالا ونسـاء ، وإبلا وبقـرا وغنما ، وكلّما مسنا شيئا رأيناه هباء ، فسألنا الفقهـاء عن ذلك فلم يـدر أحد ما هو ، فقـدم أبو الحسن موسى بن جعفر ـ عليه السّـلام ـ على المهـدي فسـأله عن ذلك فقـال : «هـؤلاء أصـحاب الأحقـاف وهم بقية من قـوم عـاد ، سـاخت بهم منازلهم» وذكر على مثل قول الرجلين. [2]

---

(1) تفسير القرطبي / ج (16) ـ ص (207).
(2) تفسير نور الثقلين / ج (5) ـ ص (18) نقلا عن الخرائج والجرائح.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (28) وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ

ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35))

---

(31) (يُجِرْكُمْ) : أي يحفظكم.

فاصبر كما صبر أولو العزم

هدى من الآيات :

يستمر السياق في الحديث عن سنّة الله في الخليقة الــتي تتجسد في بعث الأنبيــاء ــــ عليهم أفضل الصــلاة والسلام ــ كلّما انحـرف النـاس عن المسـيرة ، وإنـذارهم بمصيرهم المرتقب ، ويشـير إلى القـرى الـتي أنـذر أهلها بالأنبيـاء ، وأنـزل لهم الكتب لعلّهم يهتـدون ، ولكنّهم بـدل أن يعبـدوا الله ويعتمـدوا عليه إذا بهم يعبـدون الأنـداد من دونه ، فلم يغنوا عنهم ـ ساعة الانتقام ـ شيئا.

ويقصّ علينا ربّنا في هــذا الســياق كيف صــرف إلى الرسـول نفـرا من الجن يسـتمعون القـرآن فلمّا آمنـوا به ولّوا إلى قـومهم منـذرين ، ولعـلّ سـبب ذكر هـذه القصة في هذا السياق أنّ الكفّار كانوا يزعمون بأنّ الجن أنصاف آلهة ، وأنّهم يدفعون عنهم الضراء. أو لم يقل ربّنا سبحانه : «**وَأَنَّهُ كـانَ رِجـالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُـوذُونَ بِرِجـالٍ مِنَ الْجِنِ**» ، فجـاءت هـذه القصة لبيـان حاجة الجن أيضا إلى الرسالة.

بينات من الآيات :

[26] عند ما يفرّ الجاحد ـ لآيـات الله ـ من مسـئولية الاعـتراف بـالحق ، والتسـليم له ، يلجأ ـ في زعمه ـ إلى ركن الغــــرور بــــالقوّة والعلم ، ويعتقد أن ما يملكه من أموال ، ومن كيد ، ومن مكر تغنيه شـيئا عند ما يحـدق به خطر الدمار ، بسبب كفره بالله ورسالته.

كلا .. إن مصير الغابرين من عـاد ، وثمـود ، وفرعـون وهامــان وجنودهما ، وغــيرهم يكفينا عــبرة بــأن قــدراتنا المادية والعلمية إن هي إلّا غرور.

(**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ**)

قال المبرّد : «ما» في قوله : «فيما» بمنزلة (الــذي) و «إن» بمنزلة (ما) والتقدير : ولقد مكّنـاهم في الـذي ما مكنـاكم فيه ، والمعـنى : أنّهم كـانوا أقـوى منكم ، وأكـثر منكم أموالا [1] وكذا في قوله تعالى : «**كانُوا أَكْثَـرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ**»

وهكذا كـانت الإمكانـات الـتي سخّرت لهم أكـثر مما سـخرت لقــريش ، وربما لكـلّ قــوم يتلـون الكتـاب من بعدهم.

(**وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً**)

وبما أنّهم كـانوا مـزوّدين بهـذه الأجهـزة زعمـوا بأنها تنقـذهم من عـذاب اللـه. ذلك أن الإنسـان يهلك إذا كـان ضعيفا ، أو جاهلا ، أو غافلا ، ولم يكن أولئك القوم كذلك ، ومع ذلك اهلكوا عند ما أراد الله.

---

(1) يمرط : ينزع.

(**فَما أَغْـــنى عَنْهُمْ سَـــمْعُهُمْ وَلا أَبْصـــارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ**)

وانما ينتفع الإنسان بهذه الجوارح إذا كان مؤمنا بآيات الله ، أمّا إذا كفر بها فإنه ســـوف يخطأ المنهج الســـليم للانتفــاع بها .. أرأيت الــذي يملك أفضل وســيلة ســير ثم يخطأ الســبيل فهل تنفعه وســيلته لبلــوغ غايته إذا كــانت وجهة ســيره خاطئــة؟! كــذلك الــذي لا يــؤمن بالحقــائق الكبرى ثم لا يسـتفيد من معرفته بالحقـائق الجزئية الـتي تقع في اطارها ويكــون مثله كالــذي لا يعــترف أنّ عــدوّه يمتلك قنبلة نوويّة ، ثم يجدّ في معرفة عدد دبابـات العـدو .. انه سيخسر المعركة قطعا حـتى إذا عـرف كـلّ حقيقة في سلاح المدرعات عند العدو.

هكذا من لا يعتقد بقـوّة الله الـتي أرسـلت على قـوم عاد تلك العاصفة الهوجاء ، الـتي دمّـرت كـلّ شـيء بـإذن ربّها ، أو الـتي أخـذت فرعـون وجنـوده ونبـذتهم في اليمّ نبـــذا. إن مثل هـــذا الرجل لن ينتفع شـــيئا بمعرفته مثلا بأصـــول الهندسة ، أو كيفيّة تنظيم الجيش ، لأن كل ذلك وضع في مواجهة أخطـــار بســـيطة ، أما مقاومة تغيـــير طبيعي هائل فانه فوق قـدراتنا المنظـورة .. تماما كالـذي يجهد نفسه في بناء خنـدق عميق في مواجهة سـلاح ذريّ .. إنه مغـــرور لأن الخنـــدق انما أنشئ لمواجهة ســـلاح تقليديّ وليس سلاحا ذرّيّا.

وهكـــذا الســـمع والأبصـــار والأفئـــدة انما هي أدوات لمواجهة أخطــار عاديّة ، ولا تنفع الــذي يخــالف إرادة الله شيئا.

(**إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كـانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

من الحقائق الكبيرة الـتي جحـدوها ، وسـخروا منهـا. انها نـزلت بهم كالصـاعقة ، وتـنزل بمن يسـير في خطهم الباطل.

[27] لا تـــزال على الطبيعة من حولنا آثـــار تنطق بسنن الله في التاريخ ، فهذه القــرى من حولنا قد أهلكت بفعل ضـلالتهم عن الحــق. ولكن هل أهلكــوا فجـأة ومن دون نذر؟ كلّا ..

وكـانت قـريش تمـرّ على قـرى مـدين وثمـود عند رحلتهم صـيفا نحو الشـمال ، وعلى قـرى الأحقـاف عند رحلتهم شتاء نحو الجنـوب ، وجـاء القـرآن يبصّـرهم بعـبر تلك القرى الخاوية على عروشـها ، وتلك الآبـار المعطّلة ، وآثار القصور المشيدة.

وهكـذا يسـتنطق كتـاب الله حـوادث التـاريخ وآثـار الغـابرين ، ويجعلها تحكي للإنسـانية عـبر أسـلافهم لعلّهم يسعدون بتجاربهم.

(**لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى**)

وفي أيّ بلد كنت طف على القرى الغابرة من حولك. قف على أطلالها ، واسـتنطق آثــار الأوّلين ، وسـائلهم : لماذا أهلكوا ، فاستوعب عبر حياتهم قبل أن تكـون عـبرة لمن يعقل من بعدك ، ذلك أنّ البلاد جميعا لا تخلو من آثار الغـابرين الـذين كتبـوا عليها دروسا لم يتعلّموها من أحد ، ولو تعلّموا بعضها إذا ما أهلكوا.

(**وَصَرَّفْنَا الْآياتِ**)

لنا كما لأولئك الغابرين ، فلم تـدمّر حيـاتهم بلا سـابق إنـذار ، وكـانت النـذر تـترى عليهم بهـدف صـرف العـذاب عنهم إذا اتبعوا النذر وعادوا إلى الرشد.

(**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

ونســـتوحي من كلمة «**يَرْجِعُـــونَ**» أنّهم كـــانوا مستبصرين في أوّل حياتهم ، ماضين على الفطرة الأولى ، فلمّا انحرفـــوا أنـــذروا بالعـــذاب لعلّهم يرجعـــون إلى فطرتهم

الأولى.

[28] فلما ذا تولّوا عن النـذر ، ولم يسـتجيبوا لـداعي الله ، ولماذا لم يعتبروا بمصير من سبقهم؟

لأنّهم اتخـــذوا من دون الله قربانا آلهة فزعمـــوا أنّهم ينصرونهم من عذاب الله ، ولكن هيهات.

وهكذا يزعم الإنسان أنّ بمقـدوره التمسك بـذيل من يـزعم أنّهم مقرّبـون إلى الله ، من آبائه أو عظمـاء قومه لينجونه من مصيره ، وهكذا يخدع نفسه ويظل في غروره حتى يأتيه العذاب فيكتشف متأخّرا أنّه كان في ضلال بعيد ، وأنّهم لا يستطيعون نصره أبدا.

(**فَلَـوْ لا نَصَـرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللـهِ قُرْباناً آلِهَةً**)

وكما أنّهم لم يقـــدروا على نصـــرهم في الـــدنيا من الدمار فإنّهم لا ينصرونهم في الآخرة من عذاب النار.

(**بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ**)

لقد ضلّت الآلهة عنهم فلم يجـدوا لها أثـرا عند نـزول العذاب ، شـأنهم شـأن كـلّ دجل وخـداع تـرى له صـورا ، وتســمع جلبة ، وتســتقبل وعــودا في الرخــاء ، أمّا عند الشـدة فهي تتلاشى كما يتلاشى السـراب عند ما تقـترب منه.

ولكن من المســؤول : الآلهة الـــتي طالما وعـــدت أنصارها بالنصر ثم ضلّت عنهم عند ما دقّت ساعة الانتقام ، أم أولئك الـذين خـدعوا بهم؟ لا ريب أنّ الـذين قبلـوا الانسـياق مع ضـلالات الآلهة هم المسـؤولون ، لأنّ الآلهة من دون الأنصار لا تعني

شـيئا. أرأيت لو لم يعبد أحد صـنما هل يختلف الصـنم عن أيّة حجارة أخرى؟ أو رأيت إن لم يتبع النـاس الطغـاة هل هم يتميّزون شيئا عن غيرهم؟

إذا المسؤول أوّلا الإنسان الذي يصنع الإفك ، ويفتري على الله.

(**وَذلِكَ إِفْكُهُمْ**)

قـــالوا : الإفك الكـــذب ، وكـــذلك الأفيكة ، والجمع الأفائك ، وإفك الجماعة كـــان يتمثّل في تقـــديس الآلهة والإعتقاد بقوّتهم.

(**وَما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

ولعـلّ المـراد من ذلك الأنظمة الفاسـدة الـتي كـانت تـترتب على هـذا الإفك ، والـتي كـانوا يفترونها على الله كذبا.

وهكذا تكون الحالة الشركية والفسـاد العـريض الـذي يؤدي إليه نتيجة ثقافة الضـلالة ، وفسـاد الأخلاق والأنظمة والعادات ، ويـزعم البسـطاء أنّ الكيـان السياسي الفاسد والنظام الاقتصادي والاجتمـاعي المنحـرفين قـادرين على المحافظة على مصـــالحهم ، ولكنّهم يصـــطدمون فجـــأة بـــالواقع المرير الـــذي يفـــرزه هـــذا الإفك الكبـــير حين لا ينفعهم الندم.

وقد نستلهم من الآية أنّ الأصنام التي كـانت تعبد من دون الله ، وكـــذلك الطغـــاة والمـــترفين الـــذين كـــانوا يسـيطرون على مقـدّرات النـاس ، إنّما هم جميعا صـورة مجسّدة لمجمل ضلالة المجتمع وانحرافه.

[29] ومن النـاس من يتخذ الجن آلهة من دون الله ، ويأفك القداسة لهم ، فلا ينتفع بعبر الغـابرين اتكـالا عليهم ، وقد يستعيذ بهم من دون الله ، ويزعم أنّهم

يمنعونه عن سيئات عمله ، ويغنون عنه من الله شيئا.

كلّا .. الجن كالإنس خلق برأهم الله ، وهم بحاجة إلى الرسالة ، وانّ الرسل الذين يبعثون إلينا هم النذر المرسلون إليهم أيضا .. وإذ يحدّثنا السياق هنا عن قصة استماع الجن للقرآن وإيمان نفر منهم ثم انصرافهم الى قومهم منذرين فإنّه يصحّح بذلك تلك الصورة المشوّهة عنهم في أذهان كثير من الناس حيث يزعمون بأنّ الجن مصدر كلّ شر وخبث ، كلّا .. بل منهم المؤمنون الذين يحملون رسالات الله إلى قومهم.

ويبدو من خطاب القرآن إليهم في آيات عديدة أنّهم مكلّفون به ، وأنّهم متعايشون معه ، ولكنّنا حتى الآن محجوبون عنهم ، كما يظهر أنّهم مجزيّون على إيمانهم وأعمالهم كما الإنس سواء بسواء ، فلا يجوز أن يستعيذ بهم الإنس لأنّهم يزيدونهم رهقا.

(**وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ**)

أي ألهمنا نفرا من الجن الحضور عندك ، أو حملناهم على المرور بك من دون تقدير منهم.

(**يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ**)

قالوا : في أثناء عودة الرسول (ص) من سوق عكاظ نزل بمكان يقال له : مجنّة ، نسبة إلى الجنّ ، فبات فيه ، وكان من عادته (ص) انه يبيت لربه ساجدا قائما ، يتلو أجزاء القرآن يرتّلها ترتيلا ، وبينما كان يتلو القرآن مرّ به نفر من الجن قالوا كانوا من أهل نصيبين ، فإذا بهم يسمعون ذكرا عجبا.

(**فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا**)

دعونا نستمع لهذا الذكر!

وقد ذكر المفسـرون هنا قصة رحلة النـبي (ص) إلى الطـائف الـتي التقى في العـودة منها بـالجن ، وهي رحلة حافلة بالـدروس والعـبر ، بالـذات فيما يتصل بالصـبر والاسـتقامة اللـذين أمرنا بهما في نهاية السـورة ، ولهـذا نجد من المفيد بيان أبعاد هذه الرحلة الجهادية العظيمة.

قال المفسرون (ابن عباس وسـعيد بن جبـير ومجاهد وغيرهم): لمّا مات أبو طالب خرج النبي (صـلّى الله عليه وسـلّم) وحـده إلى الطـائف يلتمس من ثقيف النصـرة ، فقصد عبد يا ليل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة بنو عمرو بن عمير ـ وعندهم امرأة من قريش من بني جمح ، فـدعاهم إلى الإيمـان ، وسـألهم أن ينصـروه على قومه ، فقـال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر : ما وجد الله أحـدا يرسـله غـيرك! وقـال الثـالث : والله لا أكلّمك كلمة أبدا ، إن كان الله أرسـلك كما تقـول فـأنت أعظم خطـرا من أن أردّ عليك الكلام ، وإن كنت تكـذب فما ينبغي لي أن أكلّمـك. ثمّ أغـروا به سـفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون به ، حـتى اجتمع عليه النـاس والجـؤوه إلى حائط لعتبة وشـيبة ابـني ربيعة ، فقـال للجمحية : «ماذا لقينا من أحمائك»؟ ثم قال : «اللهمّ إنّي أشـكو إليك ضـعف قـوّتي ، وقلّة حيلـتي ، وهـواني على النـاس ، يا أرحم الـراحمين ، أنت ربّ المستضـعفين ، وأنت ربّي ، لمن تكلـني! إلى عبد يتجهّمـني ، أو إلى عـدوّ ملّكته أمري! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبـالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنـور وجهك من أن يـنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوّة إلّا بك» ، فرحمه ابنا ربيعة ، وقالا لغلام لهما نصراني يقال له عـدّاس : خذ قطفا من العنب وضـعه في هذا الطبق ثم ضعه بين يدي هذا الرجل ، فلمّا وضـعه بين يدي رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال النبي

(صـلّى الله عليه وسـلّم) : «باسم اللـه» ثمّ أكل ، فنظر عـدّاس إلى وجهه ثم قـال : والله إنّ هـذا الكلام ما يقوله أهل هـذه البلـدة! فقـال النـبي (صـلّى الله عليه وسـلّم): «من أيّ البلاد أنت يا عـــدّاس وما دينـــك»؟ قـــال : أنا نصراني من أهل نينوى ، فقـال له النـبي (صـلّى الله عليه وسلّم) : «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى»؟ قال : وما يـدريك ما يـونس ابن متّى؟ قـال : «ذاك أخي كـان نبيّا وأنا نبي» فانكبّ عدّاس حتى قبّل رأس النـبي (صـلّى الله عليه وسـلّم) ويديه ورجليه ، فقــال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا؟! فقال : يا سيدي ما في الأرض خير من هذا ، أخبرني بأمر ما يعلمه إلّا نبي. ثم انصـرف النـبي (صـلّى الله عليه وسلّم) حين يئس من خير ثقيف ، حـتى إذا كـان ببطن نخلة قام من الليل يصـلي فمـرّ به نفر من جنّ أهل نصيبين ، وكان سبب ذلك أنّ الجنّ كانوا يسترقون السمع ، فلمّا حرست السـماء ورمـوا بالشـهب قـال إبليس : إنّ هـذا الـذي حـدث في السـماء لشـيء حـدث في الأرض ، فبعث سـراياه ليعـرف الخـبر ، أوّلهم ركب نصـيبين وهم أشـراف الجن إلى تهامة ، فلمّا بلغـوا بطن نخلة سـمعوا النبي (صلّى الله عليه وسـلّم) يصـلّي صـلاة الغـداة ببطن نخلة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا. [1]

(**فَلَمَّا قُضِيَ**)

حين انتهى الرسول من قراءته ..

(**وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**)

(1) تفسير القرطبي / ج (16) ـ ص (210 ـ 211). وما نقله القرطـبي قد يتعـارض مع ظـاهر الآيـات التاليـة. من أن إبليس قد بعث بسـراياه ليعرفـوا ما الخـبر من حراسة السـماء. لأنهم أولا : وكما أكـدت الآيـات التالية انهم مؤمنون بموسى (ع). وهـذا يتناسب والآية (10) من ايمـان بعض علماء بني إسرائيل بالنبي (ص) ، وثانيا : هذه الحادثة (أي إرسال إبليس لسـراياه ليعلمـوا ما الخـبر) ذكرها المفسـرون في بعثة النـبي (ص) وبعض ذكرها في مولده الشريف (ص).

يبـدو أنّهم كـانوا ذاهـبين إلى مهمّة مّا ، ولكنّهم حينما استمعوا إلى القرآن عادوا دون أن يقوموا بمهمتهم ، لكي ينذروا قومهم.

[30] وفيما يلي من الآيـات نصّ الإنـذار الـذي حمله الجنّ إلى قومهم :

(**قـالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَـمِعْنا كِتابـاً أُنْـزِلَ مِنْ بَعْـدِ مُوسى**)

قـالوا : إنّ الرسـالة الحقيقة من بعد رسـالة إبـراهيم (ع) كانت رسالة الله إلى عبـده وكليمه موسى (ع) ، وأمّا الإنجيل فقد كان تكميلا للتوراة ، كما قـال الله عن لسـان عيسى (ع) : «**وَلِأُحِـلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُـرِّمَ عَلَيْكُمْ**» [1] ، واستمرّت رسالة موسى إلى أن بعث الله نبيّنا الأكرم (ص) ، وخلال هـذه الفـترة ـ بين الرسـالتين ـ بعث الله أنبياء ولكن ضمن رسالة موسى (ع).

(**مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ**)

إنّ وحدة القيم والمبادئ والتعاليم والمناهج والشرائع في الرسالات الربّانية شـاهد صـدق على أنّها من عند الله الواحد ، ولو لا ذلك كيف تتناغم هـذه المنظومة المتكاملة من المعـارف والأنظمة عـبر العصـور المختلفة والبلاد المتفاوتة والرجال المتباعدين عن بعضهم في أكثر الأبعـاد المادية؟

وهكـذا اهتـدى الجن إلى صـدق الرسـول من خلال النظر العميق في رسالته وأنّها تنسجم مع جوهر رسـالات الله السـابقة ، فهي صـادقة كما أنّ ما سـبقتها كـانت صادقة.

ويا ليت شعري كيف كـان يكفر بـالقرآن من آمن حقّا بالتوراة ، والقرآن هو

(1) آل عمران / (50).

الصيغة الأكمل للتوراة؟!

(**يَهْدِي إِلَى الْحَقِ**)

والحق هو ذلك النـور الـذي يسـطع على كـلّ قلب سليم ، وكلّ عقل متحرّر ، وكلّ فطـرة نقيّة ، وحين يـذكّر القـرآن به لا يجد الإنسـان مـبرّرا للكفر به ، إذ يتوافق الكتاب مع حقائق العقل.

وهكـذا اسـتدل الجن على صـدق الرسـالة بمحتواها الحق ، فعرفوا الرسول برسالته فصدّقوا به.

(**وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**)

ليس في الكتاب آية إلّا وتهدينا إلى ما يحكم به العقل ، إلّا أنّ العقل لا يقـدر على معرفة الشـرائع الواضـحة لتحقيق الحق ، فمثلا عبـادة الله والتحـرّر من الطـاغوت والعدالة والتقدّم والتعاون والسلام تلك هي الحقائق الـتي يذكّر بها الشرع ، ويشهد بها العقل ، ولكن كيف نحقّقهـا؟ إنّ الإجابة عن ذلك نجـدها في الرسـالة الـتي تهـدينا إلى السبل الواضحة والقويمة لبلـوغ الأهـداف السـامية ، تلك التي نسمّيها بالشريعة والأحكام.

[31] وما لبث المنـذرون من الجن أن تحمّلـوا مسـئولية الـدعوة بإصـدار الأمر بطاعة الرسـول بعد أن عرفوا صدقه قائلين :

(**يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ**)

وأشـاروا بكلمة «قومنـا» أنّهم يريـدون لهم الخـير باعتبارهم من قومهم ، ثم أمروا بطاعة الرسول لأنّه يدعو إلى الله ، وهكذا يؤدّبنا القرآن ألّا نكرم أحدا أو نطيعه إلّا

باسم الله وباعتباره داعيا إليه.

(**وَآمِنُوا بِهِ**)

لعــلّ الإجابة هي التســليم له بصــورة مجملة ، بينما الإيمان هو العمل برسالته.

(**يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**)

تلك الــذنوب الــتي تــراكمت علينا قد ذهبت لــذّاتها وتلاشت دوافعها ، بينما بقيت تبعتها وآثارها على القلب ، وعواقبها على المســتقبل ، لعلّنا نســيناها ، بيد أنّ كتــاب ربّنا قد أحصــاها ، لــذلك كــان الخلاص منها غاية مــنى الموقــنين ، وأعظم بــاعث لهم نحو الطاعة للقيــادة الشــرعية ، والجهــاد في ســبيل إعلاء كلمة الحق ، وربما الشهادة في سبيل الله.

وتساءل المفسرون : لماذا قـال «**مِنْ ذُنُـوبِكُمْ**» ، أو ليس الإسـلام يجبّ ما قبله ، ممّا يعـني أنّ الله يغفر كـلّ الذنوب السابقة عليـه؟ ومن هنا قـال بعضـهم : إنّ «من» زائدة.

ولكن قـال الآخــرون : إنّ «من» ليست زائـدة ، وإنّ مجرّد الإسلام لا يطهّر صاحبه من تبعات كلّ الـذنوب ، بل كلّما عمل الإنســان ببعض الواجبــات كلّما ســقطت عنه طائفة من الـذنوب حـتى لا يبقى منها إلّا الـنزر اليسـير ، وانطلاقا من هذا التفسـير الموافق لظـاهر القـرآن (حيث أنّ الظــاهر ألّا تكــون أيّة كلمة أو حــرف زائــدة) يجتهد المؤمنون في الأعمال الصالحة لتذهب بالسيئات.

(**وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ**)

ومن ذا الــذي يجــير العبد من ربّه المحيط به علما وقدرة؟! وإذا كان الجن

بحاجة إلى من يجــيرهم من عــذاب الله ، فهل يقــدرون على إجارة أحد من الأنس ممّن يستعيدون بهم؟!

حقّا : إنّنا جميعا نبحث عن الأمن فهل نجـــده إلّا عند ربّنا الكـــريم ، ولكن هل يجيرنا الـــربّ من دون طاعة رسوله الداعي إليه؟

[32] وهل يســتطيع أحد أن يهــرب من حكومة الله ، ويخــرج من حــدود ســلطانه؟ أنّى له ذلك وكــلّ ذرّة في وجوده قائمة به سبحانه.

(**وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللـــهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِـــزٍ فِي الْأَرْضِ**)

فلا يســـتطيع هربا من عاقبة كفـــره أنّى مضى من أطراف هذه الأرض التي هي في قبضة ربّها. إنّه لا يعجزه فرارا كما يعجز أحدنا الآخر بالانتقال من حدود سيطرته أو علمه.

(**وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ**)

ينصرونه ، بالرغم من أنّ الإنسان يــزعم أنّ عشـيرته أو أســرته أو حز به وناديه يهرعــون إلى مســاعدته عند ما يتعرّض للعذاب ، ولكنّ ذلك لا ينفعه أمام عذاب الله الذي قد يشملهم جميعا.

بلى. الخلاص من العذاب ممكن بــالهرب إلى الله من عذابه ، والالتجــاء إلى فنــاء عفــوه ، فــرارا من ســطوة انتقامه ، ولكنّ ذلك مشروط بإجابة داعي الله.

(**أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

قد يضــلّ الإنســان وهو يــزعم أنّه على هــدى ، ولكنّ ضلال البشر عن ربّه لا يمكن

تبريره أو إخفاءه أنّه ضلال مبين ، لأنّ القياس باطل تماما بين الله وخلقــه. أليس كــذلك؟ فكيف يمكن للإنســان أن يزعم أنّ من خلقه الله بقـادر على إنقـاذه من غضـبة ربّه الخالق الجبّار؟!

[33] والعـذاب الأدنى في هـذه الحيـاة شـاهد صـدق على العــذاب الأكــبر في الآخــرة ، أوّلا : لأنّه ينسف بــنى التبرير ، والتشبّث بالأعذار ، والغرور بنعم الله ، والإعتقـاد بــأنّ الله لا يعــذّب أحــدا ، كلّا .. أو ليس قد عــذّب عــادا الأولى ، وثمــــود فما أبقى؟ ، وثانيا : لأنّه يرينا صــــورة واضحة عن شـدّة عـذاب الله ، فـإذا كـان العـذاب الأدنى ريحا تدمّر كلّ شيء بإذن ربّها فكيف بالعذاب الأكـبر؟! إذا فـإنّ ما أنـذر به المرسـلون من عظيم العقـاب في اليـوم الآخر حق لا ريب فيه ، ثالثا : حينما نشــهد عــذاب الله للأمم الغــابرة تلين القلــوب ، وتســتعد لتقبّل المواعظ الربّانية ، وكـــانت من قبل ســادرة في غفلتها ، محجوبة بغرورها وبانشغالها بالشهوات العاجلة والأمـاني والأحلام ، لــذلك كـانت تلجأ إلى كهف التكـذيب بـالآخرة ، واختلاق الشـبهات حولها ، فـرارا من ثقل المسـؤولية ، ومسـارعة في اللّذات ، ومضيّا مع الشهوات حتى الثمالة.

وأكـثر الشـبهات شـيوعا عنـدهم ما قـالوا : كيف يعيد الله هذه الأعظم البالية وقد أضحت رميما تذروه الرياح؟! وكيف يحــيي الله المــوتى وقد فسد نظــام أجســادهم ، ومــاتت خلايا المخّ عنــدهم ، ولم نر أحــدا منهم عــاد إلى الحياة أبدا؟!

وهــذه الشـبهة تافهة جــدّا ، إلّا أنّها تسـتمد قوّتها من عزم البشر على التهرّب من الإيمان بالآخرة خشـية تحمّل مســئولياته الثقيلة ، ولو لا ذلك فإنّها تتلاشى كما يتلاشى ظلام الليل حينما ينبلج فجر الحقيقة ، بشــرط ألّا يحتجب الإنسان عنه بغشاوة الشهوات ، دعنا نسـتمع إلى القـرآن وهو يبدّد هذه الشبهة بتساؤل يمسّ أوتار

الفطرة النقية مسّا رقيقا :

(**أَوَلَمْ يَرَوْا**)

إنّها حقيقة ترى ليس بـالعين وحـدها ، فـإنّ البصر قد يزيغ ، ولكن بـالقلب الـذي تجتمع لديه أحاسـيس كـلّ الجوارح.

(**أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى**)

بلى. لأنّنا نشـهد في كـلّ أفق من آفـاق هـذه الخليقة الواسعة تجدّد الحيـاة بعد المـوت ، فهـذا الربيع حيث تحيا الأرض بعد موتها ، وتستيقظ الأشجار بعد همودها ، تشـهد بقدرة البارئ التي تحيط بكلّ شيء.

إنّ التنـوّع الهائل الـذي يعجز البشر عن إحصـائه في الخلق : من أقسـام الأحجـار والمعـادن والأتربة وصـنوف الأحياء ، ومن الفيروس حتى الفيل ، ومن أصغر خلية حيّة في البحر حتى الحوت العظيم ، ومن أصغر حشرة طائرة حتى النسور والعقبان.

واختلاف البشر خلقا ، وتقلّبهم من حالة النطفة حـتى بلوغ مرحلة الاكتمال.

ثمّ ما أوتينا من عظيم خلق السموات التي لو قيست أرضنا بها لكانت كحبّة رمل في صحراء واسعة.

كـلّ ذلك يرينا جانبا من قـدرة الله ، وأنّه سـبحانه لا يعجزه شيء أبدا .. فهل يستحيل عليه أن يحيي الموتى؟!

(**بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

وقـدرة الله تنبسط على الخليقة ، حـتى لا تـدع شـيئا يتصوّره البشر إلّا وقد خلقه ربّنا ، وأكمل خلقه ، وخلق له صنوفا وأنواعا. سبحان ربّنا وتعالى!

[34] وما عسى أن ينفع التكــذيب؟ هل يــذهب نــور الشــمس لو احتجبت عنــه؟! هل يـدرأ خطر المــوت عن نفسه من يكذّب به ، أم أنّه بتكذيبه يقرّبه إلى نفسه أكـثر فأكثر؟! هكذا من يكذّب بالآخرة لا يدرأ عن نفسه عذابها ، بل يزداد إثما بتكذيبه واستحقاقا للعذاب أكثر فأكثر.

وحين يحس جحدة البعث بحـرارة النـار ، ويـرون بـأمّ أعينهم جبــالا من اللهب الــذي يتميّز من الغيظ في جهنّم حــتى لكــاد قلــوبهم تنخلع من شــهيقها وزفيرها ، يومئذ يؤمنون بالعذاب ، ولكن بعد فوات الأوان.

(**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَـرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هـذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**)

إنّها عاقبة من كفر بالعذاب ، وجحد بالبعث ، وتساءل مستنكرا : كيف يحيي الله الموتى؟!

حقّا : مجرّد تصوّر تلك اللحظة التي يأتي الله بالكفّـار ليشــهدوا جهنّم ونيرانها الملتهبة يكفي للتصــديق بهــا. أو تدري لماذا؟ لأنّ أساس الكفر بالآخرة قـائم على الغفلة ، والاسترسال مع الهوى ، والاستهزاء بالحق ، فيكون تصوّر هـذا العـذاب المهيب كافيا لزعزعة أسـاس الكفر ، وتنبيه الإنسان إلى ضـرورة التفكّر الجـدّي ، وإيقـاف استرسـاله الخطير مع الشهوات ، وبالتالي إسقاط حجب الغـرور عن عينه ليرى بها الحقائق مباشرة.

[35] لكي تمضي سـنّة الامتحـان في الكـافرين كما أرادها الله بحكمته البالغة ، لا بـــدّ أن يكتفي المنـــذرون بالبلاغ ، ويصبروا على أذى قومهم دون أن يسـتعجلوا لهم العذاب.

ولكي لا يتحـوّل الصـراع مع الكفّـار إلى صـراع ذاتي بين طائفة وأخـــرى ، بل يبقى نقيّا عن أيّة مصـــلحة مادية لأهل الحق حـــــتى تتم الحجة على أعـــــدائهم ، لا بد من الصبر.

(**فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**)

أو ليس الرسـول (ص) منهم وهو أفضـلهم ، فليصـبر كما صبر نوح (ع) عند ما دعا قومه ألف سـنة إلّا خمسـين عاما فلم يـؤمن به إلّا نفر قليل ، وكما صـبر إبـراهيم (ع) عند ما ألقي في النـار ، وعند ما هـاجر إلى ربّه ، وعند ما أسكن من ذرّيّته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحـرّم ، وعند ما حـــاول ذبح ابنه اســتجابة لأمر ربّه ، وكما صـــبر موسى (ع) في مواجهة أعـتى طـاغوت مع شـعب خـائر العزيمة كبـني إسـرائيل ، وكما صـبر عيسى (ع) مكـاره الدنيا بزهده ومقاومته لعتاة بني إسرائيل.

هؤلاء هم أولوا العزم من الرسل الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا ، لأنّهم كانوا أصـحاب شـريعة جديـدة ، لكـلّ أهل الأرض ، وكـــانوا بحاجة إلى صـــبر عظيم لتبليغها إلى الناس.

فقـال ربّنا سـبحانه عنهم : «**وَإِذْ أَخَـذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً**». [1]

---

(1) الأحزاب / (7).

وهـذه الآية تشـهد على مـدى الأذى الـذي كـان ينتظر هذه الصفوة الخالصة من الأنبيـاء فأخذ منهم ميثاقا غليظا على ضرورة الصبر عليه.

وقال ربّنا وهو يبيّن أنّ هـؤلاء الخمسة المطهّـرين هم أصحاب شـريعة : «**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الـدِّينِ ما وَصَّـى بِـهِ نُوحـاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ وَما وَصَّـيْنا بِـهِ إِبْـراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى**» [1]

وهكـذا جـاء في الحـديث عن الإمـام الصـادق (عليه السلام):

«**سادة النبـيين والمرسـلين خمسة ، وهم أولـوا العـــزم من الرسل ، وعليهم دارت الـــرحى : نـــوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد**» [2].

أمّا عن سبب تسمية هؤلاء الخمسة بأولي العزم فقد جاء في حديث مروي عن الإمام الصادق (ع) قال :

«لأنّ نوحا بعث بكتـاب وشـريعة ، وكـلّ من جـاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه ، حتى جاء إبـراهيم بالصحف وبعزيمة ترك شريعة نوح لا كفرا به ، فكـلّ نـبي جاء بعد إبراهيم أخذ بشـريعته ومنهاجه وبالصـحف ، حـتى جـاء موسى بـالتوراة وشـريعته ومنهاجه وبعزيمة تـرك الصحف ، فكلّ نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه ، حتى جاء المسيح بالإنجيل وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه ، فكلّ نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه ، حـتى جـاء محمّد فجـاء بـالقرآن وبشـريعته ومنهاجه ، فحلاله حلال إلى يـوم القيامة ، وحرامه حـرام إلى يوم القيامة ، فهؤلاء أولوا العزم من الرسل» [3]

(1) الشورى / (13).
(2) تفسير (نمونه) ج (21) ـ ص (380) نقلا عن الكـافي / ج (1) بـاب طبقات الأنبياء والرسل.
(3) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (22).

(**وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**)

لأنّ العـــذاب الـــذي يرونه يكفيهم ، والأجل الـــذي يتمتعون فيه لا يسوى شيئا إذا قيس بذلك العذاب الرهيب الخالد.

(**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ**)

فـإذا كـان اليـوم الواحد في الآخـرة ألف عـام ، فما قيمة سبعين عاما إذا قيست بسـنيّ تلك الأيّـام؟! إنّها في أفضل حال لحظات من نهار في عمر طويل ، وهل يسـعد من خسر كلّ عمره لقاء لحظات تمتع فيها؟!

وهكـذا ينبغي أن يتسـلّح المـؤمن بحسـابات أخروية ، فلا يجزع من تأخير النصر ، ويقـول : كم سـنة مـرّت ولمّا ينصـرنا اللـه! بل يحسب سـنواته قياسا على أيّـام الآخـرة وسـنينها ، هنالك يسـتطيع أن يتّبع خطى أولي العـزم من الرسل في الصبر والاستقامة. أليس يتبعهم في مسـئولية أداء الرسالة وبلاغها؟

كـذلك نجد في النصـوص الإسـلامية التوصـية بالصـبر اتباعا لنهج الأنبياء ، ففي رسالة مفصّلة إلى أصحابه يقول الإمام الصادق (عليه السلام):

إنّه لا يتمّ الأمر حـتى دخل (يـدخل) عليكم مثلما دخل على الصـــالحين قبلكم ، وحـــتى تبتلـــوا في أنفســـكم وأمــوالكم ، وحـتى تسـمعوا من أعـداء الله أذى كثـيرا وتصـــبروا وتعركـــوا [1] بجنـــوبكم ، وحـــتى يســـتذلوكم ويبغضـوكم ، وحـتى تحملـوا الضـيم ، فتحتملـوه منهم ، تلتمسون بذلك وجه الله والـدار الآخـرة ، وحـتى تكظمـوا الغيظ الشـديد في الأذى في الله جـلّ وعـزّ ، يجترمونه إليكم ، وحتى يكذّبوكم بالحق ، ويعادوكم فيه ، ويبغضوكم عليه ، فتصبروا على ذلك منهم.

(1) عرك الأذى بجنبه أي احتمله.

ومصـداق ذلك كلّه في كتـاب الله الـذي أنزله جبرئيل على نبيّكم. سمعتم قول الله عزّ وجلّ لنـبيّكم : «**فَاصْـبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْـتَعْجِلْ لَهُمْ**» [1]

(**بَلاغٌ**)

ألا يكفينا هذا البلاغ؟ بلى. لمن يأخذه مأخذ الجدّ.

(**فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ**)

الذين يتجاوزون الحدود بأعمالهم.

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (23).

سورة محمّد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قـــال الامـــام أبو عبد الله الصـــادق (ع): «**من قـــرأ سورة الذين كفـروا لم يـرتب أبـدا ، ولم يدخله شك في دينه أبـدا ، ولم يبتله الله بفقر أبـدا ، ولا خـوف سلطان أبدا ، ولم يزل محفوظا من الشـرك والكفر أبدا حتى يموت ، فـاذا مـات وكـلّ الله به في قـبره ألف ملك يصلون في قـبره ، ويكـون في أمـان الله وأمان محمد (ص)**».

تفسير نور الثقلين ج 5 / ص 25

وعنه (ع) انه قـــــال : «**من أراد أن يعـــــرف حالنا وحال أعدائنا فليقـرأ سـورة محمد (صـلّى الله عليه وآله وسلّم) فإنه يراها آية فينا وآية فيهم**».

المصدر

الإطار العام

الاسم الآخر لهذه السورة هو : القتـال ، وبين الطاعة لمحمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ الـذي ذكر اسـمه المبـارك في فاتحة السورة وللقيادة الشـرعية عموما وبين القتـال ضد الكفار الذي يحتـاج إلى الطاعة التامة للرسـول تـدور محاور هذه السورة التي تميز بـالتركيز على بيـان الأمثـال للنــاس .. حيث تتــوالى آياتها ، تضــرب مثــالب الكفــار والمنافقين ، وتقارنها بصفات المؤمـنين ولعل 17 مفارقة بين الفــريقين تنطـوي عليها الســورة مما يثـير التســاؤل لمــاذا هــذا التركــيز في ســورة القتـال على الفــرق بين الفريقين؟ الجواب لسببين :

ألف / ربّما لأن قلـــــوب المؤمــــــنين تعتمر بالرحمة الإيمانية ، ومن الصعب تعبئة هذه القلوب بروحية الحــرب إلّا ببيان صـفات الكفـار السـلبية ، ليكـون عـداءهم للكفر ومثالبه قبل أن يكون لأشخاص الكفار.

بــاء / لأن القتـال أفضل مـيزان يعـرف به الرجـال ، ويتميز به المؤمنون عمن في

قلوبهم مرض.

1 ـ في مستهل السورة يصرّح السياق ببيان أن الله يضلّ أعمال الكفار ، بينما يصلح بال المؤمنين ، ويغفر ذنوبهم. لماذا؟

2 ـ لأن أولئك اتبعوا الباطل ، بينما سلّم هؤلاء للحق ، وهنا يؤكد ربنا ما يبدو انه المحور الأساسي للسورة حيث يقول : «**كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ**».

وبعد أن يأمر بقتال الكفار بلا هوادة ، واستمرار ذلك حتى تضع الحرب أوزارها ـ بظهور الحق كله على الباطل كله ـ ويختصر تبيان حكمة القتال في كلمة (الابتلاء) بعدئذ يبين فضائل الشهداء في سبيل الله حيث يحفظ الله دماءهم ، وسيهديهم ، ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة.

3 ـ وينصر الله الذين آمنوا إن هم نصروا دينه ورسوله ، بينما يفشل الكفار ، ويضيّع جهودهم. أو ليس قد كرهوا ما أنزل الله؟! (فلهم التعس والفشل) وأحبط الله أعمالهم (حتى تلك التي تبدو صالحة) وحوادث التاريخ تشهد بهذه السنة. (**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) من الكفار كانت عاقبتهم؟ أن دمر الله عليهم ، حتى ما بقي منهم شيء ، وهذه سنة الله تجري فيمن يأتي بمثل ما جرى فيمن مضى ، ولذلك كان للكافرين أمثالها.

4 ـ والله مولى الذين آمنوا (يؤيدهم بنصره ويرعى شؤونهم) وان الكافرين لا مولى لهم (بالرغم من ولايتهم للأصنام والأنداد إلّا انها ليست بشيء).

5 ـ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يسيرون عبر منهج سليم نحو اهداف سامية ، ولذلك يدخلهم الله الجنة ، بينما الكفار يتمتعون بالدنيا بلا أهداف ،

(**وَيَـأْكُلُونَ كَما تَأْكُـلُ الْأَنْعـامُ ، وَالنَّارُ مَثْـوىً لَهُمْ**) ، لأنهم لم يسعوا في الدنيا لاتقائها.

وينسف القرآن أسـاس الأفكـار على القـوة الظاهرية التي يملكها الكفار ببيـان : ان هنـاك قـرى كـانت أشد من قرية مكة أهلكها الله فلم يكن لها ناصر.

6 ـ المؤمنون على هـدى من ربهم لا يمارسـون عملا إلّا بحجّة واضـحة من الله ، بينما الكفـار يتبعـون أهـواءهم الـتي زيّنت لهم وليسـوا سـواء أبـدا. هـؤلاء يمضـون على شـريعة من الأمر واضـحة ، بينما أمر أولئك فـرط ، لأنهم يميلون مع رياح الهوى انى اتجهت.

7 ـ قـرار المؤمـنين وعاقبة أمـرهم الجنة بانهارها المتنوعة التي تعطيهم الرواء ، والقوة ، والنشاط ، واللذة ، وبثمراتها المتنوعة ، وبما فيها من نعمة روحية متمثلة في مغفـرة الله ، بينما ليس للكفـار إلّا النـار بما فيها من ماء يغلي يقطع أمعاءهم.

8 ـ كل ذلك لأن الكفـار أصـمّوا آذانهم عن الحق ، بينما اهتدى المؤمنـون فـزادهم الله هـدى ، وعلمهم كيف يتقون النار.

أولئك لا يؤمنـون حـتى تـأتيهم السـاعة الـتي ظهـرت علاماتها ، بينما هؤلاء يستغفرون لبعضهم لأنهم يعلمون ألّا إله إلّا الله ، ويسـتغفرون لـذنوبهم ، كما للمؤمـنين والمؤمنات.

بعد بيـان هـذه الصـفات الـتي تبصـرنا الفـروق بين المؤمنين والكفار ترى السياق ينعطف لبيـان المنـافقين ، حيث بيّن أمثالهم أيضا ويجعل القتال في سبيل الله محـكّ التجربة لهم ، فحين ينتظر المؤمنون حقّـا. وبفـارغ الصـبر الأوامر الالهية بالقتال ترى أولئك إذا نزلت سـورة محكمة وذكر فيها القتال ينظـرون نظر المغشي عليه من المـوت (خوفا وحزنا) وهكذا يخرج الجهاد أضغانهم ، ويظهر مرض قلوبهم.

وقد كـان خـيرا لهم لو أنّهم صـدقوا الله في سـاعة الجد ، وإذا ملكوا السلطة ـ وهي مختبر آخر بعد الجهاد لحقيقة أنفسـهم ـ تـراهم يفسـدون في الأرض ، بمنع أعمارها ، ونشر الرذيلة ، والفسق ، والظلم بين أرجائها ، ويقطعون أرحامهم ، كما فعلت بنو أمية وبنو العباس بـآل الرسول (صلى الله عليه وآله).

(**أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللـهُ فَأَصَـمَّهُمْ**) (عن سـماع الحق) وأعمى أبصارهم (عن رؤية شواهده).

(والقـرآن مـيزان لمعرفة حقـائق النـاس ولكن لمن تـدبر فيـه) «**أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلى قُلُـوبٍ أَقْفالُها**» (فلا تنفذ بصائر القرآن إلى أفئدتهم).

ويهدينا السياق إلى سبب الضلالة بعد الهدى عند هـذا الفريق من مرضى القلـوب ، الـذين سـقطوا في وهـدة النفاق ويقول : ان هـؤلاء الـذين ارتـدوا على أدبـارهم من بعد أن عرفوا السبيل فانما الشيطان سوّل لهم (بـأن زين لهم الضلال) وأملى لهم.

وإن من مثـالب المنـافقين ومـؤامراتهم القـذرة انك تراهم يقولون للـذين كرهـوا ما نـزّل الله من الهـدى نحن معكم ، وسـوف نطيعكم في بعض الأمر ، ونتعـاون على ضرب الإسلام (والله يعلم اسرارهم ـ كما يعلم اعلانهم).

وانهم يزعمون ان اتصالهم بالعدو يوفر لهم الحماية ، ولكنهم مـاذا يصـنعون غـدا حين تضـرب ملائكة المـوت وجـوههم وادبـارهم (ولا ينفعهم يومئذ أعـوانهم من المشركين بل لا ينتفعون حتى من أعمالهم الصالحة) ذلك لأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه (المتمثل في طاعة الرسـول ، والنصح للقيـادة الشـرعية ، والتسـليم لأوامر القتال الصادرة منها) فأحبط الله أعمالهم.

كلا .. ويعتمد المنـافقون على مبـدأ السـرية ، ولكن أيحسـبون ان الله لن يخـرج أضـغانهم ، ويظهر مـرض القلب الذي تنطوي عليه أنفسهم بالأمر بالقتال؟!

بلى. ربنا قـادر على كشـفهم الآن ، بتغيـير صـورهم ، بل انك قادر على معرفتهم من خلال تضـاعيف كلمـاتهم ، أو من ملامح صورهم.

ويعـود القـرآن إلى الحـديث عن القتـال ببيـان حكمته المتمثلة في الابتلاء ، ويؤكد : أن الكفـار لن يضـروا الله شـيئا ، وسـيحبط أعمـالهم. ويـأمر المؤمـنين بطاعة الله والرسول والتسليم لأمره بالقتال ، ولا يبطلوا أعمالهم.

أما الكفـار الـذين يموتـون وهم كفـار فلن يغفر الله لهم.

ويشـحذ الله عزيمة الإسـتقامة عند المقـاتلين ، ويـدعوهم إلى الصـمود ، وألّا يهنـوا ، ويـدعوا إلى السـلم (الـذليل) وهم الأعلـون (بايمـانهم) وأن الله لن يـترهم أعمالهم.

ويهون شـأن الـدنيا في أعينهم ، ويـبين (**إِنَّمَا الْحَيـاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**) (إلّا ما طلب بها الآخـرة) ففيه الجـزاء بشرطين (الايمان والتقوى) وإذا آمنـوا واتقـوا يـؤتهم الله أجورهم ، ولا يطلب منهم أموالهم.

وفي خاتمة السورة يذكرنا السـياق بضـرورة الإنفـاق في سـبيل الله ـ خصوصا وان القتـال بحاجة إليه ـ وإذا طلب الله كل أمـوالكم ـ وهـذا امتحـان صـعب ـ لأنكم تبخلون ، ويخرج الله أضغانكم (ومدى تشبثكم بالدنيا).

كيف وأنتم حين تـدعون لإنفـاق بعض أمـوالكم فـان منكم (**مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ**).

وفي نهاية السورة نجد إنـذارا للمؤمـنين بـأنهم إن لم يتحملـوا مسـئولية الرسـالة ، ويتولـوا ، يسـتبدل الله بهم قوما غيرهم.

سورة محمّد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ أَضَـلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُـوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُـوَ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْـلَحَ بـالَهُمْ (2) ذلِـكَ بِـأَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَـذلِكَ يَضْـرِبُ اللـهُ لِلنَّاسِ أَمْثـالَهُمْ (3) فَـإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَـرُوا فَضَـرْبَ الرِّقـابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُـوهُمْ فَشُـدُّوا الْوَثـاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْـدُ وَإِمَّا فِـداءً حَتَّى تَضَـعَ الْحَرْبُ

---

(2) (**بالَهُمْ**) : حالهم شأنهم.

(4) (**أَثْخَنْتُمُـوهُمْ**) : أي أثقلتمـوهم بـالجراح وظفـرتم بهم ، وقيل أي بالغتم في قتلهم وأكثرتم القتل حتى ضعفوا.

أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (11)

(**أَوْزارَها**) : الوزر الثقل ، أي أثقالها فإن للحرب أثقالا كالسلاح ونحوها ، وإضافتها إلى الحرب مجازية.

إن تنصروا الله ينصركم

هدى من الآيات :

هل يكفي الإنســان مكســبا أن يمــارس العمل أنّى كان؟ كلّا .. بل لا بد أن يكون العمل على أســاس الإيمــان بالله وبرسله ، والتسليم لما جاءت به الرسالة. أمّا الــذين يكفرون بذلك فإنّ الله يضل أعمالهم.

هكــذا تــذكّر آيــات الــدرس الأوّل من ســورة القتــال بالأسس الثابتة للعمل المقبول ، وهي :

أوّلا : الإيمــان بما نــزل على محمّد (صــلّى الله عليه وآله) دون تمييز أو انتقاء.

ثانيا : اتباع الحق ، ونبذ الباطل.

ثالثا : الجهاد في سبيل الله.

وعن الأســاس الثــالث الــذي يمحّص الله به قلــوب المؤمنين ، ويطهّر صفوفهم من

المنــافقين ، يفصّــل الســياق انســجاما مع الإطــار العــام للسورة المباركة ، ويبين هنا درجات الشــهداء حيث يتقبّل الله أعمالهم ، ويهـديهم ، ويصـلح بـالهم ، ويـدخلهم الجنة التي وعدهم إيّاها وعرّفهم بها.

ويحرّض ربنا على الجهاد الذي يعتبره نصرا لـدين الله ، بـأن يعد المؤمـنين بالتأييد الظـاهر المتمثّل في النصر ، والباطن المتمثّل في تثبيت الأقدام.

كما ينذر الكافرين (الذين رفضوا قبول الرســالة ككل ، فلم يتبعوا الحق ، ولم يجاهـدوا في سـبيل اللــه) بزلزلة المواقف ، وعدم ثبات القدم ، كما بضياع الجهود ، وضلال الأعمــال ، كما ينــذرهم بإحبــاط العمل جــزاء كــرههم لما أنزل الله ، ويأمرنا بالسير في الأرض لـنرى بأنفسـنا هـذه الحقيقة ، وكيف أنّ مخالفة الحق ســـــــبّبت في هلاكهم وتدميرهم كليّا.

بينات من الآيات :

[1] لماذا يضل الله أعمـال الكـافرين؟ وكيف تتلاشى جهودهم ، وتنهار مقاومتهم للرسالة الإلهيّـة؟ أرأيت الــذي يجدّ السير في اتجاه الشرق وهو يبتغي مدينة في الغــرب ، هل يبلغ هدفه يوما؟ كذلك الذي يعـاكس حركة التـاريخ ، ويخـالف سـنن الله في الحيـاة ، ألم يخلق الله السـموات والأرض بالحق ، فكيف يحقّق من ينشد الباطل هدفه؟

لقد جاهد المترفون من النصـارى أكـثر من ألف عــام ليثبتــوا للنــاس أنّ الجنس لعنة ، فهل اســتطاعوا تمرير ذلـك؟ وحــاول المــادّيون أن يلغــوا الجــانب الــروحي في الإنسان ، فهل قـدروا؟ لمـاذا فشل هـؤلاء وأولئـك؟ لأنّهم ســاروا في الاتجــاه المعــاكس لســنن الله ، لأنّ الله أودع في البشر الجنس ، كما فطــــره على الإيمـــــان ، فهو لا يســتطيع أن يتجــرّد عن المــادة كلّيّا ولا عن المعنويــات ، فذهبت جهود القوم سدى ، لأنّها

رامت الباطل ، وهكذا قاوم الجاهليون على امتداد الـزمن بعثة الرسل فأضلّ الله أعمالهم ، لأنّها لم تكن في الإطار الصحيح.

(**الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ أَضَـلَّ أَعْمالَهُمْ**)

فلأنّهم كفـروا فقد أضل الله أعمـالهم الـتي كـانت ظاهرة الصلاح ، فحتى لو سقوا الحاج ، وعمروا المسـجد الحرام ، فإنّها لم تكن نافعة ، لأنّها كما البناء الـذي زلـزل أساسه أو الشجرة التي اجتثّت من فوق الأرض.

فمن كفر بالله يكفر بقيم الرسـالات ، بالحرية والاسـتقلال والعدالة والمسـاواة والمنهجية العلمية و.. و.. ، وهذه القيم أساس كل عمل صالح.

وهكذا لا ينبغي أن نغـتر بظـاهر التقـدّم الـذي يحـرزه هـذا الفريق من النـاس ، لأنّه ينطـوي على تخلّف خفي ، ولا يزال بنيانهم على شفا جرف هار.

أرأيت كيف وظّفـوا تقـدمهم في انتهـاب ثـروات الشعوب ، واستعباد المحرومين ، والعلـوّ في الأرض بغـير الحق؟

أرأيت كيف أشعلوا نار الحروب ، ودمّـروا الـديار لكي يحرّكوا عجلة اقتصادهم ببيع الأسلحة؟

ألم تر كيف تسـابقوا في صـناعة اللعنة ، وملأوا ترساناتهم بأدوات التدمير ذات الشرّ المستطير؟

أليس ذلك شـاهدا كافيا على تلك الحقيقة ، أنّ أعمـالهم قد ضـلّت عن طريقها ، ولم تحقّق أهـدافا في رفاه الإنسانية وخيرها؟

كما أنّهم حين صـــدّوا عن ســـبيل الله ، وقـــاوموا الرسـالات الإلهية وامتـداداتها ، فشـلوا وذهبت مسـاعيهم سـدى ، وهل ينفع سـعي من أراد حجب ضـوء الشـمس بيده؟!

[2] أمّا الـذين آمنـوا بالله ، وآمنـوا بكـلّ تلك السـنن الماضية في الكائنات والقيم المنبعثة منها ، فإنّهم اختاروا الإطـــار المناسب لعملهم ، وبالتـــالي وفّـــروا الضـــمانة المناسبة لبقاء أعمـالهم ، كمن يبـني في الصـحراء سـورا منيعا يحفظ أرضه من الرياح السافيات والعواصف الهـوج ثمّ يزرع ما يشاء.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ**)

ضــمن إطــار الإيمــان ، وعلى أساسه ، وانطلاقا من قيمه.

(**وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ**)

الرسـول الـذي أكمل الله به رسـالاته ، فلم يفسـدوا قلوبهم بالعصبية والحقد والعداء للرسول والتكبّر عليه.

وتشير الآية إلى ضرورة الإيمان بـالنبيّ محمّد (صـلّى الله عليه وآله) بصورة كاملة ، فمن يزعم بأنّه نبي العرب دون غيرهم ، أو أنّه قائد بشري لا يتميّز بالعصـمة الإلهية ، أو أنّه قد ينطق عن الهوى ، أو يهجر حسب الظـروف ، أو ما أشبه ، فإنّه لم يؤمن حقّا بمحمّد (صلّى الله عليه وآله) ، وقد قـال الله سـبحانه : «**ما آتـاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**» [1] ، وقال : «**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**» ، وقـال : «**وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيـلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ**».

---

(1) الحشر / (7).

الإيمان بمحمّد (ص) دليل لصدق الإيمـان بالله ، فمن استكبر عن هـذا الإيمـان فإنّه قد كفر بـالحق وهو أسـاس كلّ إيمان.

(**وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**)

فلأنّه حق من الله لا بد من التسـليم له ، لا على أسس باطلة ، فلأنّ محمّـدا (ص) خليفة الله في الأرض لا بد من طاعته والتسـليم له ، لا لأنّه قائد عـربي أو سـيّد قرشي أو عظيم من بني هاشم.

ومن آمن بالرسـول انطلاقا من هـذه القيمة ـ قيمة الحق ـ آمن كـذلك بخلفائه الأئمة الأبـرار ، لأنّهم الامتـداد الصـادق له ، ومن آمن بالأئمة على هـذا الأسـاس فإنّه يؤمن بالفقهـاء الصـالحين ، الـذين هم ورثة الأنبيـاء وحجج الله بالنيابة .. وهكـذا لا يجد المـؤمن بـالحق حرجا في نفسه من طاعة أولي الأمر الشرعيين ومن التسليم لكـلّ ما هو حقّ ، لأنّ مقياسه في كلّ ذلك سواء.

أمّا من آمن بالرسـول بحـوافز مادية فإنّه ينفصل عن خط الرسـول ، ويمضي أنّى اتجهت حـوافزه ، فـإذا وجد قائدا عربيّا مخالفا للرسول أو سـيّدا قرشـيّا عاصـيا لله أو عظيما هاشميّا فاسـقا فإنّه لا يجد حرجا في اتباعه ، بينما الله يأمره بالكفر بالطاغوت والثورة عليه.

(**كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ**)

يبدو أنّ هذا جزاء إيمانهم. أتـدري لمـاذا؟ لأنّ الهـدف الأسـمى من تشـريع الأحكـام ابتلاء الإنسـان في مـدى طاعته للحق وتسليمه لمن أرسل به ، فإذا أطاع الإنسـان ربّه ، وسلّم للقيادة الشرعية ، فقد ابتلي بأصعب الأمور ، ذلك لأنّ الطاعة في المسـائل السياسـية والاجتماعية ، وحيث تعصف رياح الفتن ، وتغتلم

العصـبيات ، ويعلو غبـار الشـبهات. إنّ هـذه الطاعة هي صـــعب مستصــــعب لا يحتمله إلّا من امتحن الله قلبه للإيمان.

وإنّ كثـيرا من النـاس ممّن سـكن شـيطان الكـبر والعصبية في قلوبهم يفضّلون أداء أحمز الأعمال الصالحة على لحظة واحـدة من التسـليم للقيـادة الشـرعية فيما يخالف أهواءهم أو يعارض آراءهم.

من هنا يكفّر الله سـيئات من أطــاع الله ورســوله وأولي الأمر الشرعيين تسليما لله ورضا بما فرضه عليه.

(**وَأَصْلَحَ بالَهُمْ**)

قالوا : البال هو الحـال أو الشـأن ، وأمـور الإنسـان ، وأهمّ أحواله ، وقال بعضـهم : هو القلب ، من قـولهم : ما يخطر ببالي.[1]

وإصلاح البال : رخاء الحال بما يرضي القلب.

ويبـدو أنّ ذلك يتعلّق بالأعمـال الصـالحة الـتي أدّوها ضمن إطار الإيمان فأثمرت صلاحا في أنفسهم وما يتعلّق بها من شـؤون ، لأنّها كـانت في الطريق السـليم ، ولو كانت في سبيل الكفر فإنّها لن تثمر بل كان الله يضلّها.

[3] كيف نقيّم النّاس ، وعلى أيّ مقياس ، هل بلغتهم أو وطنهم أو أنسابهم أو بقـدر ما يملكـون من مـال وجـاه وسلطة؟ كلّا .. لأنّ كلّ ذلك جاهلية وتخلّف ، فهل تصـادق كلّ من يتحدّث العربية ولو كان خائنا شـقيّا؟ وايّهما أفضل لك من يسـكن بلادا بعيـدة ويسـدي إليك خدمة أو جـارك السيء الذي دائما يؤذيك؟ وهل

---

(1) القرطبي / ج (16) ـ ص (224).

هما ســـواء عنـــدك ابن عمك الـــذي يأكل أموالك بالباطل والقاضي الذي يردّ حقّك إليك؟ ومـاذا ينفعك غـنى الـثري الذي يمتص دماء المحرومين؟ وما ذا يضـرّك فقر البـائس الذي يعيش إلى جنبك بوداعة وطيبة؟

العقل يحكم بفســـاد تلك المقـــاييس جميعا ، وإنّما المقيـــاس هو الحق ، فمن اتبعه صـــاحبناه ، ومن خالفه عاديناه ، أنّى كانت سائر الوشائج بيننا وبينه.

وبما أنّ الكفّـار اتبعـوا الباطل بما يحمل من أخطـار عليهم وعلى الإنســانية فإنّنا نعــاديهم ، حــتى ولو كــانوا ينطقـــون بلغتنا ، ويســكنون وطننا ، أو كـــانوا من ذوي أقاربنا.

بينما المؤمنـون الـذين يتبعـون الحق نسـتريح إليهم ، لأنّ الحق ينفعنا جميعا ، حتى ولو كانوا من الأبعـدين لغة ، ووطنا ، وقرابة.

(**ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِـلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ**)

والعقل يعرف الحق ، ولكن ليس بذلك الوضوح الذي يجعله مطمئنا بكلّ تفاصيله ، بينما الوحي الذي يهدينا إليه العقل يفصّل مجملات العقل تفصيلا مبينـا. العقل يحكم ـ مثلا ـ بحسن العـدل ، ولكنّه قد يتشـابه عليه العـدل في قضية فيقف حائرا ، وهنا يفصّـل الـوحي حكم العـدل فيها بما يستثيره من دفـائن العقل ، ويكشـفه من خبايا العلم ، وما يبيّنه من أحكام الشرع.

(**كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ**)

المثال : مجموعة الصفات الـتي يجسّـدها الشـخص ، فإذا قلنا : مثال فلان ، أي

جملة نعوته الحسـنة أو السـيئة ، ممّا تستصـحب على من يشـابهه فيها ، وهي في مقابل الـذات ، والـذّات لا تهمّنا (لأنّ النـاس في الـذات لا يختلفـون) ، إنّما يهمّنا الصـفات التي تحيط بهذه الذات ، وهي مثالهم.

وحين يعطينا القرآن مقياس الحق والباطل فإنّه يـبيّن لنا أمثال الناس ، وجملة صفاتهم ، والـتي بها نسـتطيع أن نعرف كيف نتصرّف مع هذا وذاك ، فمن اتبع الحق واليناه ، لأنّه (مثل حسن) ، ومن اتبع الباطل عادينـاه ، لأنّه (مثل سيء).

[4] ولأنّ هنالك مثـالين : مثـال الحق المتجسّـد في المؤمـنين ، ومثـال الباطل المتجسّـد في الكفّـار ، فـإنّ الصراع قائم بينهما ، ويتحوّل إلى قتـال ، وعلى المؤمـنين أن يستعدّوا نفسيّا للمواجهة.

(**فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ**)

اللقاء هنا هو لقاء المواجهة الدامية ، ولا يعني ـ فيما يبـدو من سـياق الكلمة في سـائر الآيـات ـ أيّ لقـاء بين مؤمن وكافر.

وضرب الرقاب : تعبـير عن أشـدّ أنـواع القتل وأوضح صـوره ، وبه يتجلّى الغضب المقـدّس الـذي تمتلأ به روح المؤمن المخلص للحق.

وقالوا : معناه : اضربوا ضرب الرقاب.

ولعـلّ الكلمة تـوحي بضـرورة حسم المعركة بـأقوى الأسلحة ، ممّا تسمّى بالحرب الصـاعقة الـتي عـادة تقلّل من الخسائر في الطرفين ، بعكس حرب الاستنزاف التي قد تكون وبالا على الطرفين.

ولعـلّ الحـرب الصـاعقة هي المـرادة أيضا من آيـات أخرى في الكتاب ، كقوله

سبحانه : «**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ**»

(**حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ**)

قالوا : الثخن بمعنى الغلظة ، ويطلق على الغلبة ، ونقل عن لسان العرب اثخن إذا غلب وقهر ، وقال البعض : أنّه بمعنى تراكم القتلى والجرحى فوق الأرض.

(**فَشُدُّوا الْوَثاقَ**)

أي قيّدوهم بحبل أو ما أشبه بشدّة كناية عن أسرهم.

ويستوحى من الآية أنّ مرحلة أخذ الأسرى متأخّرة عن مرحلة القتال ، فلا ينبغي أن ينشغل الجيش قبل قهر عدوّه بالأسرى.

(**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً**)

هنالك يختار القائد بين أن يمنّ على الأسير بإطلاق سراحه ، حين لا يرى في إبقائه مصلحة أو يرى في إطلاق سراحه مصلحة هامّة للمسلمين ، وبين أن يقبل الفدية التي قد تكون قدرا من المال يفرض على العدو بإزاء كلّ أسير ، وقد تكون بعض التنازلات والضمانات أو ما أشبه ، ولعلّ من معانيه القيام بتبادل الأسرى مع العدو.

وقال الفقهاء تبعا للنصوص الشرعية : إنّ هنالك خيارا ثالثا هو استرقاق الأسرى.

(**حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها**)

والوزر هو الثقل ، والحرب ثقيلة على الأمة بما فيها من مشاكل ، كما أنّ

ساحات القتال تشهد الأسلحة والأدوات والأجهـزة القتالية وإذا توقف القتال أعيـدت كلّيّا إلى المخـازن ، وهـذه كناية عن توقّف الحـرب ، ولكن مـتى تتوقف حـرب المسـلمين مع أعدائهم بصورة كلّيّة؟

إنّ من السذاجة الركون إلى السلم في عـالم تحكمه شـريعة الغـاب ، يأكل القـوي الضـعيف ، وينفق الأعـداء قسما كبيرا من مواردهم في الاستعداد للحـرب ، بـالرغم من أنّ النفوس تكره الحـرب بطبعها ، وتميل إلى الخفض والدّعة ، وقد ينخـدع الإنسـان بمظـاهر الـودّ والموادعة الحاكمة على الأجواء ، فلا يعدّ نفسه للقتال ، فيؤخذ على غرّة.

لذلك أمرنا القرآن بالاستعداد أبدا للـدفاع عن أنفسـنا وعن الرسالة التي نحملها إلى الإنسانية المعذّبة ، فقـال : «**وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبـاطِ الْخَيْلِ**». فما دام المسلمون يرفضـون التخلّي عن قيمهم واستقلالهم وحقوقهم فلا بد أن يستعدوا للدفاع المقـدّس ، وقد يكون الاستعداد التـام للـدفاع أفضل وسـيلة لتجنّب ويلات الحرب ، لأنّه يردع الأشرار من الاعتداء.

لذلك جاء في الحديث المـأثور عن النـبي (صـلّى الله عليه وآله وسلّم): «والجهـاد مـاض مذ بعثـني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدّجّال». [1]

(**ذلِكَ وَلَوْ يَشـاءُ اللـهُ لَانْتَصَـرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُـوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ**)

فالله سبحانه الذي دمّر عادا الأولى بالريح الصرصر ، وأهلك ثمود فما أبقى ، ولم يذر أحدا من القرى المؤتفكة من قـوم لـوط ، أو ليس بقـادر على أن يبعث على كـلّ طاغية ومستكبر صـاعقة من السـماء فيهلكهم؟ بلى. وقد يفعل بهم عند ما يبلغون

---

(1) مجمع البيان / ج (6) ـ ص (98).

آجالهم ، لأنّه ينصر دينه بما يشاء ، كيف يشاء.

بيد أنّ حكمة الحرب التي يخوضها المسلمون تتلخّص في إظهار خبايا المسلمين ، وإبلاء سرائرهم.

أوّلا : بفصل الصادقين منهم عن الكاذبين.

ثانيا : بتطهير قلوب الصادقين منهم من شوائب النفاق والمصلحيّة.

وقد قال ربّنا سبحانه (وهو يبيّن الهدف الأوّل) : «**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**» [1] ، وقال تعالى (وهو يشير إلى الهدف الآخر) : «**وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكافِرِينَ**». [2]

وإذا كانت الحرب بوتقة تطهّر المجتمع الإسلامي من العناصر الضعيفة والمنافقة ، كما تطهّر قلب كلّ من يخوضها من أدرانه ، فإنّ علينا أن نتخذ منها مدرسة للبطولة والإيثار ، لا ننشد منها فخرا ولا نصرا ، وإنّما نسعى لتزكية أنفسنا فيها ، وتربيتها على الشجاعة والفداء ، ونتبع في ذلك الإمام علي (عليه السلام) حيث يقول : «والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها» [3] ، ويقول وهو يوصي نجله محمّد بن الحنفية حين يدفع به في أتون المعركة : «تزول الجبال ولا تزل عضّ على ناجذك. أعر الله جمجمتك. تد في الأرض قدمك. إرم ببصرك أقصى القوم ، وغضّ بصرك ، واعلم أنّ النصر من عند الله سبحانه» [4].

---

(1) آل عمران / (142).
(2) آل عمران / (141).
(3) نهج البلاغة / كتاب (45).
(4) المصدر / ص (55).

وإذا كان الهدف من الحرب الأساسي ابتلاء المؤمنين فــإنّ النصر من عند الله ، ينزله عليهم مــتى تمّت حكمة الابتلاء ، وعلم منهم الصـبر والاسـتقامة ، سـواء تـوافرت عوامل النصر الماديّة ، أم لا ، ومعرفة هــذه الحقيقة تزيد الجيش الإسلامي بطولة واستبسالا وصبرا واستقامة.

(**وَالَّذِينَ قُتِلُــوا فِي سَــبِيلِ اللــهِ فَلَنْ يُضِــلَّ أَعْمالَهُمْ**)

لأنّهم مضـــوا على النهج الإلهي ، واستشـــهدوا في سـبيل الله ، فـإنّ الله الـذي لا تضـيع عنـده الودائع ، الله الـــذي له ملك الســـموات والأرض ـ إنّه ســـبحانه يحفظ أعمـالهم ، ويؤيّد بقدرته القضـية الـتي ضـحّوا من أجلها ، وهذا هو أهمّ ما ينشده العاملون في سبيل الله.

ونسـتوحي من هـذه الآية أنّ الـدم المقـدّس الـذي يرخصه صـاحبه في سـبيل الله هو السـياج المـنيع لقيم الرسالة.

وربما أشــار إلى ذلك الحــديث المــأثور عن الإمــام الصادق عن آبائه (عليهم السلام) عن رسـول الله (صلّى الله عليه وآله) في فضل الجهاد في سبيل الله :

«**للجنّة باب يقال له بـاب المجاهـدين ، يمضـون إليه فــإذا هو مفتــوح ، وهم متقلّــدون ســيوفهم ، والجمع في الموقف ، والملائكة تــرحّب بهم ، فمن تـرك الجهـاد ألبسه الله ذلّا في نفسه ، وفقـرا في معيشـته ، ومحقا في دينـه. إنّ الله تبـارك وتعـالى أعزّ أمّتي بسنابك خيلها ، ومراكز رمحها**» (1)

[5] الأمّة التي تجاهد في سبيل الله لا تضيع جهودها ، ولا تضلّ أعمالها. إنّها سوف تحقّق أهـدافها ، ولا يسـتطيع أحد أن يصادر حقوقها ، وينهب ثرواتها.

---

(1) بحار الأنوار / ج (97) ـ ص (9).

أليست تقـاوم المعتـدي ، وتصـنع حـول حقوقها وجهودها سورا منيعا من بطولا أبنائها ودماء شهدائها؟

وهـذه الأمّة لا تضـلّ طريقها ، لأنّ الله يهـديها بفضل جهادها في سبيله.

(**سَيَهْدِيهِمْ**)

إنّ الجبن أكـبر حـاجز دون فهم الحقـائق ، وكثـير من النـاس يـبرّرون الفسـاد والتبعية جبنا وفـرارا من مواجهة السـلطات الطاغية ، وهكـذا يخـدعون أنفسـهم ، ويسـلب الله عنهم نور الهداية ، ويذرهم في ظلمات الجهل ، أو لم يقل ربّنا سبحانه : «**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**»؟

بينما المجاهدون الذين يتقدّمون بخطي شجاعة حـتى الشهادة في سبيل الله ، يتبصّرون الحقائق بوضوح كاف ، لأنّهم مستعدّون لمواجهتها أنّى كانت عواقب المواجهة.

وهـــذه الهداية الـــتي يورّثها الشـــهداء لأمّتهم تتصل بالهداية في الآخرة حيث تبلغ بهم منازلهم في الجنة.

(**وَيُصْلِحُ بالَهُمْ**)

إنّ الشـــهادة عنـــوان الاســـتقلال ، وســـور التقـــدم ، وطريق الغـنى ، وسـبيل العـزّة ، وأمّة تملك الشـهداء لا تعدم هذه المكاسب.

إنّ الحيـاة السـعيدة المطمئنة الصـالحة رهينة الـدماء التي تراق في سبيل الله.

وصلاح البال ورفاه الحال في الدنيا يتصل بصلاح بـال الشهداء في الآخرة (بل

وصلاح بال من هم في خطّهم وعلى خطاهم من أنصارهم ومن تجــري فيهم شــفاعتهم) حيث هم أحيــاء عند ربّهم يرزقون.

وهكـذا نسـتوحي من الآية أنّ المعـني بها ليس فقط الشـــهداء أنفســـهم ، بل أمّتهم أيضا وليس في الآخـــرة فحسب ، بل في الــدنيا أيضا ، أو ليست الآخــرة امتــدادا للدنيا ، وهما بالتالي حياة واحدة أوّلها هنا وآخرها هناك؟

وإنّنا نجد في النصــوص الإســلامية الــتي وردت في فضل الجهاد توضيحا لهذه الشمولية (للدنيا والآخرة) ، لأنّ المجاهـدين كلمة تعمّ الشـهداء منهم والأحيـاء المنتظـرين للشهادة ، كما قال ربّنا سبحانه : «**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجــالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**». [1]

[6] (**وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ**)

تلك الجنة الــتي طالما اشــتاقوا إليها بما عرّفها ربّهم لهم ، وربما شـــاهد كـــلّ واحد منهم منزله في الجنة قبل خروج روحه لينتقلوا إلى الدار الآخـرة بكـلّ رضا وطمأنينة ، فقد جاء في حديث مفصّل مأثور عن أمير المؤمنين عن النبي (صلّى الله عليه وآله):

وإذا زال الشـهيد عن فرسه بطعنة أو ضـربة لم يصل إلى الأرض حـتى يبعث الله عــزّ وجــلّ زوجته من الحــور العين فتبشّــره بما أعــدّ الله له من الكرامة ، فــإذا وصل إلى الأرض تقول له : مرحبا بالروح الطيّبة الـتي أخـرجت من البدن الطيب. أبشر فــإنّ لك ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

ويقـــول الله عـــزّ وجل : أنا خليفته في أهله ، ومن أرضــاهم فقد أرضــاني ، ومن أســخطهم فقد أســخطني ، ويجعل الله روحه في حواصل طير خضر تسرح في الجنّة

(1) الأحزاب / (23).

حيث تشـــاء ، تأكل من ثمارها ، وتـــأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة بالعرش ، ويعطي الرجل منهم سـبعين غرفة من غرف الفردوس ما بين صنعاء والشـام ، يملأ نورها ما بين الخافقين ، في كلّ غرفة سبعون بابا ، على كـلّ بـاب سبعون مصراعا من ذهب» [1].

[7] ويحـرّض القـرآن الـذين آمنـوا ، واسـتعدّوا لتنفيذ أوامر الرسالة ، وعرفوا قيم الحق الـذي أنـزل من ربّهم ، يحرّضـــهم على الجهـــاد في ســـبيل الله بنصر دينه ، ويبشّرهم لقاء ذلك بالفتح والثبات.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تَنْصُـرُوا اللـهَ يَنْصُـرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**)

ذلك أنّ الإيمان ليس مجرّد العمل بالإسلام في حـدود القضايا الشخصية ، وإنّما أيضا تحمّل مسئولية الجهـاد في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض.

وربما جاء التعبـير بنصر «اللـه» مع أنّ الله غـني عن العالمين ، ليكون شاملا لنصر كلّ ما يتصل بالإيمان بالله ، في كلّ حقل ، وفي كلّ عصر ومصر ، حتى يكون المؤمن قوّاما لله ، مستعدا للـدفاع عن الحق أبـدا في مواجهة أيّ شخص أو قوّة.

وإنّما جـــزاء النصر نصر مثله ، فمـــتى نصـــرت الله بتطبيق دينه على نفسك وأهلك والأقـربين منك ومجتمعك ، ودافعت عنه ضـدّ أعـداء الله ، فـإنّ الله ينصـرك بـذات النســبة. أمّا إذا اقتصر نصــرك على بعض المجــالات فلا تنتظر نصرا شاملا.

وهكذا تتسع آفاق هذه الآية لكـلّ جنبـات الحيـاة ، ولا تختصر في الجهاد المقدّس ، بالرغم من أنّه المثل الأعلى لها.

(1) راجع موسوعة بحار الأنوار / ج (100) ـ ص (13).

وثبات القدم هو التأييد الربّـانيّ الأسـمى ، لأنّ هزيمة النفس أنكر هزيمة ، والحرب صـراع إرادات قبل أن تـون مقارعة الأسلحة ، ومن كان أكـثر صـبرا ، وأمضى إرادة ، وأعظم ثباتا ، فإنّه يكون أقرب إلى النصر.

وصراع الإنسان مع هوى نفسه أعظم من صراعه مع أعدائـه. ألم تكن مخالفة الهـوى هي الجهـاد الأكـبر؟ والله سـبحانه قد وعد المؤمـنين بـأن يعينهم في جهـادهم مع أنفسهم إن هم نصروا دينه وجاهدوا أعداءه ، وهذه أعظم نعمة من نصرهم على عدوّهم الظاهر.

والواقع : إنّ سنّة الله قد قضت بـأنّ القيم والشـرائع الـتي أريقت الـدماء من أجل تكريسـها أشـدّ ثباتا في النفـوس وفي المجتمع من غيرها ، وهكـذا في كـلّ أمر ، فكل مكسب حصـلت عليه بصـعوبة لا بد أن تتشـبّث به بشـدة ، أمّا الـذي ملك البلاد بغـير حـرب فإنّه يهـون عليه تسليم البلاد.

[8] أمّا الكفر الذي يتشـعّب إلى شـعب ، فمنه الكفر بالله ، ومنه الكفر بالرسـول ، ومنه الكفر ببعض ما أرسل به كالجهاد في سبيل الله ، فإنّه يـؤدّي إلى زلزلة الموقف ، وضياع الجهد.

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ**)

قـالوا : التعس هو الوقـوع على الوجه ، وكأنّه تعبـير عمّا يقابل ثبات القدم.

(**وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ**)

حـتى الـذي يبـدو صـالحا من أعمـالهم ، لأنّه لم يكن على الطريق السوي.

[9] ما هو سـبب كفـرهم وهلاكهم؟ إنّ جـذر ذلك كرههم لرسالة الله المنبعث

من كـبرهم وتعصـبهم وتقليـدهم لآبـائهم ، فاتخـذوا موقفا سلبيّا من الرسالة.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ**)

وبالـذات فيما يخـالف هـواهم ، أو يعـارض مصـالحهم كالسياسة والإقتصاد.

(**فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ**)

فـإذا لم يسـلّموا لولاية الله في السياسة والإقتصـاد وسائر الأمـور الأساسـية لم تنفعهم صـلاتهم وصـدقاتهم ، لأنّها لم تكن ضمن الإطـار الصـحيح ، وكـان مثلهم كالـذي زرع في غير أرضه أو سعى بغـير هـدى أو سـار على غـير طريقه.

إنّ عشـرات السـنين من الجهد قد تـذهب بها سـاعة من التهوّر أو الجبن أو اتباع الشـهوة ، كالـذي يبـني أعظم عمارة فوق أرض رملية! أرأيت كيف يقود طاغية مهووس بالسلطة باحث عن الكبرياء في الأرض شعبه الـذي سـلّم له خوفا وطمعا في حـــرب طاحنة ، تهـــدم البلاد ، وتقتل الملايين ، وتضـيع مسـاعي عشـرات السـنين في بضـعة أيّام؟ أو ما سمعت ما حـدث في ألمانيا على عهد الطاغية هتلر ، وكيف أنّهم بخضـــوعهم لـــذلك الـــديكتاتور أحبطت أعمالهم ، وتلاشت جهودهم؟

وكم من مثل يتجلّى لنا في صـــفحات التـــاريخ لهـــذه المعادلة.

وليس الإقتصــــاد الفاسد بأقل خطـــرا من السياسة الفاسدة ، فإنّ الاستغلال قد يـذهب بمكاسب الملايين من البشر ، ولا يـدعهم يسـتفيدون من مكاسـبهم. أليس من الحكمة أن يصلحوا اقتصادهم حتى لا تحبط أعمـالهم ، ولا تذهب جهودهم سدى؟

قـالوا : إنّ الجسم الـذي يبتلى بالطفيليّـات لا تنفعه المقوّيـات ، إذ أنّها بـدل أن تقـوّي الجسد تقـوّي عـدوّه المتمثّل في الطفيليّـــات ، وكـــذلك الإقتصـــاد المبتلى بالمستغلّين

لا ينشط إلّا لمصلحتهم ، وباعتبارهم أعـداء الإقتصـاد فـإنّ دورة نشاطه لا تزيده إلّا تخلّفا ، وهذا أحد معاني الإحباط.

وفي الأخلاق ــ كما في السياسة والإقتصـاد ــ تصـدق هـذه المقولة ، فإنك تجد البعض من النـاس يفقـدون في لحظة تهـوّر أو نـزق ما اكتسـبوه من سـمعة حسـنة خلال عشرات السنين. أليس ذلك يعني الإحباط؟

وبكلمة : إنّما ينفع العمل إذا كان أساسه سـليما ، أمّا العمل القائم على أسـاس منهـار فإنّه ليس لا ينفع فقط ، بل وقد يصبح خطرا على صاحبه.

وأساس العمل الصالح : السياسة الصالحة ، الإقتصاد الصالح ، القيم الراشدة في السلوك.

[10] والتـــاريخ أفضل مدرسة ، والســـير في الأرض لدراسة تجارب الأوّلين على الطبيعة أفضل منهج في هذه المدرسة ، إذ يجعلنا نلمس الحقائق بصورة مباشرة بعيـدا عن تفسيرات المتخلّفين ، وخرافات الأوّلين.

(**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**)

دعنا نسير في منـاكب الأرض لنبحث عن آثـار الأوّلين فيها ، بشرط ألّا تستوقفنا الآثار بل العبر التي وراءها.

(**فَيَنْظُرُوا**)

بـــــأمّ أعينهم على الطبيعة ، دون وســــــائط نقل ، وتفسيرات خاطئة.

(**كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللـهُ عَلَيْهِمْ**)

كـان الـدمار شـاملا فـوقهم ، فلم يبق من أنبـائهم وأموالهم وديارهم شـيء ، وهـذه ليست خاصة بعصر دون عصر ، إنّما هي شاملة لكلّ العصور.

(**وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها**)

فكلّ كافر لا بد أن ينتظر شيئا مشابها لذلك العذاب ، لأنّ سنن الله لا تتغيّر.

[11] ما الذي يضمن أعمال المؤمنين؟ إيمـانهم بالله ، ودخـولهم في حصن ولايته ، وهي الولاية الحق الـتي تشـمل الخليفـة. أمّا الكفّـار فهم بقـوا خـارج هـذا الحصن المنيع فضاعت جهودهم ، وتلاشت مساعيهم.

(**ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا**)

وقد زعم الكفّـار بـأنّ الآلهة المزيّفة تحفظهم وتحفظ أعمـالهم فخـاب سـعيهم ، لأنّ الآلهة ليست أبـدا مـوالي بحق. إنّهم ضعفاء مثلهم ، وهل يحمي ضعيف ضعيفا؟

(**وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ**)

إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ

---

(15) (غَيْرِ آسِنٍ) : غير متغير الطعم والريح.

اهْتَـدَوْا زادَهُمْ هُـدىً وَآتـاهُمْ تَقْـواهُمْ (17) فَهَـلْ يَنْظُـرُونَ إِلاَّ السَّـاعَةَ أَنْ تَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً فَقَـدْ جـاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ اللـهُ وَاسْـتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (19)

---

(18) (**أَشْراطُها**) : علاماتها.
(19) (**مُتَقَلَّبَكُمْ**) : أي تقلبكم في كافة أحوالكم.
(**وَمَثْواكُمْ**) : حين ترجعون إلى بيوتكم للمنام والاستراحة.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

هدى من الآيات :

لكي لا تتميّع الحـــدود بين الحق والباطل ، بين الكفر والايمان ، وبالتالي بين الكافرين والمؤمنين ، تتوالى آيات الذكر ببيان الفروق الكبيرة بين الفـريقين في الـدنيا وفي الآخرة.

ولكي يسـتعدّ المؤمنـون لمواجهة الكفّـار عسـكريا ، بـالرغم من اعتمــار قلــوبهم بالرحمة الايمانية ، لا بد أن يعرفوا ماذا يعني الكفر ، وما مصير الكفّار؟

ألف / إنّ الله يــدخل المؤمــنين الجنة لمــاذا؟ لأنّهم عرفــوا حكمة الخلق فحققوها بأفعــالهم ، بينما اســتمتع الكفّار بالحياة الدنيا ، وأكلوا بلا هدف ، كما تأكل الانعـام ، فكان مصيرهم النار.

بـاء / والله ولي المؤمـنين ينصـرهم ، بينما الكفّـار لا ناصر لهم ، وشاهد ذلك أنهم أهلكوا فلم ينتصر لهم أحد.

جيم / والمؤمنـــون على هـــدى وبيّنة من ربهم. أمّا الكفّار فقد زين لهم سوء أعمالهم ، واتبعوا أهواءهم.

دال / وفي الجنة أنهـــار مختلفة ، تـــروي عطش المؤمنين ، وتعطيهم القوة والنشاط واللذة ، بينما الكفّـار يخلدون في النار ، ويسقون ماء حميما يقطّع أمعاءهم.

هاء / وبينما طبع الله على قلوب الكفّار حتى أنّهم لا يفقهون ما يقال لهم فاتبعوا أهـواءهم ، نجد المؤمـنين قد اهتدوا بضياء الوحي فزادهم الله هـدى ، وزوّدهم بـالتقوى حتى يتبعوا الحق من ربّهم.

وتـرى الكفّـار ينتظـرون ، بينما المؤمنـون يهتـدون ، ولكن ما ذا ينتظرون؟ الساعة. فهذه علاماتها وقد جاءتهم ، وإذا نزلت بهم فجأة ما ذا ينفعهم الهدى؟

وينتهي الـدرس بالتـذكرة بالله الـذي لو علم الإنسـان أنّه الله الواحد الأحد اسـتغفر لذنبه (ولم يتشـبّث بالأنـداد من دونه ليخلّصـوه من ذنوبـه) كما اسـتغفر للمؤمـنين والمؤمنـات الـذين سـوف يرتبط بهم إيمانيا ، ويتخذ منهم موقفا لا عـداء فيه ولا تقـديس ، والله يعلم أطـوار حيـاة البشر وتقلّباتهم ، كما يعلم مثواهم.

بينات من الآيات :

[12] من يؤمن بالله ، ولا يكتفي بالايمان وحـده ، بل يجعل من صبغة حياته تفيض على سلوكه ، فله أجـره عند ربه ، وما أعظمه من أجر!

(**إِنَّ اللـهَ يُـدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**)

تعـالوا إلى حيث رسـول الله يرغّبنا بكلامه الصـادق العذب في جنّات ربّنا ،

حيث أعدّها الله دارا لضيافته ، ودعا إليها كرام خلقه ، وها هو الرسول يحدّثنا ألا تسمعون : فيدخل (المـؤمن الجنـة) فاذا هو بشجرة ذات ظل ممدود ، وماء مسـكوب ، وثمـار مهدلة ، يخـرج من سـاقها عينـان تجريـان ، فينطلق إلى إحـــداهما فيغتسل منها فيخـــرج عليه نضـــرة النعيم ، ثم يشرب من الأخرى فلا يكون في بطنه مغص ولا مرض ولا داء أبــــدا ، وذلك قوله : «**وَسَـــــقاهُمْ رَبُّهُمْ شَـــــراباً طَهُوراً**» ، ثم تستقبله الملائكة فتقول : طبت فادخلها مع الخالدين ، فيدخل فاذا هو بسماطين من شـجر ، أغصـانها اللؤلؤ ، وفروعها الحليّ والحلل ، ثمارها مثل ثـــــــــدي الجـــواري الأبكـــار ، فتســـتقبله الملائكة معهم النـــوق والبراذين والحلي والحلل فيقولـون : يا ولي الله اركب ما شئت ، والبس ما شئت ، وسل ما شئت ، قـال : فـيركب ما اشـتهى ، ويلبس ما اشـتهى ، وهو على ناقة أو بـرذون من نـور ، وثيابه من نـور ، وحليّه من نـور ، يسـير في دار النور ، معه الملائكة من نور ، وغلمان من نور ، ووصـائف من نور ، حتى تهابه الملائكة ممّا يرون من النور ، فيقـول بعضهم لبعض : تنحّوا فقد جاء وفد الحليم الغفور ، قـال : فينظر إلى أوّل قصر له من فضة مشرفا بالـدرّ واليـاقوت فتشـرف عليه أزواجه فيقولـون : مرحبا مرحبا انـزل بنا ، فيهم أن يـنزل بقصـره ، قـال : فيقـول الملائكة : سر يا ولي الله فـان هـذا لك وغـيره ، حـتى ينتهي إلى قصر من ذهب مكلل بالدر والياقوت فتشـرف عليه أزواجه فيقلن : مرحبا مرحبا يا ولي الله انـــزل بنا ، فيهمّ أن يــــنزل به فتقول له الملائكة : سر يا ولي الله فانّ هذا لك وغيره.

قال : ثم ينتهي إلى قصر مكلل بالدر واليـاقوت فيهمّ بالنزول بقصره فيقـول له الملائكة : سر يا وليّ الله فـانّ هـذا لك وغـيره ، قـال : ثم يـأتي قصـرا من يـاقوت أحمر مكللا بالـدر واليـاقوت فيهمّ بـالنزول بقصـره فيقـول له الملائكة : سر يا ولي الله فـانّ هـذا لك وغـيره ، قـال : فيسير حتى أتي تمام ألف قصر ، كلّ ذلك ينفذ فيه بصره ، ويسـير في ملكه أسـرع من طـرف العين ، فـاذا انتهى إلى أقصاها قصرا نكّس رأسه ، فتقول

الملائكة : مالك يا وليّ الله؟ قال : فيقول : والله لقد كـاد بصـــري أن يختطف ، فيقولـــون : يا وليّ الله أبشر فـــانّ الجنة ليس فيها عمى ولا صمم ، فـأتى قصـرا يـرى باطنه من ظـــاهره ، وظـــاهره من باطنه ، لبنة من فضة ، ولبنة ذهب ، ولبنة ياقوت ، ولبنة در ملاطه المسك ، قد شـرّف بشرف من نور يتلألأ ، ويرى الرجل وجهه في الحائط.

قـال : وإنّ في الجنّة لنهـرا حافتـاه الجـواري ، قـال : فيـوحي إليهن الـرب تبـارك وتعـالى : أسـمعن عبـادي تمجيدي وتسبيحي وتحميـدي ، فـيرفعن أصـواتهنّ بألحـان وترجيع لم يسمع الخلائق مثلها قط ، فتطرب أهل الجنة ، وإنّه لتشرف على وليّ الله المـرأة ليست من نسـائه من السجف فملأت قصوره ومنازله ضوءا ونـورا ، فيظنّ وليّ الله أنّ ربّه أشـــرف عليه ، أو ملك من ملائكته ، فـــيرفع رأسه فـاذا هو بزوجة قد كـادت يـذهب نورها نـور عينيه ، قـال : فتناديه : قد آن لنا أن تكـون لنا منك دولة ، قـال : فيقـول لها : ومن أنت؟ قـال : فتقـول : أنا ممّن ذكر الله في القــرآن : «**لَهُمْ ما يَشـاؤُنَ فِيها وَلَـدَيْنا مَزِيـدٌ**» ، فيجامعها في قوّة مائة شـاب ، ويعانقها سـبعين سـنة من أعمـار الأولين ، وما يـدري أينظر إلى وجهها أم إلى خلقها أم إلى ســـاقها؟! فما من شـــيء ينظر إليه منها إلّا رأى وجهه من ذلك المكـــان من شـــدّة نورها وصـــفائها ، ثم تشرف عليه أخـرى أحسن وجها وأطيب ريحا من الأولى ، فتناديه فتقول : قد آن لنا ان يكـون لنا منك دولة ، قـال : فيقــــول لها : ومن أنت؟ فتقـــول : أنا من ذكر الله في القــــرآن : «**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـــرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**».

قال : وما من أحد يدخل الجنّة إلّا كـان له من الأزواج خمسمائة حوراء ، مع كـلّ حـوراء سـبعون غلاما وسـبعون جارية كـــأنهنّ اللؤلؤ المنثـــور ، كـــأنهن اللؤلؤ المكنـــون (وتفســير المكنــون بمنزلة اللؤلؤ في الصــدف لم تمسه الأيدي ، ولم تره الأعين ، وأمّا المنثور فيعني في الكـثرة) وله سبع قصـور في كـلّ قصر سـبعون بيتا ، في كـلّ بيت سبعون

سريرا ، على كلّ سـرير سـبعون فراشا ، عليها زوجة من الحور العين ، «**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهـارُ**» «**أَنْهـارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ**» صـاف ليس بالكـدر ، «**وَأَنْهـارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ**» لم يخرج من ضرر المواشي ، «**وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَـــلٍ مُصَـــفًّى**» لم يخـــرج من بطـــون النحل ، «**وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَـذَّةٍ لِلشَّـارِبِينَ**» لم يعصـره الرجـال بأقدامهم ، فاذا اشتهوا الطعام جاءهم طيـور بيض يـرفعن أجنحتهن فيأكلون من أيّ الألوان اشتهوا جلوسا إن شاؤوا أو متكـئين ، وإن اشـتهوا الفاكهة تسـعّبت إليهم الأغصـان فأكلوا من أيّها اشتهوا ، قال : «**الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُـلِّ بـابٍ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَـبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**» [1].

هذا وطبيعة المتقين في الجنة تختلف عنها في الــدنيا اختلافا شاســعا ، فقد روي عن الامــام أبي جعفر البــاقر (ع):

«**إنّ أهل الجنة جــــــرد مــــــرد مكحلين مكللين مطـــوقين مســـورين مختمين نـــاعمين محبـــورين مكرمين ، يعطى أحدهم قوة مائة رجل في الطعـام والشراب والشهوة والجمـاع ، قـوّة غذائه قـوّة مائة رجل في الطعام والشراب ، ويجد لذّة غذائه مقــدار أربعين سنة ، ولذّة عشـائه مقـدار أربعين سـنة ، قد ألبس الله وجوههم النور ، وأجسادهم الحرير ، بيض الألوان ، صفر الحلي ، خضر الثياب**».

«إنّ هل الجنة يحيون فلا يموتون أبـدا ، ويسـتيقظون فلا ينامون أبدا ، ويستغنون فلا يفتقـرون أبـدا ، ويفرحـون فلا يحزنون أبدا ، ويضحكون فلا يبكون أبدا ، ويكرمون فلا يهــانون أبــدا ، ويفكهــون ولا يقطبــون أبــدا ، ويحــبرون ويسـرّون أبـدا ، ويـأكلون فلا يجوعـون أبـدا ، ويـروون فلا يظمــؤون أبــدا ، ويكســون فلا يعــرون أبــدا ، ويركبــون ويـتزاورون أبدا ، ويسـلّم عليهم الولـدان المخلّـدون أبـدا بأيديهم

(1) بحار / ج 8 ـ ص 212

أباريق الفضة وآنية الذهب أبدا ، متكئين على سـرر أبـدا ، على الأرائك ينظـرون أبـدا ، يـأتيهم التحيّة والتسـليم من الله أبدا ، نسأل الله الجنة برحمته. (**أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ**)» [1].

أما الكافرون فليس لهم سوى النار مثوى وحصيرا.

(**وَالَّذِينَ كَفَـرُوا يَتَمَتَّعُـونَ وَيَـأْكُلُونَ كَما تَأْكُـلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ**)

والسـببب في دخـولهم النـار بـدل الجنة هو أنّهم استنفذوا طيباتهم في حيـاتهم الـدنيا ، وغـاروا في أوحـال الشـهوات ، ولم يسـتهدفوا من وراء النعم الوصـول الى الغاية الأسـمى (الـدار الآخـرة) ، وهـذا ما بيّنته الآية العشـرين من سـورة الأحقـاف : «**وَيَـوْمَ يُعْـرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الـدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها**».

ونتساءل : ما معنى «**يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ**»؟

الجـواب : المـؤمن يأكل ليعمل ، ويعمل للهـدف ، ويبتغي الهـدف لله ، «**وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى**» ، بينما القضـية معكوسة عند الكـافر الـذي يعمل ليحصل على متعة الأكل (وسـائر الشـهوات) ، فالهـدف عنـده الـذي تتمحـور حوله سـائر نشـاطاته هو الأكـل. أليس ذلك حالة الأنعام؟

[13] تلك كـانت النـار وهي موعـدهم (في الآخـرة) ، أمّا في الدنيا فقد يصيبهم الله بعذاب من عنده اليم.

(**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُـوَّةً مِنْ قَرْيَتِـكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ**

---

(1) بحار / ج 8 ـ ص 220

أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ)

كـانوا يبنـون بكـلّ ريع آية يعبثـون ، ويتخـذون مصـانع لعلّهم يخلـدون ، وإذا بطشـوا بطشـوا جبّـارين ، وكـانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، وكانت الأنهار تجري من تحتهم ، وكـانوا يسـتخفّون بـالمؤمنين ، ويقولـون : إنّهم لشـرذمة قليلـون .. ولكن ألم تر كيف فعل ربك بهم ، ألم يصـبّ عليهم سـوط عـذاب؟! بلى. فهل وجـدوا لهم نصيرا؟!

ومن هذا السياق (علاقة الآية 12 بالآية 13) نستوحي الحقيقة التالية : انّ المؤمنين يتعاملون مع الأشـياء ـ كـلّ الأشياء ـ باعتبارها وسائل للوصـول إلى الأهـداف ، فهم لا يعتمدون عليها ، ولا يتخذونها أندادا لله ، ولا يحجبهم حبّهم لها أو تعـاملهم معها عن الله ورسـالاته وأحكامه ، وبكلمة واحـدة : إنّهم يجعلونها وسـيلة يسـخّرونها لتحقيق الحكمة من خلقهم ، ولا يجعلون أنفسهم سخرة لها ، بينما الكفّـار ينظـرون إلى الأشـياء نظـرة ذاتية ، فيغـترّون بها ، ويعتمدون عليها ، ولكنّها لن تغني عنهم شيئا.

[14] حين يفصل الكتاب بين المؤمـنين والكـافرين لا يفصل بينهما كعنوانين ظـاهرين ، بل كقيمـتين واقعيـتين ، ينفصل على أساسـهما من يتظـاهر بالايمـان عن الفاسق والمنافق.

ذلك أنّ القـرآن يتحـدّث غالبا عن الحق ، وليس عن مظـاهره ، ولـذلك فالكـافر في آياته ليس دائما الـذي يتظـاهر به ، بل قد يكـون الـذي يكفر ـ مثلا ـ بآية في القرآن أو يكفر عمليّا بفريضة إلهية ، لأنّ الحديث القرآني هو عن واقع الكفر لا ظـاهره ، ممّا يشـمل كـلّ من يوجد لديه هذا الواقع.

وهــذه الســورة تتميّز بالصــراحة في هــذا الفصل ، ولذلك جاء في الحديث المروي عن أبي عبد الله الصـادق (ع): «من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرأ سـورة محمّد
(صـــلّى الله عليه وآله وســـلم) ، فانّه يراها آية فينا وآية فيهم» [1] أي أنّها تتحدّث بوضوح تام عن منهاج محمّد وآله الحق ، والمنهاج الباطل المخالف لهم.

(**أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**)

فـــدار مع الحق أينما دار ، ولم يجعل ذاته أو هـــواه محورا لقراراته.

(**كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ**)

كلّا .. لا يســتويان. إنّه لفــرق كبــير بينهما ، فأولئك محورهم الحق ، وهؤلاء محورهم الهوى.

إنّ المـــؤمن يفكّر ثم يتحــدّث ، ويخطط ثم يعمل ، بينما الكـافر والمنـافق يتحـدّث بلا روية ، ويعمل بلا هـدف سـليم ، لأنّه لا يعتمد الحق مقياسا لشـؤون حياتـه. أو لم يقل الامــام علي (ع): «لســان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه»؟ [2].

إنّ المــؤمن يعلم أنّه قد يخطئ صــراط الحق ، ومن هنا فهو لا يتحــرّك إلّا عن بيّنة ، فلا يخطو خطــوة إلّا وهو يعلم أنّه سيضــــعها في الموقع الســـــليم ، كمن يحمل مصباحا ويقدّمه أمامه ثم يبدأ المشي ، وبـالعكس الكـافر والمنــافق. إنّه يتخبّط في ظلمــات الباطل ، لأنّ الــدافع الأساسي له الهوى «**وكم من عقل أسير ، تحت هوى**

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 24
(2) نهج / حكمة 40 / ص 476

أمير؟!» [1].

وإنّ المــؤمن يعيش حيــاة الصــدق ، لأنّه يعيش في إطار الحق فلا يحتاج إلى التبرير والتلبيس والـدجل ، بينما يعيش أصــحاب الهــوى الالتــواء والأعــذار والزيــف. إنّ ضــمائرهم تــرفض بــاطلهم لو لا أنّه يــزيّن لهم ، ويلبس بالحق ، ويبرر بصنوف المعاذير. أرأيت الذي يطعم العسل لا يحتاج إلى خلطه بمادة أخرى ، بينما الذي يجترع العلقم لا يستســيغه إلّا إذا وضع فيه قطعة حلــوى. كــذلك الحق والباطل. فهل الحـاكم المنتخب بنزاهة ، العامل بالعـدل ، الحكيم ، الصـادق ، الصـالح ، بحاجة إلى الاعلام كالطاغية الظالم الطائش الفاسد؟

وهكذا نجد الدول كلّما تـوغّلت في الظلم كلّما أنفقت على الدعاية.

كما نجد أكثر الفلسفات البشـرية جـاءت لتـبرير واقع فاسد للنــاس فــرادى أو جماعــات ، ففي العهد الماضي ابتدعت نظريـات كثـيرة كالمرجئة والقدرية لتـبرير الواقع الفاسد للافـراد وحـالات الترهل والكسل ، كما انتشر في العصر الحـديث الفسـاد الجنسي ، وغطت أوروبا الميوعة والمجون ، فجاء فرويد بنظريته الجنسية المعروفة.

[15] لكي يتعمق الفصل بين فــــريقي المؤمــــنين والكافرين في أعيننا حتى لا نزعم انهما سواء ، ونســتدرج ـ بسبب هذا الزعم ـ نحو الكفر ، ولكي نرغب في الايمان بما يلقيه على عواتقنا من مسـئوليات ، ونحـذر من الكفر بــــالرغم مما حفت به من شــــهوات ، لكل ذلك يــــذكرنا السياق بمصير الفريقين ، ويبين صفات الجنة والنار :

(**مَثَلُ الْجَنَّةِ**)

---

(1) نهج / حكمة 211 ـ ص 506

هذه هي صفة الجنة.

(**الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**)

الــذين يتبعــون الحق ، ويتجنبــون ما يســخط ربهم ، ويحفظون أنفسهم من النار ، وما يوجبها من سيئات.

(**فِيها أَنْهارٌ**)

متنوعة أولا.

(**مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ**)

غير متغير لطول المقام كما تتغـير ميـاه الـدنيا ، ذلك ان الجنة طاهرة من النجاسات والجراثيم والأدران. وقـال بعضهم : إن هذا النهر وضع لرفع عطشهم. وأقــول : بلى. وأيضا لتطهـير أجســادهم وأرواحهم من شــوائب الحيـاة الدنيا فـاذا شـربوا منها نظفت أبـدانهم من كل جرثومة أو مرض كما طهرت قلـوبهم من كل غـلّ .. ونسـتوحي ذلك من عدم قابلية الماء للأسن والتغيير. وإذا عرفنا ان المـاء بذاته مطهر ، فان مقاومته للتأثر تعني انه ماء مطهر لكل نجاسة ، لأنه لو لم يكن كـذلك إذا كـان يتـأثر بها ، ويـدل على ذلك أيضا الحـديث الـذي مضى آنفا عن رسـول الله صلّى الله عليه وآله.

(**وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ**)

فلا يعتريه شيء من العوارض التي تصيب الألبان في الدنيا ، ونحن نعرف ان اللبن شراب يقوم بـدور الطعـام ، أو طعام متكامل في صورة شراب سـائغ إلا انّه قد يتغـير بسبب سرعة اجتذابه للجراثيم. بيد ان لبن الآخـرة يقـاوم الجــراثيم ، فهو إذا غــذاء ســائغ هدفه بعث القــوة في أبدانهم.

(**وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ**)

يتلذذون بشـربها ، ولا يتـأذون بها ولا بعاقبتها ، بخلاف خمر الدنيا الـتي لا تخلو من المـرارة والسـكر والصـداع ، فاذا شربوها ازدادوا نشاطا وحيوية.

(**وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى**)

خالص من الشمع والرغـوة والقـذى ومن كل ما يقلل من قيمته ، ومن جميع العيوب التي تكـون لعسل الـدنيا ، فهو حلوى يتذوقونها. أو ليس تشـتهي النفس بعد الطعـام الى الحلواء؟

هكــذا تجــري في الجنة هــذه الأنهــار تبعث البهجة والطمأنينة في نفـــــــــوس أهل الجنة حيث لا يبقى في نفوســهم خــوف من الجــوع مســتقبلا ، أو حــرص على الطعـــام في الحاضـــر. أرأيت من يعيش على شـــاطئ الفـــرات الفـــائض هل يخشى العطش أو يحـــرص على تخـزين المـاء لمسـتقبله؟ كلا. هكـذا أهل الجنة يبعث الله في نفوسهم الغنى بما تراه أعينهم من وفور النعمة.

(**وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ**)

لا يتناولونها بعد جهد وعنـــاء كما في الـــدنيا ، لأنها متهدلة عليهم. يقول الرسول الأكرم (ص) بعد تلاوته للآية الكريمة : «**وَدانِيَـــــةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً**» : «من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشـتهيه من الثمـــار بفيه ، وهو متكئ ، وإن الأنــواع من الفاكهة ليقلن لولي الله : يا ولي الله! كلـني قبل أن تأكل هذا قبلي» [1] وحيث كان يتحدث عن شـجرة طـوبى قـال (ص) : «**أسفلها ثمار أهل الجنة ، وطعـامهم متـذلل في بيوتهم ، يكون في القضيب منها مأة**

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 216

لون من الفاكهة ، مما رأيتم في دار الـدنيا ومما لم تروه ، وما سمعتم به وما لم تسـمعوا مثلها ، وكلما يجتـني منها شـيء نبتت مكانها أخـرى ، لا مقطوعة ولا ممنوعة» [1].

وبـالرغم من وجـود لحم الطـير مما يشـتهيه الإنسـان فانه لم يـذكر في هـذا السـياق ، ولعل منشأ ذلك شـمول كلمة الثمرات لمثله إذ ان الثمرة هي الـتي تفرزها الأرض أو النبات ثم ينتفع بها الإنسان بلا صعوبة .. ولحـوم الطـير من هذا النوع والله العالم.

(**وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ**)

حيث لا يبقى بينهم وبين معرفة الله والانس بحضـرته حجـاب من ذنـوب ، وهـذا أعظم نعمة إذ ان لـذة الـروح أعمق من لذة الجسد ، وان من عـرف الله وناجـاه وازداد معرفة به بلغت به الراحة ، والطمأنينة والانس ، والحب ، وانشراح القلب ، ولذة الروح أبعد مداه.

روي عن علي بن الحسين (عليهما السـلام): إذا صـار أهل الجنة في الجنة ، ودخل ولي الله الى جنانه ومساكنه ، واتكأ كل مـــــــؤمن منهم على أريكته ، حفته خدامه ، وتهدلت عليه الثمار ، وتفجرت حوله العيـون ، وجـرت من تحته الأنهار ، وبسطت له الزرابي ، وصففت له النمارق ، وأتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسـألهم ذلك ، قـال : ويخـرج عليهم الحـور العين من الجنـان فيمكنـون بذلك ما شاء الله.

ثم إن الجبّـار يشـرف عليهم فيقـول لهم : أوليـائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري الأهل أنبئكم بخـير مما أنتم فيـه؟ فيقولـون : ربنا وأي شـيء خـير مما نحن فيـه؟ نحن فيما اشـتهت أنفسـنا ، ولـذت أعيننا من النعم في جوار الكريم. قال :

---
(1) المصدر

فيعـود عليهم بـالقول فيقولـون : ربنا نعم فاتنا بخـير مما نحن فيه فيقول لهم تبارك وتعالى : رضاي عنكم ومحبـتي لكم خـير وأعظم مما أنتم فيـه. قـال : فيقولـون : نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا. ثم قرأ علي بن الحسين (عليهما السلام) هذه الآية : «**وَعَدَ اللـهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ فِيها وَمَسـاكِنَ طَيِّبَـةً فِي جَنَّاتِ عَـدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**». [1]

إن الله خلق الإنسـان وهو يحمل في جوانحه طموحا لا حدود له ، فكلما حصل على نعمة هفت نفسه نحو نعمة أخرى ، والربّ يذكر النعيم الاخروي الذي وعده المتقين ، ويعلم ان الإنسـان لا يكتفي به ، لهـذا يعقب : «**وَمَغْفِـرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ**» أو ليس الله ورضـاه غاية آمـال العـارفين ، ومنتهى طموح الراغبين؟

ونتسـاءل : أيهما أفضل أن ننتقل من الـدنيا الى الآخرة فنحصل على ذلك النعيم العظيم المعنوي والمادي ، أو أن نلقى في النار على وجوهنا أذلاء خاسئين ، مهانين مخزيين؟!

(**كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ**)

روي عن أمير المؤمنين علي (ع) حديث طويل ، قاله للأحنف بن قيس ، يصف فيه أهل النار :

«فكم يومئذ في النـار من صـلب محطـوم ، ووجه مهشـوم ، ومشـوّه مضـروب على الخرطـوم ، قد أكلت الجامعة كفه ، والتحم الطوق بعنقه.

فلو رأيتهم يا أحنف ينحـدرون في أوديتها ، ويصـعدون جبالها ، وقد ألبسوا

---
(1) بحار الأنوار / ج 8 / ص 140

المقطعات من القطران ، وأقرنوا مع فجارها وشياطينها ، فاذا استغاثوا بأسـوء أخذ من حريق شـدت عليهم عقاربها وحياتها ، ولو رأيت مناديا ينـادي وهو يقـول : يا أهل الجنة ونعيمها ويا أهل حليّها وحللها ، خلّـدوا فلا مـوت ، فعنـدها ينقطع رجـاؤهم وتنغلق الأبـواب ، وتنقطع بهم الأسـباب ، فكم يومئذ من شـيخ ينـادي ، وا شـيبتاه! وكم من شـاب ينادي وا شباباه! وكم من امـرأة تنـادي وا فضـيحتاه! هتك عنهم الســـتور. فكم يومئذ من مغمـــوس ، بين أطباقها محبوس ، يا لك غمسة ألبستك بعد لباس الكتّان ، والمـاء المـبرد على الجـدران ، وأكل الطعـام ألوانا بعد ألـوان. لباسا لم يـدع لك شـعرا ناعما كنت مطعمه إلا بيّضه ، ولا عينا كنت تبصر بها الى حبيب إلا فقأها» [1]

(**وَسُقُوا ماءً حَمِيماً**)

إنهم لا يستسـيغونه بل يضـطرهم عطشـهم الشـديد الى شرب الماء الذي يغلي حرارة.

(**فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ**)

وهنا ننقل حديثا رهيبا مـأثورا عن الامـام البـاقر (عليه السلام) يصف فيه بعضا من عذاب الكافرين :

ثم يضرب رأسه ضربة فيهوي سبعين ألف عـام حـتى ينتهي الى عين يقال لها آنية ، يقول الله تعالى : «تسـقى من عين آنيـــــة» وهو عين ينتهي حرها وطبخها ، وأوقد عليها من خلق الله جهنم ، كل أودية النار تنام وتلك العين لا تنـام من حرها ، ويقـول الملائكة : يا معشر الأشـقياء ادنوا فاشربوا منها ، فـاذا أعرضـوا عنها ضـربتهم الملائكة بالمقامع ، وقيل لهم : «**ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيـقِ ذلِـكَ بِما قَدَّمَتْ**

---

(1) بحار الأنوار / ج 68 ـ ص 172

أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ». قال : ثم يؤتــون بكأس من حديد فيه شربة من عين آنية ، فـاذا أدني منهم تقلصت شـفاههم ، وانتشر لحـوم وجـوههم ، فـاذا شـربوا منها وصار في أجوافهم يصهر به ما في بطونهم والجلود [1]

والمتقون لهم من كل الثمرات ، اما هؤلاء المجرمون فليس لهم سـوى الزقـوم مطعما .. يقـول الامـام البـاقر (ع):

«**ثم يضــرب على رأسه ضــربة فيهـوي سـبعين ألف عـام حـتى ينتهي الى شـجرة الزقـوم ، شـجرة تخـــــــــرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، عليها سـبعون ألف غصن من نـار ، في كل غصن سبعون ألف ثمرة من نار ، كل ثمرة كأنها رأس الشـــيطان قبحا ونتنا ، تنشب على صـــخرة مملسة ســـوخاء كأنها مـــرآة ذلقة ، ما بين أصل الصخرة (الشجرة خ ل) سبعون الف عام ، أغصــانها يشرب من نار وثمارها نار ، وفرعها نار ، فيقـال له : يا شقي اصعد ، فكلما صعد زلق ، وكلما زلق صـعد ، فلا يزال كذلك سبعين الف عام في العـذاب ، وإذا أكل منها ثمــرة يجــدها أمــرّ من الصــبر ، وأنتن من الجيف ، وأشد من الحديد ، فـــاذا واقعت بطنه غلت في بطنه كغلي الحميم ، فيذكرون ما كانوا يــأكلون في دار الدنيا من طيب الطعام**». [2]

هل نختـار هـذا المصـير السـيء على عاقبة المتقين؟ وهكذا يـبين القـرآن مـدى الفـرق بين المـؤمن والكـافر ، لكي لا ننظر الى ظاهر الأمر ونزعم انه يستوي هـذا وذاك ، أو تسـتوي حالة الايمـان وحالة الكفر ، فننجر الى الكفر باهمالنا وغفلتنا ، نعوذ بالله منه ومن مصير الكافرين.

(1) بحار الأنوار / ج 8 ـ ص 321
(2) المصدر

[16] ولا تعي القلوب المحاطة بالهوى بصائر القـرآن ، أما من اتقى حجب الشـهوات تلقى أنـوار الهـدى. أو لم يقل : «**إِنَّما تُنْـذِرُ مَنِ اتَّبَـعَ الـذِّكْرَ وَخَشِـيَ الـرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ**».

وهـذه البداية ، وعلينا أبـدا العـودة الى المبـادئ لحل الغـاز الحيـاة. فـاذا كنت تبحث عن الجنة أصـلح اولا منهج التفكـير في نفسك ، فلا تتبع الهـوى واسـتمع الى الحق وتفكّر في آيات الله.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ**)

لا لكي يفقه ، وانما ليجادل في آيات الله بغير هدى.

(**حَتَّى إِذا خَرَجُـوا مِنْ عِنْـدِكَ قـالُوا لِلَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً**)

عن ما ذا تحـدث؟ والى أي شـيء أشـار؟ وما هي الأفكار التي ذكرها؟ وما هي الأوامر التي كلفنا بها؟ يقـول ذلك فـور خروجه من بيت الرسـالة ، لمـاذا؟ لأنه لم يقتنع بما قيل له فحـاول أن يجد له تفسـيرا وتـأويلا. إنه لفـرط عقـده النفسـية لا يـرى الأمـور إلا بصـورة معكوسة ، ولا يعتقد صـدق متحدثيه ، بل يبحث في أحـاديثهم عن زوايا مبهمة يجعلها مـادة تسـاؤله ، ومناقشـاته ، وجدلياته ، ويزعم ان ذلك من العلم ولا يعرف انه دليل جهله وانغلاق قلبه.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ**)

فأصـبحت لا تعي ولا تعقـل. مضـوا قـدما في طريق الهوى.

(**وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ**)

لأنّ الإنســان لا يمكن أن يخضع لشــهواته ، ويــركب مطيّة أهوائه ، وهو واع بصــير. إذ انه آنئذ ســيهتم بتزكية نفسه وترويضــها ، كما الامــام أمــير المؤمــنين علي (ع) الــذي قـــال وهو يحكم إمبراطورية عريضة : «وإنّما هي نفسي أروضـها بـالتقوى لتـأتي آمنة يـوم الخـوف الأكـبر ، وتثبت على جوانب المزلق ، ولو شئت لاهتديت الطريق ، الى مصفى هـذا العسل ولبـاب هـذا القمح ، ونسـائج هـذا القزّ ، ولكن هيهات أن يغلبـني هـواي ، ويقـودني جشـعي الى تخيّر الأطعمة ..

إليك عــني يا دنيا ، فحبلك على غاربك ، قد انســللت من مخالبك ، وأفلت من حبائلك ، واجتنبت الــــذهاب في مداحضك .. اعزبي عـني! فو الله لا أذل لك فتسـتذليني ، ولا أســلس لك فتقوديــني ، وأيم الله يمينا أســتثني فيها بمشــــيئة الله ـــــ لأروضن نفسي رياضة تهش معها الى القــرص إذا قـدرت عليه مطعوما ، وتقنع بـالملح مأدوما ، ولأدعن مقلـــتي كعين مــــاء نضب معينها ، مســــتفرغة دموعها». [1]

[17] ومن أراد ان يعي الحقــائق ، ويــزداد بصــيرة وهدى ، ويسـتقيم على المنهج السـليم ، فعليه أن يسـعى بنفسه نحو الهداية ، لأن على الإنســـان الخطـــوة الاولى وعلى الله التوفيق.

(**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا**)

بحثــوا عن الحق بأنفســهم ، وســعت قلــوبهم نحو البصــيرة ، أولئك الــذين يأخذ ربهم بأيــديهم في طريق الهداية ، فيزيدهم هـدى كما يثبت أقـدامهم أن تـزل بفعل عواصف الشهوة ورياح الفتن.

(1) نهج / رسالة 45 ـ ص 417

(**زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ**)

تماما بعكس أولئك المنـافقين الـذين سـبق الحـديث عنهم ، فبينما طبع الله على قلـــوب أولئك ، زاد هـــدى هــؤلاء. وبينما يتبع أولئك أهــواءهم ، أتى هــؤلاء التقــوى بتنمية معــارفهم ووعيهم ، وتنــبيههم في أوقــات الغفلة ، وتنمية إرادتهم وعزمهم ، وإغنائهم بنعمة الحلال عما حرم عليهم. وبكلمة : توفيقهم لتجنب ما يسخط ربهم.

[18] لما ذا ـ إذا ـ لا نخطو نحو ربنا الخطـوة الاولى ليزيــدنا هــدى ويؤتينا التقــوى؟ إنّه الانتظــار الســاذج ، والتسويف الخـادع ، كأننا نتوقع أن تكـون الخطـوة الأولى من غيرنا ، وننتظر والى مــتى ننتظــر؟ هل الى قيــام الســاعة ، حيث لا تنفع التوبــة. فقد تــوافرت علائمها أفلا نبادر بالتوبة قبل فوات أوانها؟

(**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً**)

قد تتمثل الســاعة في يــوم القيامة ، أو عند ما يــنزل الله عـذاب الاستيصـال ، أو عند ما يفـاجئ الإنسـان أجله الذي لا مفر منه. المهم انها تباغت البشر ، بيد انها ليست مفاجئة تماما إذ ان علاماتها قد ظهـــرت مما تكفينا دلالة عليها.

(**فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها**)

أشراط الساعة ، أي علائمها فما هي علائمها؟

لقد اختلف المفسرون في تأويلها قـال بعضـهم : إنها بعثة الرســول أو لم يقل صــلى الله عليه وآله : بقيت أنا والساعة كهـاتين وضم السـبابة والوسـطى. أو لم يخطب في أصحابه قبل الغروب وقال : والذي نفس محمد بيده ، مثل ما مضى من الدنيا فيما

بقي منها ، إلا مثل ما مضى من يومكم هـذا فيما بقي منه ، وما بقي منه الا اليسـير [1] مما يـدل على اننا نعيش في نهايات الدنيا .. ومن علامات ذلك بعثة خاتم الرسل الــذي لا نبي بعده الى يوم القيامة.

وقـال بعضـهم : إن أشـراط السـاعة هي ما ذكر في النصــوص من انتشــار الفســاد ولا ريب ان ذلك أيضا من علامات قيام الساعة التي تقوم على شر خلق الله.

بيد ان أشـراط السـاعة ــ حسـبما يبـدو ــ تعم كل الشواهد التي تهدينا الى قيامها ، وتختلف الشواهد حسب الأشــخاص والأمم والعصــور. فلا ريب ان ما جــرى على الأمم الماضية من عذاب التدمير من أشراط الساعة التي تهدينا الى وقوعها ، وحتى مـوت الأعـزاء ورحيلهم الأبـدي عن الدنيا يمكن أن يكون منذرا لنا حتى نبادر بالتوبة.

بلى. هنـاك علامـات السـاعة ذكـرت في النصــوص توحي بضرورة انتظار قيام السـاعة عند ما ينتشر الفسـاد وينحسر الصلاح كما جاء في الحـديث المـأثور عن عبدالله بن عبـاس قـال : حججنا مع رسـول الله صـلّى الله عليه وآله حجة الـوداع ، فأخذ بحلقة بـاب الكعبة ثم أقبل علينا بوجهه فقـال : ألا أخـبركم بأشـراط السـاعة؟ وكـان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رحمه الله فقال : بلى يا رســول الله. فقال : من أشراط القيامة إضـاعة الصـلوات واتبـاع الشهوات ، والميل مع الأهـواء ، وتعظيم أصـحاب المـال ، وبيع الدين بالدنيا ، فعنـدها يـذاب قلب المـؤمن في جوفه كما يـــذاب الملح في المـــاء مما تـــرى من المنكر ، فلا يستطيع أن يغيره. قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رســول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان إن عنـدها يليهم أمــراء جــورة ، ووزراء فســقة ، وعرفــاء ظلمة ، وأمناء خونة. قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول

---

(1) تفسير نمونه / ج 21 ـ ص 451 نقلا عن روح المعاني.

الله؟ قال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان ، ان عنـدها يكون المنكر معروفا والمعروف منكـرا ، ويـؤتمن الخـائن ويخون الأمين ، ويصـدق الكـاذب ويكـذب الصـادق ، قـال سلمان : وإن هذا الكائن يا رسول الله؟ قـال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان ، فعنـدها سـتكون إمـارة النسـاء ومشـاورة الإمـاء وقعـود الصـبيان على المنـابر ، ويكـون الكـــذب ظرفا ، والزكـــاة مغرما والفيء مغنما ، ويجفو الرجل والديه ، ويـبر صـديقه ، ويطلع الكـوكب المـذنب. قال سـلمان : وإن هـذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان ، وعنـدها تشـارك المـراة زوجها في التجـارة ، ويكـون المطر قيظا ، ويغيظ الكـرام غيظا ، ويحتقر الرجل المعسر ، فعندها تقارب الأسواق إذ قال هذا لم أبع شيئا وقال هـذا لم اربح شـيئا ، فلا ارى إلا ذاما لله. قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال : إي والذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها يليهم أقوام إن تكلموا قتلوهم ، وإن سكتوا استباحوهم ليستأثرون بفيئهم وليطأن حرمتهم ، وليسفكن دماءهم ، ولتملئن قلوبهم غلا ورعبا فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرهوبين. قال سلمان : وإن هـذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان ، إن عنـدها يـؤتى بشـيء من المشـرق وشيء من المغرب يلون أمتى فالويل لضعفاء أمتي منهم والويل لهم من الله لا يرحمون صـغيرا ولا يـوقرون كبـيرا ولا يخافون [1] عن مسيء ، جثتهم جثة الآدمـيين وقلـوبهم قلوب الشياطين. قال سلمان : وإن هذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : أي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان ، وعنـدها يكتفي الرجـال بالرجـال ، والنسـاء بالنسـاء ، ويغـار على الغلمـــان كما يغـــار على الجارية في بيت أهلها ، وتشـــبه الرجـال بالنسـاء والنسـاء بالرجـال ، وتـركبن الفـروج السروج ، فعليهن من أمتي لعنة الله. قـال سـلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال : أي والذي نفسي بيـده يا سـلمان إن عنـدها تزخـرف المسـاجد كما تزخـرف الـبيع والكنائس ، وتحلى المصاحف ، وتطول المنارات ، وتكثر

(1) وفي نسخة البحار : «ولا يتجاوزون»

الصفوفات بقلوب متباغضة ، والسن مختلفة. قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيده يا سلمان ، وعندها تحلى ذكور أمتي بالــذهب ويلبس الحرير والــديباج ، ويتخــذون جلــود النمــور صــفاقا. قــال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول اللـه؟ قـال : أي والـذي نفسي بيــده يا ســلمان ، وعنــدها يظهر الزنا ويتعــاملون بالعيّنة والرشى ويوضع الدين وترفع الدنيا. قـال سـلمان : وإن هـذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيده يا سـلمان ، وعنـدها يكـثر الطلاق. فلا يقـام لله حـد. ولن يضـروا الله شـيئا. قـال سـلمان : وإن هـذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان ، وعندها تظهر القينات [1] والمعــازف ويليهم أشـرار أمـتي. قال سـلمان : وإن هـذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والذي نفسي بيـده يا سـلمان ، وعنـدها تحج أغنيـاء أمـتي للنزهة ، وتحج أوساطها للتجـارة ، وتحج فقـراؤهم للريـاء والسمعة ، فعندها يكون أقواما يتعلمون القرآن لغــير الله ، ويتخذونه مزامـير ، ويكـون أقواما يتفقهـون لغـير الله ، وتكـثر أولاد الزنا ، ويتغنـون بـالقرآن ويتهـافقتون بالـدنيا. قال سـلمان : وإن هـذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان : ذاك إذا انتهكت المحـارم واكتسـبت المـآثم وتسـلط الأشـرار على الأخيـار ويفشو الكذب وتظهر اللجاجة وتغشو الفاقة ويتباهون في اللباس ، ويمطـرون في غـير أوان المطر ويستحسـنون الكوبة [2] والمعازف ، وينكـرون الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر حــتى يكــون المــؤمن في ذلك الزمــان أذل من الامة ، ويظهر قراؤهم وعبادهم فيما بينهم التلاوم فأولئك يدعون في ملكوت السماوات الارجاس الأنجاس. قـال سـلمان : وإن هـذا لكـائن يا رسـول اللـه؟ قـال : إي والـذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها لا يحض الغـني على الفقـير حـتى أن السائل يسأل فيما بين الجمعـتين لا يصـيب أحـدا يضع في كفه شيئا. قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول

---

(1) القينات : المغنيات.

(2) الكوبة : كالشطرنج والطبل الصغير.

الله؟ فقـال : إي والـذي نفسي بيـده يا سـلمان ، فعنـدها يتكلم الرويبضة ، فقـال سـلمان : وما الرويبضة يا رسـول الله فـداك أمي وأبي؟ قـال صـلى الله عليه وآله : يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم ، فلم يلبثـــــوا إلا قليلا حتى تخـور الأرض خـورة فلا يظن كل قـوم إلا انها خـارت في نـــاحيتهم ، فيمكثـــون ما شـــاء الله ، ثم ينكتـــون في مكثهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها ذهبا وفضة ـ ثم أومأ بيـده الى الأسـاطين ـ فقـال : مثل هـذا ، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة ، فهذا معنى قوله : «فقد جاء أشراطها». (1)

ولعل هـــذا النص والنصـــوص المشـــابهة تحثنا على مقاومة الفساد ومناهضة الانحراف حـتى لا تبغتنا السـاعة بدمارها سواء كانت الساعة النهائية للعالم (يوم القيامـة). أم ساعة أمتنا أم ساعة الأفراد.

(**فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ**)

هل ينتفع التلميذ في المدرسة حين يجيب على الأسئلة خارج قاعة الامتحانات؟ كلا .. وهكذا لا تنفع التوبة بعد قيـام السـاعة ، كما قـال تعـالى : «**فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَـعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**».

[19] إذا كان الانتظـار والتسـويف ، وتجاهل الحقـائق واتباع الهوى ، والانغلاق دون هـدى الله ، انها جميعا ينهـار بأهله في نار جهنم!

فكيف النجاة؟

العلم والتوحيد والاستغفار .. ركيزة النجاة ، لأن العلم بالتوحيد يجعل العبد

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 24. نقلا عن تفسير القمي ج 2 / ص 303 وهي أصـح. نقلها صـاحب نـور الثقلين بـأغلاط كثـيرة ، وصـححت على أساس المصدر الأساسي.

يتحسس بضآلته أمـام جبـار السـموات والأرض فيسـتغفر لذنبه ، ولشـفقته على أحبائه من المؤمـنين يسـتغفر لهم أيضا.

(**فَــاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلــهَ إِلَّا اللــهُ وَاسْــتَغْفِرْ لِــذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ**)

وربنا يقــول : «**فَــاعْلَمْ**» لأن العقبة الــتي تعــترض الإنسان أمـام التوحيد هي الجهل ، أو لم يقل عـزّ وجـلّ : «**وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كـانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً**» [1] ولهـذا كرر القـرآن الحكيم كثـيرا ذكر هـذا العامل الـذي يصـرف النـاس عن الايمـان والهـدى. قـال عـزّ من قائل : «**قـالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**» [2] ، «**قُلْ أَفَغَيْـرَ اللـهِ تَـأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ**» [3] ، «**وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**» [4] «**وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْمـاً تَجْهَلُـونَ**» [5] ، «**وَأَعْـرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ**» [6] ، «**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**» [7].

وكلما ازداد البشر علما ازداد تواضــعا ، لأنه يعــرف حجمه بــإزاء سـائر ما يعلم من مخلوقـات ، بينما الجهل سبب التكبر ، ولذلك يقـول ربنا سـبحانه وهو يعـالج صـفة التكـبر في النفس : «**وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحـاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً**» [8].

وكلما ازداد البشر علما ازداد خشـــوعا لربه أليست الكائنات مرآة أسماء الله ،

---

(1) الأحزاب / 72
(2) الأعراف / 138
(3) الزمر / 64
(4) الانعام / 111
(5) الأحقاف / 23
(6) الأعراف / 199
(7) النمل / 55
(8) الإسراء / 37

وتجليات خلقه وقدرته وحكمته؟

وهكذا تتصل كلمات هذه الآية ببعضها ، فالعلم يهـدينا الى التوحيد ، والتوحيد يهــــدينا الى الاســـــتغفار ، لأن الاســـتغفار هي حالة النفس عند معرفة الــــرب ، ووعي قدرته وهيمنته وعظمته ، إنّه الاحســـاس بالتقصـــير في مقـام الألوهية ، إنه الاحسـاس بالـذنب المقـرون بـالتطلع نحو الإصـلاح ، وأي سـلم أفضل لبلـوغ درجة القبـول عند ربّ العزة من معـراج التوبة ، أم أي تحية أكـرم عند لقـاء العبد بربه من التســـليم ، وأي حالة تســـليم أفضل من الاســتغفار. ثم إنّ الكـبر هو الحجـاب الأكـبر الـذي يمنع إشراقة نور الحق على جنبات الفؤاد ، وأي علاج أنجح من الاستغفار لاقتلاع جذوره.

ليس من اليسير القضاء على كـبر النفس ، لأن منشأ الكـــبر هو الجهل ، والجهل هو من ذات النفس ، ومرتكز في صــميم خلقته ، وإنما بــدوام الاســتغفار من الــذنب نستطيع القضاء على الجهل ومظهره المتمثل في الكبر.

والذي يسـتغفر لذنبه يـزداد تقـوى وورعا من العـودة اليه ، كما يــزداد عزما لتنفيذ واجبــات الــدين واجتنــاب محرماته.

ويتساءل البعض : كيف أمر الرسـول صـلّى الله عليه وآله بالاستغفار؟ أو ليس هو المعصوم من كل ذنب؟ بلى. ولكن :

أولا : ليكون قدوة لأمته في الاستغفار.

ثانيا : لأن الحضـــور في مقــام الـــربّ يســـتدعي الاسـتغفار ، لأنه المعـراج الى المزيد من الكمـال ، ولأنه بالتـالي الحبل الممتد بين الـربّ والعبـد. وحـتى لو كـان الفرد غير مذنب بالذنوب المعروفة ، ولعل التعبير بالـذنب دون الذنوب يشـير الى إن المـراد منه هو مجمل القصـور والتقصير الذي لا يخلو منه العبد.

ثالثا : إن القرآن نزل على لغة إياك أعني واسمعي يا جارة ، فالرسول هو المخاطب والأمة مقصودة بذلك.

ونتساءل ـ مرة أخرى ـ عن معنى الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات في هذا السياق؟

والجواب :

أولا : إنه فيما يتصل بالرسول يعني الشفاعة ، لأن حقيقة الشفاعة هي طلب المغفرة من الله للمذنبين.

ثانيا : إن الاستغفار يعبر عن العلاقة الحميدة مع سائر المؤمنين ، فهي ليست عدائية بدليل طلب الرحمة لهم ، وليست تابعية بحيث يسترسل المؤمن مع إخوته باعتقاد انهم كلهم معصومون من الخطأ ، لأنهم بالتالي بشر ، والبشر يخطأ ويصيب ، وإذا بالغ المؤمن في حبه لإخوانه وإكرامه لهم الى درجة الاعتقاد بقداستهم ، فانه سوف يعطل عقله في تقييمهم وإصلاحهم.

بلى إن لهم ذنوبا ولكنها لا تدعونا الى قطيعتهم بل الى إصلاحهم ولو بالاستغفار.

(**وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ**)

إنه سبحانه يعلم حركات الإنسان وسكناته في نهاره وليله ، كما يعلم تقلباته الروحية من الكفر والنفاق والكبر الى الإسلام والايمان والتقوى ..

فلا بد من الحذر الشديد لكي لا نفكر في الخداع ، فان الإنسان إذا لا يخدع إلا نفسه.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَـوْ لا نُـزِّلَتْ سُـورَةٌ فَـإِذا أُنْـزِلَتْ سُـورَةٌ مُحْكَمَـةٌ وَذُكِـرَ فِيهَا الْقِتـالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْـهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَقَـوْلٌ مَعْـرُوفٌ فَـإِذا عَزَمَ الْأَمْـرُ فَلَـوْ صَـدَقُوا اللـهَ لَكـانَ خَيْـراً لَهُمْ (21) فَهَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ تَـوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُـوا أَرْحـامَكُمْ (22) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللـهُ فَأَصَـمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصـارَهُمْ (23) أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُـدَى الشَّـيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى

(20) (**فَأَوْلى لَهُمْ**) : أي أنّ المـوت أولى لهم من الحيـاة وهـذا دعـاء عليهم بالهلاك.

(25) (**سَـوَّلَ لَهُمْ**) : سـهّل لهم ركـوب الآثـام ، من السـول بمعـنى الاسترخاء.

لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللـهُ سَـنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْـرِ وَاللـهُ يَعْلَمُ إِسْـرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَـوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَـةُ يَضْـرِبُونَ وُجُـوهَهُمْ وَأَدْبـارَهُمْ (27) ذلِـكَ بِـأَنَّهُمُ اتَّبَعُـوا ما أَسْـخَطَ اللـهَ وَكَرِهُـوا رِضْـوانَهُ فَأَحْبَـطَ أَعْمـالَهُمْ (28) أَمْ حَسِـبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللـهُ أَضْـغانَهُمْ (29) وَلَـوْ نَشـاءُ لَأَرَيْنـاكَهُمْ فَلَعَـرَفْتَهُمْ بِسِـيماهُمْ وَلَتَعْـرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَـوْلِ وَاللـهُ يَعْلَمُ أَعْمـالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُـــــوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِـــــدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31)

(**وَأُمْلِي لَهُمْ**) : أي قرّر عليهم كالذي يملي على الآخر الشـيء ليكتبه ، فالشيطان أولا جعلهم رخوا ثم قرّر لهم أن يخرجوا عن الطاعة.

(29) (**أَضْغانَهُمْ**) : أحقادهم.

(30) (**بِسِيماهُمْ**) : سيما الإنسان ملامح وجهه.

(**لَحْنِ الْقَـوْلِ**) : اللحن هو الإمالة فـإن المنـافق يميل بكلامه حيث أنّ قلبه لا يرضى أن يتكلم حسب موازين الإيمان.

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ
أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها

هدى من الآيات :

كيف يتميز المؤمنون عن المنافقين ومن في قلـوبهم مـرض؟ وكيف يخـرج الله أضـغان القلـوب؟ وكيف يبلو المجاهدين والصابرين؟

يضـرب لنا القـرآن الأمثـال لنعـرف هـذه المقـاييس الحق في ذلك.

أولا : المؤمنـــون يتطلعـــون الى آيـــات الجهـــاد ، ويستجيبون لها ، أما الذين في قلوبهم مـرض فـتراهم في حالة المحتضر إذا سمعوا آيات القتال.

ثانيا : المؤمنون يطيعـون الله ويقولـون قـولا معروفا ويصـــدقون الله في المواقف الصـــعبة. بينما المنـــافقون يولـون الأدبـار ويفسـدون في الأرض ويقطعـون أرحـامهم تماما في الجهة المعاكسة للمؤمنين.

ثالثا : يتدبر المؤمنـون في القـرآن ليجـدوا فيه شـفاء دائهم ، بينما على قلوب أولئك

أقفالها ، ويرتـدون على أدبـارهم والشـيطان يقـول لهم ويملي لهم ، بينما القرآن يشفي قلوب هؤلاء ويهديهم.

رابعا : ترى المنافقين يبحثون عن أمثـالهم ويتـآمرون معهم لضرب القيـادة الرشـيدة. والله لهم بالمرصـاد حين يتوفـاهم ملائكة العـذاب يضـربون وجـوههم وأدبـارهم ، ويحبط الله أعمالهم لأنهم اتبعوا الشيطان ، ورفضوا ولاية الرحمن.

وهكـذا يخـرج الله أضـغان أولئك المنـافقين (بآيـات القتـال) ويفضـحهم ، وكما يبلي حقيقة المجاهـدين والصابرين ويرفع مقامهم.

بينات من الآيات :

(20) يسـتقبل المؤمنـون الحقـائق بـأذن واعية ، وبصـائر نافـذة من دون حجـاب ، وبقلـوب طـاهرة من الجهالة والعنـاد والتكـبر ، بلى. إن مثل حقـائق الرسـالة ومثلهم كما الأرض الموات تستقبل زخات الغيث المباركة ، فاذا نزلت عليهم سورة وعوها واسـتعدوا لتنفيذ أحكامها ، وإذا لم تـزل تـراهم يتسـاءلون أفلا حبينا بها ، أفلا قـرّت أعيننا بالنظر الى آيات جديدة؟!

(**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ**)

لما يغمر قلـوبهم من اللهفة إليها ، ولما تنطـوي جوانحهم من العزم الشديد للعمل بكل ما فيها من أوامر. أما الذين في قلوبهم مـرض ، فـإنهم على العكس تماما ، إذ يتخوّفون أن تنزل عليهم أوامر جديدة ، تأمرهم بالقتال مع العـدو ، لأنهم لا يملكـون الاسـتعداد الكـافي لتطـبيق الأحكام.

(**فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ**)

لا يمكن الجدال لأنها واضحة لا تحتمل التأويل.

(**وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ**)

آنئذ تبلى حقائق الرجال.

(**رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**)

من نفاق ، أو شك ، أو جبن.

(**يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**)

وهكذا يمتاز المؤمنـون عن هـؤلاء الـذين في قلـوبهم مرض ، لأن المؤمنين يثبتون في مختلف الظـروف ، بينما هـؤلاء في حالة من الـرعب تشـبه حالة المحتضر الـذي يشخص ببصره فزعا ، وهو فاقد لقدرة التركيز وربما قـال ربنا : «**الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ**» ولم يقل : (الـذين نافقوا) لأن الخط المنحرف لا يقتصر على المنافقين ، بل يضـمّ الكثـير ممّن يزعمـون أنّهم مؤمنـون ولكنّ وجـود المـرض فيهم يجـرّهم الى خط النفـاق ، ويتوضح لنا من بعض الآيات ان الذين في قلوبهم مرض هم طائفة أخـرى غـير المنـافقين ، يقـول عـزّ وجـلّ : «**لَئِنْ لَمْ يَنْتَـهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ وَالْمُرْجِفُـونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ**».

يهدد القرآن هؤلاء ، ويوعدهم العاقبة السوءى قائلا :

(**فَأَوْلى لَهُمْ**)

تستخدم هذه الكلمة في اللعن ، واختلفـوا في معناها الـدقيق ، هل هو بمعـنى : يليه مكـروه ، أو لهم الويل أو المـوت أولى لهم ، ويبـدو ان هـذه الكلمة تـأتي بعد بيـان سـيئة من سـيئاتهم فعلا أو قـولا فيكـون معناها إنهم يستحقون تلك السيئة وهم أحق بها ، وأولى من غـيرهم ، وفي المقام يكـون المعـنى ان هـذه العاقبة السـيئة الـتي انتهوا إليها من

رفضهم لسورة القتال يستحقونها لما كان في قلوبهم من مرض ، ذلك لأن النفاق والخوف الذي يحول الإنسان عن قتال الأعداء ، جرم كبير وضلالة بعيدة ، لأنه يجر صاحبه الى الاستسلام للطاغوت وفقدان استقلاله أمام الغزاة ، والتنازل عن قيمه وشخصيته خشية بطش الجبارين. وكل من ارتد عن الدين أو اتبع الظالمين انساق الى مصيره الأسود بسبب تلك الأمراض الخطيرة التي تمكنت من قلبه.

[21] بينما لو أطاعوا أوامر الرسالة ، واستقبلوها برضى ، وطهروا قلوبهم من الأمراض الفتاكة ، وصدقوا في الظروف الصعبة ، لكانوا يعيشون العزّة والكرامة والاستقلال.

(**طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ**)

عزم الأمر ، يعني بلغ الموقف حدا يستدعي الهزيمة والارادة النافذة ، وقال البعض معناه : جد القتال.

ونستوحي من هذه الآية بصيرتين :

ـ الأولى : إن قول المعروف عند صدور أوامر الرسالة وبرامجها بعد التسليم والطاعة مؤشر واضح على تفاعل الإنسان مع الرسالة ، وصدق انتمائه لها ، وخلوّ قلبه من حسكة النفاق وأي مرض آخر ، كالجهل والجبن والتكبر ، لأن هذه الأمراض تجعل الإنسان يعيش حالة التقزز والاشمئزاز والضجر مما يظهر على فلتات لسانه ، فلا يقول قولا معروفا عند المواقف الصعبة.

وبالرغم من انّ المنافقين قد يعيشون هذه الحالة ، ولكن الظرف قد يستدعي منهم أن يكتموها ، بيد انه عند ما يعزم الأمر لا يمكنهم كتمام واقعهم.

إن مرضى القلوب هم الذين يؤدون الطاعات ويعملون الصالحات على كره ،

فلـذلك تـراهم يرفقونها بالحـديث السـلبي معها ، ولـذلك تراهم لا يقضون صلاتهم إلا ويتبعونها بالقول تضـجّرا ، كم هي ثقيلة هـذه الصـلاة؟! ولا ينهـون صـوم يـوم من أيـام رمضـــان إلا ويقولـــون كم هو مرهق هـــذا الصـــيام؟! ولا يزكون ويخمسون إلا ويضـجون : لقد أفقرنا هـذا الـدين .. في حين كـان عليهم أن يتحسّسـوا هـذه النعم الجسـام ، ويحمدوا الله عـزّ وجـلّ على أن وفقهم لها ، ولكنه الجهل والتكـبر والنفـاق وحب الـدنيا كل أولئك لا يـدع الإنسـان يعرف قيمة الرسالة ، ونفعها العميم للإنسان.

الثانية : نستشف من هـــــــــذه المقطوعة الرائعة : «**طاعَـــةٌ وَقَـــوْلٌ مَعْـــرُوفٌ**» ان علينا أن ننفذ الأوامر الرسالية ونسعى جاهدين من أجل تحقيقها دون نقـاش أو تـبرير أو جـدال أو معارضة ، لأنها صـادرة من الله تبـارك وتعــالى. والــواجب علينا أن نــروض أنفســنا لتســتجيب ونتفاعل مع الأحكام الالهية. ولكن كيف؟

من شــاء أن يكــون صــادقا في المواقف الصــعبة ، مسـتعدا لتحمل المسـؤوليات الجسـام ، فعليه أن يتـدرّج في تربية نفسه شـــيئا فشـــيئا ، فــأولا يعوّدها على تأدية الأعمال الصغيرة بصـدق وجدّيّة ، ثمّ الأكـبر منها فـالأكبر ، حتى يرتقي الى مستوى عال فيؤدي الأعمال الكبيرة بكل صدق ورضى.

[22] إنهم يهربـــون من القتـــال ، وإنما فـــرض الله القتـال من أجل إصـلاح الأرض ، وتكـريس قيم المحبة ، فمن يتــــولّ عنه فســــوف يقاتل ، ولكن في صـــــفوف المنـــــافقين ومن أجل نشر الفســـــاد في الأرض وقطع الأرحام (ومخالفة قيم الخير والفضـيلة). أو ليست الحيـاة صــراعا ، ولا مفر منه ، ومن لم يقــدم على اختيـار جبهة الخـــير انســـاق الى جبهة الشر ، ولا مســـافة بين الحق والباطل ، فمن لم ينفعه الحق أضره الباطل.

أولئك الذين يزعمون ان القتال شر مستطير ، وانهم دعاة السلام ، تراهم وقود معارك الباطل ضد الحق. ألم تقرأ في التاريخ : كيف ان أهل الكوفة رفضوا القتال مع الامام الحسين عليه السلام ضد الأمويين باسم الخروج من الفتنة ، ثم استخدمهم يزيد في قتال السبط الشهيد كرها.

إن لحكم القرآن ثمنا من لم يدفعه راضيا ابتلي بحكم الطاغوت ودفع أضعاف ذلك الثمن مكرها.

(**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ**)

كلمة عسى تدل على التوقع .. فهذه هي العاقبة المتوقعة لمن يتولى عن الحق!

ولان الحديث في هذه السورة عن الحكم الالهي والولاية الشرعية وتحمل مسئولياتها في طليعتها الدفاع عن الدين ، فان معنى التولي هنا الانسحاب من ساحة المواجة وترك القيادة الرشيدة وحدها في الميدان ، ولذلك فسر البعض هذه الكلمة ، بأنه بمعنى الولاية أي إذا أصبحتم حكاما ، وأوله البعض في بني أمية استنادا الى ما رواه عبد الله بن مغفل قال سمعت النبي صلّى الله عليه وآله وسلم يقول : فهل عسيتم إن توليتهم أن تفسدوا في الأرض .. ثم قال : هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم. [(1)]

والفساد في الأرض ، هو النتيجة الطبيعية للنظام الذي لا يستلهم من الدين أحكامه .. فيفسد الإقتصاد والاجتماع كما يفسد الأخلاق والآداب ومن أبرز مظاهر إفساده تفريق الكلمة ، واشاعة الفساد في الخلق ، الذي يؤدي الى تفكك الأسرة وقطع الأرحام. ويبدو ان قطع الرحم هو آخر عروة ينقض من عرى

---

(1) تفسير القرطبي / ج (16) ـ ص (245).

المجتمع ، لأن الفســاد إذا بلغ الأســرة فقد أتى على آخر قلعة من قلاع الاستقلال عند البشر.

[23] وإذا بلغ الإنسـان هـذا الـدرك فقد كل فرصة له للهداية ، لأن الله يلعنه ويسد عليه أبواب الهدى.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ**)

وطردهم من رحاب رحمته.

(**فَأَصَمَّهُمْ**)

فلم ينتفعوا بتجارب غيرهم.

(**وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ**)

فلم يعودوا ينتفعون حتى بتجاربهم ، وهكذا يستمرون في الهبـوط حـتى الـدرك الأسـفل. وهـذه عاقبة الـدول والتجمعات التي لم تقم على أساس الوحي. وهكذا نعرف ان بداية السقوط الكبير قد يكون زللا بسـيطا يسـتهين به صاحبه ، كما قد تكون بداية رحلة الموت ميكروبا يستخف به المريض .. واستخفاف الإنسان بالـدفاع ، وبخله بنفسه وماله عن الإنفـــــاق في ســــبيل الله ، هو بداية رحلة السقوط الكبير .. وهو بـدوره ناشئ من الأمـراض القلبية التي لا بد من المبادرة بعلاجها.

[24] والسؤال العريض كيف إذا نعالج أمـراض القلب الكـبر ، المـرض المسـتفحل الـذي جعل إبليس يـرفض السجود لادم ، وجعل أبناء آدم يرفضـون التسـليم للقيـادة الشرعية عبر التاريخ؟

الحسد ذلك الذي أوقد نار الحرب بين هابيل وقابيل ، ولا يزال يجعلنا في صراع

دائم.
الجبن الـذي هـدم حضـارات عظيمة لم يـدافع أهلها عنها أمام الغزاة البرابرة. وغيرها من أمراض القلب؟
ويجيب القرآن .. بالتدبر في القرآن.
(**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**)
والتدبر أن نسير بأفكارنا الى عاقبة الأمـور أو دبرهـا. وحين نتـدبر في القـرآن فاننا نتفكر في تطبيقـات الآيـات الكريمة ، وتجسـدها في الواقع العملي ، وحسب التعبـير القرآني في تأويلها.
الذين يتدبرون في القرآن يطبقون آيات القـرآن على واقعهم ، فاذا قرءوا فيها آية تذكرهم بسنن الأولين ، بقوم عاد وثمود. يتساءلوا ماذا لو فعلوا مثل فعلتهم. أفلا يكـون جزاؤهم الدمار أيضا؟ وإذا سمعوا موعظة زجروا أنفسـهم بها أو سمعوا مرضا قالوا لعله موجود فينا دعنا نفتش في أوضاعنا عن آثاره ، فان وجـدناه سـارعنا لمحاربته وهكـذا ..
ولأن مثل القـرآن مثل الشـمس فـان يطبق كل يـوم على أهل ذلك اليـــــــوم ، فلا بد أن نفتش في الواقع الخارجي ، وفي أنفسنا عمن يجري فيهم القـرآن بـأعينهم وصفاتهم. فمن هم المنافقون اليـوم ومن هم المؤمنـون؟ ومن هو الطاغوت الـذي أمرنا لنكفر بـه؟ ومن هو الامـام الذي تجب طاعته؟ ومن هي الدول التي تنتظر عاقبة قوم عاد؟ وما هي الحضارات التي تمثل حضارة ذي القرنين أو داود وسليمان؟ وهكذا .. وحينما تعصف بالأمة الفتن حـتى تـدع الحليم حيرانا ، هنالك لا بد من التـدبر في القـرآن لمعرفة السـبيل الى الخـروج منهـا. هكـذا أمرنا الرسـول الأكرم

صــلّى الله عليه وآله حين قــال : «فــاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بـــالقرآن» [1] وقـــال الامام أمـير المؤمـنين عليه السّـلام : «عليكم بكتـاب الله فانه الحبل المـتين ، والنــور المــبين ، والشــفاء النــافع ، والريّ الناقع ، والعصمة للمتمسك ، والنجاة للمتعلق». [2]

والمتـــــــدبر في القـــــــرآن يطبق آياته على نفسه ، ويتســـاءل عن آية عائبة فيها ليصـــلحها ، أو عارفة ناقصة عنـــده ليكملها ، أو طريقة رشد فيتبعها ، أو منهج ضـــلال فيتركه.

قـال الامـام أمـير المؤمـنين عليه السّـلام وهو يصف المؤمنين :

«أما الليل فصافون أقـدامهم ، تـالين لأجـزاء القـرآن يرتلونها ترتيلا ، يخوفون به أنفسـهم ، ويسـتثيرون به دواء دائهم. فـاذا مـروا بآية فيها تشـويق ، ركنـوا إليها طمعا ، وتطلعت نفوسـهم إليها شـوقا ، وظنـوا أنها نصب أعينهم. وإذا مـروا بآية فيها تخويف أصـغوا إليها مسـامع قلـوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم». [3]

وبكلمة : إن ما أفهمه من التـــــــــدبر هو البحث عن تطبيقـات الآيـات سـواء على أنفسـهم أو على الخليقة .. ولكن للتـــدبر أيضا شـــرطه المتمثل في الانفتـــاح على القرآن بعيـدا عن حجب القلب وأقفاله ، عن تلك الأحكـام المسبقة ، والقوالب الفكرية الجاهزة ، والتأويلات القائمة على أساس الهوى والشهوات.

(**أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها**)

---

(1) بحار الأنوار / ج (92) ـ ص (17).
(2) المصدر / ص (23).
(3) نهج البلاغة / الخطبة رقم (193).

قـــــالوا : القفل من القفيل الــــــذي هو ما يبس من الشــجر ، فكــان القلب يعشو فلا يســتقبل نــور القــرآن ويكــون كالشــجرة اليابسة الــتي لا تســتفيد من المــاء والأشعة. وقال البعض : إنه من القفول بمعـنى الرجــوع ، فكان القلب المنصوب عليه القفل لا ينفذ فيه الهوى ، بل يرجع عنه كما يرجع من واجه بابا مقفلا .. ويبدو إن أقفال القلب هي الأهواء المطاعة ، والرذائل الراسخة فيها ، وما يسبب قسوتها أو الختم عليها. ومن أراد فهم القرآن زكى نفسه ، وطهرها من الشــكوك والــريب وحب الشــهوات ومن الكــــبر والحقد والحسد والجبن وما أشـــــبه ، فآنئذ ينساب نور الهدى فيه بلا حجب ولا موانع.

جـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق عليه السّـلام : إن لك قلبا ومسـامع وإن الله إذا أراد أن يهـدي عبدا فتح مسامع قلبه ، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسـامع قلبه ، فلا يصـلح أبـدا وهو قـول الله عـزّ وجـلّ «**أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها**» [1].

[25] ولأن هذه الفئة تركت أمراضها القلبية تـتراكم ، فقضت على بقايا نور الايمـان في أنفسـهم ، كـانت عاقبة أمرهم الردة عن القيادة الشرعية ، وبالتالي عن الدين.

وكثير أولئك الذين ارتدوا عن الدين بسبب بعض هـذه الأمـراض ، ونحن نشـير الى بعضـهم لنعتـبر بهم. فـأولهم قابيل الـذي طـوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصـبح من الخاسرين ، وكـان مرضه الحسد إذ تقبل قربـان أخيه ولم يتقبل منه ، وكــذلك كــان مــرض عابد بــني إســرائيل المعــروف ب (بلعم بــاعورا) الــذي بلغ درجة عالية من الأيمان والتقـوى حـتى استحق أن يعطى الاسم الأعظم ، وكـان يـدعو به فيسـتجيب الله له ، ولكنه حين اختـار الله موسى عليه السّلام مال الى فرعون وارتضى لنفسه أن

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (41).

يكون بمثابة الكلب ، كما قال تعالى : «**وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنــاهُ آياتِنا فَانْسَــلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَــهُ الشَّــيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ* وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**». [1]

أما الزبير بن العوام الذي كان له تاريخ نضــالي حافل ، وملاحم بطولية رائعة ، ولقد كان يكشف الكـرب بسـيفه عن وجه رسول الله (ص) ، إنه الآخر انحـرف ، إذ أسـرته الـــدنيا بمناصـــبها الحقـــيرة وزينتها الفانية .. فدفعه حب الرئاسة الى محاربة إمام عصره أمير المؤمنين علي عليه السّلام.

(**نَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ**)

وتراجعوا عن العهود والمواثيق الـتي الزمـوا أنفسـهم بها تجاه الرسول ألّا يخونوه ، وألّا يخذلوه عند لقاء العدو.

(**مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى**)

وعلمــوا أن الرســول على حق ، ولكنهم جبنــوا عن مواجهة الأعداء ، وبحثوا عن السلطة والثروة.

(**الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ**)

رغبهم في ذلك عند ما زين لهم الدنيا وغرهم بما فيها من فتنة ظـاهرة ، وكلمة سـوّل من السـؤل أي الحاجة ، وكأن الشيطان جعلهم حريصين على هـذه الحاجة ، وأثـار فيهم الرغبة فيها.

(**وَأَمْلى لَهُمْ**)

---

(1) الأعراف / (175 ـ 176).

قالوا : الكلمة من الأمل بمعنى منّاهم بطـول الأمل ، فأنساهم الحساب.

[26] لقد رغبـوا في البقـاء لينعمـوا بالرئاسة ، كما إنهم انضـموا الى ركب الرسـالة من أجلهـا. لقد كـانت حسـاباتهم تـدعوهم الى مواكبه هـذا التيـار الاجتمـاعي الصـاعد لـيرثوا مغانمه ، فما دام الخـيرة يتنافسـون على نيل الشهادة فسوف يصفو لهم الجو ، وتتـاح لهم الفرصة للسيطرة على النـاس ، وحكمهم باسم الرسـالة .. لـذلك ما كـانوا ينفكـون عن المـؤامرة ضد السـلطة الشـرعية ، وقد بلغ بهم الأمر الى التخـابر مع الأعـداء (اليهـود والمشركين) لجلب تأييـدهم!! وأعطـوهم وعـدا بطـاعتهم في بعض القضايا التي تهمهم.

(**ذلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قـالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُـوا ما نَـزَّلَ اللـهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ**)

ولعل الآية تشـير الى مـؤامرة كـان بعض المرتـدين يحيكونها في عهد الرسـول صلّى الله عليه وآله لينفـذوها من بعـده. والفئة الكارهة كـانت القـوة العربية المعارضة للإسـلام وهي قـوة بـني أمية الـتي عارضت الرسـول منذ البداية وحـتى استسـلامها في فتح مكة ، حيث غـيرت استراتيجيتها فقط فعملت سرا بعد ما كـانت تعمل جهـرا. ويشـير الى ذلك حـديث مـأثور عن الامـام الصـادق عليه السـلام قـال : «دعـوا بـني أمية الى ميثـاقهم ألا يصـيروا الأمر فينا (أهل بيت الرسـالة) بعد النـبي ولا يعطونا من الخمس شيئا». [1]

(**وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ**)

ويمكر بهم وهو خـير المـاكرين ، وهكـذا ذهبت جهـود بني أمية هباء ، وبقي الدين خالصا لله عبر القرون بالرغم من ان هدف بني أمية وحلفاءهم كان طمس

---

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (42).

معالمه.

[27] إن نجحت مـــــــؤامرتهم ضد الولاية الالهية ، وأفلتـوا من عقـاب الـدنيا ، فهل يهربـون من عـذاب الله الذي يفاجئهم منذ خروج أرواحهم من الدنيا؟

(**فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَـةُ يَضْـرِبُونَ وُجُـوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ**)

تلك الوجوه التي كلحت في وجه الحق ، وتلك الأدبـار التي تولت عنه ، ولكن أين أعمالهم الصالحة؟ أين صلاتهم وزكـــاتهم وحســناتهم الــتي اقترفوهـــا؟ إنها تحبط لأنهم خالفوا الله في أعظم أوامره واتبعوا أهواءهم.

[28] (**ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ**)

من أهـواء. وإذا صـلى العبد وصـام وقـام ، ولكنه اتبع هواه فما ذا ينفعه عملـه؟ أو ليست حكمة هـذه الفـرائض تـــرويض النفس حـــتى لا تتبع هواها وتزكيتها من كبرها وحسـدها وغلها الـدفين فيها ، بينما مثل هـؤلاء يكرسـون بصلاتهم وأعمـالهم كـبرهم وعنـادهم بل يجعلـون صـلاتهم وسيلة لنيل شهواتهم من الرئاسة في الدنيا.

(**وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ**)

المتمثل في ولايته التي أمر بها ، فلم يطيعوا قيادتهم الشرعية.

(**فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ**)

[29] هكـــذا ابتلى الله عبـــاده حـــتى ظهـــروا على حقيقتهم وأخرج الله ما ستروه من أمراض.

(**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْـرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ**)

إن هذا الظن هو الذي غرّهم بربهم وجعلهم يزعمــون قدرتهم على الاختبـاء وراء مظهر النفـاق الى الأبد ، ولكن الله أخــرج ما ســتروه من أحقــاد وحسد وبغضــاء. قــالوا الاضغان : ما يضمر من المكروه.

[30] وكما الله قـــــــــــــادر على أن يظهر حقيقتهم بامتحانهم في القتـال ، فهو قـادر على أن يعـرف رسـوله واقعهم بطريق أخرى كأن يجعل على سـيماهم وملامحهم علامات النفاق.

(**وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ**)

وفعلا هناك على مظهر كل واحد منهم علامات النفاق ، ولكن لا تظهر إلا لأهل الخــبرة والمؤمــنين المتوســمين الذين ينظـرون بنـور اللـه. فمثلا : باسـتطاعتك أن تعـرف المنافق بالنظر الى قسمات وجهه ، حينما ينـادي المنـادي بالصـلاة أو بالزكـاة أو بالجهـاد أو بطاعة ولي الأمر ، فـان قســماته تنكمش كالشن البــالي ، بينما تنبسط قســمات وجه المؤمنين كما البدر.

(**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**)

بلى. في تضاعيف الكلام تظهر حقيقة المتحدثين ، أو ليس المرء مخبوء تحت لسـانه حـتى أن التحليل الحـديث لعلم النفس يستفيد من أغلاط المتحــدث لمعرفة خلفياته النفسية ، وحتى أعظم رجـال السياسة وأشـدهم مكـرا لا يمكنه أن يخفى مواقفه الحقيقية عند الحديث عن شيء ، لأن الكلمة التي يتلفظ بها إذا كانت صـادقة تخــرج بعفوية ويسر ، بينما إذا كانت كاذبة لا تخرج إلا بصـعوبة وبتكلـف. ومن هنا يقول الامـام أمـير المؤمـنين عليه السّـلام : «**ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصـفحات وجهه**». [1]

---

(1) نهج البلاغة / الحكمة رقم (26).

(**وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ**)

كما يعلم أقوالكم ، يعلمها بنياتها وخلفياتها.

[31] وهذه سنة الله في خلقه أن يختبرهم اختبـارا لا لكي يفضح المنـــــــافقين فقط ، بل وأيضا لتتجلى حقيقة المجاهـدين والصـابرين لأنفسـهم وللنـاس فيتخـذوا قـدوة ونبراسا.

(**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ**)

بأنواع البلاء ومنها القتال.

(**حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ**)

الذين لا يدعون جهدا لديهم إلا بذلوه في سبيل الله.

(**وَالصَّابِرِينَ**)

ولعلهم أعظم درجة من المجاهـــــــدين وأشد تعرضا للبلاء.

(**وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ**)

تلك الـــتي يحـــاول البشر أن يســـترها بـــأي داع من الـدواعي فمن النـاس من يخشى أن يظهر خـبره خشـية الفضيحة ، ومنهم من يخشى ذلك خوف الرياء والسمعة ، ولكن الله يبلوها بحكمته عـــبر أنـــواع البلاء ، ومن أبرزها القتال.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ وَشَـاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُـرُّوا اللـهَ شَـيْئاً وَسَـيُحْبِطُ أَعْمـالَهُمْ (32) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُـوا أَعْمـالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِـرَ اللـهُ لَهُمْ (34) فَلا تَهِنُـوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّـلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَـوْنَ وَاللـهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِـرَكُمْ أَعْمـالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيـاةُ الـدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْـوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُـوا وَتَتَّقُـوا يُـؤْتِكُمْ أُجُـورَكُمْ وَلا يَسْـئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (36) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ

---

(32) (وَشَاقُّوا الرَّسُولَ) : هم في شق أي طرف والرسول في شق.
(37) (فَيُحْفِكُمْ) : فيبالغ في الطلب ، فإنّ الإحفاء بمعنى المبالغة.

تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (37) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (38)))

فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ

هدى من الآيات :

إن التسليم للرسول (والوليّ المنصوب من عند الله) شـاهد على صـدق التسـليم لله ، بينما الشـقاق عنه كفر وصدّ عن سبيل الله ، ويسبب حبط العمل وإبطاله. فلا بد إذا من الطاعة للرسـول الـتي هي امتـداد لطاعة الله ، لكي لا تبطل أعمالنا. وإذا مات العبد كـافرا فلن يغفر الله له.

هكـذا أرسى القـرآن قواعد الانضـباط (الـتي نحتاجها في السـلم وبصـورة أكـبر في الحـرب) واتبـاع القيـادة الشـرعية ، ثم أمر المسـلمين بالاسـتقامة وعـدم الـوهن بطلب السلام الذليل ما دمنا الأعلى والأقـوى وإن الله مع المؤمنين ولا يضيع أجر العالمين.

وفي الختام رغب السـياق المؤمـنين عن الـدنيا الـتي هي عبث ولهو (إلا إذا طلب الإنسـان بها الآخـرة فصـارت ذات هـدف سـام) ووعد المؤمـنين المتقين بأنه يـؤتيهم أجرهم ولا يسألهم أموالهم. فلو سألها كلها بإصـرار أخـرج ما يخفوه من البخل ألا ترى

كيف ان البعض يبخل عن الإنفـــاق (ببعض أموالـــه) في سـبيل الله ، بينما الإنفـاق هو ذخـيرة لنفسـه. فـاذا بخل فانما يبخل عن نفسه ، لأن الله هو الغني وهم الفقراء.

وأنذر ربنا المسلمين بأن توليهم عن واجبات الرسـالة (وفي طليعتها القتـال والإنفـاق) يفقـدهم صـلاحية حمل الرسالة ، فيستبدل الله غيرهم فلا يكونوا أمثالهم.

بينات من الآيات :

[32] ليس من السهل التسليم لقيادة الحق للأسـباب التالية :

أولا : لأن القائد بشر كســائر النـــاس يأكل الطعـــام ويمشي في الأسواق ولا يني الشيطان يوسـوس للإنسـان ، كيف تطيع بشرا مثلك؟ ومن الذي فضله عليك؟ وكـانت هذه أخطر العقبـات الـتي منعت النـاس من اتبـاع الرسل بادئ ذي بدء.

وثانيا : لأن كثـيرا من قـرارات القيـادة تمس الحيـاة اليومية ، وقد لا تكـون مفهومة عند الفـرد كما قد تخـالف مصـــالحه العاجلة أو آراءه أو أهـــواءه .. مما يســـتدعي المزيد من العزم حـتى يتغلب الفـرد على الحالة النفسـية التي تمنعه من تنفيذ القرار.

وثالثا : لأن صـاحب الولاية الالهية يسـوق النـاس نحو الكمال أبدا ، مما يجعل قراره صعبا مستصعبا .. لا يحتمله إلا كل مـؤمن امتحن الله قلبه للايمـان .. لأن قـراره نـابع من الوحي والقيم الحق التي أنـزل بها ، ومنها التطلع نحو الكمال.

من هنا فان طاعة الرسول تـأتي في مقدمة فـرائض الرسالة ، كما ان مخالفته تعتبر ارتـدادا عن الـدين وكفـرا وسببا لابطال الأعمال.

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَـاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُـرُّوا اللـهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ**)

ويبدو من قوله سبحانه «**وَشَاقُّوا الرَّسُولَ**» وقوله سبحانه «**مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى**» ان هذا الفريق هم من المنافقين الذين فضحتهم الأوامر بالقتال ، وزعموا أن شقهم عصى الطاعة يفت في عضد الرسول بينما الواقع هو انهم هم الذين خسروا أعمالهم الصالحة التي قاموا بها ، فاحبطها الله حيث لم يستقيموا على الصراط ، ولا يجوز أن يمنوا بها على الرسول ، لأنهم أبطلوها بخيانتهم للقيادة في الوقت الحرج.

وقال أكثر المفسرين إن المعني بهذه الآية هم كفار مكة أو يهود المدينة ، لأنهم صدّوا عن سبيل الله بمحاربة الإسلام. وفسروا قوله تعالى «**مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى**» بوضوح الحجج الالهية عموما للناس الشاهدة على صدق الرسول. ولكني أرجح التفسير الأول لموافقته للظاهر من الآية حيث يظهر من هذه الكلمة انه قد تبين لهم الهدى فاهتدوا بالرسالة ردحا من الزمان ، كما إن هذا التفسير متوافق مع السياق القرآني الذي يحدثنا عن الموقف من القيادة الشرعية.

[33] ويعود القرآن يؤكد ضرورة الطاعة للرسول وينذر المؤمنين بأن شقاقهم عنه يبطل أعمالهم.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ**)

فالآية هذه هي العبرة الواعظة التي لا بد أن يعيها المؤمنون من عاقبة من سقط في الامتحان فارتد عن دينه وشاق الرسول. وهذا الأمر ينسحب على كل ولاية الهية في كل عصر. فقد جاء في الحديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «حدثني جبرئيل عن ربّ العزّة جلّ جلاله انه قال : من علم انه لا إله إلا أنا وحدي ، وأن محمّدا عبدي ورسولي ، وأن علي بن أبي طالب خليفتي ، وأن الأئمة من ولده حججي أدخلته الجنة برحمتي ، ونجيته من النار بعفوي ، وأبحت له جواري ، وأوجبت له

كرامـــتي ، وأتممت عليه نعمـــتي ، وجعلته من خاصـــتّي وخالصـــتي ، إن نـــاداني لبيته ، وإن دعـــاني أجبته ، وإن سـألني أعطيته ، وإن سـكت ابتدأته ، وإن أسـاء رحمته ، وإن فرّ مني دعوته ، وإن رجع الي قبلته ، وإن قـرع بـابي فتحته.

ومن لم يشـهد أن لا إله إلا أنا وحـــدي أو شـــهد ولم يشهد أن محمدا عبدي ورسولي أو شهد بـذلك ولم يشـهد أن علي بن أبي طالب خليفـتي أو شـهد بـذلك ولم يشـهد أن الأئمة من ولـــده حججي فقد جحد نعمـــتي ، وصـــغر عظمـتي ، وكفر بآيـاتي وكتـبي. إن قصـدني حجبته ، وإن سألني حرمته ، وإن ناداني لم أسـمع نـداءه ، وإن دعـاني لم أسمع دعاءه ، وإن رجاني خيبته ، وذلك جـزاؤه مـني ، وما أنا بظلام للعبيد». [1]

وعن مهـزم الأسـدي قـال : سـمعت أبا عبد الله عليه السّلام يقول : قال الله تبارك وتعالى : «لأعذبن كل رعية دانت بإمـام ليس من الله ، وإن كـانت الرعية في أعمالها برة تقية ، ولأعفون عن كل رعية دانت بكل إمام من الله وإن كان الرعية في أعمالها مسيئة». [2]

وعن عبدالله بن سنان عن الامـام أبي عبد الله (عليه السّلام) انه قال : «إن الله لا يستحي أن يعـذب أمة دانت بإمـــام ليس من الله ، وإن كـانت في أعمالها بـــرة تقية ، وإن الله يستحي أن يعذب أمة دانت بإمـام من الله ، وإن كانت في أعمالها ظالمة مسيئة». [3]

وعن ابن أبي يعفـــور قـــال الامـــام الصـــادق (عليه السّلام): لا دين لمن

---

(1) المصدر / ص (118).
(2) المصدر / ص (105).
(3) المصدر / ص (113).

دان بولاية إمـــام جـــائر ليس من الله ، ولا عتب على من دان بولاية إمام عدل من الله ، قال : قلت : لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء؟ فقـال : نعم ، لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء ، ثم قال : أما تسـمع لقـول الله : «**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُـــوا يُخْـــرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمـــاتِ إِلَى النُّورِ**» يخــرجهم من ظلمـات الـذنوب الى نـور التوبة والمغفـرة لولايتهم كل إمام عادل من الله وقــال : «**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيـــــاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُـــــونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ**» قـال : قلت : أليس الله عـنى بها الكفـار حين قال : «**وَالَّذِينَ كَفَرُوا**»؟ قال : فقـال : وأي نـور للكـافر وهو كافر فـأخرج منه الى الظلمـات؟ انما عـني الله بهـذا انهم كانوا على نور الإسلام فلما أن تولـوا كل امـام جـائر ليس من الله ، خرجوا بولايتهم إياهم من نور الإسـلام الى ظلمــات الكفر فــأوجب لهم النــار مع الكفــار ، فقــال : «**أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**». [1]

[34] هل لهؤلاء الذين كفـروا بالرسـالة ومضـوا على كفرهم من توبة؟ كلا ..

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

ويبدو ان أعظم الصدّ هو منع الناس عن الجهـاد ، ولو بإصدار الفتاوى السلطانية التي تـزور الحقـائق ، وتحـرف الآيات وتبرر الواقع الفاسد.

(**ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**)

بلى. إن هؤلاء الذين يصدّون عن سبيل الله يزعمــون انهم سوف يتوبون الى الله ، كما انهم يستخفون بـذنوبهم ، أو انهم يحسبون أنهم مهتدون.

---

(1) المصدر / ص (104).

[35] إن صـــــلابة الجبهة الداخلية شـــــرط أساسي للانتصار ، وينعطف السياق نحو المؤمنين فيـأمرهم ــ بعد الطاعة ـ بمقاومة إغراءات السلام ، بعد تراكم الصـعوبات ، ذلك السلام الذي يعني الاستسلام والصغار.

(**فَلا تَهِنُوا**)

لا تخشو الهزيمة ، ولا تهــابوا العــدو وإن كــان أكــثر منكم عدة وعددا.

(**وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ**)

فلا تكونـوا أول من يـدعوا الى الصـلح من الفـريقين المتحاربين ، خشية الموت والهزيمة.

(**وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ**)

فما دمتم مؤمنين ، فأنتم الأعلون بقيامكم وقـدراتكم ، لأن الايمـان بصـيرة وقـوة ، بصـيرة لما يـوفره فينا من منهجية عقلية ، ورؤية حياتية ، وقــوة بما يلهمه من عــزم في الارادة ، وتلاحم في الصــفوف ، ووله في الشــهادة ، واستقامة وصبر في المكاره.

والسؤال : أي صلح هذا الذي نهى عنه القـرآن ، بينما يقـول ربنا سـبحانه : «**وَإِنْ جَنَحُـوا لِلسَّـلْمِ فَـاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**»؟ فهل هذه ناسخة أم تلك؟

يبدو ان هذه الآية نهت عن الدعوة الى الصلح القــائم على أسـاس الـوهن ، لأنها تسـتتبع الـذل والهزيمة ، وهي بالتالي استسلام للعدو .. بينما أمرت الآية الأخـرى بقبـول الصلح الذي يدعو اليه العـدو لـوهن أصـابه وضـعف ، وكلا الأمـرين يخـدمان بالتـالي القيم الرسـالية .. ففي الـوقت الذي يكون الصـلح لمصـلحة الإسـلام وقوته وغلبته وتـأتي الـــدعوة اليه من العـــدو لا بد من قبوله ، بينما لا ينبغي المبادرة من قبل

المسلمين الى الدعوة اليه انطلاقا من الاحساس بـالوهن والضعف. ولذلك جاء في الحديث المأثور عن الامام أمـير المؤمنين (عليه السلام) في عهده لمالك الأشتر انه قال : «**ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضا**». [1]

(**وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ**)

قالوا : معناه لن يؤدكم من دون أعمالكم ، لأن الـوتر بمعنى الإفـراد ، وإنما سـمي الـذي قتل منه أحد موتـور ، لأنه بقي مفردا من دونه. وهكـذا ضـمن الله حفظ أعمـال المؤمـنين ، كما أوعد الكفـار بحبط أعمـالهم ، فكلّما بذله المسلمون في طريق تقـدم الرسـالة يحفظه الله ويجعله مفيدا.

ينبغي إذا ألّا نسـتعجل النتـائج ، وأن نصـبر في المواجهة ، حتى يـأتي النصـر. ولنعلم ان النصر آت ، وكل آت قـريب ، وقد لا نـراه نحن وإنما يقطف ثمـاره أبناؤنـا. وزينب بنت علي (عليهما السلام) ضربت أروع الأمثلة في التحلي بهذه البصيرة ، فلقد كانت تتذكر حين شدة البلاء ، وتـراكم المصـائب والآلام ، هـذه الحقيقة إن الله لا يضـيع جهـود المجاهـدين. فلقد ألقت نظـرة على مصـارع إخوتها وأبنائها وأصحاب الرسالة ، وقالت مخاطبة الامام علي بن الحسـين (عليهما السـلام) ابن أخيها : «مـالي أراك تجـود بنفسك يا بقية جـدي وإخـوتي ، فو الله إن هـذا لعهد من الله الى جـدك وأبيك ، ولقد أخذ الله ميثـاق أنـاس لا تعـرفهم فراعنة هـذه الأرض ، وهم معروفـون في أهل السـموات ، انهم يجمعـون هـذه الأعضـاء المقطعة ، والجسـوم المضـرجة ، فيوارونها ، وينصـبون بهـذا الطف علما لقبر أبيك سيد الشهداء ، لا يـدرس أثـره ، ولا يمحى رسمه على كـرور الليـالي والأيـام ، وليجتهـدن أئمة الكفر وأشـياع الضـلال في محـوه وطمسه ، فلا يـزداد أثـره الا علوا» [2] وكذلك حين خاطبت يزيد الحاكم

(1) تفسير نمونه نقلا عن نهج البلاغة الرسالة رقم (53).
(2) كامل الزيارات : ص (261).

الأمــوي الــذي قتل ذرية رســول الله فقــالت له : «ولئن اتخــذتنا مغنما لتجــدنا وشــيكا مغرما ، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك .. فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهــدك ، فو الله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا يرخص عنك عارها». [1]

هكذا كـانت (ع) تنظر الى آفـاق المسـتقبل البعيـدة ، دون أن تأسرها مصاعب اللحظـات الراهنة الآنية ، وهكـذا كان جميع حملة الرسالة عبر التاريخ ، ينظرون الى الآفاق البعيدة ، فكـانوا يتحملـون تلك المصـائب الرهيبة الـتي لو أنزلت على جبل لهدّته هدّا! بلى. بالايمان بأن الله معهم ، وانه لا يضيع أعمالهم الصـالحة ، ويحفظ جميع جهـودهم ، ويباركها وينميها وانه يكيد الكـــافرين ، ويحبط أعمـــالهم ويبطلها ، وان العاقبة للمتقين ، بكل ذلك كان المجاهدون على امتداد التاريخ يتحدون الصعاب.

[36] ونتســاءل : لمــاذا تخــور عــزائم البعض في مواجهة أعداء الدين؟ لماذا يستحوذ عليهم الوهن ويدعون الى السلم؟

إن السبب هو حب الدنيا ، ولذلك يحذرنا الـرب منها ، ويبين لنا القيمة الحقيقية لها فيقول :

(**إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**)

وإذا انتزعنا حب الــدنيا من قلوبنا ، فســوف نتســلح بالشــجاعة الكافية لمواجهة الأعــداء ، كما نســتعد لاقتلاع جــذور ســائر الأمــراض القلبية الــتي تحــدثت عنها هــذه الســورة المباركة كالنفــاق والحسد والكــبر ، لأن «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**» ـ كما في حديث مأثور ـ.

(1) مقتل الخوارزمي / ج (2) ـ ص (64).

وإذا جــردت حياتنا في الــدنيا من هــدفها المتعــالي المتمثل في بلوغ الجنة والرضوان ، فهل يبقى فيها هـدف معقـول؟ كلا .. ومـاذا نتصـوره من هـدف حكيم للطعـام والشـراب لو تفكرنا فيه ليس سـوى لـذة عـابرة ، وقـوة تتبدد ، ودورات قصـيرة لا تنتهي من واحـدة حـتى نقع في الثانية ، واللعب هو السعي الـذي يهـدف غاية غـير حكيمة (خيالية) ، واللهو هو السعي الـذي لا هـدف له أبـدا .. وما الـدنيا إلا لعب ولهو لأن ما فيها يـزول ، لو لا ما نبقي منها لحياتنا الحقيقية في الآخرة ، وهو الذي يشير اليه السـياق :

(**وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ**)

في الدنيا كرامة وسـعادة وعـزا ، وفي الآخـرة جنـات النعيم.

(**وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ**)

قـالوا : معـنى ذلك انه سـبحانه لا يطلب منكم أجـرا بــإزاء هــدايتكم ، ولعل معنــاه انه ســبحانه يعــترف لكم بالملكية ، ولا يسلبكم الأموال بصـورة كاملة دون إكـراه ، بل بــالترغيب وهــذا لا ينــافي الأمر بالإنفــاق لما فيه من فوائد عظيمة لكم ، لأنه دليل واقعي على انتمــاء الفــرد لمجتمع الايمان والفضيلة ، كما انه سـيجعل النفـوس نقية صــافية طــاهرة ، وســيجعل المجتمع متماســكا ملتحما ويسير بسرعة أكبر نحو التقدم.

[37] ومن حكمة ربّنا ورحمته بنا انه لم يأمرنا بإنفاق جميع أموالنا ، وإلا لم يكن يتمسك بعــــروة الإســـلام إلا القليل من الناس.

(**إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ**)

يجهدكم في المسألة من الإحفاء بمعـنى الإصـرار في المسألة.

(**تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ**)

ولكنه جعل دينه سـهلا لينتمى اليه أكـبر عـدد من الناس ، وإذا كان صعبا ويأمر بإنفاق كل المال كـان يظهر البخل الذي تنطوي عليه أغلب النفوس.

[38] وبـالرغم من ان الله لم يأمرنا بإنفـاق جميع الأموال ، ترى البعض يبخلـون ، كما بخلـوا بأنفسـهم حين أمروا بالقتال.

(**ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُـدْعَوْنَ لِتُنْفِقُـوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ**)

لأنهم لم يعلمـوا أنفسـهم على البـذل والعطـاء والتضحية ، وجذبهم حب الدنيا وأوثقهم بوثائقه ، وبالتـالي تصوروا ان الإنفاق مغرم ، بينما هو مغنم كبير.

(**وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ**)

لأنه لو أنفق شـيئا لـردّ اليه أضـعافا مضـاعفة ، وحـاز على رضوان الله الأكبر. وأي خسارة كهذه الخسـارة ، أن يحـرم الإنسـان ثـواب ربه ورضـاه؟! ولا يـدل أمر الله بالإنفـاق على حاجته الى ما نملك ، تعـالى عن ذلك علـوا كبيرا.

(**وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ**)

ولأننا فقـراء يجب علينا أن ننفق حـتى يغنينا من فضله.

(**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمـاً غَيْـرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُـوا أَمْثالَكُمْ**)

فإذا بخلت أمة عن العطاء ، فان الربّ يسـتبدلها بأمة خـيرا منها ، تنفق من أموالها ، وتجاهد في سـبيل الله ، وتقدم التضحيات تلو التضحيات ، وتصبر وتستقيم.

إن توفيق حمل الرســالات الالهية شــرف عظيم لا يعطيه الله إلا لمن استعد لدفع ثمنه ، وثمنه خوض القتال والإنفاق ، فاذا ضعفت أمة عنها قيّض الله لها أمّة أخـرى! وحــول هــذا المقطع من الآية جــاءت رواية ذكرها أغلب المفسرين وبطرق عديـدة : عن أبي هريـرة إن أناسا من أصحاب رسول الله (ص) قالوا : يا رسـول الله من هـؤلاء الذين ذكر الله في كتابه؟ وكان سـلمان الى جنب رسـول الله (ص) فضـرب (ص) يـده على فخذ سـلمان فقـال : «**هـذا وقومه ، والـذي نفسي بيـده لو كـان الايمـان منوطا بالثريّا لتناوله رجال من فـارس**» [1] وجـاء في رواية أخــرى عن الامــام الصــادق (عليه الســلام) قــال : «**والله أبدل بهم خيرا منهم الموالي**» [2] والواقع : إن التاريخ يشهد ان رسالة الإسلام حملها بعد العرب شـعوب أخرى كالبرابرة والفرس والأتراك ، وإذا خذلها المسلمون اليــــوم فقد يقيض الله لها من أقصى الأرض من يحملها ويؤدي حقها ثم لا يكونوا أمثال المسلمين.

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (46).
(2) تفسير نمونه نقلا عن مجمع البيان / ج (9) ـ ص (108)

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الامام ابو عبد الله الصادق (ع): حصنوا أمــوالكم ونسائكم وما ملكت أيمـانكم من التلف بقـراءة «إنا فتحنا لـك» فانه إذا كـان ممن يـدمن قراءتها نـادى منـاد يــوم القيامة حتى تسمع الخلائق : أنت من عبادي المخلصـين ، الحقـوه بالصـالحين من عبـادي ، وأدخلـوه جنـات النعيم ، واسقوه من الرحيق المختوم بمزاج الكافور.

تفسير نور الثقلين ج 5 ص 46 ـ 47

الإطار العام

لقد كان صلحا صاخبا ذلك الذي رجع المسلمون به من مكة بعد أن تمنوا دخولها منتصرين أو لا أقل آمنين ، والصلح مع مشركي قريش واحد من أهم أحداث السيرة النبوية إثارة للجدل .. إذ كيف يمكن للمؤمنين الذين امتلأت نفوسهم غضبا على الكفار وسوقا إلى القتال معهم ، وشوقا إلى الشهادة أن يصالحوا عدو كافر ظالم؟

ولعل نزول سورة كاملة في هذا الموضوع وتسميتها باسم الفتح دليل على حساسية معالجة موضوع الصلح ، ومن زوايا عديدة.

أولا : إن الصلح لا يعني تسليما ، ولا ضعفا ، ولا تنازلا عن الأهداف الاستراتيجية للامة.

ثانيا : لا يعني الصلح تغليب رأي المنافقين الداعين إلى الصلح أو التهاون بالتعبئة العسكرية.

ثالثا : الصـلح أو الحـرب رهين أوامر القيـادة ، والامة المتمسكة بحبل قيادتها الالهية لن تهزم لا في الحــرب ولا في الصلح.

ولعل هــذه الزوايا هي مجمل محــاور هــذه الســورة الكريمة التي وصفت الصــلح بأنه فتح مــبين ، وأن الله قد غفر لنبيه ما تقــدم وما تــأخر مما اعتبرها الأعــداء ذنوبا ، وأنه هداه الى الصراط المستقيم الـذي يـؤدي إلى أهدافه السامية والتي منها النصر العزيز.

وبعد هذه البراعة في افتتاح السورة (1) نجد القــرآن يمدح المؤمنين ، الذين أطاعوا الرســول في الصــلح بمثل طاعتهم له في الحرب ، ويجعل ذلك وسيلة للنصر ، حيث أنه سبحانه أنزل سـكينته في قلـوب المؤمـنين .. وعلمـوا أنهم لمنصورون ما داموا قد انتظموا في ســلك جند الله ، الذي له جنود السماوات والأرض ، وأنهم ينتظـرون جنـات تجري من تحتها الأنهار.

أمّا المنافقون الذين خالفوا الرسول في السـلم بمثل مخـالفتهم له في الحـرب فـان الله يعـذبهم ، لأنهم ظنــوا بالله ظن السوء ـ وأنه لا ينصرهم ــ فـدارت عليهم دائـرة الســوء أنى اتجهــوا وجــدوا ســوءا ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم.

إذا محــور المجتمع الاســلامي هو الرســول الــذي لو نصــحوا له أطــاعوه مخلصــين ســعدوا به ، لأن الله قد أرسله شـاهدا ومبشـرا ونـذيرا ، وجعله محـورا لحيـاتهم ، ليؤمنوا بالله ورسوله ويعـزروه ويـوقروه .. ويعظمـوا الله بتعظيم رسوله. ذلك ان يد الرسـول هي يد الله ، ويد الله فوق أيديهم.

وينعطف السياق على المنـافقين الـذين أرادوا انتهـاز فرصة الصــلح ليطعنــوا في مصــداقية الرســالة ويقــول : سيقول الاعـراب الـذين تخلفـوا عن الرسـول في خروجه إلى مكة شــغلتنا أموالنا وأهلونا ، ويريــدون العــودة إلى صفوف الرسالة بعد أن أبعدوا

عنها بتخلفهم ، ولكن الله يفضح مكـــــرهم وأنهم كـــــانوا يرجون ألّا يعود الرسول إليهم ، وظنوا ظن السوء فكـانوا قوما بورا ـ هالكين ـ.

والآن حيث صعد نجم المسـلمين وطوّعـوا أكـبر قـوة في الجزيرة ـ قريش ـ حتى اعـترفت بهم كقـوة سياسـية مناوئة ، يريد الانتهـازيون الالتحـاق بـركب الرسـالة طمعا في المغـانم ، وهـذه من مشـاكل الصـلح دائمـا. ورفض الإسلام عودتهم إلّا إذا استعدوا للجهـاد إذا دعـوا اليه مـرة أخرى ، فيومئذ إن أطـاعوا يـؤتيهم الله أجـرا حسـنا ، وإن تولوا ـ كما في السابق ـ يعذبهم الله عذابا أليما.

وبعد أن اســتثنى الســياق من هــذا الحكم المرضى والمعـوقين عـاد وأثـنى على المؤمـنين الـذين بجهـودهم حصل المســلمون على هــذا الصــلح حيث أنهم بـــايعوا الرسول على القتال تحت شجرة كانت هنالك فرضي الله عنهم ، وأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم ـ في الـدنيا ـ فتحا قريبا متمثلا في مكاسب صــلح الحديبية ، ثم فتح مكـــة. ويعدد الله مكاسب المؤمنين بما يلي : صـلح الحديبية كما أنه صدّ أذى الناس عنهم ، وجعل ذلك آية ، وعبرة تاريخية يستفيد منها المؤمنون.

وكان نصر المؤمـنين على اقتـدار ، وليس عن ضـعف أو ذل ومهانة ، فلو قاتلهم الذين كفروا عند مداخل الحرم المكي لولّوا الأدبار وهذه سنة الله التي لا تتبـدل ، ولو أن الله أراد لشب القتـال وانهـزم الكفـار ، ولكن لحكمة كف الأيـدي عن الحـرب ببطن مكـة. وكـانت قـريش تسـتحق القتال ، فقد صدوهم عن المسجد الحرام ، أما حكمة كف الأيــدي فلأنه كـانت طوائف من المؤمـنين متـداخلين مع قريش يعملون بالتقاة.

قتال المؤمنين لا ينبعث من العصـبية بل من مصـلحة الرسالة لـذلك فهو يـدور على محـور المصـلحة الايمانية ، بينما قتال الكفار ينطلق من منطلق العصبيات الجاهلية ،

ولذلك فهم لا يبلغون أهدافهم به.

فقلــوب الكفــار مليئة بالحمية الجاهلية ، بينما تعتمر أفئــدة المؤمــنين بالســكينة الايمانية ، لأنهم قد الــتزموا بكلمة التقوى.

هذا وقد تـبين صـدق الرؤيا الـتي رآها الرسـول ، بأنه يدخل المسـجد الحـرام هو والمؤمـنين بـالحق ، بلا خـوف فجعل قبله فتحا قريبــا. أما الهـــدف الأبعد فهو أن يظهر الدين الاسلامي على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي خاتمة الســورة يــبين القــرآن صـفات أصـحاب الرسول الـذين اتبعـوا الرسـول في سـاعة العسـرة ، في السـلم كما في الحـرب ، ويـبين أن كل فضـائلهم آتية من علاقتهم بعبـادة ربهم ، والتبتل إليه ، لـذلك تـراهم أشـداء على الكفــار رحمــاء بينهم ، يبحثــون عن رضــوان ربهم سيماهم في وجوههم من أثر السجود ..

وبهـذا تحيط الســورة بكل زوايا الصـلح مع قــريش ، وتعــالج المشــاكل الجانبية الــتي قد تنشأ من أي صــلح محتمل مع عدو كافر.

سورة الفتح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (2) وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ

بِاللـهِ ظَنَّ السَّـوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّـوْءِ وَغَضِـبَ اللـهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسـاءَتْ مَصِـيراً (6) وَلِلَّهِ جُنُـودُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَكـانَ اللـهُ عَزِيـزاً حَكِيماً (7)

---

(6) (**عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ**) : دائر عليهم وحـائق بهم ، وسـميت دائـرة من دوران الفلك فقد دارت دائـــرة ســـيّئة بالنســـبة إليهم ، وقوله «عليهم» إمّا إخبار أو دعاء عليهم.

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً

هدى من الآيات :

بـــالرغم من أنّ الله ينجز وعـــده لعبـــاده المؤمـــنين فينصرهم على أعدائهم ، وبالرغم من أنّهم ينتظـرون فتحا قريبا ونصـــرا عـــاجلا ، إلّا أنّه قد يتـــأخر عنهم ، لمصـــلحة يعلمها الله ، فلربما لو جاءهم النصر عاجلا منع عنهم فتحا كبـيرا لمّا تتهيّأ أسـبابه ، فهـذا رسـول الله (ص) يـرى في منامه ، ويخبر المؤمنين أنّه سوف يدخل المسجد الحـــرام آمنا ، ثم يقودهم حاجا الى بيت الله ، فيجد المشركين قد اســـتعدوا لحربه أو صـــدّه عنه ، فلم تتحقّق رؤيـــاه في الظـــاهر ، ولكنّه (ص) دخله فاتحا في الســـنين اللاحقة ، بسبب ذلك الصلح الذي أبرمه في تلك السنة.

المسلمون من جهتهم فهمــوا رؤيا الرســول على أنّها تؤكّد دخـــول مكة في تلك الســـنة ، ولكنّه (ص) مع علمه بالواقع جعلها غامضة ، فلم يبيّن لهم بـأنّ النصر لا يـأتيهم في ذلك العام ، لأنّه لو أخبرهم ربما تقاعسوا عن الجهاد ، وإذ لم يخـــبرهم الرســـول بواقع الأمر ســـارعوا نحو مكة يحدوهم أمل الانتصار ، وانتهى الأمر بهم الى

صلح الحديبية الـذي كـان تمهيـدا لفتح مكّة المكرمة ، ولو أنّ المســلمين دخلــوا المســجد الحــرام في ذلك العــام فلربما فــاتهم فتحها ، وبالتــالي فتح الجزيـــرة العربية ، وانتشار الإسلام في الأرض.

إنّ الهدف القريب الذي توخّـاه المسـلمون بعد إخبـار الرســول لهم برؤيــاه هو دخــول مكة ، ولم يشأ الله أن يتحقّق ذلك تمهيـدا لتحقيق الهـدف الأكـبر وهو فتح مكة ، والعبرة من ذلك أن لا يستعجل المسلمون للنتـائج ، وإنّما ينبغي الانتظار ريثما تنضج الظروف.

بينات من الآيات :

[1] (**إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**)

ماذا تعني كلمة الفتح في هذه الآية؟

قال بعض المفسرين : إنّ الآية وإن كانت نــزلت قبل فتح مكة إلّا أنّها تعنيه وتؤكّده وتبشّر المؤمـنين به ، وقـال آخرون : إنّها تنصرف الى فتح خيـبر ، ولكنّ الآية تـدلّ كما يبـدو على الفتح السياسي والثقـافي لمكة والـذي سـبق فتحها العسكري ، وقد تجسّد ذلك في صلح الحديبية الذي مهّد لفتحها عســكريّا ، ومنه انطلق انتصــار الإســلام وانتشاره في الجزيرة العربية ، ذلك لأنّ أيّ حركة ناشئة ـ وبالذات تلك التي تعاكس أفكار المجتمع وعاداته ـ تسـعى نحو اكتساب الاعتراف من المجتمع المحيط حـتى تتحـرك بحرية في التوســعة والانطلاق ، وحركة الإســلام ـــ فيما يتعلّق بالجـانب الظـاهري منها وليس الغيـبي ــ كـانت في البــدء حركة ناشــزة عند المشــركين حيث كــان المجتمع الجـاهلي يعتـبرون المسـلمين صـابئة لأنّهم في نظـرهم متمـرّدون على العـادات والتقاليد ، فحـركتهم إذن حركة خارجة عن الشرعية.

والسؤال : متى تمّ الاعتراف بحركة الرسول في ذلك المجتمع؟

لقد تمّ ذلك في صـــلح الحديبية ، حيث اعـــترفت من خلاله قريش الـتي كـانت سـيدة على مكة وسـائر العـرب بالرســول وأتباعه ورســالته كــأمر واقع ، وقد تأكّد هــذا الاعـتراف بوضـوح عند التوقيع على البند القائل : من أراد من القبائل الانضمام الى الرســول (ص) والتحـالف معه ، أو الانضمام الى قــريش والتحـالف معها فله ذلك .. وذلك يعــني أنّ هنــاك حكومتــان في الجزيــرة حكومة قــريش وحكومة الإسلام.

وفعلا تحــالفت طائفة من القبائل ـــ كخزاعة ـــ مع الرسول (ص) ، وبدأ الإسلام بالانتشار في ربوع الجزيرة ، ولعل الآثار الايجابية التي ترتبت على صلح الحديبية ـ ومن أهمّها تحالف القبائل العربية مع النبي الأعظم ــ هي الـتي يسمّيها القرآن بالفتح المبين.

فــالفتح المــبين ليس هو الفتح العســكري ، إنّما هو الفتح السياسي والثقافي الـذي حقّقه الرسـول في صـلح الحديبية ، وكان تمهيدا ومرتكزا للفتح العســكري فيما بعد ، حيث حصل بعد الصلح على حالة السـلام ، صـار يتحـرك بســرعة جــادة تحت مظلته لنشر الــدين ، قــال الامــام الصادق (ع): «فما انقضت تلك المدّة ـ يعني مدة الصلح ـ حتى كاد الإسلام يستولي على أهل مكة» [1].

ومن الطـــبيعي أنّ الحركة الثورية الناجحة تتقــوّى ، وتبــني نفســها في ظــروف الســلام ، وتســتعد لظــروف المواجهة ، وما دامت الحكومة (الواقعيــة) في الجزيــرة أوقفت حربها مع الحركة الرســالية بعد الصــلح ، تحــرّك المؤمنون بقيـادة الرسـول (ص) لنشر الإسـلام ، وصـاروا يقـوّون أنفسـهم في ظـروف الهدنة ، الى أن فتحـوا مكة عسكريّا بعد سنوات قليلة.

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 20 ص 363

[2 ـ 3] وكــان لهــذا الفتح معطيــات عظيمة ، من أبرزها غفران الله لرسوله الأكرم (ص) ما تقدّم وما تـأخر من الــذنب ، وإتمــام النعمة عليه ، وهدايته الى الصــراط الحق ، وقد اختلف المفســرون في بيــان معــنى الــذنب بالنســبة للرســول ، فمن قائل بــأنّ للرســول ذنوبا قبل الإســلام وبعــده غفرها الله له ، ومن قائل بأنّه كــانت له ذنــوب قبل الفتح وبعــده (فتح مكــة) فأعطــاه الله صك الأمان بغفران السابق واللاحق منها ، وقـالت جماعة بـأنّ الرسول لم يذنب وإنّما الغفران متوجه الى أمته باعتبارها أمّة مرحومة.

ويبدو أنّ كلمة الذنب لا تنصرف الى المعـنى الظـاهر منها وهو المعصية ، وإنّما تنصـرف الى ما كـان الكـافرون والمشــركون يعدّونه ذنبا ، إذ كـانت حركة الرســول (ص) بذاتها ذنبا في اعتقادهم ، لأنّها تمـرّد على الواقع القـائم ، فصار جزء من الواقع القـائم بعد الصـلح فـارتفع عنه ذلك التصوّر وغفر له ذنبه في نظرهم ، ولتقريب الفكـرة أكـثر نقول : إنّ موسى (ع) لم يكن في ذمته ذنب حينما قـال : «**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخـافُ أَنْ يَقْتُلُـونِ**» [1] وإنّما كـان ذلك وفق القانون الحاكم ، كذلك الرسول (ص) كان مذنبا حسب ذلك القانون حتى تغيّر القانون في صلح الحديبية ، حيث أنّ رسولنا الأكـرم (ص) كـان قد قتل منهم في بـدر وأحد والأحزاب ، وغنم أموالهم ، وأسر رجـالهم ، بل وغيّر أوضاعهم ، فهو كان عندهم مـذنبا ، وجـاء الصـلح ليطـوي هذه الصفحة من أذهان المشركين ، ويصـيّرهم في سـلام مع المسلمين.

أمّا أن يكون معنى الذنب هو ظـاهر الكلمة فـإنّ ذلك لا يليق بمقــام الأنبيــاء ، وبالــذات مقــام أعظمهم شــأنا وأرفعهم منزلة عند الله ، وحاشا لله أن يبعث رســــــولا يرتكب الــذنوب ، كما أنّه من الخطأ أيضا القـول بـأنّ الله أعطى الرسـول صك الغفـران ، إذ كيف يرفع المسـؤولية عن أحد بدون مبرّر؟ وهل بينه وبين أحد من

---

(1) الشعراء / 14

خلقه قرابة حتى يفعل ذلك؟ أو لم يقل في شأن رسوله (ص) : «**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ* لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ* فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ**» [1] .. بلى. هناك بعض الفرق الصوفية هي التي تعتقد بأنّ الإنسان يصل الى مستوى من العبودية والوعي بحيث ترفع عنه المسؤولية ، حتى قال قائل منهم لأتباعه : أنتم تجب عليكم الصلاة ، أمّا أنا فقد وصلت الى مقام فوق الصلاة!

إنّ الإسلام لا يرى نهاية للمسؤولية إلّا باليقين (الموت) ، وهذا هو القرآن يخاطب الرسول (ص) ـ مع أنّه انتهى الى غاية الكمال البشري ـ بأنّه يحتاج الى المزيد من الصلاة والتقرّب الى الله عزّ وجل : «**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً* وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً**» [2].

ويقول القرآن في هذه السورة :

(**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ**)

والغفران هنا من باب الوعد وليس الحتم والإلزام ، ولو كان كذلك لاقتضى الأمر تغيير الآية الكريمة : «**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ**» [3] ، والحال أنّه تعالى يأمر رسوله بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين من حوله ، وتناسب اللام هنا في هذه السورة والاستغفار لا مع الفتح ، لأنّ الفتح قضية سياسية فلا بد أن يكون الذنب هو الآخر ذنبا سياسيّا ، بينما لو اعتبرنا الذنب هنا شخصيّا بين العبد وربّه لظهرت اللام مبهمة.

---

(1) الحاقة / 44 ـ 47

(2) الإسراء / 78 ـ 79

(3) محمّد / 19

(وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)
بالفتح ، وبتكريس الإسلام في المجتمع.
(وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً)
قـال البعض : الصـراط المسـتقيم هو السـبيل الى تـدعيم أركـان الإسـلام ونشـره ، ولعلّنا نفهم من الآية والسـياق أنّ لكـلّ تطـوّر جديد في السـاحة السياسـية معطيـات سـلبية وإيجابية يخشى أن تحـرّف مسـيرة الإنسان ، فمع كلّ تطوّر ضغوط ، ومع كلّ ضغط احتمـال للانحـراف ، والله يعد نبيّه في هـذه الآية بـأن لا تـؤثر فيه تلك التطوّرات ، سواء كانت من نوع الضغوط والهـزائم ، أو الاغراءات والانتصارات ، وأن يبقى مستقيما على خـطّ الرسالة.
(وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً)
لعـلّ معـنى العزيز هنا الثـابت الـذي لا يغـالب ، وقد تجسّـد هـذا النصر في فتح مكة المكرمة ، حيث أنّ صـلح الحديبية كان تمهيدا لهذا النصر العزيز.
إذن فللفتح خمس نتائج رئيسية وهامة وهي :
أولا : غفـران ذنب الرسـول الـذي كـان يعتقـده المشـركون ، حيث انتهى بعد الصـلح الحصـار الاعلامي المطلق ، فتحول الرسول من حركة العصيان والتمرد الى الحركة الشرعية.
ثانيا : إتمام النعمة على الرسـول ، بـأن هيّأ ربّنا بهـذا الصـلح له الظـروف ليكـون أقـدر على نشر الـدين في المجتمع.

ثالثا : تصـفية العقبـات الـتي اعترضت طريق انتشـار الإسلام ، وبالتـالي دفع جـانب من الضـغوط الـتي يواجهها الرسول (ص) وأصحابه.

رابعا : تهيئة الظروف المناسبة للنصر العزيز.

[4] أمّا النتيجة الخامسة والـــتي يمكننا اعتبارها نعمة كبيرة بذاتها ، فهي بعث روح السكينة في روع المؤمنين ، فإذا بهم وهم بضع مئات يتحرّكون من المدينة باتجاه مكة التي يوجد فيها عشـرات الألـوف من أعـدائهم المـدججين بالسلاح ، ولو لا هذه السكينة لما تحرّك الجيش الاسلامي الى حدودها.

(**هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ السَّـكِينَةَ فِي قُلُـوبِ الْمُـؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ**)

وهل الايمـان يزيد وينقص؟ بلى. إذن فما هو الايمـان حتى يقبل الزيـادة والنقصـان؟ إنّه إقـرار بـالقلب ، وقـول باللسـان ، وعمل بـالحواس والجـوارح ، ومعـنى ذلك أنّ الإنسان بكلّ كيانه المادي والمعنوي قوة واحدة يسـلم لها بطوعه وإرادته وهي قـوة الله ، فليس بإيمـان ذلك الـذي يبقى في حـــــدود العلم والمعرفة ، دون أن يعكس على صاحبه سلوكا وعملا من جنسه في الحياة ، والقرآن يقول عن فرعــــــون وقومه حيث كفـــــروا بالآيـــــات : «**وَجَحَـدُوا بِها وَاسْـتَيْقَنَتْها أَنْفُسُـهُمْ ظُلْمـاً وَعُلُـوًّا فَـانْظُرْ كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الْمُفْسِـدِينَ**» [1] إذن فيقين القلب وحده لا ينفع من دون العمل الصالح.

إنّ مشركي قريش كانوا يعرفـون في داخل أنفسـهم صدق الرسـول وأمانته ، ولكنّهم لم يعـترفوا له بـذلك في واقع حياتهم ، بل خالفوه واتهموه بالكذب والسـحر ، بينما الايمـان الحقيقي هو المعرفة بـالقلب والعمل بـالجوارح ، ولذلك جاء في حديث

(1) النمل / 14

مفصّل عن الامام علي (ع) أنّ الإيمان موزّع على جـوارح الإنسـان ، لكـلّ جارحة منه ما يناسـبها من الايمـان [1] ، وبقـدر انحـراف أيّ جارحة عن التزاماتها يفقد البشر من إيمانه.

وعن الرسـولـ الأعظم (ص): من لقي الله كامل الايمان كان من أهل الجنة ، ومن كان مضـيّعا لشـيء ممّا فرضه الله تعالى في هذه الجوارح وتعـدّى ما أمـره الله ، وارتكب ما نهاه عنه ، لقي الله تعالى ناقص الايمان ، قال عـزّ وجل : «**وَإِذا ما أُنْـزِلَتْ سُـورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ أَيُّكُمْ زادَتْـهُ هـذِهِ إِيمانـاً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا فَـزادَتْهُمْ إِيمانـاً وَهُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ**» ، وقـال : «**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِـرَ اللـهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُـهُ زادَتْهُمْ إِيمانـاً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ**» ، وقـال سـبحانه : «**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُـوا بِـرَبِّهِمْ وَزِدْنـاهُمْ هُـدىً**» وقال : «**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ**» ، وقـال : «**هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ السَّـكِينَةَ فِي قُلُـوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ**» ، ويعلق الامـام علي (ع) على هذه الرواية فيقول : «فلو كان الايمان كلّه واحـدا لا زيـادة فيه ولا نقصـان ، لم يكن لأحد فضل على أحد ، ولتسـاوى النـاس ، فبتمـام الايمـان وكماله دخل المؤمنون الجنّة ، ونالوا الـدرجات فيها ، وبذهابه ونقصـانه دخل الآخرون النار» [2].

وربّنا فتح للمسـلمين مكة ، وأنـزل عليهم السـكينة ، لكي يكمل إيمـانهم أكـثر ، فيصـير اقتصـادهم واجتمـاعهم وحكمهم إيمانيّا ، وتصـبح سياسـتهم وشـوؤنهم العسـكرية مبنية على أساس الايمان.

(**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

---

(1) الرواية مفصلة وطويلة ، راجع بح / ج 93 ص 49 ـ 53

(2) بح / ج 93 ص 53

وهو ينصر المؤمــنين ، إمّا عن طريق تثــبيتهم وتقوية عــزائمهم بــانزال السـكينة في قلـوبهم ، وإمّا عن طريق جنود من عنـده مباشـرة كالملائكة والظـواهر الـتي تقـوم الملائكة بتدبيرها.

(**وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً**)

فهو لا ينصر المؤمـنين أو يبعث السـكينة في قلـوبهم ويزيـدهم إيمانا إلّا بحكمة بالغة ، ولو أنّهم لم يجاهـدوا لما حصلوا على كلّ ذلك.

[5] وهدف المؤمـنين من الانتصـار والفتح يجب أن لا يكــون إســقاط الحكم الفاسد واغتنــام الأنفــال ، أو أن يتحوّلـــــــوا من حركة إلهية الى حركة ثقافية مترفة ، أو حركة سياسـية متقلّبة ، إنّما الهـدف الأسـمى من ذلك هو دخولهم الجنة ، كما يقول تعالى :

(**لِيُـدْخِلَ الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ خالِــدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَــيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً**)

إذن فالهدف الأسـمى ليس النصر أو الفتح ، والقـرآن يعبّر عن هذه الفكـرة في سـورة الصف بصـيغة أخـرى إذ يقــول : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجـارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَــذابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُــونَ بِاللــهِ وَرَسُــولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِـأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ ذلِكُمْ خَيْــرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُــونَ* يَغْفِــرْ لَكُمْ ذُنُــوبَكُمْ وَيُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ وَمَسـاكِنَ طَيِّبَـةً فِي جَنَّاتِ عَـدْنٍ ذلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ* وَأُخْـرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**» [1].

[6] وكما أنّ جــــزاء المؤمـــــنين الحقيقي ليس هو انتصارهم على عدوّهم ، فإنّ

---

(1) الصف / 10 ـ 13

جـزاء أعـدائهم ليس سـقوطهم من سـدّة الحكم ، ولا ما يلقونه من العـذاب على أيـدي المؤمـنين وحسب ، وإنّما جزاؤهم الحقيقي عذاب الله الدائم في الآخرة.

(**يُعَـذِّبَ الْمُنـافِقِينَ وَالْمُنافِقـاتِ وَالْمُشْـرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظّانِّينَ بِاللـهِ ظَنَّ السَّـوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ**)

فهم محــاطون بالشر من كــلّ جــانب ، كما تحيط الدائرة بمركزها.

(**وَغَضِــبَ اللــهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً**)

[7] وفي خاتمة الـدرس يؤكّد ربّنا قوّته وحكمته الـتي يدبّر بها شؤون الخلق.

(**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَزِيــزاً حَكِيماً**)

وهـدف هـذا التأكيد على قـدرة الله بعث روح الأمل بالنصر والفتح في نفوس المؤمنين ، حيث يشعرهم الربّ بـأنّ جند الله الـذين لا يحصر عـددهم كالملائكة والسـنن الطبيعية و.. و.. كلّهم يقفون صفّا واحدا الى جـانبهم وهم يجاهـدون في سـبيله ، فهم على خلاف أعـدائهم الـذين يحوطهم الشرّ كالدائرة.

صلح الحديبية :

وقبل إنهاء الحديث في هذا الـدرس لا بـأس أن نقـرأ جانبا من قصة الصلح التي تنفع الأمّة الاسـلامية في بعض ظروفها ، فهي حينما تصـالح عـدوّها عن قـوّة ومنـاورة حكيمة فإن صلحها حينئذ سـيكون كصـلح الحديبية ، أمّا لو صالحت عن ضعف ، وكانت مكاسب العـدو منها أكـبر من مكاسبها من الصلح فإنّ ذلك استسلام لا يقبله الله.

جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الامام الصادق (عليه السلام) قال : كان سبب نزول هذه الآية وهذا الفتح العظيم أنّ الله جلّ وعزّ أمر رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلق مع المحلّقين ، فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا ، فلمّا نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة ، وساقوا البدن ، وساق رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ستة وستين بدنة ، وأشعرها عند إحرامه ، وأحرموا من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة ، وقد ساق من ساق منهم الهدي معرات مجلّلات ، فلما بلغ قريشا ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مأتي فارس كمينا يستقبل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فكان يعارضه على الجبال ، فلمّا كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذّن بلال فصلّى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالناس ، فقال خالد بن الوليد : لو كنّا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم ، فإنّهم لا يقطعون صلاتهم ، ولكن تجيء الآن لهم صلاة أخرى أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم ، فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم ، فنزل جبرئيل (عليه السلام) على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بصلاة الخوف في قوله عزّ وجل : «**وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ**» الآية ، فلمّا كان في اليوم الثاني نزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الحديبية وهي على طرف الحرم ، وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يستنفر الأعراب في طريقه ، فلم يتبعه أحد ، ويقولون : أيطمع محمد (صلّى الله عليه وآله) وأصحابه أن يدخل الحرم أو قد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم ، أنّه لا يرجع محمّد (صلّى الله عليه وآله) وأصحابه إلى المدينة أبدا.

ومن هذه الرواية نعرف بأنّ الأعراب لم يدخلوا الإسلام ، ولم يقبلوا دعوة الرسول (ص) قبل الصلح [1].

(1) الى هنا الرواية منقولة عن نور الثقلين / ج 5 ص 50

وفي رواية أخـرى قـال ابن عبّـاس : إنّ رسـول الله (ص) خــــــرج يريد مكّة ، فلمّا بلغ الحديبية وقفت ناقته ، وزجرها فلم تنزجز ، وبركت الناقة ، فقال أصحابه : خلأت الناقة ، فقــال (ص) : ما هــذا لها عــادة ، ولكن حبســها حـابس الفيل ، ودعا عمر بن الخطـاب ليرسـله الى أهل مكة ليأذنوا له بأن يـدخل مكة ، ويحـلّ من عمرته ، وينحر هدية ، فقال : يا رسول الله مالي بها حميم ، وإنّي أخـاف قريشا لشدّة عداوتي إيّاها ، ولكن أدلّك على رجل هو أعز بها منّي : عثمان بن عفّان ، فقال : صدقت ، فدعا رسول الله (ص) عثمان فأرسله الى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب ، وإنّما جاء زائـرا لهـذا الـبيت ، معظّما لحرمته ، فاحتبسـته قـريش عنـدها ، فبلغ رسـول الله (ص) والمسلمين أنّ عثمان قد قتل [1] ، فقال (ص) : «لا نبرح حتى نناجز القوم» فدعا الناس الى البيعة ، فقام رسول الله (ص) الى الشجرة فاستند إليها ، وبايع النــاس على أن يقـاتلوا المشـركين ولا يفـرّوا ، قـال عبد الله بن مغفّل : كنت قائما على رأس رسول الله (ص) ذلك اليوم ، وبيــدي غصن من السّــمرة (شــجرة شــائكة تنبت في الأماكن الحارة) أذبّ عنه وهو يبـايع النـاس ، فلم يبـايعهم على الموت ، وإنّما بايعهم على أن لا يفرّوا [2] ، فبينما هم كـذلك إذ جـاءهم بـديل بن ورقـاء الخـزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله (ص) من أهل تهامة ، فقـال : إنّي تـركت كعب بن لـؤي وعـامر بن لـؤي ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ، فقـال رســـول الله (ص) : «إنّا لم نجئ لقتـــال أحد ، ولكنّا جئنا معتمـرين ، وإنّ قريشا قد نهكتهم الحـرب وأضـرّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مـدّة ويخلـوا بيـني وبين النـاس، وإن شـاؤوا أن يـدخلوا فيما دخل فيه النـاس فعلـوا ، وإلّا فقد جموا ، وإن أبوا فوا الذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سـالفتي ، أو لينفـذنّ الله تعـالى أمـره» ، (وهذا من الحكمة السياسية ولا ريب أنّ

---

(1) وعادة ما تنشر الشائعات في مثل هذه الظروف والأحداث.
(2) بح / ج 20 ص 329

بيعة الرسـول (ص) مع أصـحابه تحت الشـجرة قد أرهبت قريشا ، لأنّها كانت مظهرا للقوة ، ومناورة يرهبها الأعداء ، والتظاهر بـالقوة أمر مهم ، وبالـذات لمن يريد الصـلح ، لأنّ ذلك يجعله في موقع القــــوي المهــــاب على طاولة المفاوضات ، وفي سياسة اليوم تتكرر كلمة الردع النووي وهي مظهر لسياسة القوة).

فقال بـديل : سـأبلغهم ما تقـول ، فـانطلق حـتى أتى قريشا فقــال : إنّا قد جئنــاكم من عند هــذا الرجل ، وإنّه يقول كذا وكذا ، فقـام عـروة بن مسـعود الثقفي فقـال : إنّه قد عـــرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها ودعــوني آته ، فقــالوا : ائته ، فأتـاه فجعل يكلّم النـبي (ص) ، وقــال له رسول الله (ص) نحوا من قوله لبـديل ، فقـال عـروة عند ذلك : أي محمّد أرأيت إن استأصلت قومك ، هل سـمعت بأحد من العرب اجتاح أصـله قبلـك؟ وإن تكن الأخـرى فو الله إنّي لأرى وجوها وأرى أو باشا من النـــــاس خلقا أن يفـرّوا ويـدعوك ، فقــال له أبو بكر : أمصص بظر اللّات. أنحن نفـرّ عنه وندعـه؟ فقـال : من ذا ، قـالوا : أبو بكر ، قال : أما والـذي نفسي بيـده لـولا يد كـانت لك عنـدي لم أجزك بها لأجبتك ، قـال : وجعل يكلّم النـبي (ص) ، وكلّما كلّمه أخذ بلحيته ، والمغــيرة بن شــعبة قــائم على رأس النــبي (ص) ومعه الســيف وعليه المغفر ، فكلّما أهــوى عـروة بيـده الى لحية رسـول الله (ص) ضـرب يـده بنعل السيف ، وقال : أخّر يدك عن لحية رسـول الله (ص) قبل أن لا ترجع إليك ، فقــال : من هــذا؟ قــالوا : المغـيرة بن شعبة ، قال : أي غدر. أو لست أسعى في غدرتك؟ قال : وكــان المغــيرة صــحب قوما في الجاهلية ، فقتلهم وأخذ أمــوالهم ، ثم جــاء فأســلم ، فقــال النــبي (ص) : «أمّا الإسلام فقد قبلنا ، وأمّا المـال فإنّه مـال غـدر لا حاجة لنا فيه».

ثم إنّ عروة جعل يرمق صحابة النبي (ص) إذا أمرهم رسول الله (ص) ابتدروا أمره ، وإذا توضّـأ ثـاروا يقتتلـون على وضوئه ، وإذا تكلّموا أخفضوا أصواتهم عنده ، وما

يحـــدّون إليه النظر تعظيما له ، قـــال : فرجع عـــروة الى أصحابه وقال : أي قـوم! والله لقد وفـدت على الملـوك ، ووفـــدت على قيصر وكســـرى والنجاشي ، والله إن رأيت ملكا قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد محمّدا ، إذا أمرهم ابتـدروا أمـره ، وإذا توضّـأ كـادوا يقتتلـون على وضوئه ، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنـده ، وما يحـدّون إليه النظر تعظيما له ، وإنّه قد عـــرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها ، فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته ، فقـال : ائته ، فلمّا أشـرف عليهم قـال رسـول الله (ص): «هــذا فلان وهو من قوم يعظّمون البـدن فابعثوهـا» فبعثت له ، واستقبله القوم يلبّون ، فلمّا رأى ذلك قـال : سـبحان الله ما ينبغي لهـؤلاء أن يصـدّوا عن الـبيت ، فقـام رجل منهم يقـال له : مكـرز بن حفص فقـال : دعـوني آته : فقـالوا : ائته ، فلمّا أشـرف عليهم قـال النـبي (ص) : «هـذا مكـرز وهو رجل فـــاجر» ، فجعل يكلّم النـــبي (ص) فبينما هو يكلّمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقـال (ص) : قد سـهّل الله عليكم أمـــركم ، فقـــال : أكتب بيننا وبينك كتابا ، فـــدعا رسول الله (ص) عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام) فقـال له : «أكتب : بسم الله الـرّحمن الـرّحيم» فقـال سـهيل : أمّا الرحمن فو الله ما أدري ما هو ، ولكن أكتب : باسمك اللهم ، فقـــال المســـلمون : والله لا نكتبها إلّا بسم الله الـرّحمن الـرّحيم ، فقـال النـبي (ص) : «أكتب : باسـمك اللهم ، هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله (ص)» فقال سهيل : لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلنـــاك ، ولكن أكتب : محمّد بن عبد الله ، فقـــال النبي (ص) : إنّى لرسول الله وإن كذّبتموني ثم قال لعليّ (عليه السّـلام): «أمح : رسـول اللـه» فقـال : «يا رسـول الله إنّ يـدي لا تنطلق بمحو اسـمك من النبـوة» ، فأخـذه رســـول الله (ص) فمحـــاه ، ثم قـــال : «أكتب : هـــذا ما قاضى عليه محمّد بن عبد الله ســـــهيل بن عمـــــرو ، واصــطلحا على وضع الحــرب عن النــاس عشر ســنين ، يأمن فيهنّ النـاس ، ويكـفّ بعضـهم عن بعض ، وعلى أنّه من قدم مكة من أصحاب محمّد حاجّا أو معتمـرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ،

ومن قدم المدينة من قـريش مجتـازا الى مصر أو الشـام فهو آمن على دمه وماله ، فإنّ بيننا عيبة مكفوفة ، وانّه لا إسلال ولا إغلال ، وانّه من أحبّ أن يـدخل في عقد محمّد وعهـده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يـدخل في عقد قـريش وعهدهم دخل فيه» [1]

وفي رواية أخـرى : وكتبه عليّ بن أبي طـالب وشـهد على الكتاب المهاجرون والأنصار ثم قال رسول الله (ص) : يا علي إنّك أبيت أن تمحو اسـمي من النبـوة ، فو الـذي بعثني بـالحق نبيّا لتجيبنّ أبنـاءهم الى مثلها وأنت مضـيض مضـطهد (أي أنّك سـوف تتعـرّض لمثل هـذه الضـغوط ، وسـوف تتنـازل عن حقوقك وواجباتك الظاهرية ، ولكن لله) فلمّا كان يوم صفّين ، ورضوا بالحكمين ، كتب : هـذا ما اصـطلح عليه أمـير المؤمـنين عليّ بن أبي طـالب (ع) ومعاوية ابن أبي سـفيان ، فقـال عمـرو بن العـاص : لو عملنا أنّك أمير المؤمـنين ما حاربنـاك ، ولكن أكتب : هـذا ما اصـطلح عليه عليّ ابن أبي طـالب ومعاوية ابن أبي سفيان ، فقال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) : صـدق الله وصـدق رسـوله. أخـبرني رسـول الله (ص) بـذلك ثم كتب الكتاب [2]

وعن محمّد بن كعب قال : ثم رجع رسـول الله (ص) الى المدينة فجـاءه أبو بصـير (رجل من قـريش وهو مسلم) وهذا يبيّن أنّ الصـلح صـار سـببا لانتشـار الإسـلام بين النـاس ، وهنا فكـرة نسـتفيدها من عمـوم حـديث الحديبية وهي : إنّ الثـورة الحقيقيّة تسـتفيد من كـلّ الظـروف في سـبيل تقـدّمها ، لأنّها تعتمد على جـوهر التقدّم ، وهو إرادة الإنسان وتصـميمه على الحركة ، فمن ظروف السلم تستفيد خطّة لبناء كوادرها وتـرتيب أوراقها ، ومن ظروف الحرب تستفيد خطّة لنشر أفكارها

---

(1) بح ، ج 31 ص 334

(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 53

والاعلام الجماهيري المركّز ، فإذا ما استشهد أحد أبنائها في الحرب رفعته علما في كلّ أفق ، وإذا بقي حيّا استفادت من كلّ أبعاد وجوده.

وحيث وقّع رسولنا الأكرم (ص) مع قريش بنود الصلح التزم بها لكي يستفيد من فترة السلم بينه وبينهم في بناء حركته وإعدادها إعدادا قويّا لمواجهة المتغيّرات والظروف المختلفة ، لهذا كان يرفض أيّ عمل أو قرار ينتهي الى إشعال الحرب ، لأنّه يخسره مكتسبات ظروف السلم ، وحيث سمعت قريش عن رجل يسمّى أبو بصير لحق بالنبي (ص) أرسلت في طلبه رجلين ، فقالوا للرسول (ص):

العهد الذي جعلت لنا؟ فدفعه الى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين ، إنّي لأرى سيفك هذا جيّدا ، فاستلّه وقال : أجل إنّه لجيّد وجرّبت به ثمّ جرّبت ، فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه؟ فأمكنه منه فضربه به حتى برد ، وفرّ الآخر حتى بلغ المدينة فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله (ص) حين رآه : «لقد رأى هذا ذعرا» فلما انتهى النبي (ص) قال : قتل والله صاحبي وإنّي لمقتول ، قال : فجاء أبو بصير فقال : يا نبيّ الله! قد أوفى الله ذمّتك ، ورددتني إليهم ، ثمّ أنجاني الله منهم ، فقال النبي (ص) : «ويل أمّه مسعر حرب لو كان له أحد» فلمّا سمع ذلك عرف أنّه سيردّه إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وانفلت منهم ابو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلّا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت عليه عصابة ، قال : فو الله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت الى الشام إلّا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش الى النبي (ص) تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن ، فأرسل (ص) إليهم فأتوه [1]

(1) بح / ج 20 ص 335

وفي تفسير القمّي : وقال رسول الله (ص) لأصـحابه (بعد كتابة الصـلح): انحـروا بـدنكم ، واحلقـوا رؤوسـكم ، فـامتنعوا وقـالوا : كيف ننحر ونحلق ولم نطف بـالبيت ، ولم نسع بين الصـفا والمـروة؟ فـاعتمّ لـذلك رسـول الله (ص) وشـكا ذلك الى أمّ سـلمة ، فقـالت : يا رسـول الله انحر أنت واحلق ، فنحر رســول الله (ص) فحلق ، فنحر القـوم على حيث يقين وشك وارتيـاب (وهنا تتـبيّن فكـرة مهمّة وهي : إنّ القيــادة حينما تقــول وتعمل بما تقــول يكون قرارها أمضى أثرا فيمن حولها).

وحيث رجع المسلمون الى المدينة قـالوا : هـذا ليس بفتح ، لأنّهم حسـبوا الفتح هو النصر الـذي يـأتي بالقتـال ، ويكون فيه الأسر وأخذ الغنائم ، ولم يكونوا يعرفون أبعـاد الفتح الحقيقية ، أمّا الرسول (ص) فهو يعـرف كـلّ ذلك ، وبمجرّد أن سمع هذا الكلام جمع أصحابه وأكّد لهم بأنّ ما حدث هو أعظم الفتح ، فقال : «لقد رضي المشركون أن يــدفعوكم بــالراح عن بلادهم» وهــذه مرحلة من مراحل الفتح ، أنّ العدو يعترف بالمسلمين ، «ويسألوكم القضـية ، ويرغبـون إليكم في الإيـاب» أي أنّهم اعـترفوا بكم كنـدّ لهم «وقد كرهــوا منكم ما كرهــوا ، وقد أظفــركم الله عليهم ، فـردّكم سـالمين غـانمين مـأجورين ، فهـذا أعظم الفتح» ثم ذكّـرهم بالماضي وقـال : «أنسـيتم يـوم أحد إذ تصعدون ولا تلـوون على أحد وأنا أدعـوكم في أخـراكم؟! أنسيتم يوم الأحـزاب إذ جـاؤوكم من فـوقكم ومن أسـفل منكم ، وإذ زاغت الأبصــار ، وبلغت القلــوب الحنــاجر ، وتظنّون بالله الظنونا؟! قالوا : صـدق الله ورسـوله ، وهو أعظم الفتوح ، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكـرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منّا ، فأنزل الله سورة الفتح» [1]

وجـاء في عيـون الأخبـار بإسـناده الى عليّ بن محمد بن الجهم قـال : حضـرت مجلس المـأمون وعنـده الامـام الرضا ، فقــال المــأمون : يا ابن رســول اللــه! أليس من قولك

(1) تفسير القمي عند الاية (**إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**)

أنّ الأنبياء معصـومون؟ قـال : بلى ، قـال : فـأخبرني عن قول الله تعالى : «**لِيَغْفِرَ لَـكَ اللـهُ ما تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِـكَ وَما تَـأَخَّرَ**» قـال الرضا (عليه السّـلام) : لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنبا من رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) لأنّهم كـانوا يعبـدون من دون الله ثلاثمـأة وسـتين صـنما فلما جـاءهم بالـدعوة الى كلمة الإخلاص كـبر ذلك عليهم وعظم وقـالوا :

(**أَجَعَـلَ الْآلِهَـةَ إِلهـاً واحِـداً إِنَّ هـذا لَشَـيْءٌ عُجـابٌ* وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْـبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ* ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هـذا إِلَّا اخْتِلاقٌ**) فلما فتح الله تعـالى على نبيّه (ص) مكة ، قـال له : يا محمد «**إِنَّا فَتَحْنا لَـكَ فَتْحـاً مُبِينـاً لِيَغْفِـرَ لَـكَ اللـهُ ما تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِـكَ وَما تَـأَخَّرَ**» عند مشركي أهل مكة بدعائك توحيد الله فيما تقدّم وما تـأخّر ، لأنّ مشركي مكة أسلم بعضهم ، وخرج بعضهم عن مكة ، ومن بقي منهم لم يقـدر على إنكـار التوحيد إذا دعا الناس اليه ، فصار ذنبه عنـدهم في ذلك مغفـورا بظهـوره عليهم فقال المأمون : لله درّك يا أبا الحسن [1]

---

(1) نور الثقلين ـ ج 5 / ص 56

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (10) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ

---

(9) (**تُعَزِّرُوهُ**) : تقوّوه بالنصرة وذلك بتقوية دينه ونصرة أحكامه.
(10) (**نَكَثَ**) : نقض البيعة.

خَبِــــيراً (11) بَـــلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُــــولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِـكَ فِي قُلُـوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمـاً بُـوراً (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُـولِهِ فَإِنَّا أَعْتَـدْنا لِلْكـافِرِينَ سَـعِيراً (13) وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشـاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (14)

---

(12) (**بُوراً**) : جمع بائرة أي هالكين.

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً

هدى من الآيات :

بعد تناول القرآن موضوع الفتح المـبين وما تـابع ذلك من حقائق اجتماعية أظهرها الوضع الجديد يحدّثنا ربّنا عن موقع الرســـول (ص) بين المســـلمين ، كـــأهمّ عـــبرة تستفيدها الأمّة من هذه الظـاهرة الـتي لم يعـرف النـاس أبعادها لو لا أنّ الرســـــول بحكمته وحزمه تعامل معها ، واكتسب لهم ثمــــرات الفتح المــــبين. فهو (ص) لا يمثّل شخصه ، وإنّما يمثّل رســـالته وربّه ، ومن ثمّ فـــإنّ بيعته والخضوع لأوامره ليس إلّا لله عزّ وجل ، وبهـذه المناسـبة يكشف الســياق عن واقع المنــافقين بــأنّهم انتهــازيّون ، ويبحثـون عن مصـالحهم فقط ، فـتراهم يتبعـون القائد ما دام ذلك لا يتعـــارض مع مصـــالحهم ، وإلّا تمـــرّدوا عليه بمختلف الأعــذار ، ولقد أمــرهم النــبي (ص) بالتوجّه الى مكّة فنكصوا على أعقـابهم خوفا من عـواقب ما اعتـبروه مغــامرة غــير محســوبة ، وعند ما عــاد المســلمون الى المدينة فـاتحين رجعـوا إلى صـفوف الأمة على جسر من الأعـذار ، ولم يكن ذلك إلّا لأنّ خط الرسـالة فـرض نفسه على الواقع.

ولكنّ ربنا لا يدع الأمر هكـذا دون قيد يفرضه عليهم ، وبصيرة يهدي بها الرسول القائد والمؤمـنين من حوله في التعامل مع هذا الطراز من الناس ، وإنّما يشـترط لقبـول توبتهم أن تكون توبة نصوحا تحكيها أعمالهم وممارسـاتهم ، وتتجلّى في مواجهـاتهم اللاحقة مع الكفّـار ، الـتي ينبغي أن يثبتوا فيها جـدارتهم للانتمـاء الى خـطّ الرسـالة وتجمّع المؤمــنين ، أمّا مجــرد الكلام وإلقــاء الأعــذار فلا يمكنه إعادتهم الى الصف الإسلامي أبدا.

بينات من الآيات :

[8] (**إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**)

والشاهد : الحاضر ، فكيف ينسحب هذا المعـنى على القائد؟ إنّ الشاهد هو الحاضر الذي يكون سـلوكه مقياسا للحق ، وشـــهادة الرســـول على الأمّة حجّيته ، وكونه المقيـاس العملي للخـير والفضـيلة ، والمـيزان الـواقعي للضلالة والهدى ، وليس المراد من شهادته (ص) حضـوره الجسـدي بين المسـلمين ، وإلّا لما كـان ذلك يحتـاج الى الإرسال من قبل الله باعتباره تحصيل حاصل ، ثمّ انّ هذه الشـهادة لا تنحصر زمنيّا بوجـوده المـادي ، وإنّما تشـمل البشرية التي أرسل إليها جيلا بعد جيل ، وزمنا بعد زمن.

ولكي يتضح معـنى الشـهادة بالنسـبة للرسـول القائد (ص) لا بد من الحديث عن صفتين تجسّدانها من صـفاته ، هما : دعوته الناس الى الرسـالة عن طريق كلامه وبيانه ، والأخـــرى دعوته لهم من خلال ســلوكه وعمله ، وذلك بصـنعه واقعا يتـأثّر به المجتمع من حوله ، ومثـال ذلك أنّه (ص) حينما يوقّع على صـــلح الحديبية ، ويقبل بمحو اسم (رسـول اللـه) من الوثيقة تكتيكيّا ، فلكي يسـتمر الصـلح بفوائده اسـتراتيجيّا ، وحينما يوقد جيشا لجبا الى المعركة ، وحينما يصـلّي خاشـعا لربّه ، وحينما يعفو ويسـامح ، و.. و.. كلّ هذه السلوكيات تؤثّر واقعيّا على المجتمع ،

وتدفعه دفعا قويّا ومن الأعماق للتأسّي بصـاحبها واتباعه ، إذن فالقيـادة قبل أن تكـون منصـبا سياسـيّا واجتماعيّا ، وقبل أن تكون قرارا من أعلى ، هي ـ في الواقع ـ مبادرة وواقع عملي ، والأئمة (ع) أكـــثر ما أمـــروا أصـــحابهم واتباعهم بالعمل لا بالكلام ، والامـام الصـادق (ع) يقـول : «كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم» يعني بسـلوككم وعملكم ، لأنّ ذلك أمضى أثـرا في واقع النـاس ونفوسـهم ، وأكـبر دلالة على خـطّ الإنسـان وفكـره ، ولقد قرأنا في الـدرس السـابق كيف أنّ الرسـول حينما أمر المسـلمين بحلق رؤوسـهم ونحر بـدنهم رفض أكـثرهم فبـادر شخصـيّا الى ذلك فتهافتوا للحلق والنحر.

هـذا من جهة ، ومن جهة أخـرى إنّ ألفـاظ الرسـالة تتعـــرض للتلاعب من قبل المنـــافقين ، كما انّها تحتمل التأويل والتفسير ، بينما الشـهادة العمليّة تبقى حجّة جليّة بالغة ، لا تحتمل أكـثر من تفسـيرها الـواقعي ، فلو أمر الرسـول (ص) النـاس بالصـدق وبالأمانة بمجـرد الكلام ، دون أن يجسّـد لهم هـذين المعنـيين ، لكـان الكثـير من المسـلمين يكـذّب أو يخـون ، ويفسّـر ذلك بأنّه الصـدق والأمانة اللّـذان أمر بهما الرسـول ، ولكن الرسـول قـال وعمل فكان عمله أكبر مفسّر لقوله.

إنّ الرسول يصبح شاهدا وقائـدا للمسـلمين ، وتصـبح سـيرته منهجا للأجيـال بعد الأجيـال ، حينما يجمع أصـحابه ويذهب الى مكة فيتهرّب جمع منهم ، وينسلّون من جيشه لواذا خشية الابادة ، فإنّه يصنع واقعا حيّا ، أو حين ينصرف من الخنـدق مع المسـلمين ، ويضع عنه اللّامة ، ويغتسل ، ويسـتحم ، فيـنزل عليه جبرئيل ويقـول له : «عـذيرك من محـارب. ألا أراك قد وضـعت عنك اللّامة ، وما وضـعناها بعـد» فـإذا به يثب (ص) للجهـاد ، ويتبعه المسـلمون ، ويحارب بني قريظة.

هذه المواقف الواقعية هي التي تترك أثرها البالغ في نفوس الناس والأجيال ،

فهـذه سـيرة رسـول الله (ص) تلهم المسـلمين جيلا بعد جيل العـــزم والاســـتقامة ، لأنّه لم يكن شـــاهدا بكلامه وحسب ، وإنّما بعمله وسـلوكه لقد كـان شـاهدا في كـلّ حقل ، مبادرا في كـلّ مكرمة ، صـانعا للأحـداث ، مقتحما غمار الصعاب ، وحـتى في الحـروب كـان القائد الشـاهد ، والى الحـدّ الـذي قـال عنه بطل الإسـلام عليّ ابن أبي طـالب عليه السّـلام : «**وكنّا إذا احمـرّ البـأس اتقينا برســـول الله (ص) ، فلم يكن أحد منّا أقــــرب من العدوّ منه**» [1]

والرسـالي الصـادق هو الـذي يشـهد على عصـره ، وتفسّر مواقفه العملية كلماته المضيئة.

[9 ـ 10] ويجري السياق في بيان أهداف البعثة.

(**لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**)

الذي طاعته والايمان به امتداد للايمان بالله.

(**وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**)

وهنا اختلف المفســرون في تحديد الـذي تعـود عليه ضـمائر هـذه الكلمـات ، فقـال جماعة بأنّها تعـود الى الله سـبحانه وتعـالى ، ولا يمكن أن تعـود على الرسـول ، وقد عطف عليهما التسبيح الذي هو مختص به عزّ وجلّ ، وقال آخرون بأنّ الضـميرين في (**تُعَـزِّرُوهُ وَتُـوَقِّرُوهُ**) يعـودان على الرسول ، والمعنى تنصرونه وتعظّمونه.

وما يبدو لي هو أنّ نصر الله وتعظيمه يتحققـان بنصر رسـوله ورفع شـأنه لأنّهما جهة واحـدة ، وليس الرسـول سوى وسيلة الى الله ، كما أنّ القبلة بذاتها ليست هدفا ،

---

(1) نهج / حكمة 9

وإنّما هي وسيلة للعبادة ، ونجد هذا المعنى جليّا في كثـير من الآيـــــــات القرآنيّة ، ومن جملتها قوله تعـــــــالى :
«**وَاعْتَصِــمُوا بِحَبْــلِ اللـــهِ جَمِيعــاً**» [1] وحبل الله هو الرســول والأئمة (عليهم الســلام) ، ولاختصــاص العبودية بالله نسـتطيع القـول بـأنّ الضـمير في كلمـتي «تعـزّروه وتــوقّروه» يعــود على الرســول ، بينما يعــود في كلمة «تسـبّحوه» على الله مباشــرة ، وفي الآية اللاحقة بيــان وتأكيد لهذه الفكرة ، يقول تعالى :

(**إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ**)

فالمبايعة لله ، ولكنّها تمــرّ عـــبر الرســـول (ص) ، وغايتها إظهار الولاء التام للقيادة ، والتعهّد بالاستمرار في خطّها ، ولعلّ الكلمة مأخوذة من البيع فيكون معنى البيعة أن يــبيع أفــراد المجتمع المســلم أو التجمّع الرســالي ما لديهم من طاقات وإمكانات مادية ومعنوية لقيادتهم بــإزاء رضـــوان الله ، وليس بالضـــرورة أن تتمّ البيعة بســـلام الرجال على الرسول مصافحة ، ووضع النساء أيديهنّ في المـــاء ، كما تمّ عند البيعة للرســول أو للإمــام علي في الغـدير ، بل يمكن أن تتمّ عن طريق القسم الحـركي ، أو بالوكالة بأن يبـايع الأفـراد نـائب القائد ، أو حـتى بالكتابة ، لأنّ المهم إظهار الاستعداد للطاعة بحركة واضحة.

قال جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) : بايعنا رســول الله تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفر. [2]

وكـان الرسـول (ص) الـذي يمثّل الله يضع يـده على أيدي المؤمـنين في البيعة ، وقد أكّد ربّنا لنبيّه أنّه سـيكون بالمرصاد لكلّ من تسوّل له نفسه الخيانة.

(**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**)

---

(1) آل عمران / 103
(2) الزمخشري ج 4 ص 335

أي قوّته وقدرته أعلى من كلّ أحد.

(**فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ**)

لأنه سوف يضع نفسه في موضع المحارب لله ذي القوّة والطول ، ولن تقتصر خسارته على الآخرة وحسب ، بل سوف يخسر في الدارين ، وعلى عكسه الذي يلتزم بالعهد ويتم البيعة فإنّه يجني السعادة في الدنيا والآخرة.

(**وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**)

[11] من معطيات السير نحو مكة ، ومن تجلّيات الفتح المبين ، كشف العناصر الضعيفة التي تعيش في الأمّة ، وحيث الله أعلم بعواقب الأمور ، وواقع هؤلاء الناكثين ، وأنّهم سوف يظهرون للنبي من الأعذار والتبريرات غير الذي يضمرون ، بيّن ذلك لرسوله ، ولكي يتخذ منهم موقفا حاسما.

(**سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا**)

وهل ذلك عذر مقبول في مثل هذه الفترة الحاسمة من حياة الأمّة الاسلامية؟ بلى. إنّ هؤلاء يقترفون الأخطاء ثم يحاولون خداع القيادة واسترضاءها بمجموعة من الأعذار الواهية لتستر خلفيّاتهم ، وهم بذلك يرتكبون خطأ آخر بالإضافة الى نكثهم وهو نفاقهم عبر تبريراتهم الكاذبة ، ولكن الله يفضحهم ، ويبيّن لرسوله واقعهم ، وأنّهم ليسوا صادقين في توبتهم ، بل ولا في أعذارهم.

(**يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**)

من نفاق وخيانة ، ولعلّ هذه الكلمة تنطبق أكثر شيء على تظاهرهم بالندم من

تخلّفهم ورجائهم الرسول بأن يستغفر لهم.

بلى. إنّ التبريرات قد تدفع عن الإنسان جزاء آتيا من أمثاله من البشر ، أمّا جزاء الله فلا ، لأنّه يغيب عنه شيء أو يمنع إرادته أحد.

(**قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللـهِ شَـيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَـرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعـاً بَـلْ كـانَ اللـهُ بِما تَعْمَلُـونَ خَبِيراً**)

هكـذا أمر الله رسـوله أن يفضح المنـافقين ، ويعلن واقعهم.

[12] (**بَـــلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُـــولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً**)

ممّا أثـار فيهم الظنـون والتصـوّرات ، الـتي انعكست على تفكيرهم ، ولم يكن مصدر ظنّهم هـذا العلم الحاصل من تقييم الحوادث ، إنّما كان سـببه الخـوف والجبن ، في صورة ثقافة سلبية ترتكز على التبرير.

(**وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ**)

من زيّن لهم التقـاعس؟ إبليس وجنـوده من الـذين تجسّدت فيهم ثقافته.

(**وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ**)

ربما يعني ذلك الحالة السلبية التي تؤثّر في التفكير ، ويزيغ بصاحبه نحو الأفكار المتشائمة.

(**وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً**)

وهكذا تـدرّج أولئك الخاسـرون في دركـات السـقوط درجة درجة ، فزيّن

ـ أوّلا ـ الشيطان أعمالهم السابقة في قلوبهم حـتى رأوها حسـنة ، ثم دفعهم ظنّ السـوء الى التقـييم السـلبي ، وأخيرا هلكوا ، ومن هنا نعرف أنّ بـدايات الانحـراف قد لا تسـتثير الإنسـان ، ولكنّها خطـيرة لأنّها تهـوي بالبشر الى الهلاك المطلق.

[13] وقد اعتـبر الله هـذه الخطـوة دليلا على عـدم الإيمـان لـدى هـؤلاء ، وتوعّـدهم بعـذاب جهنّم جـزاء لهـذا الكفر فقال :

(**وَمَنْ لَمْ يُـؤْمِنْ بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ فَإِنَّا أَعْتَـدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً**)

إذن فربّنا هيّأ النـار وأعـدّها ، ويا تـرى كم سـتكون مؤذية هذه النار التي سـجّرها الله لغضـبه بالنسـبة للبشر الضعيف؟!

دعنا نقـرأ هنا رواية عن الرسـول (ص) لعلّنا نخشى الله ، ونجتنب المعصية : «إنّ جبرئيل (ع) أتى النبي (ص) عند الـزوال في سـاعة لم يأته فيها وهو متغـير اللـون ، وكان النبي (ص) يسمع حسّه وجرسه فلم يسمعه يومئذ ، فقال له النبي (ص) : يا جبرئيل مالك جئتني في ساعة لم تكن تجئني فيها ، وارى لونك متغيّرا ، وكنت أسمع حسّـك وجرسك فلم أسـمعه؟! فقـال : إنّي جئت حين أمر الله بمنـافخ النـار فوضـعت على النـار ، فقـال النـبي (ص) : أخبرني عن النار يا جبرئيل حين خلقها الله تعالى؟ فقال : إنّه سبحانه أوقد عليها ألف عام فـاحمرّت ، ثم أوقد عليها ألف عام فابيضّـت ، ثم أوقت عليها ألف عـام فاسـودّت ، فهي سوداء مظلمة ، لا يضيء جمرها ، ولا ينطفئ لهبها ، والـذي بعثك بـالحقّ نبيّا لو أنّ مثل خـرق إبـرة خـرج منها على أهل الأرض لاحترقوا عن آخـرهم ، ولو أنّ رجلا دخل جهنم ثم أخرج منها لهلك أهل الأرض جميعا حين ينظـرون إليه ، لما يرون به ، ولو أنّ ذراعا من السلسلة التي ذكره الله تعـالى في كتابه وضع على جميع جبـال الـدنيا لـذابت عن آخرها ، ولو أنّ بعض خـزّان جهنم التسـعة عشر نظر إليه أهل الأرض

لماتوا حين ينظرون إليه ، ولو أنّ ثوبا من ثياب أهل جهنّم أخرج إلى الأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، فـأكبّ النـــبي (ص) وأطـــرق يبكي وكـــذلك جبرئيل ، فلم يـــزالا يبكيـــان حـــتى ناداهما ملك من الســـماء : يا جبرئيل ويا محمّد إنّ الله قد آمنكما من أن تعصياه فيعذّبكما» [1]

[14] ولكي لا يستبد بنا اليأس عند الحديث عن النـار وعذابها ، يؤكّد لنا الله رحمته الواسعة وغفرانه للذنوب.

(**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشـاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**)

وقد حكي أنّ الرسول (ص) لمّا سمع كلمة أفلاطـون : (إذا كـانت السـماء قوسا ، والبلاء سـهما ، والـرامي هو الله فـأين المفـر؟) نـزلت عليه الآية الكريمة : «**ففـرّوا الى الله**» [2]

بلى. إنّ الفـــرار ممكن ، ولكن كيف نفـــر؟ نفـــرّ من غضب الله إلى رضـــاه ، ومن ســـخطه الى عفـــوه ، وربنا برحمته الواسـعة يقبل فـرار العبد اليه ، ولكن بشـرط أن يستغفره ويتوب اليه صادقا.

وهنا في هذه الآية جعل الله نهايتها «**غَفُوراً رَحِيماً**» مع أنّه قـال : «**يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشـاءُ**» وذلك تأكيـــدا لرحمته ورأفته بخلقه ، وطـــردا لليـأس من نفوسنا.

(1) بح / ج 8 ص 305
(2) الذاريات / 50

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (15) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17) لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ

---

(15) (**ذَرُونا**) : دعونا.

فَـأَنْزَلَ السَّـكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثـابَهُمْ فَتْحـاً قَرِيبـاً (18)
وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19)
وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِـيرَةً تَأْخُـذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هـذِهِ
وَكَـفَّ أَيْـدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُـونَ آيَـةً لِلْمُـؤْمِنِينَ
وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20) وَأُخْـرى لَمْ تَقْـدِرُوا
عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللـهُ بِها وَكـانَ اللـهُ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ
قَدِيراً (21)

وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً

هدى من الآيات :

لقد وفّر الفتح المبين (صلح الحديبية) للمسلمين حالة من السلام ، التي تساعدهم على الانتشار وإعداد أنفسهم للمواجهة الحاسـمة مع أعـدائهم على الصـعيد الخـارجي ، كما أنّه على صـــــــعيد الجبهة الداخلية كشف عن حقيقة المنتمين إليهم مما سـاهم في تصـفية العناصر الضـعيفة وتمتين الجبهة الداخلية.

بلى. إذا كان هؤلاء يريدون العودة الى صفّ المؤمنين والقيـادة الرسـالية لا بد أن يتوبـوا توبة صـادقة ، وهنالك تسـعهم رحمة الله ، وتسـتوعبهم صـفوف المؤمـنين ، وتقبلهم القيـادة ، ولكن بشـرط أن يـبرهنوا عمليّا على صدقهم عبر الوقوف مع المؤمنين في الشدائد الحاسمة.

ونســــتفيد من هـــذا الحكم الالهي حكمة بالغة في معاملة هــــذه النوعية من الأفــــراد ، وهي أن لا تقبلهم القيادة الرسـالية بعد ما تخلّفـوا عن تجمّعها وأوامرها في الشدة ، إلّا

إذا أظهروا توبتهم ، ووطنّـوا أنفسـهم على خـوض الجهـاد تحت رايتها ، لأنّ قبــول هــذه النوعية من دون امتحــان عسير يثبت صدقها قد يكلّف الحركة الرسالية الكثـير ، لو أنّهم عــادوا لطــبيعتهم الانهزامية وانشــقّوا وشــقّوا عصا الطاعة في موقف خطـير أو مهمّة حاسـمة يكلّف التمـرّد فيهما أضعاف ما يكلّفه التمرّد في الظروف العادية.

بينات من الآيات :

[15] (**سَــيَقُولُ الْمُخَلَّفُــونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها**)

وقد تمـرّدوا من قبل على أمر القيـادة ، وتخلّفـوا عن المسير معكم ، لا لأنّهم اكتشفوا خطأ في خط الرسـالة ، بل لأنّهم التحقوا به التحاقا مصلحيّا ، وحيث ظنّوا ـ مجـرّد ظن ـ بأنّ المسـير الى مكّة يعـني الابـادة ، فهو خـال من المصـالح ، نكصـوا على أعقـابهم ، أمّا الآن والمسـلمون يسـيرون الى فتح مؤكّد في نظـرهم ـــ وهو غـزوة حـنين حسب بعض التفاسير ـ فإنّهم يحاولون بكلّ طريق العودة الى صفوف الجيش الاسلامي ، ولكن ليس من باب التوبة وإنما المصلحة.

(**ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ**)

وقد حــذّرهم الله من عــواقب التخلّف عن نصـــرة رسوله (ص) ، وأنّه سوف يعذّبهم ، ويمحوا أسـماءهم من قائمة المقاتلين المؤمنين ، لأنّ المقاتل المؤمن هو الــذي يتبع أوامر قيادته في كلّ مكان وأي زمان ، وحيث نكصــوا جزاهم الله بذلك ، وهم الآن يسـعون لتبـديل ما حكم الله به.

(**يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ**)

ولكن هذا الحكم الشرعي ثابت لا يتغيّر ، وهو أنّ من يتمرّد على القيادة الرسـالية في الظـروف الصـعبة ينبغي أن يطرد من صفوف المقاتلين.

(**قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا**)
فنحن مـــأمورون من قبل الله أن لا نقبلكم من دون شرط وقيد.
(**كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ**)
وهذا جزاؤكم الطبيعي.
ولأنّ هؤلاء مجبولون على التـبرير فـإنّهم لن يعـترفوا بواقعهم ، وإنّما سيحاولون التستّر بأعـذار لا تنفع ، شـبيهة بتلك التي برّروا بها تخلّفهم عن المسير والقتال من قبل.
(**فَسَيَقُولُونَ**)
وهم يتهمــون المؤمــنين والقيــادة الرســالية الــتي تجسّدت يومئذ في الرسول (ص).
(**بَلْ تَحْسُدُونَنا**)
وبالتالي فإنّكم تريدون من رفض انتمائنا إليكم التفرّد بالمكاسب ، وفي مقابل هــذه التهمة يــأتي الــردّ الالهي الحاسم بأنّهم غارقون في الجهل.
(**بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً**)
ويدلّ على ذلك أمران :
الأمر الأوّل : وقد عالجته الآية في مطلعها ، وهو جهل هؤلاء بأنّ الانتهـازيّ الـذي يـترك جماعته في سـاعة الحرج لا يمكن أن يحتسب منهم في الرخاء كأمر واقعي ، وبالـذات في المجتمع العـربي الـذي يعـدّ ذلك من صـميم عاداته وتقاليده

آنذاك.

فمن كــان يتخلّى عن عشــيرته عند الشــدة كــانوا ينبذونه نبذا تامّا ، ويحرّمون عليه حـتى الـزواج منهم! إذن فمن السذاجة القول بأنّ (الصـلاة خلف عليّ أتم ، والأكل مع معاوية أدسم ، والوقوف على التلّ أسـلم) ، ولا يمكن أن يسـمّى من هـذا شـعاره موحّـدا أو منتميا الى الإسـلام انتمــاء صـحيحا ، إنّما هو لقيط ، وينبغي للمؤمــنين رفض انتمائه إليهم.

وقد يشير الى هذا الأمر خاتمة الآية الـتي نحن بصـدد تفســـيرها ، حيث تؤكّد بــــأنّ المخلّفين ســـاذجون لا يستطيعون سبيلا الى فهم الحقائق.

الأمر الثـاني : الـذي يـدلّ على جهلهم أنّهم ينسـبون الحسد الى شــخص الرســول (ص) مع اعتقـــادهم بأنّه مرسل من الله عزّ وجل ، وهل الرسول يذنب أو يتمحـور حول نفسه حتى يسعى وراء المغانم؟!

وإذا افترضـنا أنّهم لا يؤمنـون به رسـولا من الله ، ولا قائـــدا حقيقيّا ، فلما ذا يتبعونه ، ويريـــدون القتــال تحت لوائه؟!

ولعـلّ تفسـير خاتمة الآية أنّ هـؤلاء لا حـظّ لهم من الـوعي إلّا القليل ، لأنّهم أضـلّوا الطريق العـام فلا تنفعهم معرفتهم ببعض الطـرق الفرعية ، ذلك لأنّ محـور حقـائق العلم هو معرفة الله ، وســننه الحق ، وبصــائر رســالاته ، فإذا أخطئوا المحور فلا جرم أنّهم يتيهون في الضلالات.

وماذا ينفع العلم بكافة الحقول العلمية إذا كـان الخط العــــام لحيــــاة الإنســـان خاطئـــا؟ أرأيت كيف يوجّه المستكبرون كلّ علمائهم فيما يبعدهم عن الله ، ويســبّب هلاكهم وهلاك العالم؟

فمجمل أفكــارهم خاطئة ، وبتعبــير آخر أنّ القلة هنا نوعية لا كميّة.

[16] ومع أنّ الله يفشل كــلّ محــاولاتهم لتــبرير تخلّفهم أوّلا ثم عودتهم الى صـفوف المسـلمين فإنّه يفتح أمامهم طريقا للتوبة ، والطريق الواسع الى رحـاب التوبة بالانتماء الحقيقي ، إذ ليس صـعبا أن ينتمي الشـخص الى صفّ الرساليين ظـاهرا ، وإنّما الصـعب أن يكـون انتمـاؤه انتماء حقيقيّا تكشف عنه استقامته في الظروف الصعبة.

وحيث مــرّ هــؤلاء بتجربة عملية كشــفت للقيــادة الرسالية والمؤمنين ضعف انتمـائهم ، فهم بحاجة إذن الى تجربة أخرى تثبت صدق توبتهم ، ولا شك أنّ الـذي يتـوب عن صدق سوف يقبل بما يشترط عليه ليكون دليلا لتوبته ، يحــدوه الى ذلك خوفه من الله ، وإحساسه بضــرورة التكفير عن ذنبه ، ولذلك أمر الله رسوله أن يلزم التائبين من المخلّفين بشـرط الثبـات في المواقف المسـتقبلية ، ولعلّه عبّر في مطلع الآية بكلمة «قل» لبيـان أنّ الشـرط إنّما هو من عند الله عـزّ وجل ، وليس من لـدن الرسـول (ص) حـتى يمنع بــذلك أيّ محاولة أخــرى للاعــتراض أو التبرير.

(**قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَـتُدْعَوْنَ إِلى قَـوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ**)

والاحتمال الأقوى أنّهم يختارون الحرب ولو في بـادئ الأمر ، على الأقل تقة بالنصر على المسـلمين واعتمــادا على قـوّتهم الظاهرية ، إذن فـالابتلاء عظيم ، والامتحـان عسـير ، يحتـاج فيه هـؤلاء عـزم راسخ وإرادة قوية لكي يثبتوا صدق توبتهم ، وبالتالي تقبلهم القيادة الرسـالية في تجمّعها ، ولا يخوض غمـار هـذا الابتلاء إلّا الصـادقون ، أمّا الانتهازيون والمصلحيون فإنّهم لن يجازفوا بأنفسهم.

وبالرغم من أنّ القـرآن يشـجّع المؤمـنين في الأغلب على الحرب يبعث الأمل بالنصر في أنفسهم ، إلّا أنّه هـذه المرة يصف العدو بالشدة لأنّه يتناسب مع هدف هذه الآية والقضية التي جاءت بصددها وهو امتحان المخلّفين ليثبتوا جـدارتهم للانتمـاء الى صـفّ المؤمـنين ، بعد أن فقـدوها بالانهزام السابق.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المعركة التي تشير إليها هـــذه الآية الكريمة ، فقـــال بعضـــهم : إنّها حـــرب المسلمين مع الروم ، وقال جماعة : إنّها حرب المسلمين مع المرتـــدين بعد الرســـول (ص) ، وقـــال آخـــرون : إنّها الحرب التي دارت رحاها على الفرس ، وقيل أنّها الحـرب مع هـــوازن وثقيف بعد فتح مكة ، ولعـــلّ هـــذا المحمل هو الأقرب الى جـوّ الآيـات وإيحاءاتها الـتي تفيد الحـديث عن عصر الرسول لا بعده ، حيث أنّ غزوة حنين كـــانت أعظم الغزوات بعد صلح الحديبية ثم فتح مكة.

ورغّبهم في قبـول هـذا الشـرط بـالترغيب في ثـواب الله وعطائه ، وما يترتب على ذلك من قبول لتوبتهم ، ثم حذّرهم من عواقب الرفض لأمر الله الذي يستتبع العذاب والخسارة.

(**فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْـراً حَسَـناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ**)

لمّا دعاكم الرسـول الى المسـير الى مكة قبل صـلح الحديبية ، فجبنتم بســـبب ســـوء الظن بالله ، وقـــدّمتم المعاذير الواهية.

(**يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً**)

[17] وبمناسبة الحديث عن الأعذار التي كان يسوقها المتخلّفون يبيّن السياق الأعذار المشـروعة الـتي تسـقط القتال عن المؤمن ، لكي تتوضّح ولا يتشبّث المتقاعسـون بكلّ عذر تافه للتنصّل عن مسئولية القتال.

(**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْـرَجِ حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**)

وهـذه من سـماحة الإسـلام ونظرته المتوازنة للأمـور أنّه في الوقت الـذي يشـدّد على موضـوع القتـال لا يغفل عن بيـــان الأعـــذار الحقيقية الـــتي يعـــذر في إطارها المتخلّفون ، ثم يجعل الحدّ الفاصل في إفرار هذه الأعذار أو رفضها رأي القائد ، لأنّه هو الذي يحدّد متى تكون هــذه الأعذار الآنفة الذكر مقبولة كمانع عن القتال ، فمن يحـدّد ــ مثلا ــ أنّ الأعمش يلحق بـالأعمى ، وما درجة ضـعف العين الذي يسقط بموجبه الجهاد عن صـاحبه ، وما درجة العرجة ، وهل أنّ المــرض الــذي لا يمنع عن القتــال ــ كمرض السكّري ـ يعتبر عذرا؟ ثم أنّ هناك أعذارا حقيقية لم يتعـــرّض لها النصّ ، مثل شـــلل اليـــدين ، والبدنة المفرطة ، والســـفه .. ، ولعلّه لـــذلك أكّد ربّنا بعد ذكر الأعذار الشرعية على طاعة القيادة ، فقال :

(**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**)

وإذ يعد الله الطــائعين له ولرســوله بهــذا الجــزاء ، ويشير في علاجه لمثل هذه القضية الى موضوع الآخـرة ، فلأنّ العامل الأساسي الــذي يــدفع الإنســان للفــرار من سـاحة المعركة ، أو للتمـرد على أوامر القيـادة الرسـالية بشـكل عـام ، هو التشـبّث بحطـام الـدنيا الزائل ، وهكـذا يخلق التذكّر بالآخرة معادلة في ضمير الإنسان وعقله بين نتـــائج الهزيمة الســـلبية ، ومعطيـــات الثبـــات والطاعة الايجابية العظيمة ، وتــأتي في الــبين خاتمة الآية لــترجع فــرار الطاعة والثبــات على فــرار الهزيمة بإثــارة عامل الخوف والرهبة من عذاب الله عند الإنسان.

(**وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً**)

والتولّي هو الفرار من الزحف والجهاد في سبيل الله ، الأمر الذي يستوجب العذاب الأليم.

[18 ـ 19] (**لَقَـدْ رَضِـيَ اللـهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**)

أمّا هدف العهد مع الله فإنّه يستمطر رضاه وثوابه ، فقد وسعت مرضات الله المؤمنين حين بايعوا رسول الله على القتال حتى الموت بين يديه ، وذلك قبل أن يبرم الصلح ، فلمّا رأى المشركون عزم المؤمنين على الحرب والاستقامة قبلوا بالصلح.

إنّ الله سبحانه قد يقبل بيعة المؤمنين ، ويغفر ذنوبهم كلّها. أليست الحسنات يذهبن السيئات؟ بلى. إنّ الموقف البطولي يسوى عند الله الشيء الكثير ، ويرجح في ميزانه على كلّ عمل ، ولعلّه لذلك يغفر الله للشهيد كلّ ذنوبه.

ولقد كانت بيعة المؤمنين للرسول تحت الشجرة دليلا أكيدا على عمق إيمانهم بالرسالة ، ولو لم يكونوا مؤمنين بمعنى الكلمة لما بايعوا الرسول (ص) وهم يعلمون أنّ المواجهة بينهم وبين المشركين لو حصلت تعني حسب المقاييس الظاهرة إبادتهم من الوجود ، ومن هذا المنطلق كانت البيعة فارقا بين المنافقين وضعاف الايمان وبين المؤمنين الصادقين ، وهي كما كشفت فريق المخلّفين ميّزت المؤمنين وأفرزتهم ، وهكذا تنفع المواقف الحرجة الحركة الرسالية في الكشف عن هوية أفرادها ونقاط القوة والضعف فيهم.

(**فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ**)

من الثبات وصدق الايمان وعموم مؤهلات النصر الالهي.

(**فَـأَنْزَلَ السَّـكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثـابَهُمْ فَتْحـاً قَرِيبـاً* وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها**

(**وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً**)

وقد تجسّد ذلك الفتح في الانتصارات والمغانم التي صار إليها المؤمنون بعد ذلك في معركة خيبر وفتح مكة وغيرهما ، ولا شك أنّ المؤمنين كانوا يخسرون الكثير ، وتفوتهم هذه الانتصارات لو كان قرارهم الانهزام ، وهذه الحقيقة واضحة في تاريخ الأمم والحركات ، فهي عند ما تتمسّك بمبادئها وأهدافها ، وتستقيم من أجل ذلك رغم المصاعب والتضحيات ، تصل الى ما تريد بتضحيات أقل ، بينما تقصر على غاياتها ، وتعيش الذلّ والهوان ، حينما تنقلب على أعقابها ، وتدفع إضافة الى ذلك أضعافا مضاعفة من الخسائر ضريبة للهزيمة.

ومن خلال الآيات المتقدمة يتضح أنّ المؤمنين وصلوا للمكاسب التالية نتيجة لثباتهم على العهد :

1 ـ تثبيت الايمان في قلوبهم وزيادته.

2 ـ الفتح العسكري القريب إضافة الى الفتح السياسي المتمثّل في صلح الحديبية.

3 ـ المغانم الكثيرة معنوية وسياسية واقتصادية.

[20] (**وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها**)

في المستقبل ، ولكنّه عجّل لهم أمرين :

الأوّل : المغانم الأوليّة التي حصل عليها المؤمنون إثر الصلح ، كدخول أفواج من الناس في الدين ، وتخالف بعض القبائل مع الرسول ، وحصول حالة من الأمن تمكّنه من بناء حركته وإعداد المؤمنين للمواجهة الحاسمة ، أمّا ما حصلوا عليه بعد

فتح مكة عســكريّا فهو كثــير أيضا ، والــذي من أعظمه وأبــرزه القضــاء على الســلطة المنحرفة فيها ، ودخــول النــاس أفواجا في دين الله ، ممّا جــاء تفصــيله وبيانه في سورة النصر.

الثــاني : دفع أذي المشــركين والكفّــار عن المؤمــنين بصلح الحديبية ، إذ لو كانت المواجهة تحدث يــوم ذاك بين المؤمنين بأعدادهم وعدّتهم القليلة من جهة ، والمشركين بأعدادهم وعددهم الكثيرة من جهة أخرى ، لكانوا يبــادون وتنطفئ شعلة الإسلام.

(**فَعَجَّلَ لَكُمْ هــــذِهِ وَكَــــفَّ أَيْــــدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**)

على رضى الله عنهم ، ونصره لعباده الذين ينصــرونه ويطيعــون أوليــاءه ، فينبغي للمؤمــنين أن يدرســوا هــذه الآيــات ، ويتــدبّروا في هــذه الحادثة التاريخية ، ليســتفيدوا عبرة هامة وهي ضرورة الطاعة للقيــادة في الســلم وفي الحرب ، وعدم اتباع الآراء الشخصية والعواطف المثارة ، لأنّ الطاعة للقيـــادة الرســـالية هي الطريق الى الهداية الحقيقة.

(**وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً**)

[21] قبل النصر تجتاح الأمة فتنة الشك في وعد الله ، أمّا بعده فإنّهم يتعرّضــون للغــرور والاعتقــاد بــأنّ قــوتهم الذاتية كانت ســبب الفتح ، مما يــدفعهم للاســتهانة بــالقيم الحق التي هيّــأت ظــروف النصر عند التمسّــك بها ، ولعلّه لــذلك أكّد ربّنا هنا ــ وبعد بيــان مكاسب صــلح الحديبية ــ على المكاسب الــتي لم يقــدر على تحقيقها المؤمنــون إلّا بتوفيق ، ومن توفيقه الـــوحي الالهي والقيـــادة الربّانية ، وإذا اتبع المجاهدون السبل الأخرى الملتوية فســوف تؤكّد الهزيمة في واقعهم ، مهما كان ظاهر

الأمر يوحي بخلاف ذلك ، ومن يرد نصر الله ورحمته يجب أن يعطيه ويلتزم بأمره.

(**وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً**)

فهو محيط علما وقدرة بالمكاسب الأخرى التي تـأتي في المستقبل ، والتي تغيب عن وعي المؤمـنين ، أو ربما كانوا لا يصـدّقون بـأنّهم سـوف يبلغونها لو قيل لهم ذلك ، نظـــرا لكونها مكاسب كبـــيرة بالنســـبة الى قـــدراتهم وإمكانـاتهم ، فهل كـانوا يعلمـون أو يصـدّقون بالمكاسب التي حصلوا عليها فيما بعد من بلاط كسـرى وقيصـر؟ كلّا .. وهي كلّها من معطيات صلح الحديبية لو درسـنا التـاريخ دراسة واقعية معمّقة ، فانتصار الرسـول على يهـود خيـبر وفتحه لمكة المكرمة عسـكريّا ، الأمر الـذي كـان يعـني سـيطرته التامة على شـبه الجزيـرة العربيّة بكاملها ، كـلّ ذلك كان من مكاسب الصـلح ، وهـذه الانتصـارات بـدورها وحّـــدت القـــوى آنـــذاك كلّها تحت راية الإســـلام ، فـــإذا بالمسلمين قـوة ضـاربة تنطلق شـرقا لتفتح بلاد فـارس ، وغربا وشـمالا لتنتهي الى سـلطان الـروم ، وتبـنى على انقاضها حضارة الإسلام.

ولم يكن أحد من المؤمنين ـ إلّا من شاء الله ـــ يتوقّع النجاة من يد مشركي مكة حينما دعاهم الرسـول للبيعة ، بل كان كثير منهم فريسة للشك في الدين ، والتخلّف عن أوامر القيــــادة الرســــالية ، فكيف بهم يـــــدركون تلك المكاسب العظيمة أو يؤمنون بها؟

إنّ المؤمنين كانوا يخسرون هـذه المكاسب لو اتبعـوا أهواءهم وآرائهم الشخصية القاصـرة فتخـاذلوا عن نصـرة الرسول والبيعة له يومئذ ، لـذلك ينبغي لنا في كـلّ مكـان وزمان أن نتبع الوحي الالهي ، ونسـعى في تطبيقه ، لا أن نتبع أهواءنا وتصوّراتنا البشرية المحدودة.

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبـارَ ثُمَّ لا يَجِـدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّةِ اللـهِ تَبْـدِيلاً (23) وَهُـوَ الَّذِي كَـفَّ أَيْـدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْـدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْـدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُـونَ بَصِـيراً (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْـجِدِ الْحَـرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لا رِجـالٌ مُؤْمِنُـونَ وَنِسـاءٌ مُؤْمِنـاتٌ لَمْ تَعْلَمُـوهُمْ أَنْ تَطَـؤُهُمْ فَتُصِـيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ

---

(25) (**الْهَدْيَ**) : الإبل التي ساقها المسلمون لعمرتهم.
(**مَعْكُوفـاً**) : من عكف إذا حبس لأنّ الإبل كـانت محبوسا على الهـدي لينحر بعد قضاء العمرة ، فقد منع المشركون أن يبلغ الهدي محله ، أي المكان الذي ينحر فيه بمكة.
(**مَعَرَّةٌ**) : أي مكروه.

لِيُدْخِلَ اللـهُ فِي رَحْمَتِـهِ مَنْ يَشـاءُ لَـوْ تَزَيَّلُـوا لَعَـذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَـذاباً أَلِيمـاً (25) إِذْ جَعَـلَ الَّذِينَ كَفَـرُوا فِي قُلُــوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَـأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُـؤْمِنِينَ وَأَلْـزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللـهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمـاً (26) لَقَـدْ صَـدَقَ اللـهُ رَسُـولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْـجِدَ الْحَـرامَ إِنْ شـاءَ اللـهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَـكُمْ وَمُقَصِّـرِينَ لا تَخـافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُـوا فَجَعَـلَ مِنْ دُونِ ذلِـكَ فَتْحـاً قَرِيبـاً (27) هُـوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللـهِ شَـهِيداً (28) مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللـهِ وَالَّذِينَ مَعَـهُ أَشِـدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمـاءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِنَ اللـهِ وَرِضْـواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَـرِ السُّـجُودِ ذلِـكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ

(**لَوْ تَزَيَّلُوا**) : تفرّقوا وتميّز المسلم عن الكافر في مكة.

فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29))

---

(29) (**شَطْأَهُ**) : فراخه.

(**فَآزَرَهُ**) : فقوّاه وشدّه وأعانه.

(**وقِهِ**) : جمع ساق وهو القصب والأصل.

لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا

هدى من الآيات :

لأنّه قد جـرى في البـدء جـدل بين المسـلمين حـول صـــلح الحديبية ، نجد السـيـاق القــرآني هنا يؤكّد على المكاسب الكبـيرة الـتي جناها المسـلمون من وراء هـذا الصـلح المبـارك ، ليؤكّد على سـلامة النهج الرسـالي ، وضـرورة الطاعة أبـدا للقيـادة الربانية ، كما تـذكّر الآيـات بهذه المناسبة بطائفة من الحقائق التي غابت عن الأذهان ، والتي تتصل بهذا الأمر اتصالا مباشرا.

الأولى : إنّ الحـرب ليست هـدفا بـذاتها ، وإنّما هي وسيلة الى هدف لو حقّقناه من دونها يكون الأمر أفضل ، بل لا يصح آنئذ إثارتها أبدا.

الثانية : إنّ وصـول المسـلمين الى أهـدافهم من دون الحـــرب ليس إلّا دليلا على تأييد الله لهم ، لأنّه يصـــعب الوصــول الى مثل هــذه الأهــداف من دون التضــحيات الباهظة.

الثالثة : لو أنّ المشــركين أشــعلوا فتيل الحــرب مع المسلمين ببطن مكة لانتصر المسـلمون عليهم بـإذن الله ، وهذه سنّة إلهية سابقة ودائمة لا يمكن أن تتبدّل ، ولكنّ عدم حدوث الحرب ليس في صـالح المشـركين وحسب ، باعتبارهم كـانوا يهزمـون لو بـدأوها ، وإنّما هي في صـالح المسلمين أيضا.

الرابعة : لو أنّ الحـــــرب وقعت بين المشـــــركين والمسلمين يومذاك ربما لم يكونوا يستطيعون النفـاذ الى قلوب المشركين وبذلك القـدر من الأثر العميق ، بل ربما ازداد المشركون تعنّتا ورفضا ، وبالذات كانت لدى قريش ومن لفّ لفها مشكلة نفسـية ، تتمثّل في الحميّة الجاهلية التي أوغرت قلوبهم ضد المسلمين ، فلو كان المسـلمون يــدخلون في نفق العصـبية ، فبــدل أن يقيّمـوا الأحــداث والواقع تقييما موضــوعيّا يأخذ بعين الاعتبــار المصــلحة الرســالية ، يتّبعــون ردّات الفعل والعواطف المســتثارة ، ويصرّون على عـدم الرجـوع بـدون الطـواف حـول الكعبة والنحر وتقــديم الهــدي و.. و.. ، كما أراد ذلك قسم من المســلمين ، لتســاووا في العصــبية مع كفّــار قــريش ومشركيها.

ومن هذه الفكرة نسـتفيد عـبرة هامة ، وهي ضـرورة أن يـدرس المؤمنـون القضـايا والمواقف المختلفة دراسة رسالية ، نابعة من نهج موضوعي ، هدفه مصالح الإسلام ، وليس إرضاء نزواتهم وعواطفهم.

ثم إنّ القــرآن يســوق الحــديث عن الرســول (ص) والذين حوله من المؤمنين ، وكيف أنّ شخصيتهم الايمانيّة ذات بعدين ، فظاهرها العـذاب والحـدّة على أعـداء الله ، وباطنها الرحمة واللّطف برفاق المسـيرة الواحـدة ، وفي الضمن ينبّهنا إلى فكرة هامة ، وهي أنّ أصـحاب الرسـول ليســوا مــبرّأون من الأخطــاء ، وليســوا حجج الله على النــاس ، وإنّما الرســول وحــده الحجة أو من نصّــبه الله لذلك. وكيف يكون حجة

مطلقة من أمكن خطأه؟ نعم. المؤمن ـ كلّ مؤمن ـ حجة على الآخرين فيما يصح من أعماله وصفاته ، ولـذلك فـإنّ مغفرة الله وأجره لا يشملان كلّ الذين صحبوا النبي (ص) ، وإنّما يختصّ بهما المؤمنـون الصـادقون الـذين أخلصـوا الصحبة ، واستقاموا على الحق إلى الأخير.

بينات من الآيات :

[22] بالرغم من قوّة قريش وحلفائها التي تفوق في ظاهرها قوة المسـلمين ، وبـالرغم من اعتقـادهم ـ وربما اعتقاد كثـير من المسـلمين ـ بـأنّ الحـرب بين الطـرفين تعـــني غلبتهم على حـــزب الله ، يؤكّد ربّنا لرســـوله وللمؤمـنين أنّ الحـرب لو دارت رحاها لانتصـروا عليهم ، ولهزموهم شرّ هزيمة.

(**وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ**)

فـرارا من المواجهة ، دون أن تجـرأ قـوى الحلفـاء كثقيف وهـوازن على إسـناد قـريش ، لأنّها هي الأخـرى سـوف يـدخلها الـرعب ممّا يسـلبها شـجاعة اتخـاذ قـرار الدعم والنصرة.

(**ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**)

إنّ أولئك الـذين كـانوا يعتقـدون بقيـادة قـريش ، ويسـلّمون لولايتها عليهم ، سـوف تتبـدّل قناعـاتهم فيها ، لأنّهم إنّما صـاروا الى ذلك ثقة في قوّتها وقـدرتها ، وقد هزمت فهي إذن لا تستحق أن تتولّاهم .. ثم لنفترض أنّهم تدخّلوا لصالحها في الحرب ، فهل ذلك يبدّل هزيمتهم إلى نصر؟ كلّا .. وما هي قوّتهم أمام إرادة الله؟

[23] ثم ليعلم هؤلاء وأشباههم عبر الزمن أنّ انتصار الحق على الباطل سنّة إلهية ثابتة تحكم الحيـاة بـإذن الله ، وقد عجز أسلافهم الذين هم أشدّ قوّة منهم عن

تغيــير هــذه الســنة ، فكيف بهم؟ وهب أنّهم أقــوى من الغـابرين ، أو جـاء في التـاريخ من هو أقـوى من أولئك ، فهل يغلب الله على أمره؟

(**سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُـنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**)

أو لم ينتصر نوح على كلّ الكافرين في الأرض؟

أو لم ينتصر طـالوت بفئته القليلة من المؤمـنين على الكافرين في عصره؟

أو لم يقل الله : «**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَـــــةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**» [1]؟

[24] إنّ الانتصار القياسي الذي بلغه المســلمون في صلح الحديبية لم يكن بدهاء منهم ، أو بأنّ قريشا رحمتهم فكفّت أذاها عنهم ، وإنما الله هو الـذي صـيّر الأمـور إلى هذه النتيجة ، «**وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ**» [2] ، بلى. لقد بلغ المســلمون هــذه المكاسب السياســية والمعنوية من دون أدنى خسارة عسكرية ، والحال أنّ الوصول إلى ذلك محــــال بــــالطرق الطبيعيّة ، ولو تحقّق لاقتضى الأمر تضحيات عظيمة.

(**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ**)

فمن ناحية منّ الله على المؤمنين بالخلاص من أيدي المشركين قبل صلح الحديبية ، ومن ناحية أخرى منّ على المشركين حين عفى عنهم الرسول (ص) بعد الفتح.

(**بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْـدِ أَنْ أَظْفَـرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكـانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً**)

---

(1) البقرة / (249).

(2) الفتح / (20).

ومع ورود هـذه الآية في سـياق الحـديث عن صـلح الحديبية إلّا أنّها تشـير كما يبـدو إلى فتح المسـلمين عسكريّا لمكّة المكرمة.

[25] ولكن لمـاذا كف الله أيـدي المؤمـنين عن المشـركين ، ولم يـأمرهم بقتـالهم؟ هل لأنّهم طيّبـون؟ أو لأنّ لهم فضلا وسابقة حسنة معهم؟ بـالطبع كلّا .. وتشـهد على ذلك عقائدهم المنحرفة وأعمالهم السيئة تجـاه أتبـاع الرسالة.

(**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَـرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ**)

لقد منعـوا المؤمـنين من حجّ بيت الله بـالرغم من تهـيئهم التـام لـذلك ، وكـان ذلك من أبشع الجـرائم في عـرف العـرب يومئذ ، لقد فضح ذلك قريشا الـتي كـانت تفتخر على سـائر العـرب بأنّها حامية الـبيت الحـرام ، وحافظة حرمة الوافدين إليه.

ماذا بقيت لقريش من شـرعية السـيادة على العـرب بعد أن منعت الحجّـاج وصـدّتهم عن إقامة الشـعائر الـتي كانت العرب تقدّسها؟

هكذا كشف النـبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) عن زيف ادّعـاءات قـريش ، وأسـقطها سياسـيّا عن كرسي سيادة العرب تمهيدا لا سقاطها عسكريّا فيما بعد.

ثم إنّ جريمة قـريش كـانت كبـيرة ، إذ كيف يمنع المشرفون على البيت ، والمـدّعون خدمة الوافـدين عليه الناس من ممارسة شعائرهم؟! أوّلا يسـتحق هـؤلاء القتل والعـذاب بعد ظفر المسـلمين بهم؟ نعم. ولكنّ الله حجز المؤمـنين عن أذاهم لوجـود المؤمـنين بينهم ، سـواء المؤمـنين بالفعل ممّن أخفى إيمانه تقية ، أو الـذين هم على أعتـاب الـدخول في الـدّين ، ويحـدّثون أنفسـهم بالانتماء الى الرسالة.

(**وَلَــوْ لا رِجــالٌ مُؤْمِنُــونَ وَنِســاءٌ مُؤْمِنــاتٌ لَمْ تَعْلَمُـوهُمْ أَنْ تَطَـؤُهُمْ فَتُصِـيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَـرَّةٌ بِغَيْـرِ عِلْمٍ**)

يعـني لو كنتم تقـاتلون الكفـار ــ دون أن يكـفّ الله أيديكم عنهم ـ لكنتم تقتلون فيمن تقتلـون المسـلمين من دون علم ، لأنّهم كـانوا يكتمـون إيمـانهم على خـوف من قريش ، ولأنّ شروط الصلح كـانت لا تسـمح لهم بـاللجوء إليكم ، ولو فعل المؤمنون ذلك لربما أضرّهم ، ولكنّ الله لم يأمرهم بالقتال.

ونعرف من هذه الآية أوّلا : أنّ المؤمنين استفادوا من فترة السلام التي وفّرها الصـلح في تقوية أنفسـهم وبنـاء حـركتهم وتوسـيعها ، إلى الحـدّ الـذي اخـترقوا فيه كيـان قريش نفسـها ، وحيث سـارت جيـوش الإسـلام لفتح مكّة كانت قريش منخورة الكيـان من الـداخل ، وكـان الجند ــ وربما كثـير من الزعمـاء الـذين ينتظر منهم محاربة أتبـاع الرسـالة ــ ينتظـرون الفرصة المناسـبة للتلاحم مع صـفّ المؤمـنين ضـدّ أعـدائهم ، وهـذا بالفعل ما تؤكّـده سـورة النصر : «**وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَــــدْخُلُونَ فِي دِينِ اللـــــهِ أَفْواجاً**» ، وربما لذلك أيضا لم تجد قريش نفسـها قـادرة على اتخاذ قرار المواجهة العسكرية ضد الجيـوش القادمة من المدينة بقيـادة الرســول الأعظم (ص) ، الأمر الــذي جعل المسلمين يدخلون مكة فاتحين دون تضحيات.

وثانيا : انّ المؤمـنين كـانوا يجهلـون هـذه المكاسب العظيمة للصـلح ، وذلك هو الــذي جعل بعضـهم يعـترض على الرســـــول ، وربما طفق يشك في قيادته ، فهم لم يكونـوا يعلمـون بالجبهة الايمانية الموجـودة في صـفوف أهل مكّة ، وقــول بعضــهم وقد حمل الراية (اليــوم يــوم الملحمة ، اليــوم تسـبى الحرمــة) دليل واضح على هــذه الحقيقة.

ومن هذا المنطلق يجب أن نسـتفيد درسا في علاقتنا بالقيادة الرسالية ، وهو أنّ جهلنا بخلفيات قراراتها لا يعني أنّها خاطئة ، ويجب أن لا يدفعنا ذلك إلى التشكيك

فيها ، فليس بالضرورة أن يتضح لنا كلّ شيء ، لأنّ كثـيرا من الأمـور يكشف عنها المسـتقبل ، ورؤيتها تحتـاج إلى بصـيرة ثابتة ومعلومـات متكاملة ، ممّا لا تتـوافر إلّا عند القيادة الشرعية الرشيدة.

(**لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ**)

أي في الايمان ، وهل خلق الله النـاس إلّا لـيرحمهم؟ «**إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـذلِكَ خَلَقَهُمْ**» [1] ، ولو أنّ المؤمـنين قـاتلوا المشـركين يومـذاك لقتلـوا الكثـير ممّن دخلوا الدّين فيما بعد ، ومنعوا عنهم رحمات الله وبركاته ، وهكذا ينبغي أن تكون استراتيجية الدولة الاسلامية قائمة على أساس اجتذاب الناس الى الـدّين ، ولو بتقـديم بعض التنازلات ، وليس تحطيم الخصم وقهر إرادته ، ولو سـبّب ذلك إثارة البغضاء في أنفسهم ممّا يشـكّل حـاجزا نفسـيّا يمنعهم مستقبلا من الدخول في الدّين.

بلى. لو امتـاز الفريقـان لعـذّب الله المشـركين والكافرين بسيوف عباده المؤمنين.

(**لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً**)

وفي الروايـات المـأثورة : إنّ الله ليـدفع البلاء عن القرية بـالمؤمن ، وجـاء في الحـديث القدسي : «**لـولا شيوخ ركّع ، وشباب خشّع ، وصبيان رضّـع ، وبهـائم رتّع ، لصببت عليكم العذاب صبّا**» [2].

[26] ولكن لماذا ينذر الله الذين كفـروا بالعـذاب في الآية السـابقة؟ هل لأنّهم من قـريش أم لقيمة مادية أخرى؟ كلّا .. إنّما للحميّة المرتكزة في قلوبهم.

(**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُـوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ**)

---

(1) هود / (119).
(2) كلمة الله / للشهيد الشيرازي ص (76).

فالحق ظاهر وبيّن لهم ، ويعلمون أنّهم على الباطل ، ولكن العـزّة بـالإثم (القيم الجاهلية الـتي درجـوا عليهـا) لا تدعهم يقبلون الحق ، ويسلّمون لقيادة الرســول ، فالقائد في نظرهم يجب أن يكون أكبر القوم سنّا ، وأكثرهم مـالا ونفرا ، فكيف يقودهم رجل يتيم لا مال له؟

لهـذا فـإنّهم وهم يحـاربون أتبـاع الرسـالة لم يكونـوا يـدافعون عن حــقّ يؤمنــون به ، وإنّما يحمــون أنفســهم ويـدافعون عن قيمهم الجاهلية ، بينما المؤمنـون يقـاتلون من أجل الله ، ويدافعون عن القيم والقائد الحق.

(**فَــأَنْزَلَ اللـــهُ سَـــكِينَتَهُ عَلى رَسُـــولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**)

بينما خذل من جهة أخـرى فلـول الكفّـار ، لأنّ هـؤلاء ينصــرونه فهم أولى بنصــره ، بينما ينصر أولئك أصــنامهم وشــهواتهم. ولعــلّ هــذه الســكينة كــانت أعظم وســيلة لنصــرهم ، فمن اطمــأنّ إلى ســلامة خطّه حــارب دونه بشــجاعة فائقة ، بينما الــذي يحــارب للعصــبيّات الزائفة ينهزم نفسيّا قبل أن ينهـزم عسـكريّا ، وقد قيل : الحـرب صراع إرادات ، ولا ريب أنّ إرادة صاحب السكينة أمضى.

(**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها**)

وكانت كلمة التقوى مقابل الحميّة التي تعشـعش في قلـوب الكـافرين ، ومن شـواهد الـتزام المؤمـنين بها في ســـلوكيّاتهم موقف رســـول الله (ص) حينما أراد التوقيع على الصلح ، فأنكروا عليه كلمة (الـرّحمن الـرّحيم) ، وأن يسمّى رسول الله ، فقد تنازل عن ذلك لمصلحة الرسـالة مع أنّ الموقف كان محرجا ولكنه (ص) لم تأخذه الحميّة ، ولم يســـمح للعواطف المســـتثارة أن تــؤثّر في خططه الرشيدة.

إنّ التقــوى ليست مجــرّد كلمة يقولها الإنســان ، بل هي برنامج متكامل والتزامات

يفرضها الـدّين على أتباعه ، ومن دونها لا يكـون أحد متقيا ، لأنّ للمتقي صــفات وعلامــات من أبرزها التزامه بقيمة التقوى في كلّ ظرف أو وضع نفسي يمرّ به ، فإذا سخط لم يخرجه ســـخطه عن رضى ربّه ، وإذا رضي لم يدخله رضـاه في سـخطه ، إنّما هو ملـتزم برضى الله ، يسـخط لسخطه ويرضى لرضاه عزّ وجل.

وجــاء في رواية عن أبي جعفر (ع): «**إنّما المــؤمن الــذي إذا رضي لم يدخله رضــاه في إثم ولا باطل ، وإذا ســـخط لم يخرجه ســـخطه من قـــول الحق ، والمؤمن الذي إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعـدّي وإلى ما ليس له بحق**» [1].

وقال الصــادق (ع): «**من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب ، وإذا اشــتهى ، وإذا غضب وإذا رضي ، حــرّم الله جسده على النار**» [2].

وعن رسول الله (ص) قال : «**ما أنفق مؤمن نفقة هي أحبّ إلى الله عــزّ وجــلّ من قــول الحــقّ في الرضا والغضب**» [3].

ولعـــلّ الآية تشـــير فيما تشـــير إليه الى أنّ المتقي الحقيقي يزيده الله تقـوى وإيمانا كلّما واجه ظرفا صـعبا ، لأنّه إذا عمل آنئذ بمــــوجب تقــــواه تكرّست في نفسه التقوى .. هكذا حين عمل المؤمنون حسب تقــواهم ، ولم تأخـذهم حمية الجاهلية ، ولم تـؤثّر فيهم إثـارات قـريش ، وصـدّهم إيّـاهم عن إقامة شـعائرهم ، بل قبلـوا بقـرارات القيــادة ، حينئذ أثـابهم الله على ذلك بتنمية روح التقــوى في أنفسهم.

(**وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**)

---

(1) بح / ج (71) / ص (358).
(2) المصدر.
(3) المصدر.

فهو محيط بمدى ما يستقلّه قلب الإنسان من التقوى ، ولا داعي لاثارة الجدل في كون فلان من المؤمنين أم لا ، وهل يدخل الجنة أم النـار ، لأنّ ذلك عند الله ، ولا ينبغي التطفّل فيما يختصّ به الربّ سبحانه.

[27] ثمّ يؤكّد ربّنا صدق وعده لرسوله (ص) بـدخول مكّة ، الأمر الذي يؤكّد جدوى الصلح ، وكونه الفتح المبين حقّا ، وخطأ تصوّرات البعض حوله ، حيث تصـوّروا أنّهم إذ أبرموا الصلح مع المشركين لم يحقّقـوا شـيئا ، وأنّ الرؤيا التي أخبرهم بها الرسول لم تكن صادقة.

(**لَقَـدْ صَـدَقَ اللـهُ رَسُـولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَـدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَـكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ**)

أي أنّ دخولكم هذه المرة سيكون دخول المنتصـرين .. وحدث ذلك فعلا في السـنة الثانية ، حيث فتحـوا مكّة ، وكلّ هذه المزايا والنتائج كانت مجهولة لدى المسلمين.

(**فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُـوا فَجَعَـلَ مِنْ دُونِ ذلِـكَ فَتْحـاً قَرِيباً**)

وهو صـلح الحديبية ، أمّا الفتح البعيد فهو فتح مكة الذي جـاء في أثر الصـلح ، وهـذا التأكيد من القـرآن على تسمية الصـلح بـالفتح إنّما كـان لبيـان حقيقة هامّة ، وهي وجوب اتبـاع القيـادة وطاعتها عند ما تختـار طريقا معيّنا ، بعيـدا عن العواطف ، ذلك أنّ من مشـاكل القيـادات الثورية الضـغوط الـتي تواجهها من قبل المتحمّسـين والمهيّـئين نفسـيّا للمواجهة ، فهم يريـدونها تسـتجيب لحماسـهم ، وإلّا فهي في نظر البعض جبانة وضـعيفة ، وعلى القائد أن لا يـترك الحكمة للحمـاس والعواطف لتكون قراراته حكيمة وحازمة.

إنّ الرسول (ص) واجه هذه المشكلة ، إذ كان البعض يستنكر عليه عدم محاربته المشركين ، وحينما صالح اعتبروا صلحه مذلة وإهانة ، بل ودليلا على ضعف سياسته ، ولو كان يستجيب لحماس هؤلاء ما كان المسلمون يبلغون ما بلغوا بعد الصلح ، كما واجه ـ أيضا ـ وصيّه الامام علي ـ عليه السّلام ـ في معركة صفّين معارضة من قبل المتشدّدين الذين سمّوا بعدئذ بالخوارج.

[28] وربّنا يؤكّد حكمة نبيّه ، وصحة قراراته ، لأنّه يتبع هدى الله ودينه ، فلا يصح إذن أن نخالفه أو نشكّك في قيادته.

(**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**)

والظهور (الانتصار) مرّة يكون بالحرب ، ومرّة عن طريق الصلح ، والربّ هو الذي أمر الرسول بالصلح مع المشركين ، وهو تكفّل بإظهار دينه ورسوله والمؤمنين به على سائر الديانات والأمم.

(**وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً**)

لقد تنامت أمواج الرسالة في العالم منذ انبعاث الرسول العظيم محمد بن عبدالله (صلّى الله عليه وآله) وإلى اليوم. أو ليس ذلك دليلا على تحقّق وعد الله في ظهور الإسلام على الدّين كلّه؟ وقد جاء في التقارير أنّ نموّ عدد المسلمين أكبر من ازدياد المنتمين الى أيّ ديانة أخرى؟ وهكذا تنتظر البشرية اليوم الحقّ الذي وعدها الله إياه حيث يظهر دينه على الدّين كلّه.

[29] ثم إنّ النبي الذي اتخذ قرار الصلح ليس قائدا عاديّا حتى يجوز معه النقاش. إنّه رسول الله الذي عصمه عن الخطأ ، ولم يكن الذين حوله من الرجال قد أصابهم الوهن حتى يجد نفسه مجبرا على الصلح ، فهم ليوث الأرض وفيهم أسد الله

وأسد رسوله علي (ع) الذي وتربه النبيّ صناديد قريش.

(**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ**)

فلا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يتأثّرون بالعواطف في جنبه ، قال الامام علي (ع): «**فلقد كنّا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وإنّ القتل ليدور على الآباء والأبناء والاخوان والقرابات ، فما نزداد على كلّ مصيبة وشدّة إلّا إيمانا**» [1].

وفي التاريخ أنّه (ع) جلس على صدر أخيه عقيل قبل إسلامه وقد جرّد سيفه ليقتله ، فنظر إليه أخوه وقال : أتقتلني يا علي ، قال : «إي والله ، إلّا أن تسلم». وأراد الرسول (ص) قتل رجل من المشركين فحاول الآخر استعطافه قائلا : ومن للأولاد وأمّهم بعدي ، ولكنّه لم يعبأ بكلامه بل قتله ، وقال : «لهم الله.» وفي الوقت الذي تتميّز الشخصية الايمانية بالحدّة والشدّة ضدّ الأعداء ، فإنّها في وجهها الآخر كلّها رحمة ولطف بإخوة المسيرة الواحدة.

(**رُحَماءُ بَيْنَهُمْ**)

هذا عن علاقتهم بالناس ، أمّا عن علاقتهم بالله ، فهي علاقة العبودية والخضوع المطلق .. يمارسون العبادة في كلّ حركة من حركاتهم ، وفي كلّ كلمة ينطقون بها ، لأنّ كلّ ما يصدر منهم هو تجلّ للصلاة والعبادات بأهدافها وقيمها.

(**تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً**)

إنّك تقرأ الصلاة في سلوكهم ، فهم متصلون بالله ، منتهون عن الفحشاء

---

(1) نهج / خ (122).

والمنكر ، صـادقون مع الآخـرين ، ملـتزمون بواجبـاتهم .. إلخ ، لأنّ العبـــادة في نظـــرهم ليست مجـــرّد الركـــوع والسـجود ، وبالتـالي الوقـوف عند الصـلاة بـذاتها ، وإنّما التحـــرّك في الحيـــاة بمقتضـــياتها وأهـــدافها ، وأبـــرز تلك الأهداف اثنان : ابتغاء فضل الله في الدنيا ، ورضـوانه في الآخرة.

(**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً**)

ولكثرة صـلاتهم وسـجودهم بالـذات والـذي يمثّل قمّة الخضـوع لله ، فإنّك تلحظ في جبـاههم أثر السـجود ، ولا ريب أنّ الآثار ـ الثفنات ـ لا تظهر إلّا بالمبالغة في العبادة.

(**سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**)

والامام علي ـ عليه السّلام ـ يصف أصـحاب رسـول الله (ص) فيقول : «لقد رأيت أصـحاب محمّد (صـلّى الله عليه وآلـــه) فما أرى أحـــدا يشـــبههم منكم! لقد كـــانوا يصبحون شعثا غـبرا ، وقد بـاتوا سـجّدا وقياما ، يراوحـون بين جباههم وخدودهم ، ويقفـون على مثل الجمر من ذكر معـــادهم! كـــأنّ بين أعينهم ركب المعـــزى من طـــول سجودهم! إذا ذكر الله هملت أعينهم حـتى تبـلّ جيـوبهم ، ومـادوا كما يميد الشـجر يـوم الـريح العاصف ، خوفا من العقاب ، ورجاء للثواب» [1].

وبيان الله لصـفات أصـحاب الرسـول (ص) إنّما يـأتي ليؤكّد الحقيقة التالية ، وهي أنّ صـاحب الرسـول حقّا من صحبه بقلبه وأخلاقه وقيمه ، فاقتـداؤهم بالرسـول جعلهم في تلك الدرجة لا مجـرّد معيتهم له ، وأنت أيضا تسـتطيع أن تكـــــــون من أصـــــــحاب الرســــــول (ص) إذا تخلّقت بـالأخلاق الـتي يـذكرها القـرآن ، وتشـير إليها خطبة

---

(1) نهج / خ (97).

الامام علي (ع).

ثم إنّ الرسالات الالهية بشّرت بهذا النبي وبمن حوله من أعلام الرسالة رهبان الليل وفرسان النهار.

(**ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ**)

وهم في حالة تكامل ورقي نحو الأكمل بصـــــــــورة منتظمة ، يشــبهون في ذلك الشــجرة الـتي تبــدأ بــذرة ، ولكنّها تتكامل شيئا فشيئا وتنمو إلى أن تصــير قويّة قائمة على سوقها.

(**كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَـطْأَهُ فَـآزَرَهُ فَاسْـتَغْلَظَ فَاسْـتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**)

إنّ القائد الذي يربّي هـؤلاء الرجـال في ظـلّ أفكـاره وقيادته كان يسـرّ إذ يـراهم ، أمّا الأعـداء فـإنّهم يتميّـزون غيظا وحنقا كلّما رأوا واحدا يترعرع في ظلّ قيمه ومبادئه ، مقاتلا وقائدا رساليّا يجاهد في سبيل الله تعالى.

وأصحاب النـبي محمّد (ص) الحقيقـيين هم المعـنيّون بالزرع في هذه الآية ، ولكن لا تعني صـحبة الرسـول صك البراءة من التكاليف الشــرعية ، والتحلّل من القيم الالهية ، فليس كلّ الذين عاصروا الرسول أو صـحبوه (حـتى من دون التمسّــك بأهــداف الرســالة) تشــملهم هــذه الآية ، والــدليل على ذلك أنّ الله لم يــترك الكلام مطلقا ، وإنّما خصّ بالغفران والثواب الذين أحسنوا الصحبة ، وأبلـوا بلاء حسنا في الطاعة له ونصر رسالته منهم.

(**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً**)

لذنوبهم وأخطائهم ، لأنّ مسـيرتهم العامة في الحيـاة مسـيرة سـليمة ، والحسـنات يـذهبنّ السـيئات كما ذكر القرآن.

(**وَأَجْراً عَظِيماً**)

جزاء لأعمالهم الصالحة.

والآية في هـذا المقطع تـدحض الفكـرة القائلة بـأنّ مجرد انتمـاء الإنسـان إلى شخص أو تجمّع صـالح يكفيه ، ويرفع عنه المســــؤولية ، كلّا .. فهو مطــــالب بتحمّلها والعمل وفقها حــــتى النفس الأخــــير ، كما قــــال الله : «**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**» [1] يعني بذلك المـوت ، أمّا أن نتصـوّر المسـؤولية تنتهي بكـون الفـرد عالما ، أو خطيبا ، أو منتميا إلى حركة إســـلامية فلا ، والتأكيد على هـذه الفكـرة مهم لأنّ الكثـير من النـاس يعتقـدون بـأنّ وصـولهم إلى مقـام ما يرفع عنهم المسـؤولية ، ويحوّلها إلى غيرهم.

وأخيرا : إذا كان للرسول (ص) أصحاب فإنّ له إخوانا يأتون فيما بعده ، وإذا لم نحظ بصـحبته فلنسـعى للتـآخي معه ، وذلك بالالتزام بمبادئه ، والسعي الى تحقيق أهدافه في الحياة.

فقد جاء في الخبر عن أبي ذر (رض):

قال : قال رسول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم): أتدرون ما غمّي؟ وفي أيّ شيء تفكـيري؟ وفي أيّ شـيء اشتياقي؟

فقلنا : يا رســـول الله ، أخبرنا عن ذلك ، فقـــال : أخـبركم إن شـاء اللـه. ثم تنفّس الصـعداء ، وقـال : هـاه شـوقا إلى إخـواني من بعـدي! فقلت : يا رسـول الله أو لسنا

---

(1) الحجر / (99).

إخوانك؟ قـال : لا ، أنتم أصـحابي ، وإخـواني يجـيئون من بعـدي ، شـأنهم شـأن الأنبيـاء ، قـوم يفـرّون من الآبـاء والأمّهات ، ومن الإخوة والأخوات ، ومن القرابـات كلّهم ، ابتغاء مرضاة الله ، يتركون المـال لله ، ويـذلّون أنفسـهم بالتواضع لله ، لا يرغبـون في الشـهوات وفضـول الـدنيا ، يجتمعـون في بيت من بيـوت الله كـأنّهم غربـاء ، تـراهم محزونين لخوف النار وحبّ الجنة ، فمن يعلم قدرهم عند اللـه؟ ليس بينهم قرابة ولا مـال يعطـون بها ، بعضـهم لبعض أشـفق من الابن على الوالد ، والوالد على الابن ، ومن الأخ على الأخ ، هاه شوقا إليهم! ويفرغـون أنفسـهم من كـدّ الـدنيا ونعيمها ، بنجـاة أنفسـهم من عـذاب الأبد ، ودخول الجنة لمرضاة اللـه. اعلم يا أبا ذر أنّ للواحد منهم أجر سبعين بدريّا.

يا أبا ذر! إنّ الواحد منهم أكـرم على الله من كـلّ شـيء خلق الله على وجه الأرض ، قلـوبهم إلى الله ، وعملهم لله. لو مـرض أحـدهم له فضل عبـادة ألف سـنة وصـيام نهارها وقيـام ليلها ، وإن شـئت حـتى أزيـدك يا أبا ذر؟ فقلت : نعم يا رسـول الله زدنا ، فقـال : لو أنّ أحـدا منهم إذا مـات فكأنّما مـات ما في السـماء الـدنيا ، من فضله على الله ، وإن شئت أزيدك؟ فقلت : نعم يا رسول الله زدني ، قـال : يا أبا ذر لو أنّ أحـدهم يؤذيه قملة في ثيابه ، فله عند الله أجر أربعين حجّة ، وأربعين عمـرة ، وأربعين غـزوة ، وعتق أربعين نسـمة من ولد إسـماعيل ، ويدخل واحد منهم اثني عشر ألفا في شفاعته.

فقلت : سبحان الله! فقال النبي : أتعجبون من قولي ، وإن شئتم حـتى أزيـدكم؟ قـال أبو ذر : نعم زدنا ، فقـال النبي :

يا أبا ذر! لو أنّ أحدا منهم اشتهى شهوة من شـهوات الدنيا فيصبر ولا يطلبها ، كان له من الأجر بـذكر أهله ، ثم يغتم ويتنفس ، كتب الله له بكلّ نفس ألفي

ألف حســنة ، ومحا عنه ألفي ألف ســيئة ، ورفع له ألفي ألف درجة ، وإن شئت حتى أزيدك يا أبا ذر؟ قلت : حبيبي يا رســول الله زدني : قــال : لو أنّ أحــدا منهم يصــبر مع أصـحابه لا يقطعهم ، ويصـبر في مثل جـوعهم وفي شـدّة غمّهم ، كان له من الأجر كأجر سبعين ممن غزا تبوك.

وإن شئت حتى أزيدك؟ قلت : نعم زدنا ، قال : لو أنّ أحدا منهم يضع جبينه على الأرض ، ثمّ يقـول : آه ، فتبكي ملائكة السموات السـبع لـرحمتهم عليه ، فيقـول الله : يا ملائكــتي مــالكم تبكــون؟ فتقــول : يا إلهنا لا نبكي ووليّك على الأرض يقـــــول في وجعه «آه» ، فيقـــــول الله : يا ملائكتي اشهدوا أنتم أنّي راض عن عبدي بالذي يصبر في شدة ولا يطلب الراحة ، فيقـول الملائكة : يا إلهنا وسـيّدنا لا تضر الشـدة بعبـدك ووليّك ، بعد أن يقـول هـذا القـول! فيقول : يا ملائكتي إنّ وليي عندي كمثل نبيّ من أنبيائي ، ولو دعــاني ولــيي وشــفّع بخلقي شــفّعته في أكــثر من ســبعين ألفا ، ولعبــدي وولــيي في جنــتي ما يتمنّى ، يا ملائكتي وعزّتي وجلالي لأنا أرحم بوليي ، وأنا خـير له من المال للتـاجر ، والكسب للكاسب ، وفي الآخـرة لا يعـذّب وليي ، ولا خوف عليه.

ثم قال رسول الله : طوبى لهم يا أبا ذر ، لو أنّ أحدا منهم يصلّي ركعتين في أصـحابه أفضل عند الله من رجل يعبد الله في جبل لبنان حتى عمر نـوح ، وإن شـئت حـتى أزيدك يا أبا ذر؟ لو أنّ أحدا منهم يسبّح تسـبيحة ، خـير له من أن يصــير معه جبــال الــدنيا ذهبا ، ونظــرة إلى واحد منهم أحبّ من نظرة إلى بيت الله الحـرام ، ولو أنّ أحـدا منهم يمــوت في شــدّة بين أصــحابه له أجر مقتــول بين الركن والمقام ، وله أجر من يموت في حـرم الله ويدخله الجنة ، وإن شــئت أزيــدك يا أبا ذر؟ قلت : نعم ، قــال : يجلس إليهم قــوم مقصّــرون مثقلــون من الــذنوب فلا يقومــون من عنــدهم حــتى ينظر الله إليهم ، فــيرحمهم ويغفر لهم ذنوبهم لكرامتهم على الله.

قـال النـبي : المقصّـر فيهم أفضل عند الله من ألف مجتهد من غيرهم.

يا أبا ذر! إنّي إليهم لمشـــتاق ، ثم غمّض عينيه فبكى شـوقا ، قـال : اللهمّ احفظهم وانصـرهم على من خـالف عليهم ، ولا تخذلهم ، وأقرّ عيني بهم يـوم القيامة «**أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**» [1].

---

(1) كلمة الرسول الأعظم / للشهيد الشيرازي ص (369).

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتـاب ثـواب الأعمـال قـال : «**من قـرأ سـورة الحجرات في كلّ ليلة أو في كلّ يـوم كـان من زوّار محمّد (صلّى الله عليه وآله)**».

نور الثقلين / ج 5 / ص 79

الإطار العام

تفتتح السـورة بوصـايا قيمة في أدب التعامل مع الرسـول والقيـادة الالهية ، وتختتم ببيـان حقيقة الايمـان ، وتتواصل بينهما الآيـات تنظّم علاقة المسـلمين ببعضـهم على أساس الاخوة ، وعلاقة البشرية ببعضهم على قاعدة المساواة.

تعالوا الآن نتدبر في هذا السياق المعجز :

ألف) لأن علاقة الأخوة تتعـرض لهـزات قد تبلغ درجة الاقتتـال بين المؤمـنين ، فلا بد من قـوة داخلية تمسك الامة من أن تتشرذم فتتلاشى ، وما تلك القوة إلا القيـادة الرسـالية الـتي لا بد أن يسـمو احـترام الأمة لها الى مسـتوى رفيع ، بـألّا يتقـدموا بين يـدي الله ورسـوله في الـرأي أو القـول أو المشي أو أية ممارسة عملية ، ولا يرفعوا صوتهم فوق صـوته ، ولا يجهـروا له في الكلام كما يتحـادثون بينهم. وقد بشر الـذين يغضـون أصـواتهم عند رسول الله بأنهم قد طهر الله قلـوبهم للتقـوى ، وأن لهم مغفرة وأجرا عظيما. أما الذين لا يحترمون الرسـول ، ولا يراعون حرمة الحجرات التي بنيت من أجل توفـير الراحة ، فينادون الرسول من ورائها ، فان أكثرهم لا يعقلون. فلا يعرفون

حرمة القيــادة الالهية ، ولا حرمة الآداب المرعية ، وكــان أولى بهم أن يصبروا حتى يخـرج إليهم الرسـول فيحـدثوه عن شؤونهم (الآية 5).

بــاء) وبعد أن يرسي السـياق احـترام القيـادة وآداب التعامل معها ، وطبيعة العلاقة معها بعدئذ يـأمر المؤمـنين بـــالتثبت في أمـــورهم ، وعـــدم الاسترســـال مع أنبـــاء الفاســـقين ، لأنهم قد يصـــيبون بـــذلك قوما بجهالة ثم يندمون على ذلك. وبهذا يقطع الطريق على مثـيري الفتن بين المسـلمين وسـائر التجمعـات البشـرية ، ويضع قانونا لمثل هـذه الأمـور ويـأمر بمراجعة القيـادة والتسـليم لها وعدم ممارسة الضغط عليها ، أو ليس الرسول قد جاءهم من عند الله بنـور الايمـان؟ أو ليس ــ إذا ــ أهـدى منهم سـبيلا؟ أو ليس من واجب الشـكر ألا يخـالفوه في قضـية هامة كاتخـاذ موقف من طائفة معينـة؟ ومـاذا لو أطـاعهم الرســول في جهلهم أو لا يســبب ذلك في العنت عليهم؟ وربما أشـارت الآية (7) الى أن مخالفة الرسـول نـوع من الكفر والفســـوق أو العصـــيان حسب درجـــات المخالفة ومواردها ، وإن من فضل الله عليهم أن زين في قلـــوبهم الايمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان. فلا يعـودوا إليه ليفقدوا أعظم نعمة أسبغها عليهم ربهم.

جيم) وفي سياق حديثه عن علاقة المسلمين ببعضهم يفك القـــرآن أولا أصـــعب عقـــدة فيها متمثلة في حالة نشـوب قتـال أهلي بينهم ويقـول : لو اقتتل طائفتـان من المسلمين فلا بد من الإصـلاح بينهم ، وبأية وسـيلة ممكنة ثم إقامة العـــــدل بينهم ، ولكن إذا بغت إحـــــداهما على الاخــرى ، ولم تسـلم للإصـلاح فلا بد من تحمل جمــاهير الامة لمســـؤولياتها الخطـــيرة المتمثلة في محاربة الفئة الباغية ، حـتى تفيء الى أمر الله وتقبل الصـلح والتحـاكم الى الشــريعة المقدسة ، فــان فــاءت تقــوم الامة بنشر العدالة في أوساطها والقسط (9).

ويرسي القـرآن قاعـدة الاخـوة بين المؤمـنين لتكـون محـــورا أساســـيا للعلاقة بينهم ، ولطائفة من التعـــاليم والانظمة والآداب أبرزها ضرورة الإصـلاح بين الاخـوة لعل الله يرحمهم بذلك (10).

دال) ولكي نقتلع جـذور الصـراع ، ثم لكي نعيش في ودّ ووئـــام لا بد أن نطهر قلوبنا من عقد التعـــالي فـــوق بعضـــنا ، كلا .. فنحن جميعا بشر متســاوون لا يجـــوز أن يسخر قوم من قوم عسى أن يكونـوا خـيرا منهم عند الله وفي عالم الواقع ، فيكون اسـتهزاؤهم بهم محض سـفه ، ومجـــرد خســـارة لهم للمكاسب الــتي يمكنهم الحصـــول عليهـا. كما لا يجـوز أن تسـخر نسـاء من نسـاء عسى أن يكن خيرا منهن.

وحـتى إذا ألقى الشـيطان في أنفسـنا هـذه النظـرة الشاذة ، فلا يجوز أن نفصح عنها ، وأن نعيب بعضـنا أو أن نتبـادل الألقـاب البذيئـة. أو لسـنا مسـلمين قد طهر الله حياتنا من كل قذارة. فلما ذا نسمي بعضنا بأسماء الفسق وقد أكرمنا الرب بأسماء إسلامية رفيعة المستوى؟ (**بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ**) (11).

ونهـــدم علاقاتنا ببعضـــنا إذا استرســـلنا مع الأوهـــام والشـــكوك والظنـــون الـــتي تثيرها الأحقـــاد أو الحـــالات النفســية أو الاشـــاعات المغرضة وهكــذا يــأمر الإســلام باجتنـاب كثـير من الظن ويؤكد أن بعض الظن إثم ، ولعله الـــذي نتحقق منه بالتجسس ، أو نجعله موقفا لحياتنا ولو ظننا ســـوء فلا يحبذ التحقق منه ، وهكـــذا ينهانا الـــدين ويقـول «ولا تجسسـوا» وإذا عرفنا من أخينا عيبا مسـتورا فلا يجـــوز أن نشـــيعه عليه من وراء ظهـــره بالغيبة ، لأنه بمثابة أكل لحم أخينا ميتـا. أو ليس ذلك نيلا من كرامتـه؟ وكرامته أعظم أم بدنه (12)؟

هاء) ثم يرسي السياق قاعدة التوحيد التي ترفض أي نوع من التمييز المادي بين الإنسان والإنسان ، ويؤكد ربنا أن أصل البشرية واحد ، آدم وحواء ، فلا

تفـــاخر في الأنســـاب ، وان الحكمة من جعلهم شـــعوبا وقبائل هو التعارف وليس التدابر والتسامي ، فـاذا عـرف بعضـهم بعضا ضـبطت المسـؤوليات والحقـوق وتهيـأت فرصة العدالـة. بلى. إن هنـاك تمـايزا واحـدا هو التقـوى. فـان أكـرم الخلق عند الله أتقـاهم. ومن معـاني التقـوى سلامة الفكر واستقامة السلوك ، وبـذلك يكـون التنـافس على ما يقدم البشرية نحو أهدافها النبيلة (13).

واو) وفي الدرس الأخير يفسر السياق التقـوى ببيـان أصلها المتمثل في الايمان ربما لكي لا يـدّعيها الطـامعون والانتهازيون فيقول : «**قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا**».

وكـانوا طائفة التجـأوا الى المدينة طمعا في خيراتها بعد أن أجـدبت أراضـيهم ، ونفى عنهم القـرآن إيمـانهم ، ولكن لم ينف أنهم مسلمون كما لم ينف أجـرهم عند الله ، إن هم أطـاعوه وأطـاعوا الرسـول. أو ليس الله غفـورا رحيما؟

وهنـاك مقياسـان نسـتوحيهما من القـرآن للايمـان : عدم الشك خصوصا عند ما تخالف تعاليم الـدين أهـواءهم ومصـالحهم ، والجهـاد بالمـال والنفس في سـبيل الله ، فمن فعل ذلك فقد كان صادقا في إيمانه.

ويزعم البعض ان ادعـاءه الايمـان يكفيه ، وكأنه يعلم الله بدينه ، (**وَاللـــهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**).

وتـرى بعضـهم يمنـون على الرسـول إسـلامهم ـ كأعراب البادية الآنف ذكرهم ـ والله يمنّ عليهم بالايمان ، لأنه نعمة كبري إن كانوا صادقين في ادعائه (14 ـ 17).

ويختم القرآن السورة بـأن الله يعلم غيب السـماوات والأرض وأنه بصـــير بما يعمل الخلق ، ولعله تحـــذير من ادعاء الايمان لمصالح مادية (18).

سورة الحجرات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لا تُقَــدِّمُوا بَيْنَ يَــدَيِ اللــهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللــهَ سَــمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَـرُوا لَـهُ بِـالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِـكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَـطَ أَعْمــالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْــعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّــونَ أَصْواتَهُمْ عِنْـدَ رَسُـولِ اللـهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللـهُ قُلُــوبَهُمْ لِلتَّقْـوى لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُــونَ (4) وَلَـوْ أَنَّهُمْ صَـبَرُوا حَتَّى تَخْـرُجَ إِلَيْهِمْ لَكـانَ خَيْـراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)**

---

(1) (**لا تُقَدِّمُوا**) : لا تتقدّموا.

(3) (**يَغُضُّونَ**) : يغضونها ولا يرفعونها.

لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ

بينات من الآيات :

[1] الامة المؤمنة أمة ملتزمة تسـلم لقيادتها الشـرعية بوعيها الـديني ، وتسـتقبل أوامرها برضا واطمئنان ، وتحـترم القيـادة لأنها من عند الله ، وهي أشد حبا لله من كل شيء ــ ولأن أفئـدة أبنائها قد طهـرت من الكـبر والعنجهية وامتحنت للتقـوى ــ وهي لـذلك أمة منضبطة لا تسترسل مع الأحـداث بل تنتظر أوامر القيـادة الراشـدة ، ولا تجرفها ريـاح الفتن ، بل يقودها المنهج العلمي الرصين القائم على أساس التثبت والتبيّن.

هكـذا أدب الله المؤمـنين عند ما وجه إليهم بالـذات خطابه قائلا :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**)

فقالوا لبيك يا رب.

(**لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ**)

ما دمتم بين يـــــــدي الله يحيط بكم علمه وقدرته ، ويرعاكم بسمعه وبصـره فلا تقـدموا شـيئا على أمر الله ، ولا تتقــدموا قبل أن تســتمعوا الى أمــره وأمر الله يبينه رسـوله الأمين ، الـذي أنتم بين يديه ، أو ليس هو الامـام والقائد.

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)

بلى. لا بد أن تستوعب التقـوى كافة شـؤون الحيـاة ، فما من شأن إلّا ولله فيه حكم لا يجوز تجاوزه ، والمتقون يبحثـون أولا عن حكم الله قبل أن يبـادروا بالعمل في أي حقل.

ومن هنا وجب التفقه في الدين وتعلم أحكامه تمهيـدا للعمل بها ، وجاء في الحديث المروي عن الامام الصــادق (عليه السّـلام) في تفسـير قـول الله سـبحانه (**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ**) قال :

«**إن الله تعالى يقـول للعبد يـوم القيامة عبـدي أكنت عالما؟ فان قـال نعم قـال له : أفلا عملت بما علمت ، وإن قال : كنت جـاهلا قـال له : أفلا تعلمت حتى تعمل فيخصم بتلك الحجة البالغة**» [1].

وإذا لم يجد المــــــؤمن في الفقه حكم الحـــــوادث المستجدة أو المتطورة فان عليه أن يراجع الفقهاء الـذين يسـتنبطون ذلك الحكم من القواعد العامة الموجـودة في الشـــريعة. ذلك انه ما من حادثة إلّا وللـــدين فيها حكم ، ابتـداء من بصـائر الـوحي في حكمة الحيـاة ، ومقـاييس المعروف والمنكر حتى حكمه في أرش الخدش.

قـــال الله تعـــالى : «**ما فَرَّطْنا فِي الْكِتـــابِ مِنْ شَيْءٍ**» [2].

(1) بحار الأنوار / ج 2 / ص 29
(2) الانعام / 37

وقال رسول الله في حجة الوداع :

«**أيها النـاس! اتقـوا الله ما من شـيء يقـربكم من الجنة ويباعـــدكم من النـــار إلّا وقد نهيتكم عنه وأمرتكم به**» [1].

وجاء في الحديث الشريف عن أبي أسـامة قـال كنت عند أبي عبد الله الامـام الصـادق (عليه السّـلام) وعنـده رجل من المغيرية (أتبــاع المغــيرة بن ســعيد وكــان من الغلاة لعنة الله عليه ولعله كـان يقـول بـالتفويض) فسـأله عن شيء من السنن فقال : «ما من شيء يحتاج إليه ولد آدم إلّا وقد خرجت فيه السنة من الله ومن رسوله ، ولولا ذلك ما احتج علينا بما احتج».

فقال أبو عبد الله قوله : «**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـيتُ لَكُمُ الْإِسْـلامَ دِينـاً**».

فلو لم يكمل ســنته وفرائضه وما يحتــاج اليه النــاس ما احتج به [2].

وقـال عليه السّـلام : «**ما رأيت عليا قضى قضـاءه إلّا وجدت له أصلا في السنة. قال وكان علي يقـول : لو اختصم إليّ رجلان فقضــــــيت بينهما ثم مكثا أحوالا كثيرة ثم أتياني في ذلك الأمر لقضيت بينهما قضاء واحدا لأن القضاء لا يحول ولا يزول**» [3].

وسواء كـان الحكم الالهي واردا في خصـوص المـورد أو في الأصل العام الذي يشمله فانه بالتــالي حد لا يمكننا تجـاوزه ولا يجـوز لنا أن نـزعم أن الله فـوض أمـره إلينا ، وحتى الأئمة المعصومون كان لا بد لهم الفتيا وفق الكتاب والسنة ، وقد أكدوا ذلك

(1) بحار الأنوار / ج 2 / ص 171
(2) المصدر / ص 169
(3) المصدر / ص 172

لنفي مزاعم بعض القائلين بالتفويض.

فقد سـأل رجل أبا عبد الله الامـام الصـادق (عليه السّلام) فأجابه فيها فقـال الرجل : إن كـان كـذا وكـذا ما كـان القـول فيها (لعله زعم ان الافتراضـات الجديـدة لا حكم لها في الشـريعة) فقـال له : «**مهما أجبتك فيه بشـيء فهو عن رسـول الله لسـنا نقـول برأينا من شيء**» [1].

وروي سماعة عن الامام أبي الحسن عليه السّلام أنه قال : قلت له كل شيء تقول به في كتاب الله وسـنته أو تقولون برأيكم؟ قال : «**بل كل شيء نقوله في كتـاب الله وسنته**» [2].

فلكي لا نتقـدم على الرسـول ، ولا يسـوقنا الهـوى والجهل لا بد من التفقه في الـدين ومعرفة أصـول الحكم فيه والانبعاث منها لمعرفة الحياة وتفاصيل سلوكنا فيها.

[2] ذلك كان أدب التعامل مع الرسول (ص) والقيادة الرسـالية ، وأما أدب التحـادث معه فقد بينته الآية الـتي تخاطب المؤمنين للتذكرة بأن مثل هـذه الآداب من علائم الايمان ومن شروطه. وقد جـاء في الحـديث المـأثور عن الامام الباقر عليه السّلام أنه ما خوطب المسـلمون بهـذه الكلمة إلّا عند إسلام الأوس والخزرج قال الامام :

ما سلت السيوف ، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحـوف (حـرب) ولا جهر بـأذان ، ولا أنـزل الله «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**» حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج [3].

---

(1) المصدر / ص 173

(2) المصدر

(3) نور الثقلين / ج 5 / ص 80

ويبـدو أن سـبب ذلك تكـوّن المجتمع الاسـلامي عند إسلام هاتين الطائفتين.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَرْفَعُـوا أَصْـواتَكُمْ فَـوْقَ صَوْتِ النَّبِي**)

وتتسع الآيات للأحكام التالية :

أولا : إذا تحـدثوا الى الرسـول خفضـوا أصـواتهم احتراما للرسـول ، وللـوحي الـذي يحتمله .. إن هـذا السـلوك المهـذب يعكس مـدى احـترام الأمة للرسـول وللقيـادة الوريثة ، ذلك الاحـترام الـذي يسـاهم في تنفيذ القرارات بوازع نفسي وبيسر وبلا تكلف.

ثانيا : لا يجادلون الرسول فيما يأمر به ، فهو من أبرز مظاهر رفع الصوت عند الرسول ، ولا يجادلوه بما يؤذيه.

ثالثا : إذا قضى الرسول بشيء يسلموا له ولا يرفعـوا صوتهم بالمعارضة.

وقد ذكر المفسـرون في أسـباب نـزول هـذه الآيـات موارد شتى تنطبق على كل هـذه الأحكـام ، ولعلهم كـانوا يقصدون تأويل الآية ، وتطبيقها على تلك الموارد.

فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم : أنها نـزلت في وفد بني تميم كانوا إذا قدموا على رسول الله وقفوا على بـاب حجرته فنـادوا يا محمد أخـرج إلينا ، وكـانوا إذا خـرج رسول الله تقدموه في المشي ، وكانوا إذا كلمـوه رفعـوا أصـواتهم فـوق صـوته ويقولـون : يا محمد (يا محمـد) ما تقول في كذا كما يكلمون بعضهم فأنزل الله هذه الآيات [1].

وهذا تأويل يتطابق وأول الأحكام التي استوحيناها من الآية الكريمة ، وهو ظاهر الآية.

---

(1) المصدر

وروى البخاري أن الآية نـزلت في أبي بكر وعمر حين قدم على النبي ركب بني تميم فأشار أحدهما بـالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر فقـال أبو بكر لعمر : ما أردت إلّا خلافي فقـــال : ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله عزّ وجلّ الآية [1].

وروي أن النـبي صـلّى الله عليه وآله وسـلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى الى خيبر فأشار عليه عمر برجل آخر فنزلت الآية [2].

وهذان الحدثان يتناسبان والحكم الثاني والثالث ، مما يشـهد على أن للآية تطبيقـات عديـدة يجمعها النـبي عن معارضة الرسول بأي صورة ما كانت.

(**وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**)

كانوا إذا حضروا رسول الله خاطبوه باسمه بعيدا عن جلال النبوة ، وكان المنـافقون بالـذات يرفعـون أصـواتهم ليسـقطوا أبهة القيـادة عن أعين النـاس ـ فجـاء القـرآن ينهاهم عن ذلك ويعلمهم أدب الحديث مع الرسول ـ ومن خلال ذلك مع كل قيادة شرعية.

ولعل الآية تشـــمل النهي عن انتقـــاد آراء القيـــادة الرسـالية علنا ، مما يسـبب وهنا في عزيمة الأمة وتقليلا من شأن مصدر القرار.

من هنا قـال البعض : إن حرمة كلام النـبي اليـوم كحرمته في مشـهده ، فـاذا قـرئ على جمع كلامه وجب عليهم أن ينصـتوا اليه ، لأن حديثه وحي من عند اللـه. ألم يقل ربّنا سـبحانه : «**وَما يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوى إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى**» فذات

---

(1) تفسير القرطبي (باختصار) / ج 16 / ص 303

(2) المصدر / ص 301

الملاك الذي فرض به الإنصـات عند تلاوة القـرآن موجـود في سـنة الرسـول. وقد قـال ربّنا سـبحانه : «**وَإِذا قُـرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا**» [1].

(**أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ**)

لما ذا يسبب الاستخفاف بالقيادة الشـرعية حبطا في العمل؟ لعل السبب يتلخص في أمرين :

أولا : إن أغلب الفـرائض تـروّض النفس وتطهّرها من الكبر. فاذا طغت النفس وتكـبرت على القيـادة الشـرعية فقد تبين ان هدف الفرائض لم يتحقق ، فاحبطت الصـلاة التي تكـرس الذاتية ، بـدل الخشـوع ، والزكـاة الـتي تزيد الهـوة والطبقية في الامة ، والحج الـذي يـورث صـاحبه التعـالي والتفـاخر ، والصـيام الـذي لا يـورث التقـوى في النفس ، إنّها جميعا عرضة للاحبـــــــــاط لأنها لم تحقق أهدافها.

ثانيا : إن الولاية عمد الدين ، فـاذا سـقط العمد مـاذا يبقى من الـدين؟ أليس الـدين نظـام اجتمـاعي متكامل يدور حول محور القيـادة الشـرعية؟ فـاذا ذهبت أنهـار كل شيء.

(**وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**)

إن أعظم الأمراض خطرا ذلك المرض الـذي لا يحس به المبتلى ، لأنه لا يبادر لمعالجته وقد لا يقتنع بالمعالجة ، كذلك أخطر الذنوب الذنب الذي لا يشعر به المتـورط فيه لأنه يســير به في طريق جهنم وهو يــزعم أنه من أهل الجنة ، ومخالفة القيادة من هذه الذنوب قال الله سبحانه : «**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ**

---

(1) الأعراف / 204

سَـــعْيُهُمْ فِي الْحَيـــاةِ الـــدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَـــبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» [1].

ونتسـاءل:لمـاذا لا يشـعر الإنسـان بخطـورة مخالفة القيادة الشرعية أو الاستخفاف بها؟

ويبدو ان النفس تسول لصاحبها بعض الذنوب بصورة تجعلها حسنات ، فهي كمـرض النـوم (تسي تسـي) يجعل ضـحيته يخلد الى النـوم حـتى المـوت ، وكلما اقـترب الى نهايته كلما أوغل في اللاوعي.

ثم ان حبط العمل بذاته من الأمـــور الـــتي يصـــعب التحسس بهـــا. أرأيت لو قيل لك أن ثـــواب حجتك الـــتي أرهقت بها نفسك ، وأنفقت فيها مالا كثيرا قد ذهب أدراج الرياح بمجرد رفع صوتك في مجلس القيادة الشـــرعية. لا تصدق بذلك بسهولة ولكنه هو الواقع.

وأبسط دليل على تزيين الشيطان لنا مخالفة القيـادة الشرعية ان المسلمين اليوم ـ كما في التـاريخ ــ يتولـون عن قيادتهم دون أدنى إحساس بالـذنب ، بل تـرى الكثـير منهم يزعم أن لا علاقة للدين بشؤون الحيـاة الفعلية ، فلا حاجة الى الامام والقيادة الشرعية اليوم.

[3] هل تريد أن تعرف مدى قبول أعمالك الصـالحة ، قبل يـوم القيامة ، أي قبل فـوات الأوان؟ إذا تعـال وقس نفسك بميزان القـرآن كيـف؟ أليست الفـرائض ذات حكم وفوائد تتجلى في حيـــــاة البشـــــر؟ بلى. إذا دعنا نقيس أنفســـنا بمـــدى تحقق تلك الحكم والفوائد في أنفســـنا وواقعنا من خلال الفرائض.

هل قبلت صـــلاتك أم لا؟ أنظر الى نفسك هل انتهت عن الفحشاء والمنكر

---

(1) الكهف / 104

واقتربت الى ذكر الله. فان كانت ، فقد قبلت صلاتك.

وهل تقبل منك الصيام؟ انظر الى مدى التقوى في نفسك ، فان زادت تقواها ، فقد تقبّل صيامها.

وبكلمة : إذا وجدت في نفسك علائم الايمان فاعرف بقبول إيمانك. ومن أبرز علائمها التسليم لقيادة الرسول من دون حرج ، ورعاية آداب التعامل معه ، فذلك دليل زكاة القلب ، وطهارته بالايمان.

(**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى**)

وإذا كان معنى الامتحان لغويا تطهير الذهب من الشوائب بصهره ، فان امتحان القلب بمعنى تزكيته من الشك والشرك والكبر والحسد حتى يتهيأ للتقوى أي اتقاء الشهوات والذنوب ظاهرا وباطنا.

أما إذا كان الامتحان ـ في اللغة ـ بمعنى امتداد الجلد فمعناه هنا اتساع القلب للمعارف الإلهية مما يجعله يستوعب كلمة التقوى.

إن التقوى بذرة مباركة لا تنمو إلّا في الأرض النقية.

(**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**)

لأن طاعة الرسول (والقيادة الشرعية) والتأدب في حضرته واحترام مقامه ، إنها جميعا تشفع للذنوب فيغفرها الله ، كما ان معصية الرسول والاستخفاف بمقامه ومجافاته تحبط الأعمال الصالحة.

[4] أما الذين لم تصقل آداب الرسالة نفوسهم ، ولم تصلح سلوكهم فتراهم يغلظون القول مع الرسول ، ويرفعون أصواتهم فوق صوته ، ولا يراعون حرمة البيوت التي لا بد أن تحجرهم عن الإيذاء .. فإنهم لا يعقلون ، وأي عقل لمن لا يحترم مقام الرسالة ، ولا يكرم العلم ولا يعترف بدور القائد القائم بتنظيم الحياة.

(**إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**)

ولماذا أنشأت الحجرات؟ أليس لتكون سورا تحجر الأذى عمن يسكنها؟

فمن معالم المدنية احترام البيوت ، وعدم انتهاك حرمتها ، سواء بدخولها عنوة أو بإلقاء حجارة أو أذى عليها أو بتسبيب أذى لأهلها ، مثل رفع الصوت المزعج أو إثارة الغبار المؤذي أو تلويث البيئة المضر بأهل البيت ، كل ذلك يعتبر انتهاكا لحرمة البيت ، ومخالفة لحكمة وضع البيوت ، وتعديا على مكان أمن الناس ، ولعله لذلك سميت هذه السورة بالحجرات ، لأن الحجرة تشكل ظاهرة حضارية ، خصوصا إذا كان في الحجرة شخص رسول الله صلّى الله عليه وآله.

جاء في الأثر عن سبب نزول هذه الآية عن زيد بن أرقم أتى أناس النبي صلى الله عليه وآله فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى هذا الرجل فان يكن نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه وإن يكن ملكا نعش في جنابه ، فأتوا النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد يا محمد! فأنزل الله تعالى هذه الآية [1].

[5] إن للقائد ظروفه الخاصة ، ومهامه التي تكون ـ غالبا ـ ذات صبغة عامة ، ولا بد للناس من رعايتها حتى يسهل عليه أداؤها بأفضل وجه .. أما إذا زاحموه خصوصا في الشؤون الخاصة ، وخلطوا عليه الأوراق ثم انصرف عن مهامه العامة

(1) تفسير القرطبي / ج 16 / ص 309

فان الضرر يكون عليهم جميعا.

(**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَـبَرُوا حَتَّى تَخْـرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَـانَ خَيْـراً لَهُمْ**)

فما دام القائد هو الـذي بيـده القـرار وعليه مسـئولية التنفيذ فلا بد من إعطــاء صــلاحية ذلك له ومنحه الفرصة المناسبة ، وعدم التدخل في جزئيات عمله.

ثم إن الرسول حين يكمل أعماله في البيت ثم يخرج إليهم يكون أكثر استعدادا لاستقبالهم وبالتالي يكون خـيرا لهم.

(**وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

فلو لم يــراع أحد هــذه الآداب مع الرســول وارتكب بذلك خطيئة فلا ينبغي أن يقنط من رحمة الله.

جــاء في الأثر : إن ثـابت بن قيس بن شـماس كـان رفيع الصـوت فافتقـده النـبي صـلى الله عليه وآله فقـال رجل : يا رســول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتــاه فوجــده جالسا في بيته ، منكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك فقـال : شر كان يرفع صوته فوق صـوت النـبي فقط حبط عمله وهو من أهل النار فأتى الرجل النبي صـلّى الله عليه وآله فأخبره انه قال كذا وكذا ، فقال النـبي : «اذهب اليه فقل له : إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة» [1].

---

(1) المصدر / ص 304

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَـإٍ فَتَبَيَّنُـوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَاعْلَمُـوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُـولَ اللـهِ لَـوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْـرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللـهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمـانَ وَزَيَّنَـهُ فِي قُلُـوبِكُمْ وَكَـرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْـرَ وَالْفُسُـوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِـدُونَ (7) فَضْـلاً مِنَ اللـهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

---

(7) (لَعَنِتُّمْ) : لوقعتم في العنت ، والعنت هو المشقّة.

إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا

هدى من الآيات :

لكي نحصن التجمع الاسلامي من التهافت والتآكل لا بد أن ننمي فيه احترام القيادة الشرعية ، ونحصنه من إشاعات الفاسقين الذين دأبهم تخريب العلاقات ، ونجعل قرار الرسول (أو من يخلفه) هو الحكم الفصل في العلاقات ، ونشكر الله (بذلك) على إسباغ نعمة الايمان علينا حين حببه الى نفوسنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق. أو ليس ذلك فضل عظيم ونعمة من الله (اجتبى لهما الصالحين من عباده) بعلم وحكمة؟

والملاحظ ان السياق كرس القيادة الاسلامية واحترامها قبل كل شيء ، لأنها الضمانة لسائر التعاليم كما أكد على مسئولية الامة تجاه الصلح بين طوائفها ضمانة أخرى لذات التعاليم.

بينات من الآيات :

[6] في كتـاب ربنا الكـريم شـفاء لأمـراض المجتمع المستعصـية لو استشـفيناه ، ونفـذنا تعاليمه .. والصـراع أعظم تلك الأمـــراض الـــذي يقتلع نهج القـــرآن جـــذوره البعيـدة. ألا تـرى كيف يحصن التجمع الايمـاني من ريـاح الفتنة بتذكير المسلمين عن دور الأنبياء الكاذبة الـتي يبثها الفسـقة فيفرقـون بين النـاس .. ونهيهم عن الاسترسـال معها ، لأنها تؤدي الى معارضة قـوم أبريـاء مما يجر إليهم ندامة وحسرة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا إِنْ جــاءَكُمْ فاسِــقٌ بِنَبَــإٍ فَتَبَيَّنُوا**)

ذلك ان دوافع الفاسق ومنطلقاته شـــــــيطانية فقد يكذب أو يمشي بنميم أو ينقل جانبا من الحقيقة ويسـكت عن سائر الجـوانب .. فـاذا قبلنـاه على علّاته فسـوف نقع في أخطاء جسيمة ، أبرزها إثارة الفتن في المجتمع.

الفاسق الذي تجاوز الحدود الالهية لا يمكنه أن يكـون موجها للامة ، ومجـــرد الاســـتماع الى نبـــأه دون تحقيق وتثبيت يجعله في مقام التوجيه.

(**أَنْ تُصِــيبُوا قَوْمــاً بِجَهالَــةٍ فَتُصْــبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ**)

أي لكي لا يـــورطكم الفاسق في معارضة فئة مؤمنة من دون تحقيق منكم ، ثم تندموا بعد فوات الأوان ..

ونستوحي من الآية عدة بصائر :

أولا : إن أكـــثر الصـــراعات الاجتماعية الـــتي تعصف بالمؤمنين منشـأها الفاسـقون الـذين لا تـروق لهم وحـدة المؤمـــنين فيثـــيرون الفتنة بينهم. وحين نتفكر في واقع المسلمين اليوم نجد ان الـذين يـذكون نـار الصـراع بينهم هم في الأغلب أبعد الناس

عن القيم ، وقد تكـون سـوابقهم السـيئة وأحقـادهم ضد الإسلام ، وخشيتهم من الفضيحة هو السبب في تطـرفهم ضد هذه الطائفة أو تلك.

وإذا اســتطاع المؤمنــون إبعــاد أثر الفســقة عن تجمعاتهم قدروا على سد أكبر ثغرة تهدد كيانهم!

ثانيا : واليـوم حيث يتعـرض المسـلمون لغـزو ثقـافي وهجمة إعلامية عبر ألـوف المؤسسـات الدعائية المتنوعة ترانا أحــوج مما مضى الى تنفيذ هــذه الوصـية الالهية أن نتبين عما يقولون لأنهم فسقة لا يتقـون الله فيما يقولـون ، هـذه الوكـالات الخبرية الـتي تمولها وتقودها الرسـاميل والأنظمة هل تلتزم بالصدق؟ هذه الصحف الصـفراء الـتي تنطق باسم المترفين والطغـاة هل تـرعى جـانب الحـق؟ هذه الاذاعات التي تصب في آذاننا وأذهاننا كل يوم شـلالا من المعلومات المختلطة هل نضـمن صـدقها؟ كلا .. إذا لا بد من التثبت ، ولكن كيــف؟ لأن حجم الأفكــار والأخبــار التي تبث عبر أجهزة الدعاية كبير ، فأن قدرة الأفراد على التثبت منها محــدودة ، فلا بد إذا من وجــود مؤسســات موثوق بها تقـوم بـدور المصـفاة وتنتقي السـمين وتقدمه للمؤمنين.

هذه المؤسسات قد تكـون معاهد ومراكز للدراسـات والبحوث ، وقد تكـون تنظيمـات دينية ، وقد تكـون خـبراء أكفـاء يرجع إليهم المؤمنـون في توثيق المعلومـات ، وقد تكـون مؤسسـات إعلامية بديلة ، إذاعة صـادقة ، صـحيفة ملتزمة أو وكالة للأنباء موثوق بها.

ثالثا : وأنى كــانت هــذه المؤسســات فانها أعمــال اجتماعية لا ينتظم أمرها إلا تحت إشــــراف القيــــادة الشـرعية للامة ، فمن دون القيـادة تـذهب جهـود الأفـراد سدى ، لأن مثل هذه الأعمال الكبيرة لا ينهض بعبئها آحـاد النـاس ، كما انه لو لم تكن القيـادة شـرعية فانها بـذاتها تصـبح مبعث الخطر ، ولمثل هـذا يـذكر السـياق القـرآني بنعمة

الرسالة والرسول وضرورة العودة إليه.

رابعا : إن خبر العادل حجة. قالوا بـالرغم من ان الآية لا تدل على حجية خبر العادل صراحة وبصـورة مباشـرة ، بل بما يسـمى لـديهم بمفهـوم الوصف الـذي لا حجية فيه عندهم ، إلا ان فائدة بيان الوصف هنا ليست إلا أن الحكم يـدور مـداره مثل أن نقـول : إذا تعـاملت مع أهل الباطل فاشــهد عليهم ، وإذا ذهبت الى زيــارة المــريض فتجنّب مواكلته ، وإذا زرت بلاد الكفر فتزوّد بالبوصـلة لصـلاتك .. وما أشبه.

وأقــول : كما أن النفي يــتركز في ســور الكلمة أو شـرطه أو صـفته ، كـذلك الشـرط ، فـاذا قلنا : لا أعطيك كل نقودي ، ولا تشرب اللبن إذا أكلت السمك ، ولا تمش في الأرض مرحا ، فان معناه نفي كلية النقــود فلو أعطى بعضها لم يخالف وعيده ، أو النهي عن شرب اللبن مقارنا مع أكل السمك ، (أو كل النهي عن الجمع بينهما) وكــذلك النهي عن مشية المرح لا كل شيء.

كذلك الشرط فلو قال : إذا جئتـني صـباحا أكرمتك أو إذا رأيتك شامتا قليتك وما أشبه. فان الشرط يلحق أضيق حلقــات الكلام ، أي وقت الصــباح أكرمك وعند الشــماتة أقليك وكـذلك الشـرط هنا : إذا جـاءكم فاسق بنبإ .. فـان الشـرط مقصـود وغرضه تحديد النتيجة بأضـيق الحـدود ، وهو كون المخبر فاسقا ، ولهذا قال الأولون : إن هـذا من مفهوم الشرط وليس من مفهوم الوصف والله العالم.

خامسا : مــاذا يعــني التــبين؟ يبــدو أنه يشــمل كل أسلوب يـؤدي الى حالة الوضـوح عند الإنسـان ، ولأن الله قد خــاطب عامة المؤمــنين بهــذه الكلمة ، فــان مفهــوم التــبين يكــون عرفيا أيضا ، بمعــنى أن كلما تطمئن إليه نفس الإنسان العـادي ، حـتى لا يبقى فيه شك معقـول أو ارتيــــاب يعتــــني به العقلاء كــــاف حجة عند الله في الموضوعات.

فسواء أكانت البينة (شهادة عدلين) أو الشياع المفيد للطمأنينة ، أو شهادة الخـبراء من خلال مجموعة متراكمة من الشواهد والآثار أو خبر العاقل العـادل فانه من التـبين عند العقلاء .. على أن العقلاء لا يعتمدون على بعض هــذه الأدلة إذا كـانت الظـروف المحيطة باعثة للشك الحقيقي مثلا : الشـياع الــذي يعتقد أن منشــأه شــائعة مغرضة لا يورث طمأنينة في النفس فهو إذا ليس بحجة.

كما ان خبر العادل فيما لا يخفى عند غيره يرتاب فيه العقلاء إذا انفــــرد به كما لو أنبأنا بـــــأن الاذاعة الفلانية نشرت هذا الخبر ، علما بأنها لو نشرته لسمع أكثر النـاس وتناقلوه .. أو أخبر برؤية الهلال في ليلة صــافية مما نعلم أنه لو رآه هــذا العــادل لــرآه غــيره أيضا ، وإذ لم يشــهد برؤيته غــيره فــان العقلاء يشــكون في كلامــه. كــذلك الحوادث الخطيرة لا يعتمد العقلاء عادة على الخبر الواحد فيها مثل الحروب ..

عموما : حالة التـــــــبين تختلف عند العقلاء حسب الموضـوعات فلا بد من الالتفـات الى ذلك ، ولعل الحكمة الــتي سـيقت في خاتمة الآية هي محــور الحكم فعلينا أن نـــدور مـــداره ، ونتفكر كيف نتجنب الوقـــوع في الجهالة والندم.

[7] كيف تتمـــوج الفتنة في المجتمع المســـلم؟ إنها تشــرع بشــائعه تتلقفها الألسن ثم لا تلبث أن تتحــول الى تيار يجرف معه البسطاء ، والانتهازيين ، والفوضـويين آنئذ تطفق الفتنة وأصـحابها بالضـغط على القيـادة الشــرعية الــتي عليها أن تختــار بين الاستســلام لعاصــفة الفتنة ، أو خسران شريحة اجتماعية ، فما هو الحلّ؟

الحل ينحصر في تجلي المجتمع بـروح الانضـباط وأن يعي الجميع أبعـاد نعمة القيـادة فيشـكروها شـكرا عمليـا. حقا إن المجتمع الذي يعي أهمية القيادة الشرعية يتحصن ضد عواصف الفتنة الداخلية بذات الصلابة الـتي يقـاوم بها قواصف التحديات الخارجية. لذلك يـأمر القـرآن بـأن نعلم دور الرسول فينا (ثم من يخلفه

ويرث مقامه بدرجة ما).

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ**)

فهو إذا مبعـــوث من عند الله يحمل رســـالة الحكمة والمعرفة والبصـــيرة ، وما دام كــذلك فلا بد من الرجـــوع إليه عند الفتن والشبهات ، ولا يجـوز الضـغط عليه بقبـول آراءكم وشهوات أنفسكم ، لأن ذلك ليس من مصلحتكم.

(**لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**)

وكيف لا تصـيبهم المشـقة والعنت وقد خـالفوا العلم الى الجهل ، والحكمة الى الجهالة.

جـاء في الأثر : في سـبب نـزول الآية أو تأويلها على عهد الرسول ما يلي :

أولا : إن النـــبي صـــلّى الله عليه وآله بعث الوليد بن عقبة ليجمع الصـدقات من بـني المصـطلق فلما أبصـروه أقبلوا نحوه للترحاب به ، ولكن خشيهم وهـابهم ويبـدو أنه كان بينه وبينهم عـداوة فخـافهم على نفسه أن يقتلـوه أو كانت في نفسه ضـغينة تجـاههم ، فـأراد أن يمكر بهم (أو تظاهر بذلك) فرجع الى النبي صلّى الله عليه وآله فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام.

فبعث نـبي الله صـلّى الله عليه وآله وسـلم خالد بن الوليد وأمـــره أن يتثبت ولا يعجل ، فـــانطلق خالد حـــتى أتـاهم ليلا ، فبعث عيونه فلما جـاءوا أخـبروا خالـدا أنهم متمسـكون بالإسـلام ، وسـمعوا أذانهم وصـلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروا فعاد إلى نبي الله صلّى الله عليه وآله وسلم فأخبره فنزلت هذه الآية وكـان يقـــول نـــبي الله : «**التـــأني من الله والعجلة من الشيطان**». [1]

(1) بتصرف عن القرطبي / ج 16 ـ ص 311

ويبدو من بعض الأخبار ان طائفة من المسلمين كانوا يصرون على النبي بالخروج إليهم وقتالهم قبل التثبت من أمرهم ، ولعل مؤامرة حاكها الحـزب الأمـوي والمنـافقون المؤيـــديون لهم ضد المســـلمين ، ومنها نفذ الوليد طرفا منها ، بينما أراد الآخرون تنفيذ سائر جوانبها.

ثانيا : جـــاء في الأثر ان الآية نـــزلت في قصة الافك على بعض الروايـــــات. فقد ذكر علي بن إبـــــراهيم في تفســيره انها نــزلت في مارية القبطية أم إبــراهيم (عليه السّلام) ، وكان سبب ذلك أن عائشة قالت لرسول الله ــ صلّى الله عليه وآله ـ : إن إبـراهيم ليس هو منك وإنما هو من جريح القبطي ، فانه يدخل إليها في كل يوم ، فغضب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وقـال لأمـير المؤمـنين (عليه السّـلام) : خذ السـيف وأتـني بـرأس جـريح ، فأخذ أمير المؤمنين (عليه السّلام) السيف ثم قـال : بـأبي أنت وأمي يا رسـول الله إنك إذا بعثـني في أمـرك أكـون فيه كالسفود [1] المحمي في الوبر فكيف تـأمرني أثبت فيه أو أمضي على ذلك؟ فقال له رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ : بل تثبت ، فجـاء أمـير المؤمـنين الى مشـربة أم إبــراهيم فتســلق عليها فلما نظر اليه جــريح هــرب منه وصـعد النخلة ، فـدنا منه أمـير المؤمـنين (عليه السـلام) وقـال له : انـزل فقـال له يا علي اتق الله ما هاهنا أنـاس اني مجبـــوب [2] ثم كشف عن عورته فـــاذا هو مجبـــوب ، فـأتى به رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ فقـال له رســول الله صــلّى الله عليه وآله وســلم : ما شــأنك يا جـريح؟ فقـال : يا رسـول الله ان القبط يحبـون حشـمهم ومن يــــدخل الى أهليهم ، والقبطيـــــون لا يأنســــون إلا بالقبطيين ، فبعثـني أبوها لأدخل إليها وأخـدمها وأونسـها ، فـأنزل الله عـزّ وجـلّ (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ جـاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ**) الآية. [3]

---

(1) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم

(2) المجبوب : الخصي

(3) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 81

وهــذه الآية ونصــوص دينية أخــرى تســتهدف فصل الفسقة عن المجتمع الاسلامي نفسيا ، وتقليل دورهم في ادارة القضــايا الاجتماعية ، فــاذا امتنع المســلمون عن العمل باخبــار الفاســقين ، فقد أبعــدوهم عن القضــاء والاعلام ، والشهادة في المحاكم وعن أعمال أخرى.

من هنا نجد المفسر المعروف القرطبي ينقل هنا نصا عن ابن العربي يحسن بنا الاستماع اليه يقول :

ومن العجب أن يجــوز الشــافعي ونظــراؤه إمامة الفاسق ومن لا يــؤتمن على حبه مــال كيف يصــبح أن يؤتمن على قنطار دين ، وهذا إنما كان أصله أنّ الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا استطيعت إزالتهم صلي معهم ووراءهم (وأضاف) ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقية أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته. وبوجوب الاعادة أقول فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ولكن يعيد سرا في نفسه ولا يؤثر ذلك عند غيره. [1]

(**وَلكِنَّ اللــهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمــانَ وَزَيَّنَــهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ**)

الرســالة نعمة وفضل ، ووعي هــذه الحقيقة يجعلنا نستفيد منها بصورة أفضل ، أو ليس الذي يجهل أن له رصيدا كبيرا في البنك لا ينتفع به؟

والايمان بالرسالة هو الآخر توفيق من عند الله ونعمة وفضل ، صحيح ان العبد يخطو الى ربه الخطوة الأولى ، ويسلم للحق ، ولكن لو لا أن الله يجبب الايمان في

(1) القرطبي / ج 16 ـ ص 213

قلــوب من يصــلح له ما زكى أحد من البشر أبــدا. ولقد حبب الله الايمـان مـرتين ، مـرة عند ما خلق البشر على فطــرة الايمــان بالله ، ومــرة عند ما ألقى في أفئــدة المســلمين لــربهم الصــالحين لتلقي نعمة الهــدى حب الايمان. كما ان الفطـرة البشـرية بـذاتها تكـره الانحـراف بكـلّ درجاته ، كـالكفر الـذي يعـني مخالفة الـدين رأسا ، والفسوق الذي يعني تجاوز حدود الشريعة والعصيان الذي هو ارتكـاب بعض الخطايا ، وهـذه الثلاث تعـاكس الايمـان ومن دون تطهير القلب من أدرانها لا يسـتقبل القلب روح الايمان.

(**أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**)

قالوا : أصل الرشد الصخرة ، ويسمى صـاحب الـرأي السديد بالراشد لاستقامته عليه ، وشدة تصــلبه فيه ، فهو على يقين من أمـــره. ورشد المـــؤمن ناشئ من يقينه ، وتصــلبه في الحق إذ أنه عــرف دربه الواضح فســوف لا يغيره.

وقد التفت السياق من الخطاب الى الغيبة ، ربما لأن مقـــام الراشـــدين رفيع لا بد أن يشـــار اليه بمثل كلمة (أولئــك) وهو بالتــالي لا يناله إلا من هو ذو حظ عظيم ، فليس كل تـال للقـرآن مخـاطب بهـذه الصـفة العظيمـة. والآية تـدل على أن أسـاس الـدين الحب ، ولـذلك يسـعى المؤمنون لترسيخ وتنمية هذا الحب في أفئدتهم ويقولـون : «**واجعل لســـاني بـــذكرك لهجا ، وقلـــبي بحبك متيما**» [1].

وجاء في صفة حـزب الله المفلحين : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللـهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**» [2].

---

(1) من دعـاء لأمـير المؤمـنين (ع) المعـروف بـدعاء كميل / مفـاتيح الجنان / ص 67

(2) المائدة / 54

وحين سأل زياد الحـذاء الامـام البـاقر (عليه السـلام) عن علاقة الدين والحب ، أجابه الامام قائلا :

يا زياد ويحك! وهل الدين إلا الحب؟ ألا ترى الى قول الله : «**إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللــهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللــهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**» أولا تـرون قـول الله لمحمد «**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**» قـال : «**يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ**».

وقال مضيفا : «الدين هو الحب والحب هو الدين» [1]

[8] وإذا كان الايمان هدية الله الى القلـوب الطـاهرة ، فانه فضل من الله لطائفة خاصة من البشر ، وليس كسائر نعم الله شاملة للجميع.

(**فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

يعلم أين ينبغي أن يجعل فضـــــــــله ونعمته بحكمته البالغة.

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 84

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

هدى من الآيات :

إذا كـــانت الحـــرب الخارجية ذات فوائد للامة ، إذ تمحص إرادتها وتطهر صـــفوفها ، وتهـــديها الى مراكز ضعفها وتحسسها بمسؤولياتها ، وتكـرس القيم الحضـارية فيها ، فـــان الحـــرب الأهليّة لا تخلف وراءها إلّا الخيبة والدمار ، وقد تجرها الى نهايتها المريعة.

ولقد عــالجت الآية الاولى في هــذا الــدرس قضــية القتــال بين المؤمــنين بصــورة واضــحة ، مما حــدى بالمفسرين أن يفصلوا الحـديث حـول الموضـوع ويشـبعه بحثا ، وأنى فصلنا فان القضية أبعد غورا وأوسع مـدى من التحدث عنها ضـمن التفسـير فقط ، وإنما هي بحاجة الى دراسات مفصلة.

أما الآية الثانية فهي الأخــرى تعــالج موضــوع الصــلح ولكن بصــــورة أشـــمل وتؤكد على عمق العلاقة بين المؤمنين التي تصل الى الأخوة الكاملة.

بينات من الآيات :

[9] تعـالج آيـات القـرآن عـادة أسـوء الحـالات قبل الحــديث عن الحــالات العادية ، فمثلا حين تــبين ســورة النساء العلاقات الاجتماعية تسـتهلها بمعالجة حالة الطلاق التي هي عقدة العلاقة الاسرية ، وكذلك سورة النور التي ترسم حــدود الاســرة الفاضــلة تبتــدئ ببيــان حد الزنا ، وسورة المائدة التي تبني كيـان الحضـارة الاسـلامية نراها تحدثنا في فاتحتها عن حرمة الاعتداء على أموال اليتـامى الـذين هم أضـعف الحلقـات الاجتماعية ، وهنا أيضا تعـالج الآيــات أعقد حــالات الخلاف وهي حالة الاقتتــال أولا ثم تتدرج في الحديث عن سائر الحـالات الأقل تعقيـدا. لمـاذا كل ذلك؟

يبدو أن وراء كل ذلك حكمتين :

الأولى : لبيان الغاية الـتي سـوف تنتهي إليها تسلسل الحالات ، لكي لا يستهان بمبدئها فالخلافات الجزئية الـتي نسـتخف عـادة بها والشـائعات الـتي نبثها هنا وهنـاك ضد بعضــنا بلا وازع قد تنمو حــتى تصــبح صــراعا دمويا بين طائفتين من البشر. فلكي نـرى الحقـائق لا بد أن نضـرب لها مثلا واضحا ثم نقيس عليه سائر الامثلة.

الثانية : إن عظمة الشــــــــــريعة تتمثل في معالجة الحـالات الشـاذة البالغة حـدها في التعقيد ، أما الأوضـاع العادية فان التعامل معها سهل ميسور.

فمعالجة حالة الطلاق أو الخيانة الزوجية (الزنـــا) هي المقياس لقدرة الشريعة على وضع نظام صـائب لشـؤون الاســرة ، كما ان الحفــاظ على أمــوال اليـتيم دليل على مــدى صــلاحية النظــام الاقتصــادي في المحافظة على حقوق الناس.

كذلك معالجة مشكلة الحرب الأهلية تشهد على مدى صلاحية النظام الاجتماعي في مواجهة التحديات.

من هنا بدأ السياق بهذه المعالجة وقال :

(**وَإِنْ طائِفَتـانِ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ اقْتَتَلُـوا فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُما**)

المســـؤولية الأولى إذا هي وقف الاقتتـــال وإقامة السـلام بأية وسـيلة ممكنة ، وهي مسـئولية الجمـاهير ، لأنهم القوة الباقية بين الطائفتين. أما لو كلفنا طائفة ثالثة فقد تـدخل طرفا في الاقتتـال وقد لا تكـون أقـوى من إحداهما.

والملاحظ أولا : ان التعبـير جـاء بصـيغة التثنية ثم الجمع ثم التثنية ، ذلك ان سـبب الاقتتـال يكـون عـادة الاختلاف بين فـــريقين لكل منهما خصائصه وميزاته ، والصلح يكـون بين قيـادتي الفـريقين ، بينما ذات الاقتتـال يكون بين أتباعهما ، فقد يكون المقـاتلون ضـحية مـؤامرة قيـادتهم ، وزجهم في معركة لا مصـلحة لهم فيها ، بينما القيادة عند الفريقين مسئولة عن الحرب كما هي مطالبة بالصلح.

ثانيا : القـرآن لم يحـدثنا عن قـوانين الصـلح أو عن الصـلح الـذي يقـوم على العدالة ، لأن تحقيقه في حالة الاقتتال يكاد يكون مستحيلا ، إنما طلب من الجميع العمل من أجل الصلح.

ثالثا : سمى القـرآن الفـريقين المتقـاتلين بـالمؤمنين بـالرغم من ان الاقتتـال ضـلالة بعيـدة ، مما يـدل على إمكانية تـورط أبنـاء الامة الواحـدة في الحـرب الأهلية بسـبب الفتن والأهـواء ، فلا يجـوز اتهـام النـاس بـالكفر بمجرد دخولهم الصراع مع بعضـهم حـتى بلغ حد الحـرب ، كما لا يجوز لأحد الطـرفين اتهـام الطـرف الآخر بـالخروج عن إطار الايمان بمجرد إعلانه الحرب عليه.

(**فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى**)
فلم تقبل بالصلح أو قبلت وغدرت.
(**فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ**)
هل يمكن أن نقيم السـلام بالشـعارات والمواعظ والمعاهـدات ومجـالس الأمن؟ قد يكـون كل ذلك نافعا ، ولكنه ليس بمستوى وقف الحرب التي لا يخوضها النـاس إلا بعد أن ييأسوا من تحقيق أهدافهم بأية وسـيلة أخـرى ، فيركبون مركبها الصعب ويتحملون مآسيها وويلاتها. فكيف يتوقفون عنها بنصيحة أو قرار؟
لا بد إذا أن يتحمل الناس كل الناس مسئولية الحفاظ على السـلام ووقف نزيف الـدم ، وذلك بخـوض غمـار الحـرب بلا تـردد ، وإلا فـأن بغـاة الفتنة سـوف يحولـون الأرض جحيما.
ولست أعرف مبدأ فـرض على تابعيه هـذا المسـتوى من المسؤولية الاجتماعية ، فالمبادئ الغربية ترى انتخـاب النظـام حقا ، بينما الإسـلام يـراه واجبا ، ويفـرض على المـؤمن الكفر بمن يطغى ويريد فـرض نفسه على المجتمع حاكما من دون رضاهم ، كما يفـرض القتـال ضد الذين يبغون الفساد في الأرض.
ويحدد القرآن القتال بعـودة الفئة الباغية الى أمر الله وقبولها بتطبيق حكم الإسلام في قضايا الخلاف بينها وبين الفئة الاخـرى ، مما يـدل على واجب التقيد التـام بحـدود العدالة في التعامل مع البغاة بالرغم من بغيهم واعتدائهم على السلام والأمن.
وإذا عرفنا ان هؤلاء يشبهون المعارضة المسـلحة في عرف اليوم ، نعرف كيف ينبغي التعامل مع المعارضة في النظام الاسلامي بأن نعيدهم الى الحدود الشرعية

والممارسة القانونية لحقهم ، دون مصـــــادرة حقـــــوقهم وانتهاك حرماتهم والاشهار بهم وإغراقهم بـالتهم الرخيصة ، فكيف باعتقـالهم وتهجـيرهم وتعـذيبهم وقتلهم؟ كلا. إنّ الله سبحانه يحدد قتال البغـاة بعـودتهم الى أمر الله فـاذا عادوا كان حالهم حال سائر أبناء الامة سواء بسواء.

(**فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ**)

ولا يجـوز التميـيز بينهما وبين الفئة الاخـرى ، بمجـرد أنها بغت عليهـا. إذ ان فـرض عقوبـات على هـذه الفئة أو حرمـانهم من حقـوقهم يمهد لحـرب جديـدة ، إنما العـدل وإقامة حـــــدود الله على الجميع بلا تميـــــيز يقضي على أسباب الصـراعات الاجتماعية لأن وقـود هـذه الصـراعات هم في الأغلب الفئـات المحرومة الـتي يسـتغلها هـذا أو ذاك.

(**وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**)

لعل القسط هو التطـبيق الـدقيق والحـازم لموجبـات العدالة ، فهو الدرجة الأســـــمى للعــــدل. فكيف نحقق القسط في الفئتين المحاربتين؟

قد تكـــون الفئة الباغية (المعارضة المســـلحة) فئة محرومة تاريخيا ، كالســـود في أمريكا ، فتســـاويهما في الحقوق مع مواطـنيهم الـبيض لا يكفيهم ، ولا يقضي على عوامل البغي المجـرد ، إنما ينبغي توفـير قـدر أكـبر من الفرص لهؤلاء لرفع حرمانهم مثل تخصيص ميزانيات أكـبر لمناطق تواجدهم ، وقبولهم في الجامعات بشـروط أخف وإعطائهم ديونا بلا فوائد و. و. والله العالم.

وقد جاء في سبب نـزول الآية أقـوال شـتى مما يـدل على ان ذلك كان مجرد تطـبيق الآية على بعض الحـوادث التي وقعت بين المسلمين وأكثرها كانت بين

الأنصــار وبالــذات بين الأوس والخــزرج الــذين بقيت على عهد النــبي آثــار حربهما الضــروس الــتي طــالت عقــودا متطاولة حتى أخمدها الله بالإسلام.

وأكثر تلك المشـاحنات الـتي يـذكرها المفسـرون في سبب نـزول الآية كـانت بالأيـدي والنعـال وجريد النخل ولا أظن أنها تسمى قتالا.

وليس غريبا أن يــبين القــرآن حكم موضــوعة تتحقق عـادة في الأمم حـتى ولو لم تحـدث عند نـزول الكتـاب ، وقد شهد المسلمون صراعا دمويا بينهم في القــرن الأول من الهجـرة ، مما يصـلح تـأويلا للآية من هنا تحـدث بعض المفسـرين بتفصـيل عن تلك الحـرب ، ونحن بـدورنا نجد فائدة كبيرة بذكر جانب مما تحدثوا عنه مبتدئين ذلك بنقل ما نقله القرطــبي عن القاضي أبي بكر بن العــربي حيث قال :

هــذه الآية أصل في قتـال المسـلمين ، والعمـدة في حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصـحابة وإليها لجأ الأعيـان من أهل الملة ، وإياها عـنى النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله وسـلم ــ بقوله : «تقتل عمـارا الفئة الباغيـة» وقوله عليه السلام في شأن الخوارج : «يخرجــون على خـير فرقة أو على حين فرقـــــــة» والرواية الأولى أصح ، لقوله عليه السلام : «تقتلهم أولى الطائفتين الى الحق» وكان الــذي قتلهم علي بن أبي طــالب ومن كــان معه ، فتقــرر عند علمـاء المسـلمين وثبت بـدليل الـدين ان عليا رضى الله عنه كـان إماما ، وإنّ كل من خـرج عليه بـاغ ، وان قتاله واجب حـــتى يفيء الى الحق وينقـــاد الى الصـــلح ، لأن عثمـان رضى الله عنه قتل والصـحابة بـراء من دمه ، لأنه منع من قتال من ثـار عليه وقـال : لا أكـون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بالقتل ، فصـبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفـدى بنفسه الامة ، ثم لم يمكن تـرك النـاس سـدى ، فعرضت على بـاقي الصـحابة الذين ذكرهم (عمر) في الشورى ، وتدافعوها ، وكان علي كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها ، فقبلها حوطة

على الامة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل ، أو يتخـرق أمرها الى ما لا يتحصل ، فربما تغير الـدين وانقض عمـود الإسـلام. فلما بويع له طلب أهل الشـام في شـرط البيعة التمكن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم. فقـال لهم علي رضي الله عنه : ادخلـوا في البيعة واطلبـوا الحق تصـلوا اليه ، فقـالوا : لا تسـتحق بيعة وقتلة عثمـان معك تـراهم صباحا ومساء. فكان علي في ذلك أسدّ رأيا وأصـوب قيلا ، لأن عليا لو تعـاطى القـود منهم لتعصـبت لهم قبائل وصارت حربا ثالثة ، فانتظر بهم أن يسـتوثق الأمر وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من الأوليـاء في مجلس الحكم ، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الامة أنه يجـوز للإمـام تـأخير القصـاص إذا أدى ذلك الى اثـارة الفتنة أو تشـتيت الكلمة ، وكـذلك جـرى لطلحة والزبـير ، فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة ، وإنما رأيا أن البـداءة بقتل أصحاب عثمان أولى. [1]

ثم يسترسل القرطـبي في تفسـير حـرب الجمل فيقـول : وقـال جلة من أهل العلم ان الوقعة بالبصـرة بينهم (بين المسـلمين) كـانت على غـير عزيمة منهم على الحـرب بل فجـأة ، وعلى سـبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر بـه. [2]

ولم أهتد الى الفارق بين واقعـتي البصـرة وصـفين أو بينها وبين النهـروان. أو لم يخـرج الجميع على إمـام قـائم بـالأمر بايعته أكثرية المسـلمين فكيف نـبرّر خـروج أهل البصرة ، وندين أهل الشام أو الخوارج؟

هب أن القتـال كـان فجـأة ، ولكن مـاذا يـبرر إخـراج حرم رسول الله من المدينة الى البصرة وتجنيد الجيـوش وإظهار المخالفة بهذه الطريقة؟

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 318
(2) المصدر

وأظن أن تاريخنا قد حفل بــالتبرير ، وربما التنــاقض لسـبب نفسي مغلف بشـبهة دينيـة! أما السـبب النفسي فهو الخلط بين قيم الــدين وحــوادث الــتراث ، ومحاولة اضـفاء حالة من القداسة على الـتراث ، دون عرضه على قيم الــوحي أو نقــده حسب مــوازين الشــرع ، فكل ما يسمى بالإسلام أو بالمسـلمين أو بالتـاريخ الاسـلامي ذات حرمة بل قداسة عند البعض ، بينما نجد في تاريخنا ما يندي له جـبين الانسـانية ، مثل واقعة عاشـوراء حيث ذبح سـيد الشـهداء سـبط رسـول الله عطشـانا على جنب الفرات وأسرت بنات رسول الله وطـوف بهن البلاد .. كلا لا ينبغي أن نكون مثل الذين اتبعوا آباءهم وقدسوا تراثهم حتى قال لهم الله : (**وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ، قـالُوا بَـلْ نَتَّبِـعُ ما وَجَـدْنا عَلَيْـهِ آباءَنا ، أَوَلَـوْ كـانَ الشَّـيْطانُ يَـدْعُوهُمْ إِلى عَــذابِ السَّـعِيرِ**) [1] وقــال سـبحانه : «**وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا إِلى ما أَنْـزَلَ اللـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**». [2]

المقيــــــاس الوحيد للحق هو وحي الله المتمثل في كتاب الله ، وتفسيره الصحيح الذي بينه رسـول الله وأهل بيته المعصــومون عليهم الســلام ، أو ما يكشــفه العقل والعلم بوضـوح كـاف .. أما سـيرة السـلاطين ، أو سـلوك الأولين فانه يخضع بــدوره للــوحي ، فما وافق كتــاب الله وسـنة رسـوله أكرمنـاه ، وما خالفهما تركنـاه .. ولا يجـوز تعطيل العقل في فهم الوحي لمصـلحة الـتراث ، فإنّه من الغلو في الــدين الــذي نهينا عنه ، كما قــال الله سـبحانه لبني إسرائيل : «**قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ**». [3]

---

(1) لقمان / 21
(2) المائدة / 104
(3) المائدة / 77

من هنا لا يجـــوز أن ننسب العصـــمة الى أصـــحاب رســـول الله جميعا ، بل لا بد أن نخضع تصـــرفاتهم لقيم الوحي ونأخذ بما ثبث عن طريقهم من أقوال رسـول الله ولا يلزمنا اجتهـادهم في الـدين أو تفسـيرهم للقـرآن ، ولا سلوكهم خصوصا المخالف للنص.

ولا يجـــوز أن يوقعنا احـــترام الصـــحبة الى مخالفة نصـــوص الـــدين ، بخلاف ما قـــال المفسر المعـــروف القرطـبي حيث ذكر انه : لا يجـوز أن ينسب الى أحد من الصـحابة خطأ مقطـوع به إذا كـانوا كلهم اجتهـدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل وهم كلهم لنا أئمة. [1]

حقا ينبغي احـــترام الصـــحبة ، ولكن ليس الى درجة الوقـوع في التنـاقض أو التـبرير الـذي لا يقبله العقل ، فلا ريب ان قتال الصحابة مع بعضـهم كـان خطأ فادحا ، لا بد أن ندينه ونذين البـاغي ، وكيف يجـوز لنا أن نقيم حـوادث اليـــوم حسب الـــدين؟ ولا يجـــوز أن نفعل مثل ذلك في الماضين ، أو لم يكونوا بشرا مثلنا ، أو لم تكن لهم شهوة السـلطة والـثروة .. دعنا نكـون أكـثر واقعية ، ونضع كل شـيء في موضـعه المناسب ولا نكـون كالحسن البصـري الذي سئل عن قتال الصحابة فقال : قتال شهده أصـحاب محمد صـــلّى الله عليه وآله وغبنا ، وعلمـــوا وجهلنا ، واجتمعوا فأتبعنا ، واختلفوا فوقفنا .. [2]

فهل يجوز أن نطلق مثل هـذا الكلام بالنسـبة الى كل حادثة تاريخيـــة؟! إذا نعطل العقل ، بل نعطل مـــوازين الشـريعة ، كلا .. لا بد أن نـدرس التـاريخ ونعتـبر بما فيه ونمـــيز الحق والباطل فنتبع الحق ونـــدع الباطل والله المستعان على ذلك.

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 321
(2) المصدر / ص 322

أما الشـــــبهة الدينية فهي اننا لو شـــــككنا في أمر الصحابة ضاعت علينا معالم ديننا ، أو ليسـوا هم الوسـيط بيننا وبين معرفة الدين؟ وأضافوا أن هناك أحاديث مأثورة عن الرســول بــاحترام الأصــحاب وأنهم كــالنجوم بــأيهم اقتدينا اهتدينا .. ونقول : إن معالم الدين واضحة بـالقرآن ، وعلينا أن نعرض عليه حـتى أحـاديث الرسـول وأهل بيته فكيف بأفعال بشر مثلنا؟ ثم ان كل جيل يأخذ معـالم دينه من الجيل السـابق عليه فهل من المعقـول إضـفاء هالة العصـمة على كل الأجيـال؟ وما الفـرق مثلا بين الصـحابة وجيل التــــابعين في أن من لحقهما أخذ منهما معــــالم الـدين؟ فكما مـيز علمـاء المسـلمين بين التـابعين حسب قـوانين علم الرجـال ، فقـالوا هـذا ثقة أخـذوا منه الـدين وهـذا وضـاع وذاك ضـعيف والثـالث مجهـول الحـال فلم يأخذوا منه الحديث كـذلك ينبغي أن نفعل بالجيل السـابق لهم ، فنفــرق مثلا بين أبي ذر الغفــاري ، الــذي ما أظلت الخضــراء ولا أقلت الغــبراء على ذي لهجة أصــدق منه ، وبين سمرة بن جنـدب الـذي كـان يكاسر معاوية في ثمن الأحاديث الموضوعة.

وإذا جاءت روايات في فضل الأصحاب فيجب تقييـدها بالصــادقين منهم الــذين لم يحــدثوا بعد الرســول ، وذلك لسببين :

أولا : لمعارضتها مع روايات أخرى مأثورة عن النبي ، تؤكد ان بعض الصحابة يحدثون من بعــده ، وإنهم يــذادون يوم القيامة عن الحوض كما يذاد البعير ، وأنه ســتكثر من بعده القالة فمن كذب عليه فليتبوّأ مقعده من النار.

ثانيا : لأننا يجب أن نجعل كتـــاب الله مقياسا لمعرفة حـدود أحـاديث الرسـول ، والله سـبحانه وتعـالى يقـول : «**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ**». [1]

---

(1) الزمر / 9

«**أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ**». [1]

«**وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ**». [2]

«**لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**». [3]

وعند ما بين ربنا فضائل الجيل الأول من المسلمين اشترط الايمان والإحسان فيهم ، ولم يطلق الكلام عند ما وعدهم الأجر العظيم ، بل قيده بذلك وأكد عليه بحرف «من» التبعيضية وقال :

«**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً ، سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**». [4]

أحكام الباغين

أ/ هل الآية تشمل حالة القيام ضد الحكم الاسلامي أم تخص الاختلاف بين طائفتين من المسلمين ليس بينهما إمام؟ المعروف بين المفسرين انها تشمل الحالة الأولى ولذلك فقد تحدثوا في تفسيرها عن حكم البغاة ، وعما حدث في الصدر

---

(1) السجدة / 18
(2) غافر / 58
(3) الحديد / 10
(4) الفتح / 29

الأول من اقتتال الأصحاب مما كان مظهـرا واضـحا للبغي ضد الامام الحاكم.

ويبـــدو أن هـــذا الفهم يســـتند الى ان الاقتتـــال بين المسلمين يكون عادة على السلطة ، حيث لا تـرى طائفة منهم السلطة شرعية فتقوم ضـدها ، وسـواء كـانت تملك حجة في ذلك ، وكما قـــامت طوائف من المســـلمين ضد الحكام في العهدين الأموي والعباسي ، أولا كالـذي حـدث في عهد الامام علي عليه السلام ، فـان الآية تشـمل ذلك كله ، ويشـــهد على ذلك الحـــديث المفصل المـــروي عن الامام الصـادق عليه السـلام والـذي جـاء فيه : «بعث الله محمّـدا بخمسة أسـياف ثلاثة منها شـاهرة فلا تغمد حـتى تضع الحرب أوزارها ، ولن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشـــــمس من مغربها .. الى أن قـــــال : وأما الســـــيف المكفـوف فسـيف على أهل البغي والتأويل (ثم قـرأ الآية الكريمة : وإن طائفتـــان ..) فلما نـــزلت هـــذه الآية قـــال رســـول الله : إنّ منكم من يقاتل بعـــدي على التأويل كما قــاتلت على التنزيل ، فســئل النـــبي : من هـــو؟ فقـــال : خاصف النعل ، يعني أمير المؤمنين ، فقال عمار بن ياسر : قـاتلت بهـذه الراية مع رسـول الله ثلاثا وهـذه الرابعة ، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا المسعفات من هجر لعلمنا انا على الحق وأنهم على الباطل». (1)

وعلق الفقيه الكبير الشـيخ محمد حسن النجفي على ذلك بقوله : خبر الأسياف المـروي في التهـذيب والكـافي وعمل به الأصحاب وتسمعه إنشاء الله صـريح فيما ذكـره بعض من أنه نزل فيهم قوله تعالى : وإن طائفتان الآيـة. (2)

ب / لا ينبغي معاملة أهل البغي معاملة الأعـــداء ، بل ينبغي أن نقاتلهم لكف بأسهم ودرء للفتنة فـاذا فـاءوا الى أمر الله عاملناهم كاخوة .. وقد جاء في تتمة

---

(1) وسائل الشيعة / ج 11 / ص 18

(2) جواهر الكلام / ج 21 ص 323 (الطبعة الثانية)

الحديث الآنف ذكره : «وكانت السـيرة فيهم (أهل البغي) من أمير المؤمـنين (ع) ما كـان من رسـول الله (ص) في أهل مكة يـوم فتح مكة فانه لم يسب لهم ذرية ، وقـال : من أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى سـلاحه (أو دخل دار أبي سـفيان) فهو آمن ، وكـذلك قـال أمـير المؤمـنين (ع) يوم البصـرة نـادى : لا تسـبوا لهم ذرية ، ولا تجهـزوا على جـريح ، ولا تتبعـوا مـدبرا ، ومن أغلق بابه وألقى سـلاحه فهو آمن». [1]

وجاء في حديث آخر عن الامام الصـادق عليه السـلام : عن عبدالله بن سـليمان : قـال قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام : إن الناس يـروون أن عليا قتل أهل البصرة وترك أموالهم (مما يثير تساؤلا عنـدهم كيف يـبيح دمـاءهم ولا يـبيح أمـوالهم؟) فقـال : «**إن دار الشـرك يحل ما فيها وإن دار الإسـلام لا يحل ما فيها**». [2]

بل نجد في حـديث آخر أعظم من ذلك فقد روى مسـعدة بن زيـاد عن جعفر عن أبيه : «**إن عليا لم يكن ينسب أحـدا من أهل حربه الى الشـرك ولا الى النفاق ولكنه كان يقول : هم إخواننا بغوا علينا**». [3]

روى عن الامام علي عليه السلام انه سئل عن الذين قـاتلهم من أهل القبلة أكـافرون هم؟ قـال : «**كفـروا بالاحكام وكفروا بالنعم ليس كفر المشركين الـذين دفعوا النبوة ولم يقروا بالإسلام ولو كانوا كـذلك ما حلت لنا مناكحتهم ولا ذبائحهم ولا مواريثهم**». [4]

---

(1) وسائل الشيعة / ج 11 / ص 18
(2) المصدر / ص 58
(3) المصدر / ص 62
(4) جواهر الكلام / ج 21 ص 338 نقلا عن كتاب الدعائم

ج / يبدو ان البغـاة لا يضـمنون ما أتلفـوه من مـال أو أراقوه من دم ، كما لا يضـمن لهم ما تلف منهم من مـال أو دم ، لأن الصـلح يعـني تنـازل كل طـرف عما يعتقد أنه حقه في مقابل تنازل الطرف الآخـر. هـذا إذا تم الصـلح ، وفي حالة اسـتمرار القتـال حـتى تفيء الفئة الباغية فـان مقتضى جعل العــودة الى أمر الله نهاية للقتــال أنه ليس هناك حكم آخر كالقصاص والضمان ، وإلّا جعلا حدّا للقتال ، وهذا هو الظاهر من الروايات التي تبيّن أحكام البغــاة إذ لم أجد فيها حــديثا يتعــرض لأحكــام القــود والضــمان والغرامة مع أنها في مقام البيان.

كما ان هـذا هو المعـروف من سـيرة أمـير المؤمـنين عليه الســـــلام ، فلو أراد الاقتصـــــاص منهم لقتل بعض أســراهم ممن كـان يقـود الجيش المعـادي كمـروان بن الحكم وعبدالله بن الزبــــير الـــــذين لا ريب في تعلق القصاص بهم.

جاء في التاريخ ان الامام أمير المؤمنين عليه السـلام لما هــزم أهل البصــرة ذهب الى دار عظيمة كــان فيها أسـرى الحـرب فـاذا نسـاء يبكين بفنـاء الـدار فصـحن به وقلن : هذا قاتل الأحبة ، فبعث إليهن واحـدة وقـال : «لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هـــذه الحجـــرة ومن في هــذه» وأومأ الى ثلاث حجر فــذهبت إليهن وقــالت لهن فسكتن جميعا ، وكـان في واحـدة منها عائشة وخاصـتها ، وفي الثانية مـروان بن الحكم وشـباب من قـريش ، وفي الأخرى عبدالله بن الزبير وأهله. [1]

وقـال القرطـبي في تفسـيره : وما اسـتهلكه البغـاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤخذوا به ، وقـال أبو حنيفة : يضــمنون ، وللشــافعي قــولان ، وجه قــول أبي حنيفة أنه إتلاف بعـدوان فيلـزم الضـمان ، والمقـول في ذلك عنـدنا ان الصـحابة رضي الله عنهم في حـروبهم لم يتبعـوا مـدبرا ولا ذفّفـوا على جـريح ولا قتلـوا أسـيرا ولا ضمنوا

(1) جواهر الكلام / ج 21 / ص 331

نفسا ولا مالا وهم القدوة. [1]

د / قال الفقهاء إن الباغي ذا الفئة يقتل أسيرا ويجهز عليه جريحا ويســتحل ماله ، لأنه يعــود الى من يجمع له السـلاح ويغـدق عليه الأمـوال ويعـاود القتـال .. وجـاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السـلام انه سـئل عن الطائفتين من المؤمنين إحداهما باغية والاخرى عادلة فهزمت العادلة الباغية قال : «ليس لأهل العدل أن يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يقتلوا أسـيرا وهـذا إذا لم يبق من أهل البغي أحد ولم يكن فئة يرجعـون إليها ، فـاذا كانت لهم فئة يرجعون إليها فان أسيرهم يقتل ، ومدبرهم يتبع وجريحهم يجهز عليه». [2]

وقال المحقق في الشـرائع : من كـان من أهل البغي لهم فئة يرجع إليها جــاز الاجهــاز على جــريحهم واتبــاع مدبرهم وقتل أسيرهم. فعلق عليه صاحب الجـواهر بقوله بلا خلاف أجده في شيء من ذلك. [3]

وهــذا الحكم يســتفاد أيضا من الآية الكريمة ، لأن ذا الفئة من البغــاة لا يــزال في حالة الحــرب إذا لم ينفصل عنهم أو ليست فئته تحارب المسلمين وهو لم يتــبرّأ منهم .. فلم يتحقق بالنسبة إليهم قوله سـبحانه : «**حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ**».

وجــاء في حــديث مــأثور أنه أتى علي عليه الســلام بأسـير يـوم صـفين فبايعه فقـال علي (ع) «لا أقتلك إني أخـاف الله رب العـالمين ، فخلى سـبيله وأعطـاه سـلبه الذي جاء به». [4]

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 320
(2) المصدر 329
(3) المصدر / ص 328
(4) وسائل الشيعة / ج 11 / ص 54

ومن هنا يظهر ان الأسير يستتاب فان تـبرّأ من قومه أطلق سراحه والله العالم.

[10] كما النهر يطهر بعضه بعضا ، كذلك المؤمنون لا يفتـأون يصـلحون ما فسد من علاقـاتهم ببعضـهم حـتى يصبحوا إخوانا.

(**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**)

وجـاءت الكلمة بصـيغة الحصر لتـذكّرنا بـأن الايمـان الذي لا يرفع المنتمين اليه الى حالة الاخوة إيمان ضـعيف ناقص ، فهاهنا تقاس التقوى ، وتمحص النفوس للايمـان ، ويستبين الصادقون عن المنافقين.

عشـــرات الأنظمة الاجتماعية ، ومئـــات الوصـــايا الأخلاقية تـوالت في الـدين ليبلغ المسـلمون حالة الاخـوة الايمانية ، ومـــتى ما خالفنا بعضــها انمــاث الايمــان في القلوب كما تنمـاث حبة الملح في كف المحيط .. وجـاءت الروايات تـترى وهي توصـينا بحقـوق إخوتنا في الايمـان ، تعالوا نسـتمع الى بعضـها لعلنا نخلق ذلك المجتمع الأمثل الذي يتحدى أعاصير الفتنة والصراع.

روي عن الامــام علي عليه السـلام أنه قــال : قــال رســول الله صــلّى الله عليه وآله : «للمســلم على أخيه ثلاثون حقا لا براءة له منها إلا بــالأداء أو العفو يغفر زلته ، ويــــرحم عبرته ، ويســـتر عورته ، ويقيل عثرته ، ويقبل معذرته ، ويــرد غيبته ، ويــديم نصــيحته ، ويحفظ خلته ، ويــرعى ذمته ، ويعــود مرضــته ، ويشــهد ميته ، ويجيب دعوته ، ويقبل هديته ، ويكــافئ صــلته ، ويشــكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليلته ، ويقضي حاجته ، ويشـفع مسألته ، ويسمت عطسته ، ويرشد ضالته ، ويرد سلامه ، ويطيب كلامه ، ويـبرّ انعامه ، ويصـدّق أقسـامه ، ويـوالي وليه ، ولا يعاديه ، وينصــره ظالما ومظلوما : فأما نصــرته ظالما فيرده عن ظلمه ، وأما نصرته

مظلوما فيعينه على أخذ حقه ، ولا يسـلمه ولا يخذله ، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ويكره له من الشر ما يكره لنفسه. ثم قال عليه السلام : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئا فيطالبه به يوم القيامة فيقضى له وعليه». [1]

روى عن الامام الصادق عليه السلام : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يغشه ولا يغتابه ولا يخوفه ولا يحرمه». [2] وعنه عليه السلام : «**المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه**». [3]

وعنه عليه السلام : «تقربوا الى الله تعالى بمواساة إخوانكم». [4]

وروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله أنه قال : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا (وأشار الى صدره ثلاث مرات) حسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». [5]

وروي عنه أيضا : «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا**». [6]

والتحسس : الاستماع الى صيت القدم ، والتناجش أن تزيد في سلعة ولا رغبة لك في شرائها.

---

(1) بحار الأنوار / ج 74 / ص 236
(2) نور الثقلين / ج 5 / ص 87
(3) المصدر / ص 86
(4) بحار الأنوار / ج 74 / ص 391
(5) تفسير القرطبي / ج 16 / ص 323
(6) المصدر

وجاء عن الامام الصادق عليه السلام وهو يـبيّن مـدى عمق الصلة بين المؤمنين :

«**إنما المؤمنـون إخـوة بنو أب وأم ، وإذا ضـرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون**». [1]

إنها علاقة روحية تتجاوز حدود المادة ، وتتصل بالغيب ، وجـاء في حـديث آخر عن الامـام البـاقر عليه السـلام : سـأله جـابر الجعفي وقـال : تقبضت بين يـدي أبي جعفر فقلت جعلت فداك : ربما حزنت من غير مصـيبة تصـيبني أو أمر يـــنزل بي حـــتى يعـــرف ذلك أهلي في وجهي وصـــديقي فقـــال : نعم يا جـــابر إن الله عز وجل خلق المؤمــنين من طينة الجنــان وأجــرى فيهم من ريح روحه فلذلك المؤمن أخو المـؤمن لأبيه وأمه ، فـاذا أصـاب روح من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن حزنت هـذه لأنها منه. [2]

ويبقى سؤال : لما اختـار الإسـلام كلمة الاخـوة لبيـان مـدى العلاقة بين ابنائـه؟ ثم لمـاذا نسب هـذه الحالة الى الايمان؟

أولا : حينما اختــار المبــدأ الغــربي كلمة (المــواطن) لبيـان العلاقة بين أبنائه انطلق من فكـرة تقـديس الأرض وربط الناس بها وبالمصالح المشتركة الـتي تشد مجموعة من البشر ببعضـهم ، وحينما انتخب المبـدأ الشـرقي كلمة (الرفيــق) فقد اعتمد على دور المســيرة النضــالية في علاقاته الاجتماعيـة. أما الإسـلام فقد اجتـبى لنا كلمة الأخ لنعلم ان صــلتنا ببعضــنا ليست مادية قائمة على أســاس تقـدير الأرض والمصـالح ، كما أنها لا تخص حالة النضـال ورفاقة المســيرة ، وإنما هي مبدئية ناشـئة من صـلة كل واحد منا بدينه ، حتى ليصبح الـدين كـالأب الـذي هو أصل وجود

---

(1) المصدر / ص 264
(2) المصدر / ص 266

الابن ، وكلما قــويت واشــتدت صــلتنا بالأصل كلما قــويت وتنامت صلتنا ببعضنا.

ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الامـام الصـادق عليه السلام : «**المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، إذا اشتكى شيئا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده ، وأرواحهما من روح واحدة ، وإن روح المــؤمن لأشد اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها**». [1]

وإنما نسب الـــوحي الاخـــوة الى الايمـــان (وليس الإسلام) لأن الإسلام مجـرد التسـليم للـدين بينما الايمـان وقر في القلب يفيض على كل جــوانب حيــاة الإنســان ، والــذي يرفع النــاس الى مســتوى الاخــوة ليس مجــرد التصديق المبدئي بالدين وإنما تطبيق تلك التعـاليم القيمة التي تسقط الحواجز المادية والمصلحية التي تفصلهم عن بعضهم.

(**فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**)

ما دمنا إخــوة ، فلا بد من ردم الفجـوات الـتي تفصل بيننا ، وهـــدم الحـــواجز وسد الثغـــرات. أرأيت البنيـــان المرصوص ، وهكذا يكـون بنـاء التجمع الايمـاني. أرأيت لو امتلئ بــالثغرات والثقــوب هل يكــون البنيــان مرصوصا ، وهل يصلح للبقاء طويلا؟

إن التعامل اليــومي بين المؤمــنين يســتدعي إشــاعة حالة الســلام والصــفاء والمــودة بينهم ، وإلّا فــإنّ التعامل ليس فقط يصبح صعبا ، بل يكون متلفا للأعصاب ويســبب تراكم السلبيات. ولو لا عملية الإصلاح اليومية الــتي يقــوم بها المؤمنون تجاه إخــوتهم فيما يشـجر بينهم فــإنّ تــراكم السلبيات يمهد السبيل للصراعات الكبيرة الــتي قد تــؤدي الى حالة الاقتتــــال ، لأن كل واحد يســـتقطب طائفة من المؤمنين حوله

---

(1) بحار الأنوار / ج 74 / ص 268

وينشب الصــراع بين طــائفتين بينما كــان في البــدء بين فردين اثنين.

إن الإســـلام قد سن تشـــريعات كثـــيرة في تنظيم العلاقة بين المؤمنين ، ولكن إذا لم نعرف الهدف الأسمى لها ولم نطبقها بحيث نبلغ ذلك الهـــــــــدف المتمثل في تكريس حالة الاخوة بين المؤمنين فاننا لا ننتفع كثـيرا بها ، بل علينا فـــوق ذلك أن نضـــيف الى التشـــريعات الدينية ممارسات خلقية وحـتى لـوائح قانونية لتحقيق الإصـلاح .. كما ان الـــدين مثلا سن أحكاما كثـــيرة لرعاية الصـــحة الجسدية ، فعلينا : أولا : أن نطبقها بحيث نبلغ هذا الهدف ، وثانيا : أن نشـــرّع قـــوانين جديـــدة للوصـــول إلى ذلك الهدف ، إذا احتاجت الصحة إليها ، مثل بنـاء المصـحات أو تطهير الشوارع أو إيجاد مراكز الحجز الصحي وما أشبه.

إن تعاليم الدين الـتي تخص المقاصد العامة كالصـحة والإصــلاح والعدالة والعــزة والكرامة وما أشــبه ينبغي أن نطبقها ونعطيها الأولوية بالقيـاس الى أحكـام الـدين الـتي تهتم بسبل تحقيق هذه المقاصد ، ولا يجوز أن نهمل هــذه الأوامر وكأنها تعاليم أخلاقية عامة لا تفرض حكما.

ولعل خاتمة الآية تشـير الى مـدى وجـوب هـذا الأمر الكلي حيث يقول ربنا :

(**وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)

بلى. إن رحمة الله وصلواته وبركاته تتنزّل على الذين يتواصـلون ويتبـارون ، لأنهم يطيعـون الله في أداء حقـوق إخوانهم.

فقد جاء في الحديث عن رسول الله صــلّى الله عليه وآله : «من زار أخـاه في بيته قـال الله عز وجل له : أنت ضــيفي وزائــري عليّ قــراك وقد أوجبت لك الجنة بحبك إياه». [1]

---

(1) بحار الأنوار / ج 74 / ص 345

وجاء في الحديث المـأثور عن رسـول الله صـلّى الله عليه وآله : «من كان في حاجة أخيه. كـان الله في حاجته ومن فــرج عن مســلم كربة فــرج الله بها عنه كربة من كـرب يـوم القيامة ، ومن سـتر مسـلما يسـتره الله يـوم القيامة». [1]

فضيلة الإصلاح بين الناس :

ولقد أمــرت الآية بالإصــلاح بين الاخــوة المؤمــنين ، وقرّرت النصوص للمصلحين أجرا عظيما.

ففي وصــــيته عند وفاته لنجليه الحسن والحســــين عليهما الســـلام قـــال أمـــير المؤمـــنين عليه الســـلام : «**أوصــيكما وجميع ولــدي وأهلي ومن بلغه كتــابي بتقوى الله ونظم أمركم ، وصـلاح ذات بينكم فـأني سمعت جدكما رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام**». [2]

وجاء في حديث مأثور عن الامـام الصـادق أنه قـال : «**صـدقة يحبها الله إصـلاح بين النـاس إذا تفاسـدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا**». [3]

وقـال عليه السـلام : «**لان أصـلح بين اثـنين أحب الي من أن أتصدق بدينارين**». [4]

وبالرغم من إن الكذب ذنب عظيم إلّا ان الدين اعتبر الكذب في الإصلاح صدق عند الله.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 88
(2) بحار الأنوار / ج 75 / ص 24
(3) نور الثقلين / ج 5 / ص 88
(4) المصدر

وجـاء في الحـديث المـروي عن الامـام الصـادق عليه السلام : «**المصلح ليس بكاذب**». [1]

(1) المصدر ص 89

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَـوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِســاءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقــابِ بِئْسَ الاسْــمُ الْفُسُــوقُ بَعْــدَ الْإِيمــانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــــــوا اجْتَنِبُــــوا كَثِــــيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُـوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُـكُمْ بَعْضـاً أَيُحِبُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُـوا اللـهَ إِنَّ اللـهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)

---

(11) (**وَلا تَلْمِزُوا**) : من المؤمـنين ، لأنّ عيب الآخـرين من المؤمـنين عيب على النفس ، لأنّ المؤمنين وحده واحدة.

(**وَلا تَنابَزُوا**) : التنابز باب المفاعلة من النبز بأن يجعل كلّ واحد منهما للآخر لقبا سيّئا ، وإنّما جاء بلفظ التنـابز للدلالة على أنّ النـبز لا بد وأن ينتهي الى المنابزة.

(**الِاسْمُ**) : أي العلامة ، لأنّه مشتق من الوسم.

(وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

هدى من الآيات :

لكي يبني الإسلام لنا صرحا اجتماعيا متينا يوصينا بأن نكن الاحترام الكافي لاخوتنا ، فلا يحتقر قوم قوما آخـرين ، ولا نساء نسـاء أخريـات ، لأن المقيـاس الحق عند الله ، ولعل أولئك الــذين نســخر منهم هم خــير منا عند الله وأفضل (ولكنا نجهل نقاط قوتهم ، ونتعالى عليهم فلا نرى إلا نقاط ضعفهم).

وينهانا القــرآن عن أن نعيب بعضــنا لمــزا (بــالقول ومواجهة) أو أن نتبادل الألقاب السـيئة (مما يزيل حجـاب الحيــاء وينشر الحالة الســلبية) ، فــبئس الاسم اسم الفسوق بعد أن اجتبانا الله للايمـان ، واختـار لنا به أحسن الأسـماء. (بلى. إن صـبغة المجتمع الاسـلامي هي صـبغة الله الــتي تشع حســنا ، فلما ذا نصــبغ مجتمعنا بأســوء الصفات عبر التنابز بالألقاب البذيئة)؟

ثم يوصينا السـياق باجتنـاب الظنـون (إلا الظن الـذي يدعمه الدليل القاطع) ،

لأن بعض الظن إثم (وهو الـذي يحوله صـاحبه الى موقف عملي) ، وينهانا عن التجسس (الـــــذي هو التحقق من الظن الســيء) ، وعن الغيبة الـتي يعتبرها كأكل لحم الأخ ميتا ، أو لســنا نكــره ذلك ، ويأمرنا في الخاتمة بــالتقوى (حتى لا تصبح الغيبة بتكرارها أمرا مألوفا وغـير مسـتقبح) ويؤملنا رحمته وتوبته (حـتى لا نيـأس من تطهـير أنفسـنا ومجتمعنا من هذه الرذائل).

بينات من الآيات :

[11] بداية فساد العلاقة بين الإنسان ونظيره تضاؤل قيمة الإنسـان كإنسـان في عينه ، وآنئذ لا يحـترم النـاس بعضهم ، ويبحث كل عن منقصة في صاحبه يســخره بها ، ويـدعي لنفسه مكرمة يفتخر بها ، بينما لو أنصـفنا أنفسـنا لعرفنا ان ســرّ احترامنا لأنفســنا هو اننا بشر نملك العقل والارادة ، ونتحسس بــالألم واللـــذة ، ونتحلى بـــالحب والعواطف الخيرة ، أفلا توجد كل هذه في أبناء آدم جميعا ، فلما ذا أطالب باحترام الناس لي ، ولا أجد لا حد حرمة؟

تعالوا ننظر لحظة ببصـائرنا ، حين أسـخر من إنسـان نظـير لي في مجمل صـفاته ، أفلا يعـني ذلك أني أسـخر من نفسي أيضا؟

بلى. الـــذين يكفـــرون بقيمة الارادة والعقل والحب والعواطف في أنفسهم هم الذين يكفرون بها في غــيرهم ثم يســخرون منهم. إنهم ينســلخون من إنســانيتهم ثم يسمحون لأنفسهم بانتهاك حرمات غيرهم.

من هنا يشــرع السـياق في اجتثـاث جـذور الشـقاق الاجتماعي بالنهي عن السخرية بالآخرين قائلا :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ**)

ويخـــاطب المؤمـــنين لأن هـــذه الصـــفة لا تتناسب وإيمـانهم بالله ، أو ليس الايمـان بالله يعـني حـذف القيم الأرضــية وتطهــير النفس من احـــترام المـــال والبـــنين والشـهرة والأرض و.. و.. مما يسـبب عـادة في التفـاخر. وحين ينهى ربنا عن الســخرية فلأنها الخطــوة الأولى في طريق النهاية. كيف؟

إن من أعظم مفـاخر البشر ومزايـاه صـفة الحيـاء ، حيث يتحسس الإنسـان بفطرته النقية انّ للآخـرين حرمة لا بد أن يؤديها إليهم ، ومن ملك الحياء لا يفكر في تجـاوز الآخــرين. فكيف يفكر في اغتصــاب حقــوقهم والاعتــداء عليهم؟

وهكـذا يسـعى الشـيطان لازالة صـفة الحيـاء ، وحث الإنســان الى الاســتهانة بــالآخرين ، وتصــغير قــدرهم ، والتصوير بـأنهم أقل منه فيحق له إذا تجـاوز حقـوقهم بل والاعتــداء عليهم. وهنا يقف القــرآن له بالمرصــاد فيــأمر بالتمسك بالحياء والإبقاء على صفة احترام الآخـرين حـتى يقضي على التفكير في الجريمة.

أرأيت كيف يســمح المســتكبرون لأنفســهم بارتكـاب المذابح الجماعية بحق المستضعفين ومنعهم من حقوقهم من أدنى درجــات الحيــاة؟ هل فكــرت يوما كيف انســلخ أولئك البشر عن إنســـانيتهم وانـــدفعوا في مثل هـــذه الجـرائم؟ إنهم في البـدء سـخروا منهم وقـالوا نحن أبنـاء الله ، نحن الشـعب المختـار ، نحن ذوي البشــرة البيضـاء اختارنا الله لحكم هؤلاء الذين لم يؤتوا من الــذكاء والعقل نصــيبا مــذكورا. وهكــذا كــونت الثقافة العنصــرية أرضــية الجريمة بحق الشعوب.

ولعل التعبير القرآني هنا يعكس طبيعة الاستهزاء عند الرجـال ، حيث انهم يفتخـرون عـادة بتجمعهم ويسـخرون من سائر الناس ، فترى أهل هذا الحي يقولون من مثلنـا؟ أو أهل هـذا النـادي أو ذلك الحـزب أو هـذا المصر أو ذلك الإقليم إنهم يفتخـرون بما لـديهم ويفرحـون بما أوتـوا من نصيب الدنيا فيسخرون ممن لا يملك ذلك

حتى ولو ملك ما هو أفضل منه.

أما النسـاء فتجـري مفـاخرتهن في أمـور شخصـية كالجمال والزينة أو النسب أو السبب ، وأساس الاستهزاء بالآخرين عجب كل قوم بما يملكون من ميزات ، وفرحهم بها ، ثم تعـاليم على من سـواهم بـذلك ، ولعل مـيزات الآخرين أعظم وأنفع للنـاس وأبقى عند الله ، لـذلك ذكرنا الرب سبحانه بالالتفات الى هذه الحقيقة ، وقال :

(**عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِسـاءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَ**)

وفي حديث مأثور عن رسـول الله (ص) نقـرأ أن من علامات عقل المرء تركه التعالي على الناس ، هكـذا روي عن أبي جعفر (عليهما السـلام) : قـال رسـول الله صـلّى الله عليه وآله وسـلم : «لم يعبد الله عـزّ وجـلّ بشـيء أفضل من العقل ، ولا يكون المؤمن عاقلا حتى تجتمع فيه عشر خصال .. والعاشـرة لا يـرى أحـدا إلّا قـال : هو خـير منّي وأتقى ، إنما النـاس رجلان : فرجل خـير منه وأتقى ، وآخر هو شرّ منه وأدنى ، فاذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به ، وإذا لقي الـــذي هو شر منه وأدنى قال : عسى خير هـذا بـاطن ، وشـرّه ظـاهر ، وعسى أن يختم له بخير. فـاذا فعل ذلك فقد علا مجـده ، وسـاد أهل زمانه». [1]

وفي رواية أخـرى قـال رسـول الله صـلّى الله عليه وآله وسـلم : «**إن الله عز وجل كتم ثلاثة في ثلاثة ، كتم رضاه في طاعته ، وكتم سـخطه في معصـيته ، وكتم وليه في خلقه ، فلا يستخفن أحدكم شيئا من الطاعـات فانه لا يـدري في أيها رضا الله ، ولا يستقلن أحدكم شيئا من المعاصي فانه لا يدري في أيها سخط الله ، ولا يزر أن**

(1) بحار الأنوار / ج 1 / ص 108

أحـــدكم بأحد من خلق الله فانه لا يـــدري أيهم ولي الله» [1]

وجاء في سبب نزول الآية الكريمة ان ثـابت بن قيس بن شـماس كـان في أذنه وقر ، وكـان إذا دخل المسـجد تفسحوا له حتى يقعد عند النـبي (ص) فيسـمع ما يقـول ، فـدخل المسـجد يوما والنــاس قد فرغــوا من الصــلاة ، وأخذوا مكـانهم ، فجعل يتخطى رقـاب النـاس ، ويقـول : تفسـحوا ، تفسـحوا ، حـتى انتهى الى رجل فقــال له : أصـــبت مجلسا فـــاجلس ، فجلس خلفه مغضـــبا ، فلما انجلت الظلمة ، قـال : من هـذا؟ قـال الرجل : أنا فلان ، فقـال ثـابت : ابن فلانـة! ــ ذكر أمّا له كـان يعـير بها في الجاهلية ـ فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية [2].

وعن ابن عبــاس في قوله : «ولا نســاء من نســاء» نزل في نساء النبي (صلّى الله عليه وآله) سـخرن من أم ســلمة. وعن أنس : وذلك أنها ربطت حقويها بســبيبة ــ وهي ثوب أبيض ـ وسدلت طرفها خلفها ، فكـانت تجـرّه ، فقالت عائشة لحفصة : أنظري ماذا تجـرّ خلفها كأنه كلب ، وقيل أنها ــ عائشة ــ عيرتها بالقصر ، وأشــارت أنها قصيرة ، وهذا ما روي عن الحسن بن علي عليهما السلام [3].

وفي تفسير علي بن إبراهيم أن الآية نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب ـ وكانت زوجة رسول الله صـلّى الله عليه وآله وسلم ــ وذلك أن عائشة وحفصة كانتا تؤذيانها ، وتشـتمانها ، وتقـولان لها : يا بنت اليهودية ، فشـكت ذلك الى رسول الله (ص)؟ قال : قولي : أبي هارون نــبي الله ، وعمي موسى كليم الله ، وزوجي محمد رســـــول الله (ص) فما تنكران مني؟! فقالت لهما ، فقالتا : هـذا علمك رسول الله (ص) فأنزل الله الآية [4].

---

(1) المصدر / ج 75 / ص 147
(2) مجمع البيان / ج 9 / ص 135
(3) المصدر
(4) تفسير القمي / ج 2 / ص 322

(**وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ**)

اللمز هو العيب. وقـــال الطـــبري : «اللمز باليد واللسان والاشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان» [1].

وحين يعيب الواحد منّا أخاه ينشر النفس السلبي في المجتمع ، ويسـقط حرمته ، مما يسـبب في لمز نفسه أيضا ، ولعله لـذلك قـال ربنا هنا «أنفسـكم» كما قـال سبحانه : «**وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**» [2] أي لا يقتل بعضكم بعضا أو قـال «**فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ**» [3] أي سلموا على بعضكم. إن الإخلال بالآداب الاجتماعية أسـرع شـيء تأثيرا على صاحبه ، لأن الحالة الاجتماعية ستعمه سريعا ، ثم ان الـذي تلمـزه لا يـترك العيب عليك ، فتسـقط هيبة الجميع ، ويرفع حجـاب الحيـاء وتتسع الكلمـات البذيئة وينتشر الجو السـلبي. ثم ان اللمز ــ كما السـخرية بالآخرين ـ خطوة في طريق إفساد العلاقـات الاجتماعية ، وجرثومة الصراعات الخطيرة ، لا بد أن نقف دونها بحـزم حتى لا تتطور.

(**وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ**)

أن يلقب بعضـنا بعضا بالألقـاب البغيضـة. وفي الروايات : أنه يستحب أن ينادي الأخ أخاه بـأحب الأسماء اليه.

وإننا قد نسـيء الى إخوتنا من غـير قصد كـأن نلقبه باسم أمـام الآخـرين ، باسم لا يرضـاه ، وقد نقوله له بحسن نيّه غير جدّ ، فيأخذه الآخـرين مأخذ الجـدّ ويعيروه به حـتى ينطبع عليه ، ويسـيء الى شخصه وشخصـيته. وتختلف تلك الألقاب باختلاف

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 327

(2) النساء / 29

(3) النور / 61

المجتمعـات ، وعموما فـإنّ كل لقب لا يرضى به صـاحبه يجب أن نمتنع عن تلقيبه به.

«**وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ**».

أي لا تتبـادلوا بينكم الألقـاب السـيئة الـتي تـؤثر على سـمعة المجتمع الاسـلامي ، إنما ينبغي أن نختـار أفضل الألقاب ، وأحب الأسماء فنطلقها على إخوتنا.

إن طهـارة اللسـان ونظافة الأجـواء الاجتماعية تطبع حياتنا بأحسن الصور. أرأيت لو قـدمت مدينة قـذرة لا يأبه أهلها بنظافة أبـدانهم ، أفلا تتمـنى لو تخـرج منها سـريعا؟ كـذلك المجتمع حين يعبق طيب الكلمـات الحسـنة في أرجائه يستريح الإنسـان إليه ، أما إذا انتشر فيه ريحة نتنة نهرب منها.

وقد نـزلت هـذه الآية ــ حسب المفسـرين ــ في أن الرجل كان يعيّر بأصله بعد إسلامه فيقـال له : يا يهـودي ، يا نصـراني .. وقـال البعض : إن الرجل كـان له الاسـمان والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى يكره فنزلت الآية. [1]

(**بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ**)

فالأسـماء الـتي كـانت للجاهلية لا تصـلح للمسـلمين الذين رفع الله شـأنهم بالايمـان – ولـذلك روي عن النـبي صلّى الله عليه وآله : «من حق المـؤمن على المـؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه» [2].

(**وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 328

(2) القرطبي / ج 16 / ص 230

إن الحقوق الاجتماعية ليست بأقل حرمة من الحقوق المالية ، ومن يعتدي على عرض إخوانه كمن يعتــدي على نفسه أو ماله ، أولا نقــرأ الحــديث الشــريف المــأثور عن النــبي صــلّى الله عليه وآله : «إن الله حــرم من المســلم دمه وماله وعرضه وان يظن به السوء» [1].

وهذه الآية تنهى أيضا عن التعبير الـذي هو من التنـابز بالألقـــاب حسب ما يـــدل على ذلك ســـبب نزولها ، وقد وردت نصــوص عديــدة في النهي عن ذلك منــذرة فاعل ذلك بالافتضاح.

فقد روى الامام الصادق عليه السلام عن النبي صـلّى الله عليه وآله أنه قال : «من أذاع فاحشة كان كمبتـديها ، ومن عيّر مؤمنا بشيء لا يموت حتى يركبه» [2].

وروي عن الامام الباقر عليه السـلام : «إن أقـرب ما يكـــون العبد الى الكفر أن يـــؤاخي الرجل على الـــدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنفه بها يوما ما» [3].

وجــاء في حــديث مــأثور عن الامــام الصــادق عليه السلام : «**إن لله تبـارك وتعـالى على عبـده المـؤمن أربعين جنة فمن أذنب ذنبا كبــــــيرا رفع عنه جنة ، فاذا عاب أخاه المـؤمن بشـيء يعلمه منه انكشـفت تلك الجنن عنه ، ويبقى مهتك الســـتر فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة وفي الأرض على ألسنة الناس ، ولا يرتكب ذنبا إلا ذكـروه ، ويقـول الملائكة الموكلون به يا ربنـا! قد بقي عبـدك مهتك السـتر ، وقد أمرتنا بحفظه ، فيقول عزّ وجلّ : ملائكــتي! لو أردت بهذا العبد خيرا ما فضحته ،**

(1) تفسير نمونه نقلا عن المحجة البيضاء / ج 5 / ص 268
(2) بحار الأنوار / ج 75 / ص 215
(3) المصدر

فارفعوا أجنحتكم عنه فوعزتي لا يؤول بعدها الى خير أبدا» [1].

[12] نهت الآية السابقة عما يفسد العلاقة بصورة علنية ، وفي حضور الطرف الآخر ، وبتعبير آخر : كانت الآية تطهر المحضر بينما تنهى هذه الآية عما يفسد العلاقة من وراء الشخص وتطهر المغيب .. وتبدأ بسوء الظن الذي تثيره ووساوس الشيطان ، ويتنامى عادة بين المؤمنين في غيبة بعضهم عن البعض.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**)

الظن هو التصور الذي ينقصه الدليل ، وإن كثيرا من هذا الظن باطل وبعضه يصبح إثما. كيف ذلك؟

إن قلب الإنسان يتعرض لأمواج مختلفة من الهواجس والتصورات ، وإن بعضها فقط هي الحق وهي التي تبعث من مصادر المعارف الخارجية ، بينما البقية هي قياسات باطلة وتمنيات ووساوس وإفرازات العقل الباطن وترشحات الاحباطات و.. و.. وإذا راجعت نفسك يوما وحاولت إحصاء وتقييم كل تصوراتك تقييما سليما ، فيومئذ تصل الى هذه النتيجة ان أكثرها لا تعتمد على أدلة مقنعة ، ولكن أنى للإنسان أن يقيم كل ما يتعرض له ذهنه كل يوم من أمواج التصورات المتلاحقة. فما ذا علينا أن نفعل؟

علينا الا نأبه بأي تصور يحيكه ذهننا ، بل نعتمد على الحواس والمصادر الموثوقة للمعرفة.

لذلك فان علينا أن نجتنب كثيرا من الظن ، أما القليل الذي نسعى وراءه فهو

(1) المصدر ص 216

الذي تفرزه الحواس ، ويصدقه العقل ، ويصمد أمام النقد الــدقيق. أما الظن الآثم فهو الــذي تفــرزه حــالات الحقد والغضب والصــراع .. ولكن المشــكلة ان هــذه المجموعة الصــغيرة متنــاثرة بين ســائر الظن الكثــير ، مما يجعلنا لا نطمئن اليه جميعا ، كما لو كان بعض الناس في بلد حاملا لفيروس الايدز ولكننا لا نعرفهم بأعيـانهم فعلينا أن نجتنب كل أهل هذا البلد حتى يتميزوا عن بعضهم.

من هنا نجد الامام علي عليه السلام يكرر في وصاياه هـــذه الكلمة ، بعد أن يســـأل عن المســـافة بين الحق والباطل يقول : «أربع أصابع» ويضع يــده على أذنه وعينه فيقول : «**ما رأته عيناك فهو الحق وما سمعته أذنـاك فأكثره باطل**» [1].

ولأن كثــيرا من الظنــون تطــال المؤمــنين بســبب أعمالهم التي قد يكون لهم عذر وجيه في القيام بها ، فقد أمرنا الدين بـأن نحمل أفعـال إخواننا على أفضل محمـل. قال أمير المؤمـنين عليه السـلام : «**ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك (أي تعلم يقينا غــير ذلـك) ولا تظنن بكلمة خـرجت من أخيك سـوء وأنت تجد لها في الخير محملا**» [2].

وعن النـــبي صــــلّى الله عليه وآله : «**أطلب لأخيك عذرا فان لم تجد له عذرا فالتمس له عذرا**» [3].

وبعض المؤمنين يزعمون أن من علامة إيمانهم ســوء الظن بالناس وملاحقتهم بتهمة الفسق وكأن الأيمـان حكر عليهم ، كلّا .. إن ذلك علامة ضيق نظرهم ، وشدة عجبهم المفسد لقلـــوبهم. أما علامة الايمـــان الحق فهي ســـعة الصدر وسماحة

---

(1) بحار الأنوار / ج 75 / ص 196
(2) المصدر
(3) المصدر / ص 197

القلب ، وصفاء النفس تجاه الآخرين.

قـال الامـام الصـادق عليه السـلام : «**حسن الظن أصــله من حسن إيمــان المــرء وســلامة صــدره ، وعلامته أن يــــرى كل ما نظر اليه بين الطهـــــارة والفضل ، من حيث ما ركب فيه وقـذف من الحيــاء والأمانة والصيانة والصدق**»

فهـذه هي عناصر الايمـان حقا ، فـالمؤمن حـييّ أمين يصون سر النـاس ويتعامل معهم بالصـدق ، وأضـاف عليه السلام قائلا :

قال النبي : «**أحسنوا ظنـونكم بـإخوانكم تغتنمـوا بها صفاء القلب ، ونقاء الطبع**» وقــال أبيّ بن كعب : أذا رأيتم أحد إخوانكم في خصلة تسـتنكرونها منه فتـأولوا لها سبعين تأويلا ، فاذا اطمـأنت قلـوبكم على أمرها ، وإلا فلوموا أنفسكم حيث لم تعـذروه في خصـلة سـترها عليه سبعون تأويلا وأنتم أولى بالإنكار على أنفسكم منه [1].

بلى. يصــدق هــذا فقط عند صــلاح الزمــان أو بين التجمع الصالح الذي تتسم علاقاتهم بـالأخوة الايمانيـة. أما إذا فسد الزمــــــــان أو أردنا الحكم على تجمع فاسد أو مجتمع منحل فلا يجـوز حسن الظن ، لأنه نـوع من الغبـاء والمؤمن كيس فطن.

هكـذا قـال الامـام الصـادق عليه السـلام : «إذا كـان زمـان العـدل فيه أغلب من الجـور فحـرام أن تظن بأحد سوء حتى يعلم ذلك منه ، وإذا كان زمان الجور فيه أغلب من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيرا حـتى يبـدو ذلك منه» [2].

وكلمة أخــيرة : إن تجنب الظن الســيء منهج علمي رصين ، لأن وساوس

---

(1) المصدر / ص 196

(2) المصدر / ص 197

الشيطان وهواجس الأفكار تتداخل عادة مع بصـائر العقل ومكاسب التجربة ، فلا بد من فرزها بتجنب ســـوء الظن وعـدم الاعتنـاء بـه. أما إذا استرسـلنا مع كل هاجسة في النفس فاننا نفقد المقيـاس السـليم للتفكـير ، كما انها قد تقودنا الى الفتن العميـاء ، فقد جـاء في الـدعاء : «فـان الشـكوك والظنـون لـواقح الفتن ومكـدرة لصـفو المنـائح والمنن» [1].

ومن هنا أوجب الإسلام ترك الاسترسال وراء الظنون ، ونهى عن التحقق منها والتجسس على النـــــاس وتتبع عيوبهم وقال ربنا :

(**وَلا تَجَسَّسُوا**)

وهو البحث عن عـــورات النـــاس بمتـــابعتهم وكشف أسـتارهم. وروي عن أبي بـردة أن النـبي صـلّى الله عليه وآله صلى بنا ثم انصرف مسرعا حتى وضع يده على باب المسـجد ثم نـادى بـأعلى صـوته : «**يا معشر من آمن بلســانه ولم يخلص الايمـــان الى قلبه : لا تتبعـــوا عـورات المؤمـنين فإنّه من تتبع عـورات المؤمـنين تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضـحه ، ولو في جوف بيته**» [2].

وروي عن الامام الصادق أنه قـال : «**إذا رأيتم العبد متفقدا لذنوب الناس ناسيا لذنوبه ، فـاعلموا أنه قد مكر به**» [3].

وهكـــذا يريد الـــدين لنا حيـــاة آمنة لا تطالها أعين الفضول ، ولا تهتك حرمتها متابعات الطفيليين .. يتحسس كل فرد فيها ببرد الأمنة وسكينة الثقة.

---

(1) من مناجاة السجاد (ع) مناجات المطيعين له ـ مفـاتيح الجنـان ص 122
(2) بحار الأنوار / ج 75 / ص 215
(3) المصدر

وكما تحـرم الآية التجسس الفـردي تحـرم تجسس الدولة على رعاياها ، إلا إذا اقتضت مصـــــلحة الأمة ، فلا بد أن يخضع ذلك للقضاء القائم على أساس أحكام الشريعة.

وقد فهم المسـلمون السـابقون هـذه الشـمولية من الآية الكريمة حسب ما نجـــده في القصة التاريخية الـــتي حدثت في عهد الخليفة الثـاني الـذي خـرج وعبد الـرحمن يعسان إذ تبينت لهما دار فاستأذنا ففتح الباب ، فـاذا رجل وامـرأة تغـني وعلى يد الرجل قـدح ، فقـال عمر : وأنت بهذا يا فلان؟! فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين؟! فقـال عمر : فمن هـذه منـك؟ قـال : امـرأتي ، قـال : فما هـذا القدح؟ قال : مـاء زلال ، فقـال للمـرأة وما الـذي تغنّين؟ فقالت :

تطـاول هـذا الليل واسـود جانبه	وأرّقـــــني الا خليل ألاعبه
فو الله لولا الله أني أراقبه	لزعــزع من هــذا الســرير جوانبه
ولكن عقلي والحياء يكفني	وأكـــــرم بعلي أن تنــــال مراكبه

ثم قال الرجل : ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين!

قال الله تعالى : ولا تجسسوا ، قال صدقت. [1]

(**وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً**)

الغيبة : ذكر معـايب النـاس عن ظهر الغيب. وقـالوا تختلف الغيبة عن الافك والبهتان ، إن الافك أن تقـول في الناس ما لا تعلم أنه فيهم ، بينما البهتان أن تقول فيهم ما تعلم أنهم براء منه. أما الغيبة فأن تقول فيهم ما يكرهـون مما تعلم أنه

(1) القرطبي / ج 16 / ص 334

فيهم .. وقد تعم كلمة الغيبة لتشمل الافك والبهتان.

وفي الحـديث عن الامـام الصـادق عليه السـلام : من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قـال الله عـزّ وجـلّ : (**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**).

وسأل مرة عن الغيبة فقال عليه السلام : «الغيبة هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل ، وتبث عليه أمـرا قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حد». [1]

وفي هـذا النص نـرى كيف تعم كلمة الغيبة لتشـمل البهتـان وكيف أنها تخص العيـوب المسـتورة ، أما العيب المتجاهر به صاحبه فان ذكره لا يعد غيبة ، وهكذا جاء في رواية مرسلة عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال :

«**من ذكر رجلا من خلفه بما هو فيه مما عرفه النـاس لم يغتبه ، ومن ذكـره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس اغتابه ، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته**» [2]

وهكـذا لم يجعل الإسـلام للفاسق المتجـاهر بفسـقه حرمة.

وجـاء في رواية نبوية : «إذ كـروا الفـاجر بما فيه كي يحذره الناس». [3]

(**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ**)

هكذا الغيبة. أرأيت أن شخصية الإنسـان أعظم عنـده أم شخصـه؟ أليس المـرء يسـعى جهـده من أجل الكرامة والتقدير ، فاذا اغتابه أحد فقد اغتال شخصيته ، ونال

---

(1) بحار الأنوار / ج 75 / ص 240
(2) المصدر ص 245
(3) القرطبي / ج 16 / ص 339

من كرامته وهي أعز من جسده ، ولأنه ليس في محضره فكأنه أكل لحمه بعد موته.

بالله ما أروع هذا التشبيه؟ وما أنفـذه من تحـذير في وجـدان الإنسـان الحـر. وكيف يقـرب كتـاب ربنا الحقـائق العظيمة الى وعينا ، وبهذه البلاغة النافذة .. وكيف يبصرنا بـأن البشر ليس كسـائر الأحيـاء يعيش حيـاة مادية ضـمن حدود بدنه فحسب ، بل إنه يمتد مع سـمعته وشـهرته أنى توسعت في أفق المكان والزمان .. وقد يضـحي الإنسـان بجسده في سبيل كرامته ، أو لا يــدل ذلك على أن كرامة الإنسـان أعظم عنـده من شخصـه؟ من هنا فـان الاعتـداء عليها ليس بأقل من الاعتــداء على بدنه .. والغيبة اعتــداء سافر على كرامة الشخص فما أشدها حرمة؟

من هنا جاءت النصوص تـترى في التحــذير من الغيبة باعتبارها أكلا للحم المغتاب بعد موته.

روي أن مـاعزا جـاء الى النــبي صـلّى الله عليه وآله فشــهد على نفسه بالزنا فرجمه رســول الله صــلّى الله عليه وآله فســمع نــبي الله رجلين من أصــحابه يقــول أحــدهما للآخر : أنظر إلى هـذا الـذي سـتر الله عليه فلم تدعه نفسه حــتى رجم رجم الكلب ، فســكت عنهما ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شـائل برجله فقـال : أين فلان وفلان؟ فقـالا : نحن ذا يا رسـول اللـه. قـال : انـزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقـالا : يا نـبي الله ومن يأكل من هذا؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والـذي نفسي بيـده انه الآن لفي أنهـار الجنة ينغمس فيها [1].

وروي عنه صلّى الله عليه وآله أنه قـال : «**لما عـرج بي مـررت بقـوم لهم أظفـار من نحـاس يخمشـون وجوههم وصدورهم ، فقلت من هـؤلاء يا جبرائيـل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**». [2]

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 335
(2) المصدر / ص 336

وعن الامـام الصـادق عليه السـلام أنه قيل له : بلغنا أن رسـول الله كـان يقـول : إن الله يبغض الـبيت اللحم؟ قال : «إنما ذاك البيت الذي يؤكل فيه لحوم الناس ...». [1]

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : «قال رجل لعلي بن الحسـين (الامـام زين العابـدين عليه السـلام) أن فلانا ينسـبك الى أنك ضـال مبتـدع ، فقـال له علي بن الحسـين عليهما السلام :

ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حقي حيث أبلغتـني عن أخي ما لست أعلمه ، إن المـوت يعمّنا ، والبعث محشـرنا ، والقيامة موعـدنا ، والله يحكم بيننا ، إيـاك والغيبة ، فانها إدام كلاب النـار ، واعلم ان من أكثر من ذكر عيوب الناس شهد عليه الإكثار أنه إنما يطلبها بقدر ما فيه». [2]

المغتاب في ولاية الشيطان

والغيبة تخـرج صـاحبها من ولاية الله الى ولاية الشيطان ، فما هي ولاية الشـيطان؟ أظهر ما فيها الفرقة والتشتت والتشـرذم الـتي هي سـبب مصـائب المسـلمين اليوم. وإذا أمعنا النظر فيها لرأينا أكثرها نفسية ، فبسـبب النظـرة السـلبية الى بعضـنا تنـامت خلافاتنا ، والغيبة هي المسـؤولية عن انتشـار النظـرة السـلبية. فلو كنا نتمسك بتعاليم الإسـلام في التعامل مع بعضـنا على أسـاس الثقة وكنا نستر العائبة ونشـيع العارفة ، ونبث الـروح الايجابية ، لكنا إخوانا متعاونين ، من هنا حذرت النصـوص الدينية من الغيبة وجعلتها سـببا للخـروج من ولاية الله حيث الوحـدة والصفاء ،

(1) بحار الأنوار / ج 75 / ص 256
(2) فبسبب كثرة ذنوبه يذكر عيوب الناس كثيرا. المصدر / ص 246.

والدخول في ولاية الشيطان.

سأل أحدهم الامام الصادق عليه السلام : قائلا : يا ابن رسول الله أخبرني عمن تقبل شهادته ومن لا تقبل؟ فقال :

«**يا علقمة ، كل من كان على فطرة الإسلام جازت شهادته**» قال فقلت له : تقبل مقترف للذنوب؟ فقال :

يا علقمة ، لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلا شهادات الأنبياء والأوصياء صلوات الله عليهم ، لأنهم هم المعصومون دون سائر الخلق ، فمن لم تره بعينك يرتكب ذنبا أو لم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر ، وشهادته مقبولة ، وإن كان في نفسه مذنبا ، ومن اغتابه بما فيه فهو خارج عن ولاية الله عزّ وجلّ ، داخل في ولاية الشيطان. [1]

إن الإسلام يريد أن يقوم المجتمع على أساس الثقة ، فمن زعزع هذا الأساس وأشاع جوّ اللاثقة بين أعضائه فقد برئ من ولاية هذا المجتمع المسلم التي هي ولاية الله ، وانتمى الى الأعداء.

ومن هنا يؤكد الإسلام ان المغتاب ينفصل عمن يغتابه ، لأنه تنقطع العصمة بينهما.

فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال :

«**من مدح أخاه المؤمن في وجهه ، واغتابه من ورائه فقد انقطع ما بينهما من العصمة**». [2]

وفي حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : «**لا يطمعن المغتاب**

---

(1) المصدر / ص 248
(2) المصدر ص 249

في السـلامة». [1] ، ولعل السـبب في ذلك ان من يتبع عيـوب النـاس يسـتثير عـدوانهم ، أو لأنه يخلق المجتمع المفكك الذي لا يحلم في السلامة.

وقد جعلت بعض النصـــــوص الدينية الغيبة أشد من الزنا ، ربما لأن اثـار الغيبة الخطـيرة في تفرقة النــاس والنيل من كرامتهم ، وإشاعة الفاحشة أشد من اثـار الزنا ، لأن الحكمة المـأثورة في حرمة الزنا هي اختلاط الميـاه وهـدم الأسـرة مما يسـبب في تفكك المجتمع ، وهـذه حكمة حرمة الغيبة أيضا ، ولكن يبـــــدو أن الغيبة أفتك بوحدة الامة من أختها الزنية.

وقد أمر الإسـلام بـأن يسـتحل المغتـاب من صـاحبه حـتى يغفر الله له ، لان ذلك ـ فيما يبـدو ـ يعيد العصـمة المقطوعة بينهما ويسبب في إعادة اللحمة الى المجتمع ، بالاضـافة الى أن ذلك يكـون رادعا للمغتـاب أن يعـود الى مثل ذلك مرة أخرى.

قـال النـبي صـلّى الله عليه وآله : «**الغيبة أشد من الزنا» ، فقيل يا رسول الله ولم ذاك؟ قال «صاحب الزنا يتوب فيتـوب الله عليه ، وصـاحب الغيبة يتـوب فلا يتوب عليه حتى يكون صاحبه الذي يحله»**. [2]

ولأن الغيبة تفتح ثغـرة في الحصن الاجتمـاعي فـان على النـاس أن يأخـذوا على يد المغتـاب حـتى لا يهـدم حصـنهم ، بـأن يـدافعوا عن أخيهم الغـائب ، فقد جـاء في الأثر عن ابن الـدرداء عن أبيه أنه قـال : نـال رجل من عرض أخيه عند النـبي ، فـردّ رجل من القـوم عليه فقـال النبي (صلّى الله عليه وآله) «من رد عن عرض أخيه كـان له حجابا من النار». [3]

---

(1) المصدر
(2) المصدر / ص 252
(3) المصدر

وفي حـديث آخر ، عن النـبي صـلّى الله عليه وآله : «من رد عن عرض أخيه المسلم كتب له الجنة البتة». [1]

وروي عن الامام البـاقر عليه السـلام أنه قـال : «من اغتيب عنده أخوة المـؤمن فنصـره وأعانه نصـره الله في الـدنيا والآخـرة ، ومن اغـتيب عنـده أخـوه المـؤمن فلم ينصره ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصـرته وعونه خفضه الله في الدنيا والآخرة» [2]

ولكي نحافظ على حصن ولاية الله المحيطة بنا ، لا بد أن نذكر أخانا المؤمن بأحسن ما فيه حتى تزداد اللحمة الاجتماعية تماسكا ، والقلوب المؤمنة صفاء وتحاببا.

جـاء في الحـديث المـروي عن الامـام الصـادق عليه السـلام أنه قـال : «**اذكـروا أخـاكم إذا غـاب عنكم بأحسن ما تحبون أن تذكروا به إذا غبتم عنه**». [3]

الغيبة : إشاعة الفاحشة

كيف تشـيع الفاحشة في الأمة مع أن المغتـاب حين يـذكر صـاحب الـذنب يذمه بذنبه ويجعله أمثولة وعـبرة لا مثلا صالحا وقدوة؟

السبب ان للذنوب هيبة في نفوس المؤمـنين ، والجو العام في المجتمع المسلم يرفضها ، فلذلك يضـطر الـذي قـدم عليها الى التكتم ، فـاذا انتهكت عصـمته أمـام الملاء لم يعد يخفيها ، كما ان الآخـرين إذا عرفـوا وجـود من يـرتكب الـذنب لا يجـدون حرجا من الاقتـداء بهم ، وهكـذا تشيع الفاحشة في الأمة.

---

(1) المصدر
(2) المصدر ص 255
(3) المصدر / ص 253

من هنا يعتبر المذنب الكاتم لذنبه أقل إجراما ممن يتجاهر به ، كما يعتبر الذي يذيع الفاحشة كمن يبتدأ بها. جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «**من أذاع فاحشة كان كمبتديها ، ومن عيّر مؤمنا بشيء لا يموت حتى يركبه**». [1]

وجاء في حديث مأثور عن الامام الكاظم عليه السلام. قال (الراوي) قلت له (الامام) : جعلت فداك ، من إخواني يبلغني الشيء الذي أكره له فأسأله عنه فينكر ذلك ، وقد أخبرني عنه قوم ثقاة؟ فقال لي : يا محمد! كذب سمعك وبصرك عن أخيك ، فان شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولا فصدقه وكذبهم ، ولا تذيعن عليه شيئا تشينه ، وتهدم به مروته ، فتكون من الذين قال الله عز وجل : «**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ**». [2]

هؤلاء لا حرمة لهم

وقد أنهى الإسلام حرمة ثلاث طوائف :

الأولى : أئمة الجور الذين لا بد من توعية الناس بظلمهم وسوء إدارتهم حتى يتمكن المسلمون من إزاحتهم أو لا أقل من تجنب خطرهم ، الثانية : أصحاب الضلالة كالأحزاب الكافرة والمنافقة والمبتدعين في الدين ، الثالثة : الفسقة المتجاهرين.

فقد روي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال : «**ثلاثة ليست لهم حرمة :**

---

(1) المصدر / ص 255

(2) المصدر

صـاحب هـوى مبتـدع ، والامـام الجـائر ، والفاسق المعلن الفسق». [1]

ويبدو أن المظلوم أيضا يجوز له أن يغتـاب من ظلمه لقوله ســبحانه : «**لا يُحِبُّ اللــهُ الْجَهْـرَ بِالسُّــوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ**».

ويقول رسول الله صلّى الله عليه وآله : «**من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروته وظهـــــــرت عدالته ، ووجبت اخوته وحرمت غيبته»**. [2]

هكذا اشترط الرسول صلّى الله عليه وآله توافر هذه الصفات في المؤمن حتى تحرم غيبته.

كلمة جامعة في الغيبة

وفي نهاية المطـاف نقـرء معا كلمة جامعة في الغيبة منسوبة الى الامام الصادق عليه السلام أنه قال : «الغيبة حـرام على كل مسـلم ، مـأثوم صـاحبها في كل حـال ، وصـفة الغيبة أن تـذكر أحـدا بما ليس هو عند الله عيب ، وتــذم ما يحمــده أهل العلم فيه ، وأما الخــوض في ذكر غائب بما هو عند الله مذموم وصـاحبه فيه ملـوم ، فليس بغيبة وان كره صاحبه إذا سمع به ، وكنت أنت معافى عنه خاليا منه ، تكــون في ذلك مبينا للحق من الباطل ببيــان الله ورسوله صلّى الله عليه وآله ، ولكن على شرط أن لا يكون للقائل بذلك مرادا غير بيـان الحق والباطل في دين الله ، وأما إذا أراد به نقص المذكور به بغير ذلك المعنى ، مأخوذ بفساد مـراده وإن كـان صـوابا ، فـان اغتبت فـأبلغ المغتــاب فلم يبق إلا أن تســتحل منه ، وإن لم يبلغه ولم يلحقه علم

---

(1) المصدر / ص 253
(2) المصدر / 252

ذلك ، فاستغفر الله له.

والغيبة تأكل الحسـنات كما تأكل النـار الحطب أوحى الله تعالى عزّ وجـلّ الي موسى بن عمـران عليه السـلام المغتـاب إن تـاب فهو آخر من يـدخل الجنة ، وإن لم يتب فهو أول من يـدخل النـار ، قـال الله عـزّ وجـلَّ : (**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتـاً فَكَرِهْتُمُـوهُ**) (الآيـة) ، ووجـود الغيبة يقع بـذكر عيب في الخلق والخلق ، والعقل والمعاملة والمذهب والجيل وأشباهه ، وأصل الغيبة تتنـوع بعشــرة أنــواع : شــفاء غيظ ومســاعدة قــوم ، وتهمة ، وتصديق خبر بلا كشـفه ، وسـوء ظن ، وحسد ، وسـخرية وتعجب ، وتــبرم ، وتــزين ، فــان أردت الســلامة فــاذكر الخالق لا المخلوق ، فيصير لك مكان الغيبة عـبرة ومكـان الإثم ثوابا» [1].

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**)

ولعل هـذه الخاتمة الـتي تفيض مغفـرة ورحمة تـدل الى أن الغيبة بلاء يعم الكثـير من النـاس ولا بد ألّا تصـبح مقبولة ، ويـــــذهب قبحها ، بل نتقي الله فيها ، ومن جهة أخرى لا يجوز أن يستبد اليأس بنا إذا وقعنا فيها بل نتـوب الى الله ان الله تواب رحيم.

---

(1) بحار الأنوار / 72 / ص 257 عن مصباح الشريعة ص 32

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18))

بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ

هدى من الآيات :

بعد أن يعطينا القرآن بصيرة الوحي في العلاقات بين أبناء آدم الرافضة لكل أشكال التمايز إلا بالتقوى ، يـذكرنا بأن الايمان درجة أعلى من الإسلام ، وأن ادعـاء الأعـراب بلوغها خاطئ ، بيد ان طاعة الله والرسول لا تذهب سدى ، (حتى وإن لم يبلغ المرء درجة الايمان).

ويبين الـذكر مقيـاس الايمـان الحق في الطهـارة من الـريب والجهـاد بالمـال والنفس في سـبيل اللـه. ويسـفه أولئك الذين يدعون الايمان عن كذب أو لا يعلمون أن الله محيط علما بكل ما في الســموات والأرض فكيف لا يعلم مدى إيمانهم؟

وتـراهم يمنّـون على الرسـول إسـلامهم (وقد يكـون الإسلام من أجل متاع الدنيا). أما الايمان فهو منّة من الله عليهم وليس العكس .. وتـذكرنا خاتمة السـورة بعلم الله النافذ في كل شيء.

ولعل هـذه الآيـات تنتظم مع الآيـات السـابقة في أن هنـــاك فريقا من النـــاس يحـــاولون أن يســـتأكلوا دينهم ويتعـالوا على النـاس باسم الإسـلام والايمـان ، فيجعلـوا الـدين وسـيلة لبلـوغ مـآرب الـدنيا ، وهـذا بـؤرة تمـايز لا يعـــترف به الإســـلام. ولا بد من فضح هـــؤلاء بتعريضـــهم لامتحان الطاعة والجهاد.

بينات من الآيات :

[13] التوحيد صـبغة المجتمع الـذي يبشر به الـدين ، وتوحيد الله سـبحانه يتنـافى والقيم الشـركية الـتي يهبط إليها البشر عند ما يبتعـــدون عن الـــوحي الالهي .. من تقـديس الابـاء والـتراث والتقاليد والتمحـور حـول القبيلة والعشيرة .. وتقديس الأرض والقـوم والحـزب ، الى تأليه الثروة والقوة واللون والعنصر.

كلا .. الإنسان فـوق ذلك جميعا إذا تمسك بحبل الله ، واهتدى بنور الوحي والعقل.

وتلك القيم الزائلة ليست فقط شـــــــركية تقلل من قيمة الإنسان ـ بعيدا عن تلك الاعتبـارات ــ وتشـوه رؤيته الى حقــائق الخلق ، وتحجبه عن معرفة الخــالق. بل هي أيضا جاهلية متخلفة ، وما تقدمت البشرية خطوة إلا بقدر ابتعادها عن تلك القيم بمثلها.

فمن عكف على عبـادة صـنم الأولين ، وقـدس تراثه وتقاليـده أنى له أن يسـاير تطـورات الـزمن ، ويسـتوعب تجـارب الآخـرين ، وينمو مع الأفكـار التقدميـة؟ ومن عبد صنم قبيلته أو عشيرته هل يمكنه أن ينفتح على إيجابيـات غيره أو يمد يد التعـاون مع من يعتـبرهم الأرذلين ويسـخر منهم ، مهما كان عندم من أفكار وطاقات؟

وهكذا .. كل من حدد نفسه في إطـار ضـيق لا يمكنه أن ينطلق مع قطار الحضارة

أنى مشت مواكبها ، ومن أبـــــرز ســـــيئات مثل هــــذه التصورات هدم الجسور الطبيعية بين أبنـاء آدم ، وإشـاعة روح التبـــاغض والتنـــاحر بينهم ، مما يجعلهم في مواجهة بعضـــهم ، وقد يـــدفعهم نحو الحـــروب الطاحنة الـــتي لم يتخلص منها البشـــرية طـــوال تاريخها المعـــروف بســـبب تمسكهم بهذه القيم الجاهلية.

من أجل ذلك دعت رســـــالات الله الى رفض هــــذه القيم التي ما أورثت الانسانية إلا خبالا .. والاستعاضة عنها بقيمة التقوى .. وقالت الآية الكريمة :

(**يا أَيُّهَا النَّاسُ**)

والخطـاب لم يخص المؤمـنين بـالرغم من ان سـياق الســورة يقتضي ذلك ، لأنه كـان ينظم العلاقة بينهم. ربما لأن هـــذه تنفع البشـــرية كما تنفع المؤمـــنين ، وإذا كـــان الناس جميعا مدعوون إليها فالمؤمنون أولى بالتمسك بها. ثم إن علاقة المؤمنين بغيرهم ينبغي أن تقوم على أساس هذه البصيرة ، فلا يجوز أن يعتبر العرب منهم أنهم الأعلى بلغتهم أو عنصرهم ، فتشكل هذه العقيدة الجاهلية حـاجزا دون دخول سائر الشعوب في دين الله.

(**إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى**)

فالأصل واحد ، وإذا كنا نكرم آباءنا ، فكلما تقدمنا في الـــزمن فلن نتجـــاوز أبانا الأكـــبر ، وجـــدتنا الكـــبرى ، آدم وحواء. فأولى بنا أن نجعلهما محورا ونكـرم كل من ينتمي إليهما من سائر البشر.

قالوا : والآية تدل على أن خلقة الإنسان ليست بمـــاء الذكر فقط ، وإنما يشـترك فيها مـاء الأنـثى كما قـال ربنا سبحانه : «**خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ**

وَالتَّرائِبِ» [1] أي صلب الأب وترائب الأم.

وهـذه البصـيرة القرآنية تنفي الفكـرة الجاهلية الـتي كـانت تـزعم ان رحم الأم مجـرد وعـاء لنمو نطفة الأب ، وصادروا بذلك حق المرأة في انتسـاب الطفل إليها وقـال قائلهم :

بنونا بنو آباءنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجـال الأباعد

كلا .. الأم أحد الشـــــــريكين في الخلق ، واحترامها يساوي أو يفوق احترام الأب في الشريعة.

وهكـذا تنفي الآية العنصـرية الجنسـية الـتي ابتلى بها الجـاهلون العـرب قبل الإسـلام ، ونـادى بالمسـاواة بين الذكر والأنثى فيما يرتبط بأصل الخلق.

(**وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ**)

قـــالوا : الشـــعب مجموعة القبائل كمضر وعـــدنان ، بينما القبيلة هي تفرعات الشعب ، وقال بعضهم : الشعب من ينسب الى الأرض ، بينما القبيلة تنسب الى أصـــلهم. وقال آخرون : الشعب هم قبائل غير العـرب .. وأنى كـان فان هذا التقسيم الذي يبتدأ بوحدة الأسـرة ثم يتوسع الى العشـــيرة ثم الفخذ والبطن حـــتى يصل الى العمـــارة والقبيلة ثم الشعب ، لم يكن عبثا ، وإنما بهدف التعارف.

(**لِتَعارَفُوا**)

فمنطق الصـراع الـذي اختلقه داروين مرفـوض في الحياة البشرية ، إنما الناس

(1) الطارق / 6 ـ 7

اختلفوا ليمارس كل دوره بحرية ولتتنامى تجربة البشــرية عــبر تنوعها ، ولكي يغــني كل فريق تجــارب غــيرهم بما اكتشفه من تجارب .. وبالتالي ليتعارفوا.

بلى إن ذات الحكمة الـتي شـرعت الأسـرة من أجلها قائمة في بنــاء الوحــدات الاجتماعية الأخــرى كالعشــيرة والقبيلة والشعب.

وهذه البصيرة تهدينا :

أولا : الى مشروعية هذه التقسيمات الطبيعية وانها ــ في الأساس ـ نافعة ، وعلينا أن نعيدها الى طهرها ، بعيـدا عن كل ألوان العصبية والتعالي لنجني ثمارها الطيبة.

وهــذا ما يــدعو اليه الإســلام كما جــاء في النصــوص الدينية من ضرورة صلة الرحم والتواصل مع العشيرة جاء في الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال : «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**» [1].

وقـــال : «لما أســـري بي الى الســـماء رأيت رحما متعلقة بـــالعرش تشـــكو رحما الى ربها ، فقلت لها : كم بينك وبينها من أب ، فقال : نلتقي في أربعين أبا» [2].

وجــاء في رواية مــأثورة عن أمــير المؤمــنين ــ عليه السلام ــ أنه خطب في النــاس فحمد الله وأثــنى عليه ثم قــال : «لا يســتغني الرجل وإن كــان ذا مــال وولد عن عشيرته ، وعن مداراتهم وكرامتهم ودفاعهم عنه بأيــديهم وألسنتهم ، هم أعظم الناس حياطة له من ورائه ، والمهم لشعثه ، وأعظمهم عليه حنوا ، إن أصابته مصيبة ، أو نزل به يوما بعض مكاره الأمور ، ومن يقبض يده عن عشــيرته ، فانما

(1) بحار الأنوار / ج 74 / ص 91

(2) المصدر /

يقبض عنهم يــدا واحــدة ، وتقبض عنه منهم أيد كثــيرة ، ومن محض عشـيرته صـدق المـودة ، وبسط عليهم يـده بـالمعروف إذا وجــده ابتغــاء وجه الله ، أخلف الله له ما أنفق في دنياه ، وضاعف له الأجر في آخرته» [1].

ثانيا : أن التعــارف بين النــاس واحد من أهم مقاصد الشـريعة الغـراء ، لمـاذا؟ لـولا معرفة النـاس لما اكتملت حكمة الابتلاء في الخلق أو تدري لمــاذا؟ لأن الابتلاء لا يتم إلا بالحرية والمسـؤولية فلو اختلط النـاس ببعضـهم كيف يميز الصالح فيثاب عن المجرم فيعـاقب؟ أم كيف تـتراكم مكاسب المحســنين وتحصن من أن يســرفها الكســالى والمجرمون؟ كلا. لا بد أن يميز الناس عن بعضـهم تميـيزا كافيا ليأخذ كل ذي حق حقه ، فيشــجعه ذلك على المزيد من العطـاء ، ويأخذ التنـافس دوره في دفع عجلة الحيـاة قدما الى الامام.

ثالثا : إن حكمة الاختلاف هو التكامل ــ بعد التنـافس على الخيرات ـ وليس الصـراع والتطـاحن ، وقد قـال ربنا سـبحانه : «**وَتَعـاوَنُوا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْـوى**» ومن دون التعـارف كيف يتم التعـاون ، إن على النـاس أن يكتشـفوا إمكانات بعضـهم ليتبـادلوا الخـيرات ، أما إذا تقـوقعت كل طائفة في حــدودها الجغرافية أو الاجتماعية ولم يتعــارفوا فكيف يمكن التعاون بينهم؟.

ولعل هــذه البصــيرة تهــدينا الى أهمية التعــارف بين الشعوب في عصرنا الراهن ، لأن إمكانـات التعـاون بينهم لا تـزال غـير مسـتغلة حـتى بنسـبة (10 خ) ولو ضـاعفنا المؤسســـات العالمية في كافة المجـــالات عشـــرات الأضعاف لكانت فرص التعاون لا تزال أوسع.

(**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ**)

---

(1) المصدر / ص 101

حينما تسـقط القيم الزائفة ، والعصـبيات الجاهلية المتخلفة ينفتح أفق التنافس الشريف على الخيرات الـتي يلخصـها القـرآن هنا بكلمة «التقـوى» ويفصـلها في آية مشابهة قائلا :

«**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**» [1].

ونستلهم من لحن القول في هذه الآية : إن التنـافس على العمل الصـالح والتسـابق في الخـيرات هو هـدف اختلاف الشعوب ، وإن لكل منهم شـرعة ومنهاجا ، بل إن هـذا الاختلاف والتنـوع مطلـوب إذا كـان وسـيلة للتنـافس البناء ، والتعـارف والتعـاون ، كما ان الاختلاف بين النـاس في مجتمع واحد هدفه التسـارع الى الخـيرات ، والتعـاون فيها كـذلك التفـرع بين الشـعوب والمجتمعـات المتنوعة أليس يقول ربنا سبحانه :

«**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**» [2].

وإذا كان الهدف من هذا التنوع التسارع في الخـيرات ، فـان أكـرم الخلق عند الله من اسـتبق إليها ، فـالأقرب الى الصـراط المسـتقيم ، والأسـبق في الصـالحات هو الأكـرم ، لأنه الـذي يحقق الهـدف دون غـيره ، والى هـذه تشير كلمة التقوى .. أليست

(1) المائدة / 48
(2) الزخرف / 32

التقوى هي المعرفة بالله والعلم بشريعته ، والاجتهـاد في تنفيذها؟

وأصل الكلمة من الوقاية ، أي التحصن ضد أســـباب الهلاك ولا تحصل هـــــذه الوقاية من دون معرفة الطريق والاستقامة عليه ، بعيدا عن أمواج الفتن ، وضغوط الهوى وريـاح الشـهوات ، لـذلك كـانت التقـوى أرفع درجة من الايمـان ، كما إن الايمـان أرفع درجة من الإسـلام ، وقد قـال الامـام الرضا ــ عليه السـلام ــ : «**الايمـان فـوق الإسـلام بدرجة ، والتقـوى فـوق الايمـان بدرجة ، واليقين فوق التقوى بدرجة ، وما قسم في النـاس شيء أقل من اليقين**» [1].

وإنما رفع الإســــــلام قواعد المجتمع الفاضل على أساس التقـوى ، لأنه من دونها تمـزق العصـبيات الجاهلية التجمع البشـــري ، ولا تدعه يتكامل ، بل في كثـــير من الأوقات يتقابل مع بعضه ، ويسير في طريق الهدم.

قــال الله ســبحانه : «**إِذْ جَعَـلَ الَّذِينَ كَفَـرُوا فِي قُلُـوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَـأَنْزَلَ اللـهُ سَـكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْـوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**» [2].

إن كلمة التقوى هي صبغة التجمع الايماني ومحوره ، وعمـاد تماسـكه ، ومبعث قوته ، بينما العصـبيات الجاهلية هي صبغة سائر المجتمعـات غـير الايمانية .. وحين حـارب الإسـلام هــذه العصــبيات اسـتطاع أن يصـهر المجتمع الجـاهلي المتشـرذم في بوتقة التوحيد ، ويبـني منه تلك الحضارة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا.

وقد ذكر المفسرون في سـبب نـزول هـذه الآية : ان النبي صلّى الله عليه وآله أمر بني

(1) تفسير نمونه عن بحار الأنوار / ج 70 / ص 136

(2) الفتح / 26

بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا لرسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ : نـزوج بناتنا موالينـا؟ فـأنزل الله عز وجل الآية. [1]

ويظهر من هـذا الحـديث والـذي يليه مـدى الصـعوبة التي عاناها رسـول الله في انـتزاع روح العصـبية من ذلك المجتمع الجاهلي المتخلف ، وقد روي عن ابن عبـاس أنه لما كان يوم فتح مكة أمر النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسـير بن أبي العيص : الحمد لله الـذي قبض أبي حـتى لا يـرى هذا اليوم ، وقال الحارث بن هشـام : ما وجد محمد (ص) غير هذا الغراب الأسود حـتى يـؤذن له ، وقـال سـهيل بن عمر : إن يرد الله شيئا يغيره ، وقـال أبو سـفيان : اني لا أقول شيئا أخاف أن يخـبر به رب السـماء ، فـأتى جبرئيل النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ وأخبره بما قـالوا : فـدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية. [2].

وحتى آخر أيامه كـان النـبي ـ صـلّى الله عليه وآله ـ يكـافح ضد الحمية الجاهلية ، فقد ذكر الـرواة أنه خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بمنى في وسط أيـام التشـريق (حيث تجمع الحجـاج من كل البلاد) وهو على بعير فقال :

«**يا أيها النـاس ألا إن ربكم واحد ، وان أبـاكم واحد ، ألا لا فضل لعـربي على أعجمي ولا أعجمي على عـربي ، ولا لأسـود على أحمر ، ولا أحمر على أسـود إلا بـالتقوى ، ألا هل بلغت؟ قـالوا نعم قـال ليبلغ الشاهد الغائب**» [3].

وهكـذا تجـاوز المسـلمون السـابقون عقبـات التخلف الجاهلي حين تجاوزوا حواجز

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 341
(2) المصدر
(3) المصدر / ص 342

الدم واللون والإقليم ووحدوا طاقاتهم المتشتتة تحت راية التوحيد ، وجعلوا التقوى محور تنافسهم البناء.

وقد اشتهرت عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في ذلك مقطوعة رائعة :

الناس من جهة التمثال أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فان يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم انهم	على الهدى لم استهدى أدلاء
وقدر كل امرء ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرء ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء [1]

(**إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**)

وتأتي هذه الخاتمة لبث السكينة في قلوب المؤمنين ألّا يقلقوا إن رأوا تكالب الناس على الدنيا وتدابرهم عن أهل التقوى ، فان الله عليم بهم وخبير وبيده أزمة الأمور وهو يكرم المتقين ، وكفى به شاهدا وكفى به مثيبا عادلا.

[14] لأن تجاوز الحمية الجاهلية صعب مستصعب خصوصا على الأعراب الذين عاشوا دهرا يسبّحون بأمجادهم ومفاخرهم ، فان القرآن الكريم يذكرنا بأن الايمان ليس مجرد التسليم الظاهر للدين الجديد ، بل هو تغيير عميق للشخصية يتجلى في الممارسات العملية ، ومن زعم أن بامكانه الجمع بين قيم الجاهلية والدين فانه لم يفهم معنى الدين. أو ليس الدين شفاء من أمراض الجاهلية .. وبديلا صالحا للقيم الفاسدة فكيف يجتمعان؟

---

(1) المصدر

الـدين الحق جهـاد متواصل ضد سـلبيات البشـر. ضد حواجز الـدم واللـون والأرض. ضد قيم الأنسـاب والتقاليد والأعراف البائدة. ضد الهوى والشهوات والجهل والتحزب .. فمن اسـتطاع أن يخلص طاعته لله وللرسـول (دون تقاليده وتراث سلفه) ، وجاهد في سبيل إصلاح مجتمعة ، فهو الذي ارتقى الى مستوى الايمان.

(**قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلكِنْ قُولُـوا أَسْلَمْنا**)

والفرق بينهما ان الإسلام هو التسـليم للـدين تسـليما ظاهرا .. بقبول الشهادتين والخضـوع للأحكـام الشـرعية ، بينما الايمان انقلاب حقيقي لنفس الإنسان.

(**وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ**)

تدل كلمة «لمّا» على ان من أسلم يرجى له الايمـان ، ولعلها تشـير أيضا الى التـأخير ، مثل ثم في الإيجـاب ، مما يـوحي بـان المسـافة بين الإسـلام والايمـان ليست بسـيطة ، وأن على الإنسـان المسـلم أن يقطع هـذه المسافة بجهده المتوصل. فاذا كان الإسلام بمثابة القبول في معهد علمي راق ، فان الايمان هو التخرج منه بنجـاح. جاء في الحديث المأثور عن رسول الله ـ صـلى الله عليه وآله ـ : «الايمـان إقـرار باللسـان ومعرفة بـالقلب وعمل بالأركان» [1].

وفي حـديث آخر مـروي عن الامـام الصـادق عليه السلام : «الايمان يشـارك الإسـلام ، والإسـلام لا يشـارك الايمان» [2].

(**وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمـالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

---

(1) بحار الأنوار / ج 67 / ص 66
(2) المصدر / ج 72 / ص 23

وكيف ينقص الله الغفـور الـرحيم شـيئا من أعمـال عباده الـتي تحصن بالطاعة لله وللرسـول؟ ونسـتلهم من هـذه الآية ان مقـايس الايمـان الحق هو الطاعة ، ذلك أن الطاعة امتحان صعب ، إنها خـروج عن زنزانة الـذات الى رحـاب الحق ، وتجـاوز لحـواجز المـادة ، وانطلاق في ميادين الخيرات.

[15] وجـاءت الآيـات التالية تـبين شـروط الايمـان أو ليس الايمان هو القوة التنفيذية لكل تعـاليم الـوحي ، وهو روح المجتمع الدافعة من دونها تصـبح أنظمتها حروفا بلا معاني؟

(**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا**)

مـتى يرتـاب المـؤمن؟ عند ما يكلف بمهمة صـعبة توسـوس له نفسه في صـدق إيمانه ، أما من محض الايمان فانه كالذهب الخالص كلما تعرض لنيران الصـعاب كلما ازداد جلاء ونورا.

(**وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**)

إن الجهـاد بـذل ما يسـعه من الجهد في سـبيل الله ، ولا يكـون ذلك إلا عند ما يخلص القلب من شـوائب الكفر والشرك والنفاق.

(**أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**)

إنها حقيقة الايمـان الـتي تتجلى في الطاعة والجهـاد ومن دون الوصـول الى هـذه الحقيقة لا يمكن تصـديق إيمـان الفـرد ، أما إسـلامه فهو صـادق بمجـرد قبوله دين الإسلام والتزامه به.

[16] والذي يكـابر ويـدعي أنه مـؤمن بـرغم كل ذلك فانه قد سفه نفسه ، كيف

يـــــزعم بأنه يعلم الله دينه أو ليس الله محيطا علما بكل شيء؟

أولئك قوم من أعراب بني أسد ـ حسب المفسرين ـ قـــدموا على رســـول الله في ســـنة جدبة ، وأظهـــروا الشهادتين (رغبة في عطاء الرسول ليس إلّا) ، لم يكونـوا مؤمنين في السر وأفسدوا طرقات المدينة بالمخــدرات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسـول الله ـ صـلى الله عليه وآله ـ (وهم يمنون عليـه) أتينـاك بالأثقـال والعيـال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصـــــــدقة وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله «قالت الاعراب» الآية. [1]

(**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ**)

بأنكم مؤمنون حقا.

(**وَاللــهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

[17] الايمــان نعمة كــبري لا تســاويها نعمة ، وحين يـزكي الإنسـان نفسه ويروضـها بـالتقوى ، ويسـعى لرؤية الحقائق ، حينئذ يتجلى الله لقلبه ، فيرى الله بنور الايمـان ويرى بنور الله كل شيء.

(**يَمُنُّونَ عَلَيْــكَ أَنْ أَسْــلَمُوا قُــلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ**)

لأن الإسلام إذا كان لهـدف مـادي فهو إذا لمصـلحتهم ولا يسـتدعي المنّة ، وإن كـان إخلاصا لله ، فـان الله يمن عليهم به وبما يليه من الايمان.

---

(1) القرطبي / ج 16 / ص 348

(**بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

في ادعائكم الايمان ويبدو أن السياق يتناول قصة أعراب بني أسد الآنفة الذكر بالرغم من انها تعم كل أولئك الذين يدعون الايمان ويجعلونه وسيلة للتعالي على الناس ، واكتساب الشهرة والثروة والسلطة.

[18] ولكي يوجد القرآن وازعا نفسيا للإنسان ألا يزكي نفسه ويدعي الايمان كاذبا ، أو يحاول ابتزاز الآخرين باسمه ، فان الله يحذرنا نفسه ، ويذكرنا بأنه محيط بكل شيء علما.

(**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**)

فالأعمال يزنها بقدر الإخلاص فيها .. وبهذه الآية تختتم سورة الحجرات التي يحتاج المسلمون اليوم أكثر من أي يوم مضى الى أن يعوها وعيا ، وبالذات الطليعة الرسالية التي قد تتسرب إليه أيضا الحمية الجاهلية ولو بألوان جديدة كالتحزب والتفاخر ، نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا ، ويصون ديننا من كل شائبة شرك أو ظلم أو نفاق.

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن أبي جعفر (البـــــــــــاقر) (ع): «**من أدمن في فرائضه ونوافله قـراءة سـورة «ق» وسّـع الله عليه في رزقه ، وأعطــاه كتابه بيمينه ، وحاســبه حســابا يسيرا**»

نور الثقلين / ج 5 / ص 104

الإطار العام

حجب كثـيرة تمنعنا من ملامسة الحقــائق الكــبرى ، والـتي منها المسـؤولية والجـزاء ، وحين يسـقط الإنسـان عن نفسه هــذه الحجب يشــاهد الحقــائق بوضــوح يدعه متسائلا كيف ولماذا أنكرتها من قبل؟!

وفي سورة «ق» يعالج القرآن الحجب النفسية الـتي تمنع البشر عن الايمــان بــالآخرة ، ثم يســرد شــواهدها ومشــاهدها وما يجــري لأهلها من صـعقات هائلة ، بيد أن السياق ـ كما يبـدو ــ يركز على حجـاب التعجب الـذي هو تيار عند الكفار ، عند ما يـذكرون بـالبعث ويقولـون : هـذا شـيء عجيب؟! كيف يمكن أن نعـود أحيـاء بعد أن نمسي ترابـا؟ إنها عـودة مسـتبعدة ، وتتلاحق بصـائر الـذكر في تقريب هــذه الحقيقة : أولا : يعلم الله ما تأكل الأرض من أجسـامهم ذرة ذرة ، خلية خلية ، وعنـده كتـاب حفيظ ، لا يدع شيئا إلّا ويحفظه.

ثانيا : إن وراء تكـذيبهم بـالحق حالة نفسـية (خشـية تحمل المسؤولية ، والخلود إلى

أرض الشهوات) وهذا يجعلهم في أمر مختلط.
ثالثا : هـذه السـماء بما فيها من متانة البنـاء أليست دليلا على قـدرة الـرب ، أو لا تكفي وسـيلة لتوسـيع أفقنا العلمي حتى نعترف بقدرة الرب على رجعنا من جديد.
رابعا : الأرض ، ألا تـــرى كيف مـــدها الله وأركزها بالراسيات وأنبت فيها من كل زوج بهيج.
بلى. إنها أدلة كافية ولكن لمن؟ لكل عبد مـــنيب ، مهيأ نفسيا لمثل هذه البصـائر والآيـات ، ومثل ذلك الغيث الذي ينبت به الله جنـات من الأشـجار ومـروج حب من ــ حب الحصيد ــ. أرأيت النخل باسـقات لها طلع نضـيد؟ إن كـلّ ذلك أنشـأه الله ليكـون رزقا للعبـاد ، وبكلمة صـادعة يفجر السياق ينبوع المعرفة في القلوب الصافية ويقول : (**وَأَحْيَيْنا بِـهِ بَلْـدَةً مَيْتـاً كَـذلِكَ الْخُـرُوجُ**) .. إنها تحـرق حجب التعجب والاســـتبعاد ، أرأيت النـواة كيف تخـتزل حيـاة شـجرة باسـقة حـتى إذا أنزل الله عليها الماء وأمدها بوسائل النمو أصبحت شجرة باســقة كيف لا يمكن أن يفعل مثل ذلك بالإنســان بعد موته؟
ثم يصب حمم الغضب على الكاذبين لكي يزيل عامل اللامبالاة عند الكفار بـالبعث ، والـذي قـادهم إلى التعجب ويذكرهم بمصير قوم نـوح وأصـحاب الـرس وثمـود وعـاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الايكة وقوم تبع كيف نزل بهم وعيد الله حين كذبوا الرسل.
ويستشهد بـالخلق أول مـرة الـذي يهـدينا متانة نظمه وتنوعه إلى اقتدار خالقه وأنه كان عليه يسيرا .. أفلا يـدل على أنه قادر على الخلق الجديد.
وفي آيات متواصلات يزرع القـرآن خشـية الـرب في نفس الإنسان ، لكي

يتحسس بمسؤولية تجاه ما يتحدث به ، فيذكره بأنه خلقه ويعلم حـتى ما توسـوس به نفسه ، (بـالرغم من ادعاءاته الكاذبــة) لأنه أقــرب اليه مما به حياته ظــاهرا وهو حبل الوريد.

فحين يتلقى المتلقيــــان ــــ ولعلهما الملكــــان أو المتحدثان أنى كانا ـ (**ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيـــدٌ**) ، وهو الى كل ذلك لا يملك دفاعا عن نفسه حين تهجم عليه سكرة الموت بالحق فلا يدفعه بــالرغم من أنه كان يحاول أبدا الحيد عنها ، أما حين ينفخ في الصـور فهو يوم الجزاء الذي وعد الله يومئذ يـؤتى بكل نفس يسـوقها السـائق ويرافقه الشـاهد .. ـــ هـذا ما كـان يتعجب منه ظاهرا ، وانما كان غافلا عنه ـ بينما اليوم يراه مـائلا أمـام عينيه (فبصـره حديـد) أما قرينه (وهو الملك حسب بعض المفسرين) فيقول هذا (كتابه) لـدي عتيد (قد حفظته منذ أيام حياته الأولى هنالك يأمر هما الله بالقائه في جهنم مع كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ، وهكذا تحمل جزاء ريبه النابع من تهربه عن المسـؤولية ، الـذي جعل مع الله إلها آخر. أما قرينه ـ وهو هنا الشيطان الذي أغـواه ــ فانه يتبرأ منه ويقول ربنا ليس أنا الـذي جعلته يطغى ، محاولة منه للهــروب من مســئولية إغوائه ، إلّا أن الــرب يــأمر بالقائه أيضا في جهنم ، ومســــئولية أحــــدهما لا تنفي مسـئولية صـاحبه ، وما الله بظلام للعبيد ، وإن جهنم تسع المزيد من المجــرمين ، فلا تظنن أن إلقــاءك مســئولية غفلتك على الآخرين يـبرئ سـاحتك أو أن جهنم لا تسع إلّا هو أو أنت.

وفي جــانب آخر نجد مشــهد المتقين الــذين تزدلف إليهم الجنة ويبشــرون بها ، أو ليســوا قد وعــدوا بها لما تمـيزوا به من التوبة والتقـوى وخشـية الـرحمن بـالغيب وإنابة القلب ، فــاليوم يقــال لهم أدخلــوا الجنة بســلام خالـدين فيها أبـدا ، ولهم كل ما يشـاءون من النعم فيها ، ويعطيهم الله من فضله المزيد.

ويبقى الغــرور حــاجزا آخر أمــام الايمــان ، ولكن ألّا يقـرءون التـاريخ لـيروا كم أهلك الله من قبلهم من قـرن كانوا أشد منهم بطشا وحـاولوا الهـرب من مصـيرهم فلم يفلحـــوا؟ ولكن القلـــوب المريضة والأســـماع الصم لا تسـتوعب هـذه الحقـائق. ولا يـزال يقـول الكـافر : كيف يحيي الله الناس بعد موتهم؟ أفلا ينظـرون كيف خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام بلا أي تعب.

وفي خاتمة الســورة يــأمر الله رســوله ـــ ومن ثم المؤمنين ـ بالصـبر على ما يقولـون ، لكي لا يحرجـوا به ، أو يتخذوا كلامهم مأخذ الجد ، وتسبيح الله صـباح مسـاء ، وفي الليل وعند الأسحار وانتظار ذلك اليـوم الـذي ينـادي المنـادي من مكـان قـريب ، وينفخ في الصـور ، وينـادون للخــروج. إنهم حين يســمعون الصــيحة بــالحق ذلك يــوم الخـروج .. هنالك حين يحـيي الله المـوتى لـيرجعوا اليه ــ في ذلك اليـوم ــ تتفتق عنهم الأرض سـراعا ، ذلك حشر يســـير على الله ، ودع كلامهم فالله أعلم بما يقولـــون ، ولست مسئولا عنهم ، تجبرهم. كلا .. ما أنت بجبار عليهم ، إنما أنت نـذير تـذكرهم بـالوحي فـذكر بـالقرآن وسـوف يستجيب من يخاف الوعيد.

سورة ق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**ق وَالْقُـرْآنِ الْمَجِيـدِ (1) بَـلْ عَجِبُـوا أَنْ جـاءَهُمْ مُنْـذِرٌ مِنْهُمْ فَقـالَ الْكـافِرُونَ هـذا شَـيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِـكَ رَجْـعٌ بَعِيـدٌ (3) قَـدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْـدَنا كِتـابٌ حَفِيـظٌ (4) بَـلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها**

---

(4) (**ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ**) : ما تأكل من أجسادهم إذا ماتوا.

(5) (**مَـرِيجٍ**) : مضـطرب ، ومختلط ، فتـارة يقـول أن الرسـول (ص) شـاعر ، ومـرة سـاحر ، ومـرّة يعلمه بشر ، وذلك يـدل على أنّهم لا يستندون إلى حجة.

(6) (**فُرُوجٍ**) : فرجة خالية عن النظام.

وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَـدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِــيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِـرَةً وَذِكْـرى لِكُـلِّ عَبْـدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّـماءِ مـاءً مُبارَكـاً فَأَنْبَتْنا بِـهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِـيدِ (9) وَالنَّخْـلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِــهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُـوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ

---

(7) (**بَهِيجٍ**) : يبتهج به الإنسان ويفرح عند النظر إليه ، لحسنة وجماله.
(9) (**وَحَبَّ الْحَصِــيدِ**) : هو حب الــزرع الــذي من شــأنه أن يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما.
(10) (**باسِقاتٍ**) : طوالا.
(**طَلْعٌ نَضِيدٌ**) : منضود بعضه فوق بعض ، والطلع وعاء الثمر.
(12) (**أَصْحابُ الرَّسِ**) : الذين رسّوا نبيّهم في الأرض وأقبروه حيا.

لُـوطٍ (13) وَأَصْـحابُ الْأَيْكَـةِ وَقَـوْمُ تُبَّعٍ كُـلٌّ كَـذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيـدٍ (15) وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيـدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيـانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ

---

(14) (**أَصْحابُ الْأَيْكَةِ**) : وهم قوم شعيب ، وقد كـانت إلى جنبهم أيكة وهي الشجر المزدحم والملتف على بعضه.

(**قَوْمُ تُبَّعٍ**) : كان تبّع ملكا مؤمنا ، وقومه كافرين كانوا كثـيري الأمـوال والقوى.

(15) (**أَفَعَيِينا**) : هل عجزنا.

(17) (**حَبْلِ الْوَرِيدِ**) : الوريدان هما العرقان المكتنفان بصفحتي العنق في مقدم العنق ، وإضافة الحبل إليه للبيان ، أي الحبل الذي هو وريد ، ولعل ذكر حبل الوريد لأنّه مربـوط بـالقلب والمخ فهو وسط بينهما ولا أقرب منه إلى الإنسان.

(18) (**عَتِيدٌ**) : مهيّأ حاضر لا يشتبه.

(19) (**تَحِيدُ**) : تهرب وتميل.

يَـوْمُ الْوَعِيــدِ (20) وَجــاءَتْ كُــلُّ نَفْسٍ مَعَها ســائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَـةٍ مِنْ هـذا فَكَشَـفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقـالَ قَرِينُـهُ هـذا ما لَــدَيَّ عَتِيــدٌ (23) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُــلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَـدٍ مُـرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَـلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِيـاهُ فِي الْعَـذابِ الشَّــدِيدِ (26) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيــدٍ (27) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيــدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيــدٍ (30)

وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ

هدى من الآيات :

في البداية يحـــدثنا الـــدرس الأول من الســـورة عن جـانب من علاقة النـاس بـالقرآن المجيد الـذي يضم في سوره آيات الوحي ، بينما يذكرنا شـطره الآخر بآيـات الله في الآفاق التي تهدينا هي الأخـرى كما الـوحي إلى المزيد من المعرفة بـالحق ، وترفعنا إلى درجـات الايمـان. وفي الخاتمة نجد حـديثا عن مسـتقبل الإنسـان في الـدنيا حيث تنتهي حياته بـــالرغم منـــه. وكيف انها سلســـلة من المسؤوليات التي يحاسب عليها ، ويتكـون جـزاءه بحسب التزامه بها.

بينات من الآيات :

[1] (**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**)

(ق) من الكلمــات الرمزية وقــال البعض إن معناها : المجد أي الشــأن العظيم ، وكتــاب الله بما يشـتمل عليه من الآيات والمناهج ، كفيل بأن يعطي لمن يتبعه العزة

والكرامة ، ويـــرفعهم إلى قمم التقـــدم والكرامة ، لأنه منطلق ذلك كلـه. ولكن الكفـار والمشـركين أغفلـوا هـذه الحقيقة وتركـوا ذلك المجد بسـبب نفسـياتهم وثقـافتهم السـلبية ، وسـاروا في نفق من التسـاؤلات والمواقف القشرية السخيفة التي أفقدتهم ذلك المجد.

والأمة الاسـلامية إنما قصـرت عن بلـوغ الحضـارة ، وتـوقفت عن التقـدم الـذي بدأته في نهضـتها الاولى ، بل وتـراجعت أمـام الأمم الاخـرى بـالرغم من امتلاكها لهـذا الكتاب العظيم بسبب تعاملها الخـاطئ معه ، فـاذا به عند بعض المسلمين كتاب تفؤّل وتبرّك ، بينما انصـرف البعض الآخر عن قيمه ومناهجه الحضارية إلى حروفه وما تشـابه منه ، وهكذا هجروا كتاب الله ، فلم يبلغوا شيئا من المجد ، ليس لأن القرآن استنفذ أغراضه فلم يعد كتـاب المجد ، وإنما لأنه لا يعطي ذلك إلّا لمن اتبعه بحق.

[2] إن الكفـار رفضـوا مجد القـرآن ، وأصـروا على مسيرتهم المنحرفة ، لأن القرآن شيء جديد ، ولأن القائد الذي أمروا باتباعه بشر مثلهم ومن وسـطهم. وهـذا يـدل على انهم لا يتبعون الحق وهدى العقل في حيـاتهم ، وإنما يتبعون الأهـواء والمصـالح. وحيث إن قيم القـرآن وقيـادة الرسول يتعارضـان مع تلك الأهـواء فهي عجيبة ومرفوضة عندهم.

(**بَـلْ عَجِبُـوا أَنْ جـاءَهُمْ مُنْـذِرٌ مِنْهُمْ فَقـالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ**)

أي لم تكن له نظـائر سـابقة ليكـون مألوفا عنـدهم ، فهو شـيء عجيب ، والحـال إن بلـوغ المجد لا يمر عـبر الشهوات ، بل يتطلب مخالفتها والتنازل عنها.

[3] لقد أثار تعجب الكفار إنذار القـرآن بيـوم القيامة .. قــالوا كيف يجمع الله أعضــاء الإنســان بعد المــوت وتحولها إلى ذرات في الـــتراب؟ وأغـــرب من ذلك كيف تصير إنسانا سويا؟

(**أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**)

إنهم لا يؤمنـــون بإله قـــادر يـــدبر شـــؤون الخلق ، فعارضهم القـرآن ، ولا يؤمنـون بالمسـؤولية في الحيـاة ، فجاءهم بخلاف هذه العقيدة ، فرفضـوه لعـدم ألفتهم به ، وما ذلك سوى منهج الجاهلين الذين يعادون ما لا يعلمــون ولا يصـــدقون إلّا بما يــألفون من حقــائق ، بينما العلمــاء وأولو العقل يبحثون عن الحقائق ويقولـون : نحن لا نحيط علما بكل شيء ، إذا دعنا نبحث بايجابية. فربما كـان هـذا واقعا ونحن لم نعرفه ، أو لم تكن هـــذه إلّا حقـــائق كنا نجهلها ثم عرفناها ولم نكن نألفها ثم ألفناها ، فلما ذا ننكر رأسا كل ما يقال لنا أليس ذلك من الغباء؟

وعموما التعجب من الجهل وقلة الـــوعي ، ومتابعته من الجهالة والحمق.

[4] ولكن القـرآن يعـالج هـذا التعجب ، ويـبين قـدرة الله على جمع أجـزاء الإنسـان وبعثه مـرة اخـرى بلى. قد يتحلل كيمياويا في الـتراب ، وتتبعـثر عناصـره ال (130) هنا وهنــاك في صــورة ذرأت تنقلها الأيــدي ، أو تـذروها الريـــاح ، ولكنها تبقى معلومة عند الله عـــزّ وجــلّ ، ومحفوظة في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

(**قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ**)

إذ تتحلل أوصالهم في ترابها.

(**وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ**)

يسـجل فيه كل شـيء بدقة متناهية ، أو ليس الله هو الذي خلق الإنسـان من بعد العـدم؟ فكيف يعجز عن جمع أوصـاله وبعثه بعد المـوت؟ إنه يعلم كم أكل الـتراب من جسم هذا الإنسان؟ وما هي الذرة من التراب التي كـانت سابقا جزءا من بدنه؟ وكيف تحللت منـه؟ وحين مـات كم كـان يحتـوي عليه جسـمه من الحديد ، والأملاح ، والمـاء وسـائر العناصر بنسـبها ووزنها ومسـاحتها الـتي تشـغلها ، وكم في كل عضو منها و.. و.. إلخ؟!

إن الإنسان ليتعجب لو نظر إلى صندوق يحوي ملايين القطع التي يتكون منها محـرك الطـائرات العسـكرية ، أو جهاز معقد آخر ، وربما لا يصدق ان أحدا قادر على جمعها وتركيبها لتصـير إلى ذلك مـرة أخـرى ، أما الخبـير الـذي اخترعها وصـــنعها فليس كـــذلك ، إنه ينظر للأمر على انه ممكن ، بل هو أمر يسير ، فكيف بالله الذي خلق الأشـياء ، والذي كان أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؟

[5] إن مشـكلة الكفـار انهم لا يتبعـون الحق ، بل لا يريدون اتباعه ، لهذا تراهم لا يفقهون هـذه الحقـائق ، ولا يثبتـون على رأي واحد في الحيـاة لاتبـاعهم أهـواءهم ، إذ الحق واحد وثابت في كل زمان ومكان بينما الهوى متغير.

(**بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ**)

والذي يؤكد هذه الفكرة موقفهم من الرسول (ص) ، فهم يسمونه ساحرا تارة ومجنونا أخـرى ، وشـاعرا ثالثة ، وأمينا وصـادقا و.. و.. إلخ ، ولو أنهم اتبعـوا الـوحي لكـان يعطيهم بصيرة وجوابا لكل سؤال ، حتى سؤالهم هـذا عن البعث ، ولكنهم تركـــوه للهـــوى والمصـــالح فصـــاروا إلى الهرج والمرج ، ولعل هذا يفسر بروز النظريـات المختلفة والمتناقضة في مختلف الحقـــول الاجتماعية والسياســـية والاقتصادية.

[6 ـ 7] ولو أن الكفــار الــذين يشــكون في البعث نظـروا إلى الخلق وتفكـروا فيما عليه من النظم والتـدبير لما تعجبوا من فكـرة البعث ، لأن عقـدة هـؤلاء الأساسـية هي شكهم في قـدرة الله على ذلـك. وشـكهم هـذا تعبـير عن جهلهم ، فاذا تفكـروا في خلق الله وازدادوا معرفة به وبآياته المتجلية في الكائنـات ، لهـداهم ذلك إلى الايمـان بقـدرة اللـه. أتـرى السـماء على سـعتها ومتانة خلقها وما فيها من الإبـــداع ، والأرض الــتي ذللها الله ، وألقى على ظهرها الجبـال العظيمة تحفظ توازنها ، وأوجد فيها كل ما يحتـاج اليه ليصـلح عيشـنا فيهـا. كل ذلك أفلا يهـدينا إلى قدرة الله على إحيائنا بعد الموت؟!

(**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَـوْقَهُمْ كَيْـفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها**)

بالكواكب التي تتناثر على بساطها البديع ليلا ، واللون الأزرق الهادىء بالنهار.

(**وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ**)

فهي محكمة في بنائها ، لا ثغرة ولا كسرة.

(**وَالْأَرْضَ**)

لننظر إليها هي الأخرى ، ونتفكر في خلقها.

(**مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ**)

ولم يقل جبــالا ، لأن كلمة الجبــال لا تعــبر عن دور الجبــال في حفظ تــوازن الأرض كالمرســاة الــتي تثبت السفينة في عرض البحر وفي أطراف الموانئ.

ومع ذلك ما كانت الأرض تصـلح لعيش الإنسـان عليها لو لم يتوفر فيها ما

يحتاجه البشر من ضــروريات وكماليــات. لهــذا كــان من الحكمة الالهية أن يوجد الرب أنواع الخلق على ظهرها.

(**وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**)

من الحيوانات ، والنباتات والنـاس وكل شـيء. وكلمة زوج تنطوي على معان كثيرة من أبرزها التكامل ، والـذي يدل ـ بدوره ـ على دقة النظم وحسن التدبير. أتــرى كيف جعل الله النبات والأحياء والبشر أزواجا ، الـذكر والأنـثى ، ثم الشعوب والقبائل ، ثم جعل الناس يتفاضلون ليحتاجوا إلى بعضــهم ، ثم جعل كل شــيء في الحيــاة بحاجة إلى غيره لتتكامل دورة الحياة بما يدع أدق العقول حـائرة في هـذه الـدورات التكاملية الـتي تـوازنت وتعـادلت وشـهدت على حكمة بارئها سبحانه.

ثم جعل الــزوج بهيجا يجتــذب بجماله الطــرف الآخر حتى يسهل التفاعل ويكون أكرم من مجرد حاجة متبادلة.

[8] وهــذه كلها آيــات بينــات على حكمة الله الــتي تقتضي البعث للجزاء وعلى قدرته التي تجعل الأمر ممكنا بل محتملا. وهي لا تغيب عن بصر أحد من النـــاس فالكل يراها بعينيه ، ولكنها تغيب عن بصـــائر الكفـــار ومرضى القلـــوب. تغيّبها عنهم حجب الـــذنوب والجهل والغفلة ، وتعيها أذن واعية وقلوب طاهرة من المؤمنين.

(**تَبْصِرَةً**)

تزيدهم علما وفهما ووعيا ورؤية.

(**وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**)

تزيدهم إيمانا وموعظة وعبرة وتقوى ، ونهتـدي بهـذه الآيات إلى فكرة أساسية ،

وهي ان الايمان بالله مركز العلم الحق ، ومنطلق الايمان بسـائر الحقـائق ، فـالمؤمن يهتـدي من خلال نظـره إلى الأشـياء ، إلى المعـارف والعلـوم المختلفة ، فـاذا به ذو بصـيرة نافـذة في الحيـاة ، كما يـزداد يقينا بـالحق ، لأنه ينظر إلى الحياة بنـور الايمـان بالله عـزّ وجـلّ ، وهو رأس المعرفة وعمـــاد الايمـــان ، بينما ينظر الكـــافر إلى ذات الأشياء ، فلا يزداد إلّا جهلا وكفرا ، وتبقى الآيات الواضـحة ألغازا في قلبه لأنه لا نور له في الحياة «**وَمَنْ لَمْ يَجْعَـلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ**» [1]. لهذا جـاء في الحـديث المأثور عن أمير المؤمـنين (عليه السـلام): «**أول الـدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به**». [2]

إن المنهج الســـليم هو الـــذي يجعل الايمـــان بالله ومعرفته منطلقا لســائر المعــارف ، وليس الــذي يجعل المعارف والحقـائق الأخـرى دليلا إلى الله ، لأن الله أجلى وأظهر من كل شيء. قال الامام الحسـين (ع): «إلهي ما أقربك مـــني وأبعـــدني منك ، وما أرأفك بي ، فما الـــذي يحجبــني عنــك؟! إلهي علمت بــاختلاف الآثــار ، وتنقلات الأطـوار أنّ مـرادك مـني أن تتعـرف إلى في كل شـيء ، حتى لا أجهلك في شيء .. ـ إلى أن يقول ـ إلهي تـرددي في الآثــار يــوجب بعد المــزار ، فــاجمعني عليك بخدمة توصــلني إليك ، كيف يســتدل عليك بما هو في وجـــوده مفتقر إليك؟ أيكون لغـيرك من الظهـور ما ليس لك حـتى يكون هو المظهر لـك؟! مـتى غبت حـتى تحتـاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!» ثم إن الامام يخاطب ربه بطريقة توحي الاعتـذار منه تعـالى جعله المخلوقـات دليلا على الله ، مبينا انه لم يكن يعمد إلى ذلك لولا أمره عزّ وجـلّ بـالنظر إليها ، وهو مع ذلك يطلب منه أن يرفعه إلى الدرجة الأصح والأفضل من المعرفة ، فيقـــول : «**إلهي أمـــرت بـــالرجوع إلى الآثـــار فـــارجعني إليك بكســـوة الأنـــوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع**

---

(1) النور / 40

(2) نهج / خطبة (1)

إليك منها مصـــون السر عن النظر إليها ، مرفـــوع الهمة عن الاعتمــاد عليها» [1] ولا يـــرتقي إلى هـــذه المعرفة إلّا من عبدالله حق عبادته وتاب اليه كلما أخطأ.

[9 ـ 11] ثم لينظر الإنسـان إلى قطر السـماء حينما ينزله الله فيحـــيي به الأرض ، إن ذلك مثل قـــريب على البعث يوم القيامة.

(**وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً**)

ينطوي على الخـير والفضل ، والبركة في اللغة تعـني النمــاء والتكامل ، وهو بالفعل فــور ما يــنزل الغيث يفجر خـــيرات الأرض ، فـــاذا بها بعد أن كـــانت صـــحراء قاحلة تنفرش بحلة خضراء.

(**فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ**)

والجنـات هي الأشـجار الكبـيرة الـتي تـدوم كالرمـان والعنب ، بينما حب الحصـــيد إشـــارة إلى الـــزروع الـــتي يحصدها الإنسان كل عام ليزرع غيرها في الأعوام اللاحقة كالحنطة والشعير والذرة.

(**وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ**)

أي طويلة مرتفعة بسوقها.

(**لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ**)

والطلع هو عـــــــــروق النخل أول طلوعها بين الليف والســعف. أما النضــيد فهو المنظم وهو حــال الطلع مما يجعله أفضل في نمائه.

---

(1) مفـاتيح الجنـان / دعـاء عرفة / ص 272 (طبعة دار إحيـاء الـتراث العربي).

ونستفيد من الآيـتين ان مجـرد نـزول المطر لا يكفي لخــروج الجنــان والحب والنخيل من الأرض ، بل لا بد من عناية إلهية في الأمر. فلو كـانت الأرض الـتي يهطل عليها الماء غير صالحة ، أو كانت صالحة ولكن أهلها مشـغولون عن زراعتها ، فهل كان ذلك يحولها إلى جنات وزروع؟ كلا .. فهي محتاجة إلى إنبات الله عزّ وجلّ لها برحمته ، ليجد العباد رزقهم فيها ، ولتكون صالحة للسكن فيعمروها.

(**رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً**)

إنك تــرى الأرض هامــدة لا حــراك فيها وقد هجرها النـاس ، فـاذا بها بعد نـزول المـاء تحكي الحيـاة في كل جوانبها ، وبكل أشــكالها. فبعد أن يــؤمن النــاس رزقهم ينشـطون لبنـاء مـدينتهم وتوفـير سـائر مظـاهر الحضـارة فيها.

ولعل هذا شـاهد على أن الزراعة أصل كل حضـارة ، وهذه إحدى النظريات الحضـارية حيث قـالوا : إنها ناشـئة من تراكم المحصـولات الزراعية الـتي تـتراكم الـثروة بعد بيعها وتبــدأ بها دورة الحضــارة .. ولا ريب ان حضــارات عديدة في التاريخ نشأت بهذه الطريقة.

أتـرى إن الــذي أحيا البلاد بعد موتها يعجز عن أحيائنا بعد الموت؟!

(**كَذلِكَ الْخُرُوجُ**)

وفي الروايـات إشـارات إلى إن الإنسـان يتلاشى في التراب ، ويبقى منه مقـدار ذرة واحـدة (خليـة) حية تتعلق بها الــروح في عــالم الــبرزخ ، فــاذا أراد الله بعثه أمطر السـماء أربعين صـباحا ، وجعل الأرض كـرحم الأم ، فتنمو فيه تلك الذرة ، ولكن بصورة سريعة ، فاذا بالأرض تنشق عن بشر سـوي. وليس من عجب أن يحـدث ذلك ، فهـذا هو الإنسـان يبـدأ حياته من نطفة صـغيرة جـدا تنطلق من صلب الأب إلى

رحم الأم ، وهكـذا تبـدأ حيـاة كل شـيء على وجه الأرض. فلتنظر إلى كل حبة تحسـبها ميتة ، ولكن حين تـدفنها في الــتراب تنشق عن زرع أو شــجرة عظيمــة. وإلى هــذا التشابه تشـير الآية الكريمة : «**وَاللـهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً**» [1] ، ونحن مع ذلك نـؤمن بقـدرة الله على الخلق والبعث بعد الموت بطرق لا تحصى عددا.

وفي الخــبر قــال الصــادق (ع): «**إذا أراد الله عــزّ وجلّ أن يبعث الخلق أمطر السـماء أربعين صـباحا ، فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم**». [2]

وقال عليه السلام لما سئل عن الميت يبلى جســده؟ : «**نعم حــتى لا يبقى لحم ولا عظم إلّا طينته الــتي خلق منها ، فانها لا تبلى ، تبقى في القـــــــــبر مستديرة حتى يخلق منها كما خلق أول مرة**» [3].

[12 ـ 14] إن الآيات الـتي مضت كلها علاج لاسـتبعاد فكــرة البعث من قبل الكفــار ، حيث قــالوا : «**أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**» ، والآن يبين القرآن بـأن هـذا الضـلال لم يكن جديـدا في تـاريخ البشـرية ، لأن الماضي ينطوي على أمثال كثيرة من تكذيب الأقوام السالفة.

(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِ**)

وهم أصحاب البئر التي رسوا نبيهم فيها بعد أن قتلوه (عن عكرمة) ، وقيل الرس بـئر قتل فيها صـاحب ياسـين (عن الضـحاك) ، وقيل هم قـوم كـانوا باليمامة على آبـار لهم (عن قتادة) ، وقيل هم أصـحاب الأخـدود ، وقيل كـان سحق النسـاء في أصـحاب الـرس (عن أبي عبدالله (ع)) والذي يبدو لي انهم كانوا في اليمامة

(1) نوح / 17
(2) بح / ج 7 ـ ص 33
(3) المصدر / ص 43

والـــرس اسم البــئر الــتي دفنــوا فيها نــبيهم بعد أن قتلوه.
(**وَثَمُودُ**)
وهم قوم صالح (ع).
(**وَعادٌ**)
أي قوم هود (ع).
(**وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ**)
وسمي أخاهم لأنه انتسب إليهم بالزواج والله العالم.
(**وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ**)
يعني قوم شعيب الذين اشـتهرت حضـارتهم بالزراعة والبســاتين ، والأيكة في العربية الأشـجار المزدحمة الـتي تلتقي أغصانها ، وفيها تبني الحمام أعشاشها غالبا.
(**وَقَوْمُ تُبَّعٍ**)
وهو رجل صــــالح ملك اليمن ، إلّا ان قومه كـــــانوا فاسدين.
(**كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**)
لقد بادت حضاراتهم نتيجة تكذيبهم الحق ، أو لا يهدينا ذلك إلى تحقق الجـزاء في الآخـرة كما تحقق في الـدنيا ، وحق الشــــيء أي ثبت ومنه الاســـتحقاق. وهـــؤلاء ثبت عذابهم ، وتحول من القدر إلى القضــاء ، ومن الوعيد إلى الفعل.
[15] ويســتنكر الله على هــؤلاء تكــذيبهم بــالبعث ، وشكهم في قدرته تعالى

فيقول :

(**أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ**)

أي هل أعجزنا الخلق الأول من العـــدم عن أن نبعث الإنسان مرّة أخـرى؟ كلا. وفي الآية بيـان إلى حقيقة تحل شبهة هؤلاء حول البعث ، وهي ان القـادر على الخلق من العـدم أولى بالقـدرة على جمع أشـلاء البشر ونفخ الـروح فيه مـــرة ثانيـــة. وهـــذا دليل عقلي بصـــير على الرجعة للحسـاب ، وإن كـان كلا الأمـرين سـواء عند الله الـذي لا يمسه نصب ولا لغوب. والقرآن يعبر عن هذه الفكـرة في موضع آخر بصـــيغة ثانية ، يقـــول تعـــالى : «**أَوَلَمْ يَـــرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِـيمٌ مُبِينٌ* وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَـهُ قـالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَـأَها أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّـجَرِ الْأَخْضَـرِ نـاراً فَـإِذا أَنْتُمْ مِنْـهُ تُوقِـدُونَ* أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقـادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ***» [1].

وفي تفسـير هـذه الآية سـأل جـابر بن يزيد أبا جعفر (ع) عنها قـال : «يا جـابر تأويل ذلك أن الله عـزّ وجـلّ إذا أفـنى هـذا الخلق وهـذا العـالم ، وسـكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، جدد الله عالما غـير هـذا العـالم ، وجـدد خلقا من غــير فحولة ولا إنــاث يعبدونه ويوحدونه ، وخلق لهم أرضا غـير هـذه الأرض تحملهم ، وسـماء غـير هـذه السـماء تظلهم ، لعلك تـرى ان الله إنما خلق هـذا العـالم الواحــد؟ أو تــرى أن الله لم يخلق بشــرا غــيركم؟ بلى ، والله لقد خلق ألف ألف عـالم ، وألف ألف آدم ، أنت آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين». [2]

---

(1) يس / 77 ـ 81

(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 108

إن هذه الحقـائق لا تخفى على عقل الإنسـان ، ولكن الجهل البشـري وضـلال الأفكـار وهـوى النفس كل ذلك يحجبه عنها ، فاذا به يشك في قدرة الله على الخلق ثانية بعد الموت.

(**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**)

أي إن الأمر ملتبس عليهم فهم في حـــــيرة وريبة ، وسـبب ذلك هو جهلهم بكيفية حـدوث البعث ، بيد إن ذلك لا يعني استحالته ، أتـرى لو كـان يقـال لشـخص قبل ألف عـام عن حديد يطـير في الهـواء (تعـني بـذلك الطـائرات والصـواريخ) هل كـان يصـدق؟ طبعا لا ، ولكن لو قيل له تفصـيل ذلك لعله كـان يـذعن أليس كـذلك؟ وهـذه من طبيعة الإنسـان انه ينكر الأشـياء الـتي يقصر عن الاحاطة بتفصيلاتها. أما العقل المحض والبعيد عن المؤثرات ، فهو لا ينكر الأشــياء لمجــرد انتفــاء إحاطته بالتفاصــيل ، بل ينكرها ما دامت لا تصدق لانتفـاء الأدلة عليهـا. والحـال إن الأدلة قائمة على الرجوع للحساب.

[16] ومن ذلك تــرى الكفــار مرتكــزين في أوحــال الشك والـــريب من هـــذا الحق ، فهم بين التصـــديق والتكــذيب تــتردد نفوســهم في الوســواس المنبعث من طبيعة البشر ، كما من وسـاوس الشـيطان الـذي يسـعى لاضلاله.

(**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ**)

فلم نتركه سـدى ، لأنه مسـئول ومحاسب في الـدنيا والآخرة ، بل بقي تحت الرقابة الإلهية التي لا تقتصر على ظـــــاهره من الكلام والفعل ، وإنما تنفذ إلى أخفى وأبعد شيء عنده وهو حديثه مع نفسه.

(**وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**)

فخطـــرات القلب وهـــواجس النفس وأفكارها كلها مسجلة عند الله عزّ وجلّ ، فربما قام يوما للصـلاة فـتردد هل يؤديها الآن أم بعد قليل فهــذا مســجل لك أو عليك ، يسجله الله الذي هو أقرب للإنسان حتى من نفسه.

(**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**)

وهي الأوداج التي تربط الرأس بالجسـد. إن الإنسـان قد يندفع إلى تصرف أو فكـرة ما بعوامل لا يـدركها ، وقد يقـوم بشـيء ثم ينسـاه ، ولكنه تعـالى يحفظ كل صـغيرة وكبيرة وكل ظاهر وباطن «**فِي كِتابٍ لا يَضِــلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى**» [1] ، والمتقـون يعـون هـذه الحقيقة بعمق «**إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له ، فيقــول أنا أعلم بنفسي من غيري ، وربي أعلم بي مـني بنفسي**». [2]

ونجد في العلم الحــديث الآن بحوثا عن آفــاق العقل البـاطن ، وموضـوعه دراسة القـرارات والتصـرفات الـتي تصدر من الإنسان لمعرفة أسبابها الخفية.

[17] (**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيــــانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ**)

ولهذه الآية تفسيران :

الأول : إن المقصــود «بالمتلقيــان» ملك الحســنات وملك السيئات ، وفي الخبر عن الرسـول (ص) انه قـال : «كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على شماله ، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال ، فـاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشــرا ، وإذا عمل سـيئة قال صـاحب اليمين لصـاحب الشـمال دعه سـبع سـاعات لعله يسـبح أو يسـتغفر» [3] وفي خـبر آخر «إن صــاحب الشمال ليرفع

---

(1) طه / 52
(2) نهج / خ 193
(3) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 111

القلم ست ساعات عن العبد المخطئ أو المسيء ، فان ندم واستغفر منها ألقاها ، وإلّا كتب واحدة» [1] وفي كتاب سعد السعود : «إنهما يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر ، فاذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل ، فاذا غربت الشمس نزل اليه الموكلان بكتابة الليل ، ويصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عزّ وجلّ ، فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله ، فاذا حضر أجله قالا للرجل الصالح : جزاك الله من صاحب عنّا خيرا ، فكم من عمل صالح أريتناه ، وكم من قول حسن أسمعتناه ، ومن مجلس خير أحضرتناه ، فنحن اليوم على ما تحبه شفعاء إلى ربك. وإن كان عاصيا قالا له جزاك الله من صاحب عنّا شرا ، فلقد كنت تؤذينا ، فكم من عمل سيء أريتناه ، وكم من قول سيء أسمعتناه ، ومن مجلس سوء أحضرتناه ، ونحن لك اليوم على ما تكره ، وشهيدان عند ربك». [2]

الثاني : وقد يكون المعني بذلك النفس الأمارة بالسوء والأخرى اللوامة التي يضل الأولى منهما الشيطان ، ويرشد الأخرى ملائكة الله ، ولعل وسوسة النفس وحديثها من ذلك.

قال الصادق (عليه السلام): ما من قلب إلّا وله أذنان ، على أحداهما ملك مرشد وعلى الآخر شيطان مفتّن ، هذا يأمره وهذا يزجره ، الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يزجره عنها وهو قول الله عزّ وجلّ «**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ**» (**ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**) [3].

وقال (ع): ما من مؤمن إلّا ولقلبه أذنان في جوفه ، أذن ينفث فيها الوسواس الخناس ، وأذن ينفث فيها الملك ، فيؤيد الله المؤمن بالملك ، فذلك قوله

(1) المصدر
(2) المصدر / ص 109
(3) أصول الكافي / ج 2 ـ ص 266 طبعة الآخوندي.

«**وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**». [1]

وقال أمير المؤمنين (ع): «إن الله تبارك وتعالى أيد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي ، وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي ، فهي معه تهتز سرورا عند إحسانه ، وتسبح في الثرى عند إساءته ، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقينا وتربحوا نفيسا وثمينا ، رحم الله امرء هم بخير فعمله ، أو هم بشر فارتدع عنه ، ثم قال : نحن نؤيد الروح بالطاعة لله والعمل له». [2]

[18] والإنسان يبقى يتأرجح بين الاستجابة لنداء الحق (الفطرة والعقل والوحي وإمام الحق) ، وبين الانصراف عن كل ذلك إلى نداء الباطل (النفس الأمارة والشيطان ، وإمام الضلال) ، وهو في ذلك غير محاسب على أفكاره ، ولكنه إذا حسم الصراع بين هذه القوى ، والتردد في نفسه بالإرادة سجل عليه موقفه.

(**ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ**)

خيرا كان أو شرا.

(**إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**)

يكتب كل ما يصدر منه ، ويضمه إلى كتابه الذي يتقرر مصيره على ضوء ما فيه ، فاما تغلب الحسنات السيئات فيتسلمه بيمينه وتسوقه ملائكة الرحمة في زمرة المتقين إلى الجنة ، وربما أخذ إلى النار قليلا ليطهر ، وأما تغلب الأخرى فيأخذه بشماله ، وتسوقه ملائكة العذاب إلى جهنم ليلبث فيها أحقابا أو يخلد في العذاب

---

(1) المصدر / ص 267
(2) المصدر / ص 268

مهانـــا. حـــتى إن البشر ليـــذهلون من دقة الكتـــاب :
«**وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْنـاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَـلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَـلَ لَكُمْ مَوْعِـداً* وَوُضِـعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصـاها وَوَجَـدُوا ما عَمِلُـوا حاضِـراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**» [1].

[19] بلى. إن الإنسـان يخشى من المـوت ، ويحـاول جهده الفرار من ساحته ، ولكن متى كان مصيره في يـده ، أو كان قادرا على ردّ قضاء الله؟ كلا. إن سـكرة المـوت تأتيه فتذهله عما يحيط به ، كما تــذهل ســكرة الخمــرة شاربها ويومئذ يعرف أن محاولاته في الهروب من الموت والتي استغرقت أكثر مساعيه باءت جميعا بالفشل.

(**وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَـوْتِ بِـالْحَقِّ ذلِـكَ ما كُنْتَ مِنْـهُ تَحِيدُ**)

[20] وحينما يمـوت الإنسـان تبقى بينه وبين الجـزاء الحقيقي مسافة البرزخ ، فاذا كان يــوم القيامة ، أمر الله ملكا عظيما من ملائكته يقــال له إســرافيل بــالنفخ في الصـور فيحـدث عنـدها صـوت عظيم مهيب يقـوم النـاس بســببه من الأجــداث بـإذن الله عــزّ وجــلّ «**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَـإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْـداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِـلُونَ**» [2] وتلك النفخة إيـذانا منه تعـالى ببـدء أعظم وأرهب محكمة في عالم الإنسان حيث تقف الانسـانية وبكل أجيالها الـتي تعـاقبت على هـذه الأرض ، تـزدحم بهم آفاقها ، أحسـنهم حـــالا يومئذ من وجد لقدميه موضـــعا ولنفسه متســـعا ، يســبحون في بحر من العــرق الــذي تنفصد به أبــدانهم. وهناك تتقطع بينهم الأسـباب والوشـائج فيتـبرأ الواحد من أقرب الخلق اليه ، من ولده وزوجته وأمه وأبيه وأخيه.

---

(1) الكهف / 48 ـ 49
(2) يس / 51

(**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ**)

فمهما لقي الكفار والظالمون من جـزاء كما هو حـال الأقـوام السـالفة الـتي ذكـرتهم الآيـات (12 ــ 14) إلّا أن الجزاء الحقيقي الذي يتوعدهم به الله يلقونه في الآخرة ، التي تبدأ بنفخة إسرافيل (ع) في الصور.

إسرافيل :

وفي دعـاء الامـام زين العابـدين (ع) في الصـلاة عن حملة العــرش قــال : «**وإســرافيل صــاحب الصــور الشـاخص ، الـذي ينتظر منك الاذن ، وحلـول الأمر ، فينبّه بالنفخة صرعى رهائن القبور**». [1]

وقال رسول الله (ص): «خلق الله الصـور من لؤلـؤة بيضاء في صـفاء الزجاجة ، ثم قـال للعـرش خذ الصـور ، فتعلق به ، ثم قال : كن ، فكان إسـرافيل فـأمره أن يأخذ الصـور ، فأخـذه وبه ثقب بعـدد كل روح مخلوقة ، ونفس منفوسة ، لا تخــرج روحــان من ثقب واحد ، وفي وسط الصور كوّة كاستدارة السـماء والأرض ، وإسـرافيل واضع فمه على ذلك الكوّة ، ثم قال له الرب تعـالى : قد وكلتك بالصـور ، فـأنت للنفخة وللصـيحة ، فـدخل إسـرافيل في مقدم العرش ، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش ، وقــدم اليسرى ، ولم يطرف منذ خلقه الله ينظر متى يؤمر به» [2].

[21] فاذا جاء أمر الله لاسـرافيل ونفخ في الصــور ، انبعث الناس من قبورهم وبدأ يوم القيامة ، وهنــاك توضع الموازين الحق ، وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع

(1) بح / ج 59 ـ ص 217
(2) المصدر / ص 261

إلّا همسا من هـــول الموقف ، وتـــأتي كل نفس بمفردها منقطعة عن كل شـيء سـوى ما اكتسـبت وسـعت ، كما يصف القرآن «**وَكُلُّهُمْ آتِيـهِ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ فَـرْداً**» [1] ..
نعم. هنـاك اثنـان يشـايعانه تنتهي مهمة الأول عند إصـدار الحكم المصـيري بحقه وهو الشـهيد الـذي يـدلي بإفاداته أمام المحكمة الإلهية بالحق ان لصالح الشـخص أو عليه ، ســواء كــان ذلك الشــهيد الملك الــذي كتب أعماله ، أو طرف آخر من البشر وسائر الخلق ، أو كان عضوا منه أو جارحة ، بينما تنتهي مهمة الآخر على بـاب الجنة إذا كـان الشـخص من الصـالحين أو على بـاب جهنم إن كـان من أصحاب السعير ، وهو السـائق ، وهـذا الأخـير ينتظر حكم الله في من يسـوقه ، فاما يزفه بـاللطف والترحـاب إلى الجنة ، وأما أن يسوقه بمقامع الحديد إلى النار.

(**وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ**)

من الملائكة.

(**وَشَهِيدٌ**)

لقد بينت النصوص الدينية أسماءهم من هم الشـهداء الـذين يرافقـون كل نفس يـوم الحسـاب؟ ونحن نـذكر طائفة منهم :

1 ـ القيادة الرسالية شاهد على الإنسان. قـال تعـالى : «**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**» [2]. وقـال : «**إِنَّا أَرْسَـلْنا إِلَيْكُمْ رَسُـولاً شـاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَـلْنا إِلى فِرْعَـوْنَ رَسُـولاً**» [3] وقـال يحكي عن شهادة عيسى (ع) : «**بَـلْ رَفَعَـهُ اللـهُ إِلَيْـهِ وَكـانَ اللـهُ عَزِيزاً حَكِيمـاً* وَإِنْ مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ إِلَّا لَيُـؤْمِنَنَّ بِـهِ قَبْلَ**

---

(1) مريم / 95
(2) الأحزاب / 45
(3) المزمل / 15

مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» [1] ، وقال : «**فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَجِئْنا بِـكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً**». [2]

2 ـ جـوارح الإنسـان وأعضـاؤه تشـهد ، قـال تعـالى : «**وَيَـوْمَ يُحْشَـرُ أَعْـداءُ اللـهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُـونَ* حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَـهِدَ عَلَيْهِمْ سَـمْعُهُمْ وَأَبْصـارُهُمْ وَجُلُـودُهُمْ بِما كـانُوا يَعْمَلُـونَ* وَقـالُوا لِجُلُـودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُـوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ* وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَـمْعُكُمْ وَلا أَبْصـارُكُمْ وَلا جُلُـودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللـهَ لا يَعْلَمُ كَثِـيراً مِمَّا تَعْمَلُـونَ**» [3] وقـال في موضع آخر : «**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْـدِيهِمْ وَتَشْـهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**» [4].

3 ـ والكتاب هو الآخر شـاهد علينا بما يحتويه من قيم ومفاهيم إلهية ، قد تتفق معها مواقفنا وسلوكياتنا وأفكارنا وقد تخالفها. قـال تعـالى : «(**أَفَمَنْ كـانَ عَلى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُـوهُ شـاهِدٌ مِنْـهُ**) (يعـني القـرآن) (**وَمِنْ قَبْلِـهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**)». [5]

4 ـ والملائكة يشـهدون. قـال تعـالى : «**رُسُـلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْـذِرِينَ لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللـهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً* لكِنِ اللهُ يَشْـهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفى بِاللهِ شَـهِيداً**» [6] كما أنهم يسـجلون سـعي الإنسـان في كتابـه. قـال تعـالى : «**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَـوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا**

---

(1) النساء / 158 ـ 159
(2) النساء / 41
(3) فصلت / 20 ـ 22
(4) الانعام / 130
(5) هود / 17
(6) النساء / 165 ـ 166

وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» [1].

5 ـ وتشـهد على الإنسـان كل لحظة من عمـره ، إذ ينطبع فيها أثر كل سعي وتفكير يقوم به ، وربما مـرّ عليه الزمـان دون أن ينتفع منه ، فهو يشـهد عليه يـوم القيامة بذلك أيضـا. قـال الامـام علي (ع): «ما من يـوم يمر على ابن آدم إلّا قـال له ذلك اليـوم : أنا يـوم جديد وأنا عليك شـهيد ، فافعل فيّ خـيرا واعمل فيّ خـيرا ، أشـهد لك به يوم القيامة ، فانك لن تراني بعد هذا أبدا» [2].

6 ـ وكـذلك يشـهد أوليـاء الله على غـيرهم ، لأنهم بأعمالهم الصـالحة مـيزان لأعمـال النـاس ، وحجة يرفعها الله على الآخـرين ، فالمجاهـدون حجة على المتقاعسـين والقاعـدين ، والمهـاجرون حجة على الـذين رضـوا الـذل والعيش في ظل الظلمة ، والمتواضـعون حجة على المتكبرين وهكذا ، يقول الله : «**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**» [3] وقال في سـورة الحج : «**وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ**» [4].

7 ـ وتبقى الشـهادة العظمى لربّنا الجبـار الـذي لا تخفى عليه خافية : «**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ**

(1) يس / 12
(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 112 نقلا عن من لا يحضره الفقيه.
(3) آل عمران / 140
(4) الحج / 78

رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [1] ، «**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**» [2] وقال عزّ من قائل : «**إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**» [3] وقال مؤكدا هذه الشهادة يخاطب رسوله (ص) : «**وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**». [4]

[22] وهؤلاء الشهود وذلك السائق كلهم حاضرون اليوم كحضور أي حقيقة أخرى في الواقع ، إلّا أن حجب الجهل والغفلة والشهوات ، ومن ثم غياب بصيرة الايمان ، تمنع الإنسان من الرؤية ، فاذا ما تكشفت له الحقائق وبلغ عين اليقين في معرفتها ، هنالك يأتيه الخطاب من الله :

(**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**)

إن الحقائق التي طالما أنكرها المشركون تبدو لهم يومئذ أوضح من الشمس في رابعة النهار. ولقد صدق الامام علي عليه السلام إذ قال : «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» أما المؤمنون الصادقون فقد تعرفوا على هذه الحقائق بفصل اتباع وحي الله وأوليائه ، وإنهم كما يصفهم الامام زين العابدين (عليه السلام) إذ يناجي ربه قائلا : «إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق

---

(1) المجادلة / 6 ـ 7
(2) الانعام / 19
(3) الحج / 17
(4) يونس / 61

صـدورهم ... فهم إلى أوكـار الأفكـار يـأوون وفي ريـاض القــرب والمكاشــفة يرتعــون ... قد كشف الغطــاء عن أبصـارهم ، وانجلت ظلمة الـريب عن عقائـدهم ، وانتفت مخالجة الشك عن قلـــوبهم وســـرائرهم ، وانشـــرحت بتحقيق المعرفة صدورهم ... واطمأنت بـالرجوع إلى ربّ الأربــاب أنفســهم ، وتيقنت بــالفوز والفلاح أرواحهم» [1]

وهــذا اليقين ممكن لكل إنســان لو استشــار عقله واتبع هــدى الــرّب ، إلّا أن الغفلة ــ ومن ثم الاسترســال في الجهل والشهوات ـ كل ذلك يحجبه عن الايمان والمعرفة.

[23] ويــــوم القيامة يرفع الله كل الحجب فــــاذا بالحقائق واضحة كعين الشــمس لا يعتريها شك ولا ريب ، ولكن هل تنفعه المعرفة شــــيئا؟ ... كلا. فالكلمة حينها للشاهد الـذي رافقه لحظة بلحظة ، ومصـيره مرهـون بما أعده وسجله عليه وله ، حيث يعرضه على الله.

(**وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ**)

أي معدّ بدقة وحق فهو يعتدّ به في الحساب.

[24 ـ 25] وعند ما توضع أعمـــال الإنســـان في المـيزان يصـدر الله حكمه الحاسم في حقه ، فـان ثقلت موازينه أدخل الجنة صالح البال راضي النفس ، وإن خفّت أمر الله السائق والشهيد أن يأخذانه إلى النار.

(**أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ**)

أنكر فضل الله ، ولم يــــؤد شــــكر نعمائه بعبادته والتسليم له.

---

(1) الصحيفة السجادية / طبعة دار الأضواء / ص 420

(**عَنِيدٍ**)

خالف آياته وأوامره وعاكسها في حياته.

وهكـذا يـدخل النـار كل مـانع للخـير ، والخـير كلمة واسعة تضم إليها الكثير من المفردات ، فقد يكـون الخـير المـال الـذي ينعم به الله على الإنسـان فلا يخـرج منه الحقـوق الواجبة ، ولا ينفق منه على المحتـاجين ، وقد يكون الخير هو العلم الذي زكاته نشـره بين النـاس ولكن صاحبه لا يتحمل رسالته في الحياة ، وهكذا يمتد ظل هذه إلى كثير من المفردات الأخـرى. ولكن أهم معـاني الخـير القيـادة الصـالحة ، وأي خـير أعظم من قيـادة يهتـدي بها الإنسان السـبيل الحق في مرافق الحيـاة المختلفـة؟ وكم يكون الإنسان آثما حينما يحارب أوليـاء الله ويصـدّ النـاس عنهم؟

وفي الخبر عن علي بن إبراهيم قـال : «والخـير ولاية علي (ع) وحقـوق آل محمد (ص)» [1] ولا شك ان محاربة العلمـاء والفقهـاء والقـادة الرسـاليين جـزء لا يتجـزأ من محاربة الرسـول والأئمة عليهم السـلام ، بل هي محاربة الله ، أو لم يقل عزّ وجلّ : «من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة»؟ وهكـذا يحاربه الـذي ينـال من سـمعة أوليائه فيصنع حاجبا بين الناس وبينهم.

(**مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ**)

والمعتـدي هو الـذي يتجـاوز الحـدود والحقـوق ، أما المـريب فهو الـذي لا قناعة عنـده بـالقيم وربما ادعى الايمان لأغراض خبيثة.

[26] وكل هـذه الصـفات الـتي تسـتوجب جهنم (الكفران والعنـاد ، ومنع الخـير والاعتـداء والارتيـاب) كلها مظاهر للشرك الخفي أو الظاهر.

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 114

(**الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ**)

المشــرك ليس الــذي يعتقد بإله مع الله ، بل الــذي يخضع لقيادة لم يأمر بها الله فالذي يرضى عمليا بالحـاكم الظالم ، أو يطيع أمـره في معصـية الله مشـرك ، وإن لم يعتقد بأنه ربّ وإله ، كما ان من يطيع هواه فهو عابد له ، وهو بذلك يستحق العذاب ، وربنا يأمر الملكين بالقائه في جهنم.

(**فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ**)

والإلقـاء لا يكـون إلّا من الأعلى إلى الأسـفل ، وإنما يفعل بأهل النار كـذلك ، لأن الله خلق الإنسـان في مرتبة عالية فضـله بها على الكثـير من خلقه ، فـاذا أشـرك به وانحرف عن الصراط بـدأ سـيرته التسـافلية والإلقـاء في جهنم من الأعلى إلى الأسفل هو تجل لهذه الحقيقة الـتي تبينها ســورة الــتين في قوله تعــالى : «(**لَقَــدْ خَلَقْنَا الْإِنْســانَ فِي أَحْسَــنِ تَقْــوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنــاهُ أَسْــفَلَ سافِلِينَ**) [1] أما حينما يستمر على خط الفطـرة ويتمسك بحبل الله المتمثل في رســالته وأوليائه ، ويســتزيد من عمل الصــالحات فانه ينطلق في مســيرة تصــاعدية نحو الأعلى ، يتقرب إلى الله درجة بعد أخرى «(**كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْــرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ* وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ* كِتــابٌ مَرْقُومٌ* يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**) [2] .

[27] وحيث يلقى المشرك في جهنم يظل يهوي إلى الأسـفل مـدة من الـزمن حسب انحرافه وسـيئاته إلى أن يحل في مكانه المعد له بين يــدي عــذاب إلهي شــديد ، وهنـاك كما عند الحسـاب يلقى قرنـاءه عملا فيـدور بينهم خصـام شـديد يلقي كل طـرف فيه اللـوم على الطـرف الآخر محاولا بذلك التهرب من المسؤولية ، فاذا بالذي

---

(1) التين / 4 ـ 5

(2) المطففين / 18 ـ 21

جعل مع الله آلهة أخــرى ــ وقد أمر به إلى النــار ــ يريد التخلص من عذابها بإلقاء مسـئولية انحرافه وضـلاله على قرينه.

(**قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ**)

إنه كـاذب في ادعائه بـانني السـبب في طغيانه ، ثم يستدل قائلا :

(**وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**)

ربما يكون للآخرين دور في انحراف مسيرة الإنســان ولكنه لا يعـدو كونه مسـاعدا ، أما الـدور الأكـبر والسـبب الحقيقي مرهـــون باختيـــاره وإرادته للباطل دون الحق ، فلأنه أساسا اختـــار الضـــلال تجد مســـاعي الآخـــرين والظروف المتجانسة مع اختياره موقعا مؤثرا في حياته.

[28] ثم إن التخاصم عند الله لا ينفعهم شـــيئا وذلك لما يلي :

أولا : إن المصير الـذي صـاروا اليه لم يكن مفاجئا ولا غامضا بالنسـبة لهم. وكيف يكــون كــذلك وقد أقــام الله الحجة البالغة عليهم ، وأنذرهم من هذه العاقبة ، عبر كتبه ورسله؟

(**قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ**)

وأنذرتكم من أن الشرك والضـلال يسـتوجب العـذاب الشديد ، وضـربت لكم المثل تلو المثل من حيـاة الأقـوام الســـابقة (الآيـــات 12 إلى 14) ولكنكم كـــذبتم النـــذر ، واســـتهزأتم بالوعيد ، والقـــرآن يفصل هـــذه الحقيقة في موضع آخر ، يقول تعالى : «(**تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْـظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قالُوا بَلى قَـدْ جاءَنا نَـذِيرٌ فَكَـذَّبْنا وَقُلْنا ما نَـزَّلَ اللـهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ***

وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ)». [1]

[29] ثانيا : إن لله سننا وقيما في هذه الحياة ، جعلها حاكمة وجعلها الميزان في كل قضية ، وعلى أساسها يكون حساب الناس ومصيرهم ، وهي ثابتة لا تتغير. ومنها ان جزاء الكافر والمشرك النار وجزاء المؤمن الجنة ، ولا يمكن أن يكون العكس وإلّا فما هي حكمة الحياة الدنيا ، وما هو دور النذر إذا لم يجعل الله للثواب والعقاب نظاما محددا؟!

(**ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ**)

ومن القول الثابت الذي تعنيه هذه الآية ما جاء في سورة (ص) عند ما أقسم الشيطان أن يغوي العباد فردّ الله عليه : «**قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**» [2].

ثالثا : إن العدالة الإلهية تأبى ذلك ، إذ كيف يستوي المحسن والمسيء؟! أم كيف يصير الظالم إلى جانب المظلوم في الجنة دون أن يقتص من الأول ، وربما فات الأخير الثأر في الدنيا؟! أترى من العدالة أن يدخل الجنة المانع للخير والممنوع عنه؟! أو المعتدي والمعتدى عليه؟! أترى يدخل ابن ملجم الجنة مع الامام علي وقد فجع المسلمين بقتله؟! أم يدخل يزيد الجنة مع الحسين وقد ذبحه كما تذبح الشاة وهو ابن خاتم الأنبياء ، وسيد الأوصياء ، وسيدة نساء العالمين؟! .. كلا. وحاشا لله عزّ وجلّ وهو العادل أن يفعل ذلك ، وهذا كتابه ينطق عنه قائلا :

(**وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**)

---

(1) الملك / 8 ـ 11

(2) ص / 84 ـ 85

وإلى هـذا المعـنى يشـير دعـاء الامـام علي (ع) حيث يناجي ربه قائلا : «فباليقين أقطع صادقا لولا ما حكمت به من تعـذيب جاحـديك ، وقضـيت به من إخلاد معانـديك ، لجعلت النار كلها بـردا وسـلاما ، وما كـان لأحد فيها مقـرا ولا مقاما ، لكنك تقدست أسماؤك أقسـمت أن تملأها من الكـــافرين من الجنّة والنـــاس أجمعين ، وأن تخلد فيها المعاندين ، وأنت جلّ ثناؤك قلت مبتدئا وتطولت بالانعـام متكرما ، (**أَفَمَنْ كـانَ مُؤْمِنـاً كَمَنْ كـانَ فاسِـقاً لا يَسْتَوُونَ**) [1].

[30] رابعا : وأخيرا يثـير القـرآن في أذهاننا وبصـورة غير مباشـرة تسـاؤلا هاما وهو لمـاذا خلق الله النـار؟ هل خلقها عبثا وكيف يصدر منه ذلك وهو الحكيم الخبـير. وقد قـــال في كتابه : «**وَما خَلَقْنَا السَّـــماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ* لَـوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِـذَ لَهْـواً لَاتَّخَـذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ* بَلْ نَقْـذِفُ بِـالْحَقِّ عَلَى الْباطِـلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**» [2]؟!

إذن ما هو هـدف خلق النـار؟ والجـواب واضح نجـده في كثير من آيـات القـرآن ألّا وهو مجـازاة العاصـين لله ، كما إن الجنة خلقت لاكرام المطيعين.

(**يَوْمَ نَقُـولُ لِجَهَنَّمَ هَـلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُـولُ هَـلْ مِنْ مَزِيدٍ**)

وهذه الآية وآيات أخرى في القـرآن تفند ما ذهب اليه البعض من انه لا يوجد عذاب عند الله وعللوا ذلك بأنه عزّ وجـلّ رؤف خلق عبـاده لـيرحمهم لا ليعـذبهم ، ومن هـذا المنطلق راحوا يؤولون الآيات التي جـاءت بصـدد التحـذير والوعيد بأنها لمجرد التخويف حتى يطيع الناس ربهم ، وإلّا فهي لا واقع لها.

---

(1) مفـاتيح الجنـان / دعـاء كميل / طبعة دار إحيـاء الـتراث العـربي المخطوطة / ص 66.
(2) الأنبياء / 16 ـ 18

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْــــرَ بَعِيــــدٍ (31) هـــذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيـظٍ (32) مَنْ خَشِـيَ الـرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَـلامٍ ذلِـكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَـدَيْنا مَزِيـدٌ (35) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَـــرْنٍ هُمْ أَشَـــدُّ مِنْهُمْ بَطْشــاً فَنَقَّبُــوا فِي الْبِلادِ هَـلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذلِكَ لَـذِكْرى لِمَنْ كـانَ لَـهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّـمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا

---

(32) (**أَوَّابٍ**) : من آب بمعنى رجع ، أي كثـير الرجـوع إلى الله بالتوبة والتذكّر.

(36) (**فَنَقَّبُوا**) : كأنّ دخولهم في البلاد تنقيب ، لأنهم كـانوا يفحصـون عن مواضع الثروة والنزهة ، كـالمنقب الـذي يخـرق ويثقب الأرض طلبا للمال والكنز.

مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّـمْسِ وَقَبْـلَ الْغُـرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنـادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41) يَـوْمَ يَسْـمَعُونَ الصَّـيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَـوْمُ الْخُـرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِـراعاً ذلِـكَ حَشْـرٌ عَلَيْنا يَسِـيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُـونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيـدِ (45)

---

(38) (**لُغُوبٍ**) : تعب وإعياء.
(44) (**سِراعاً**) : أي مسرعين لما يصيبهم من الهول والوحشة.

فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ

هدى من الآيات :

لا تـزال الآيـات القرآنية تعـالج العجب الـذي اعـترى الكفار من حديث البعث ، وهي في هذا الـدرس تصـوّر لنا بعض مشاهد القيامة ، لنكشف لنا جانبا من أسرار النشأة الأخرى التي لا وسيلة للتعـرف عليها إلّا من خلال القـرآن لكن الهـدف الأهم من ذلك لهـذا اللـون من الحـديث هو التربية ، ذلك أنه لو تـرك الإنسـان الحجب الشـهوانية ، والاجتماعية ، والتربوية ، والوراثية ، لرأى الحقيقة بوضوح تـام ، لأن هـذه الحجب والأغلال هي الـتي تمنع عقله من الانطلاق في آفـاق الايمـان والمعرفـة. ولكن كيف يقتحم البشر هـذه العقبـات ، وينفذ بعقله إلى ما ورائها عن الحقائق؟

إن ذلك لا يمكن إلّا بهـزة عنيفة تتعـرض لها نفسه ، فتسقط عنها أستارها ومن شـأن الآيـات القرآنية بحـديثها عن مشـاهد القيامة السـلبية والايجابية ، وبالاسـلوب البلاغي والنفسي الرائع أن تحدث هذه الهزّة.

إن مجــرد ســماع الإنســان حــديث القيامة يكفي أن يبعثه نحو التفكــير ، وإذا فكر تفكــيرا ســليما اهتــدى إلى الحقيقة ، ونضرب على هذه الفكرة مثلا فنقـول : لو كـان شـخص يسـير باتجـاه حفـرة في طريقه ، فـانّ مخاطبته بكلمة انتبه وحــدها ، حــري بــأن يرفع عنه الغفلة ويوقظ عقله وحواسه ، فيكتشـفها دون أن يحتـاج الأمر إلى بيـان مفصل. وهكذا لو كنت في سيارة تسير بسـرعة وقد غفل سائقها في حين اعترضته سيارة أخـرى ، فـانّ رفع الغفلة عنه قد لا يحتــــاج إلّا إلى كلمة واحــــدة ليضــــغط على الفرامـل. وهكـذا القـرآن يهز ضـمير الإنسـان لينتبه من غفلته ، ويسـتثير عقله في مسـيرة الحيـاة ليفكر فيهتـدي للحق ، لأن مشكلته الأساسية أنه لا ينتفع بعقله.

ثم إن القـرآن جـاء ليحقق هـدفين هما : تزكية نفس الإنســـان بهدايته إلى الحق ودفعه للالــــتزام به في كل جوانب الحياة ، كما جـاء ليزيـده علما بالحقـائق من حوله وفي نفسه «**هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**» [1] لذلك فالآيات كلها تنتهي إلى أحد هــذين الهــدفين أو إليهما جميعا في موضع واحد ، ومن هنا ينبغي لنا أن نقرأها مــــرّة للتعلم ومرّة للاتعاظ.

بينات من الآيات :

[31] إن الله لم يخلق ولا شبرا واحدا من النار عبثا ، إنما ليتعذب فيه واحد من المجـرمين ، ولم يخلق الجنة إلّا ليكرم بها فريقا من عباده هم المتقون ، وليس يفصل بين الجنة أو النار وبين أي واحد منا إلّا عمله ، فان شـاء نقلته سـكرة المـوت إلى غضب الله وعذابه ، وإن صـلح نقلته إلى رضوان الله وثوابه. والإنسان حرّ في عمله فاما يختار الضــلال (الكفر والفســاد ومنع الخــير والاعتــداء على الآخرين والارتياب في

(1) الجمعة / 2

الحق) فيكون مصيره النار ، واما يختار التقوى (الأوبة إلى الله ، وحفظ حدوده وأحكامه ، وخشيته بالغيب ، وتصـفية القلب من الأدران بالانابة والتوبة) فيكون مصيره الجنة.

(**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**)

ونتسـاءل كيف تزلف الجنة للمتقين؟ والجـواب إن لهذه الآية تفسيرين :

الأول : إن الجنّة بما فيها من نعيم ورضـوان من الله منزلة رفيعة ، ومهما سـعى الإنسـان وبـالغ في عمل الصالحات فانّه لا يـرتقي إليها بعمله وحـده ، وإنما يقـرّ به منها أو يقر بها منه فضل الله ورحمته ، قـال النـبي (ص): «والذي نفسي بيده ما من النـاس أحد يـدخل الجنّة بعمله ، قـالوا : ولا أنت يا رسـول اللـه؟! قـال : ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضـل» (ووضع يـده على فـوق رأسه وطوّل بها صوته) [1].

وحين يدخل المؤمنون الجنّة تتـبين لهم هـذه الحقيقة كما أدركوها ببصـيرة الـوحي في الـدنيا ، فهم يعتـبرون نجاتهم من العذاب بفضل الله ومنّه لا بعملهم «**قـالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ* فَمَنَّ اللـهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ* إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَـدْعُوهُ إِنَّهُ هُـوَ الْبَـرُّ الرَّحِيمُ**» [2].

الثاني : إن الجنّة قمة سامقة لا يصلها الإنسـان حـتى يتصف بما يجعله لائقا لها ، فهي بعيـــدة كل البعد على الكافرين والعاصين ، ولكنها أقرب ما تكون إلى المؤمـنين والمطيعين ، وأن الـذي يقربها أو يبعـدها إنما هو مقـدار عمل الإنسان ومجمل صفاته

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 7 ص 11

(2) الطور / 26 ـ 28

الايمانية التي نقرأها في الآيات التالية.

وهـذا التفسـير لا يتعـارض مع التفسـير السـابق بل يلتقي معه وينتهي اليه ، فرحمة الله الــــــتي هي العامل الأساسي والمباشر في الـــــــدخول إلى الجنة ، ولكنها لا تشمل أحدا بلا سبب ، بل لا بد أن يكـون هو في مسـتوى استيعاب الرحمة.

ولان من عقد البشر النفسية استعجال النتـائج فـتراه يكفر بالآخرة ولا يسعى للجنّة سعيها لأنها في نظره جـزاء بعيد ، فقد أكّد القرآن على الجنّة :

(**غَيْرَ بَعِيدٍ**)

[32] ولكن ما هي الأعمال والصفات التي تقرّبنا إلى الجنّة؟

إن جميع الاعتبـارات الشـيئية تسـقط يـوم القيامة ، وتبقى القيم والأعمـال الصـالحة هي المـيزان. فلا يقـرب أحد من ربه لسـانه العـربي ، ولا لونه الأبيض ولا نسـبه الشريف ، وإنما تنفعه الحقائق التالية :

أ ــ الإيـاب إلى الله والإيـاب يعـني لغة الرجعة ، قـال تعالى : «**إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصـاداً* لِلطَّاغِينَ مَآبـاً**» (1) وقال حاكيا عن سليمان (ع) : «**وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ**» (2) وتسـمى التوبة أوبة لأنها عـودة إلى الفطـرة السليمة بعد الانحراف عنها قال تعالى : «**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صـالِحِينَ فَإِنَّهُ كـانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً**» (3).

إن النـاس كلهم خطـاؤون ينحرفـون عن الحق إلى الباطل في حياتهم عنادا ، أو

---

(1) النبأ / 21 ـ 22

(2) ص / 19

(3) الإسراء / 25

بسـبب الضـغوط أو حـتى من دون شـعور ولكن المـؤمن يتميز عن الآخرين بأنّه أولا لا يمارس الانحراف عن جحـود وعنـــاد ، وثانيا بأنه لا يســـتمر على الخطأ بل يســـعى لتصـــحيحه وعلاجه في أقـــرب فرصة ممكنة ، فـــاذا به يســتغفر بعد الــذنب ، وينتبه بعد الغفلة ، ويســتقيم بعد الانحـــراف ، ويتـــذكر بعد الجهل ، فكلما أبعدته ذنوبه عن الله تقرّب اليه بالتوبة ، وكلما استغفلته طبيعته المركـوزة في الجهل تعينها ضغوط الحياة تذكر بآيـات الله واسـتعان بإرادة الايمـان على الإقلاع من الانحـراف ، فهو يبـالغ في التوبة إلى ربّه ويكررّها حتى بالنسـبة إلى الـذنب الواحد ، الـذي يتـوب عنه ثم يعـود إليه ثانية وثالثة ، دون أن يـدع اليأس يسيطر عليه ، لإيمانه برحمة الله الواسعة وغفرانه ولماذا يقنط ، اليأس من صفات الكـافرين؟ ولمـاذا ييـأس وهو يســـمع نـــداء ربّه في كتابه : «**يا عِبـــادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَـةِ اللـهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ**» [1] أو قوله عـزّ وجـلّ : «**وَمَنْ يَقْنَـطُ مِنْ رَحْمَـةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**» [2] فالمؤمن يـرى مجـرد غفلته عن ربه ابتعـادا عنه فـــيئوب اليه مآبا ، فهو دائم الأوب ودائم التســـامي ودائم العروج إلى الله بتأنيب الذات.

ب ـ المحافظة على حـدود الله ، (مناهجه وشـرائعه) في الحيـــاة الفردية والاجتماعية بجميع أبعادها ، فـــاذا بك تــــرى الحق يتجلى في كل حركاته وســـكناته. فهو كما وصـــفه الامـــام علي (ع) إذ قـــال : «قد نصب نفسه لله ســـبحانه في أرفع الأمـــور من إصـــدار كل وارد عليه ، وتصيير كل فـرع إلى أصـله ... قد أخلص لله فاستخلصه ، فهو من معادن دينه ، وأوتاد أرضه ، قد ألزم نفسه العـدل ، فكـــان أول عدله نفي الهـــوى عن نفسه ، يصف الحق ويعمل به ، لا يـــدع للخـــير غاية إلّا أمها ، ولا مظنّة إلّا قصدها ، قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وإمامه ، يحل

---

(1) الزمر / 53

(2) الحجر / 56

حيث حلّ ثقله ، وينزل حيث كان منزله» [1] فلا يضيع لديه حكم سـنّه الله ، ولا حق لأحد ، فعهد الله له بالاستقامة على الحق محفوظ ، يصدق مع الناس ولا يغش ، ويـرعى الامانة و.... «**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**» [2].

إن المتقين يعتبرون أنفسهم شهداء في تطبيق النظام الاسلامي ، وحدود الشريعة المقدسة. لذلك فهم لا يعطون لأنفسهم الحق في تغيير الحدود الدينية بتبرير أنهم ثوار ومجاهدون ، بل إنك تراهم يلتزمون قبل غيرهم بتفاصيل المناهج التي بيّنها لهم ربهم سبحانه ، ولذلك فان الله يعدهم برحمة منه واسعة ، ويبدو ان القرآن يشير إلى هذين الأساسين للتقوى بقوله سبحانه :

(**هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ**)

[33] وتسأل متى يئوب الإنسان الى الله ويحفظ حدوده؟ والجواب حينما يخشاه بالحق ، وذلك ان الإنسان قد يظهر أمارات الخوف لأهداف ومصالح دنيوية يرومها ، إلّا أنها لا واقع لها ، والخائف الصادق من الله هو الذي يخشاه حينما يكون بعيدا عن الأنظار ، فاذا به وقد تهيأت له أسباب المعصية يقاوم شهوته ويتركها إيمانا منه برقابة الله التي هي في نظره أهم من أية رقابة أخرى.

(**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ**)

والإسلام يسعى قبل كل شيء لزرع الوازع الديني ـ الخوف من الله ـ في نفوس أتباعه كضمانة للالتزام بأنظمته وأحكامه ، ذلك ان أثر هذا الدافع أبلغ من سائر الروادع.

---

(1) نهج / خ 87 ص 118

(2) التوبة / 112

(**وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**)

وتشـير كلمة جـاء الى شـرط الجنّة الاسـتقامة على الحق حتى لقاء الله (المجيء له بقلب طاهر سليم).

[34] وإذا أحرز الإنسان هذه الصفات صار في زمـرة المتقين الذين يدخلون الجنة بسلام.

(**ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**)

الإنســـان في الـــدنيا لا يصل إلى ما يريد إلّا بالجهد والتضحية ، ثم إن أجله محدود فيها مما يجعل لذته بنعمها قصيرة على خلاف الجنة ، فان ما يحصل منها لا تعب فيه ولا لغوب ولا صراع ولا منافسة ولا يورث مرضا أو غصة ، بينما الدنيا بعكس ذلك تماما (لا سلام فيهـا) بل هي قائمة على أسـاس الفسـاد فلا ينـال المـرء فيها نعمة إلّا يـترك أخرى ، ولا يتمتع بلذة إلّا وتسبب له منغصة ، ولا يسـتقبل يوما من عمره إلّا بوداع يوم من أجله حتى قال الشاعر :

زيـادة المـرء في دنيـاه نقصان ... وربحه غـير محض الخـير خسران

[35] ومن الفـوارق بين الـدنيا والجنة ، ان الإنسـان مهما بلغ من التمكن والقـدرة في الـدنيا لا يصل إلى كل أهدافه وأمانيه ، بل يقصر عن تحقيق الكثـير منها ، على عكس ما في الجنة التي يتحقق له فيها ما يريد بمجرد أن ينوي ذلك ، بل ويزيده الله من فضله ساعة بعد ساعة.

(**لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ**)

قال الامام الصادق (ع): إن لله كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة ، فاذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكا معه حلتان فينتهي إلى باب الجنة فيقول : استأذنوا إليّ على فلان ، فيقال له : هذا رسول ربّك على الباب فيقول لأزواجه : أي شيء ترين عليّ أحسن؟ [1] فيقلن : يا سيدنا والذي أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا ، قد بعث إليك ربك فيتزر بواحد ويتعطف بالأخرى ، فلا يمر بشيء إلّا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد ، فاذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك وتعالى ، فاذا نظروا إليه أي إلى رحمته خروا سجدا ، فيقول : عبادي! ارفعوا رؤوسكم ليس هذا يوم سجود ولا عبادة ، قد رفعت عنكم المؤونة ، فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل مما أعطيتنا؟ أعطيتنا الجنّة ، فيقول : لكم مثل ما في أيديكم سبعين ضعفا ، فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفا مثل ما في يديه ، وهو قوله : «ولدينا مزيد» [2].

[36] ثم إن القرآن وضمن علاجه للكفر بقدرة الله على البعث ـ يدعو الكفار إلى التفكر في آثار قدرته وهيمنته على الحياة من خلال قراءة التاريخ البشري المليء بالشواهد على ذلك ، ليعلموا أن الحياة ليست عبثا ، بل تسير وفق حكمة مقدرة ، فالأقوام السابقة إنما أهلكوا لتكذيبهم بالحق.

(**وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً**)

وهذه سنّة جارية في الحياة لا يعطلها شيء ، ولا يمنعها البشر مهما أتوا من قدرة ، ولفظة أهلكنا مضافة إلى كلمة «كم» التي تفيد الاستفهام عن العدد ، تنطويان على تأكيد بأنّ ما حدث في التاريخ ليس مفردة جرت من باب الصدفة ، وإنما هي ظاهرة مستمرة تدل على سنّة حاكمة تلتقي فيها تلك الشواهد ، ويتضح

---

(1) يستشيرهن في أفضل ثيابه ليتزين بها عند لقاء رسول ربه.
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 115

فيها الفعل الالهي المقصـود. ثم إن بعض الأقـوام وصـلوا من القوة أكثر مما صـار اليه المجتمع العـربي يـوم نـزول القـــرآن ، ولكن الله أهلكهم فهل يتصـــورون على أنهم قــادرون على دفع الهلاك إذا حــلّ بســاحتهم. وامــتزاج الضمائر والإشارات في هذه الآية بين أولئك وهؤلاء يحمل طياته إنذارا للمشركين باهلاكهم بطريقة أو بــأخرى إذا ما حذوا حذو السـابقين ، ولن يجـدوا حينئذ مخرجا ولا سـبيلا إلى النجاة.

(**فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ**)

والمحيص من حاص يحيص ، وهو المكان الذي تحفره البطة لتضع فيه بيضـها ، وقد سـعت تلك الأقـوام ليجـدوا لأنفسهم مخرجا ولو بمقـدار المحيص فلم يقـدروا ، ووقع بهم العذاب.

[37] وما في التاريخ من دروس وعـبر آيـات تسـتثير عقل الإنسان وتهديه إلى الحق ، ولكن بشـرط أن يتجـاوز الأغلال والأثقال الـتي تمنع النفس من التحليق في سـماء الهداية والمعرفة ، وتعيق العقل من العبور عـبر الشـواهد والآيات إلى الحقائق.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى**)

تســتنقذ البشر من الغفلة والضــلال ، وتعــود به إلى الحق الذي فطر عليه أن آيـات الله سـواء الـتي تتضـمنها رســالته ، أو تلك الــتي تتجلى في نفس الإنســان وفي الآفاق ، أو التي تجلت ولا زالت تتجلى في تاريخ البشــرية ، إنها كلها تشع بأمواج الهداية والتـذكرة ، ولكن من الـذي تنفعه هذه الآيات فتكون له ذكرى في الحياة؟ انما صاحب القلب.

(**لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ**)

يعـني العقل (الـذي هو جـوهر النفس) وإنما سـميت النفس قلبا تقلبها من حـال إلى حـال أو بسـبب تقليب المعلومات سعيا وراء المعارف الجديدة.

وصـاحب القلب هو الـذي يقلب الأمـور بتفكـيره على وجوهها المتعددة ليتبع أحسـنها بعد نظـرة عميقة شـاملة. يقـول تعـالى : «**الَّذِينَ يَسْـتَمِعُونَ الْقَـوْلَ فَيَتَّبِعُـونَ أَحْسَـنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَـداهُمُ اللـهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُـوا الْأَلْبـابِ**» [1] ولعل المقصـود لأولي القلـوب هم العلمـاء الذين يفقهون معاني الآيـات باستشـارة عقـولهم مما نجد له إشـارة في قوله تعـالى : «**وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللـهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**» [2] قال الامام الكـاظم (ع): يا هشـام إن الله يقـول في كتابه : «(**إِنَّ فِي ذلِـكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَـهُ قَلْبٌ**) يعـني عقـل» [3] ولا ريب ان أهل بيت العصمة وأئمة الهدى عليهم السـلام أئمة العقلاء والراسـخين في العلم فهم أجلى مصـاديق هـذه الآية الكريمة ولا غرابة أن يقـول أمـير المؤمـنين (ع): ألّا واني مخصـوص في القـرآن بأسـماء احـذروا أن تغلبـوا عليها فتضـلوا في دينكم ، أنا ذو القلب ، يقـول الله عـزّ وجـلّ : «**إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ**» [4].

وإذا لم يكن الإنسان عالما يستطيع التـذكر والاهتـداء الى الحق بنفسه ، فانّه يجد سبيلا إلى ذلك بالاستماع إلى آيات الله واتباع أئمة الحق والهدى والعلماء الصالحين.

(**أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**)

---

(1) الزمر / 18
(2) آل عمران / 7
(3) نور الثقلين / ج 5 ص 116
(4) المصدر

إن المشكلة الحقيقية للإنسان الـذي لا يهتـدي ليست عدم وجود القلب أو السمع ، وإنما هي توظيفه لهما ، كما جوارحه وإمكاناته الأخرى في الأمور السـافلة أو التافهـة. يقــول تعــالى : «**وَلَقَـدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِـيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُــوبٌ لا يَفْقَهُــونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِــــرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْـــــمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ**» [1].

ولوجود هذه المشـكلة يشـرط القـرآن على الإنسـان شـرطين حـتى ينتفع بسـمعه من كلام الآخـرين وتجـاربهم من آيات الذكر ، فـأولا أن يوظف سـمعه «يلقي السـمع» ثانيا أن لا يكــون الســـمع بذاته هــدفا فيقف الواحد عند الحروف أو عند حدود العلم ، بل يعتبر السمع وسـيلة إلى هــدف هو العمل بــالحق ، والحـــروف والعلم طريقا إلى الموعظة. وبكلمة لا بد أن يكون مسئولا (شـاهدا) على ما يصــله من العلم ، قــال تعــالى : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْـهُ وَأَنْتُمْ تَسْـمَعُونَ* وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُـونَ**» [2].

وقــال مبينا هــدف الســمع وبعض الجــوارح «**وَاللـهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَـيْئاً وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**» [3].

ويضــرب القــرآن مثلا للمســتمع الشــهيد من واقع المؤمنين الذين يـذكرون الله على كل حـال وفي كل حين فيقــول حاكيا عنهم : «**رَبَّنا إِنَّنا سَـمِعْنا مُنادِيــاً يُنــادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُـوا بِـرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**» [4] إن السـمع الـذي لا يملك صاحبه الاستعداد لتحمل

---

(1) الأعراف / 179
(2) الأنفال / 20 ـ 22
(3) النمل / 78
(4) آل عمران / 193

مسـئوليته لا ينفع شـيئا ، وما ذا يسـتفيد من سـماع الحق ذلك الإنسان الذي يتهرب من مسئوليته بالتكبر أو التـبرير أو الاستهزاء : «**وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ* يَسْمَعُ آياتِ اللـهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَـيْئاً اتَّخَـذَها هُـزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَـذابٌ مُهِينٌ**» [1] وتجـارب التـاريخ البشـري تحمّلنا مسئولية الايمان بالله فـاذا لم يتجـاوز سـماع هـذه التجارب الى الايمان فما قيمة سماعنا لها؟

[38] وكما تتجلى آيات قدرة الله في التاريخ البشري بصـورة إهلاك الأقـوام المكذبة ، فانها تتجلى في الطبيعة بصورة أخرى تتجسد في الخلق والإبـداع والتفكر في تلك الآيات هذه تفكيرا عميقا (بالقلب السليم والسمع الشهيد) كفيل بـأن يجعل فكـرة البعث فكـرة واقعية ، ويـدفع الإنسان للتصديق بـالرجوع بعد المـوت فلا تصـبح الفكـرة عندها أمرا شاذا (عجيبا) ، ولا البعث مستحيلا (بعيـدا) كما يعتقد الكافرون.

دعنا ننظر نظـــــرة عميقة إلى الطبيعة من حولنا ، ولـــنركز الفكر في خلق الأرض الـــتي تقلّنا ، والســـماء الواسـعة الـتي تظلنا ، ولنتسـاءل أيها أعظم ، هل خلقهما أم خلق الإنسان هذا الذي لا يكاد يـبين بالقيـاس إليهـا؟ لا ريب أنهما أعظم خلقا وأعقد «**لَخَلْـــقُ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَـرُ مِنْ خَلْـقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**» [2] ومع ذلك فان خلقهما وما بينهما تم في سـتة أيام ولم يكن مضنيا.

(**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**)

ولعلنا نتساءل لمـاذا لم يتم الله ذلك الخلق في مـدة أقل؟ وربما يذهب بعضنا إلى

---

(1) الجاثية / 7 ـ 9

(2) المؤمن / 57

القول بأنه كان يتعب فيستريح كلا.

(**وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ**)

إن الله قـادر على خلق كل شـيء في مـدة يتلاشى فيها الحسـاب الزمـني ، وإنما جعل الخلق في سـتة أيـام لحكمة يعلمها ، أنه أراد بيـــان حقيقة مهمة لنا ، وهي ان كل شيء في الحياة لم يخلق كاملا منذ أول لحظة ، وإنما هو يســير نحو التكامل ، وحـــتى أنت أيها الإنســان في مسيرة البناء الـذاتي أو الحضـاري ينبغي لك التحـرك نحو الأسمى.

وما دام الله خلق الســماوات والأرض وما بينهما في هـــذه المـــدة ومن دون أن يمسه شـــيء من التعب أو التكلف ، فهل يصـعب عليه بعثنا يـوم القيامـة؟ وما نحن بالنسبة لذلك الخلق حتى يصعب على مبتدعه خلقنا مـرّة أخـرى؟! «(**أَأَنْتُمْ أَشَـدُّ خَلْقـاً أَمِ السَّـماءُ بَناهـا* رَفَـعَ سَـمْكَها فَسَـوَّاها* وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْـرَجَ ضُـحاها* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها* أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاهـا* وَالْجِبالَ أَرْساها* مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ**) ـ ثم مباشـرة يحدثنا عن يوم القيامة فيقـول : ـ (**فَـإِذا جـاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْـرى**)» [1] والصـلة المختصة بين الحـديث عن آيـات الطبيعة وعظمتها ، والحديث عن يوم القيامة لاثبات فكرة البعث من خلال تلك الآيات والعظمة صـلة صـميمة تتجلى في كل آيات القرآن.

[39 ـ 40] ويكـاد قلب المـؤمن يتفطر من تكـذيب الكفار بحقيقة البعث والجزاء التي يتلمسهما المؤمن وراء كل ظاهرة وفي كل أفق وفي كل لحظة من حياته ، الأمر الذي قد يستدعي منحة زخة من الصبر.

---

(1) النازعات / 27 ـ 34

(**فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ**)

ونجد في موضع من القــرآن توجيها مشــابها من قبل الله للرسول (ص) وللمؤمـنين ، يقـول تعـالى : «**وَاصْـبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً**» [1].

ولا بد للإنسان حتى يقاوم مختلف الضـغوط المضـادة للحق من الاتصـال بالله بالصـلاة والعبـادة ، ليتعـرف على ربه أكـــثر فينزهه عن الأباطيل ، وليســـتمد منه العـــون والتوكل لذلك يقول تعالى هنا :

(**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**)

وهكـــذا يقـــول في ســـورة الإســـراء وصلا بالشـــاهد المتقـدم : «**أَقِمِ الصَّـلاةَ لِـدُلُوكِ الشَّـمْسِ إِلى غَسَـقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْـرِ كـانَ مَشْـهُوداً* وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّكَ مَقامـاً مَحْمُـوداً* وَقُـلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُـدْخَلَ صِـدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُـلْطاناً نَصِيراً**» [2].

إن هـذا التأكيد على الاتصـال بالله بالصـلاة وبـالقرآن وبالــدعاء في حــال تعــرض الإنســان المــؤمن للضــغوط المضـادة هو تعبير بصـورة أخـرى عما تنطـوي عليه هـذه الآية من سورة «ق».

ولأن القـــرآن يفسر بعضه بعضا فاننا نجد تفســـيرا للعلاقة بين الصبر والصلاة ودورهما في مقاومة الضـغوط في قوله تعـالى : «**وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ**» [3].

---

(1) المزمل / 10
(2) الإسراء / 78 ـ 80
(3) البقرة / 45

وفي هـــذه الســـورة يـــدعو الله نبيه ومن خلال ذلك المؤمـنين عـبر الـزمن والأجيـال إلى الاتصـال به بالصـلاة وفي مرات عديدة كل يوم.

(**قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**)

يعني بين الطلوعين ، طلوع الفجر وطلوع الشـمس ، وتســبيح الله يكــون بالــذكر وبالصــلاة وبــالقرآن ، وهنا تأكيـدات عديـدة في النصـوص الاسـلامية على ضـرورة استثمار هذه الفـترة بالاتصـال بالله ، قـال تعـالى : «**أَقِمِ الصَّـلاةَ لِـدُلُوكِ الشَّـمْسِ إِلى غَسَـقِ اللَّيْـلِ وَقُـرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُـرْآنَ الْفَجْـرِ كـانَ مَشْـهُوداً**» وقـال النـبي الأعظم (ص): «ما عجّت الأرض إلى ربّها كعجها من ثلاثة (إلى أن قـال) والنـوم عليها (يعـني الصـلاة) قبل طلـوع الشمس» [1] وقال أمير المؤمـنين (ع): «واطلبـوا الـرزق فيما بين طلـوع الفجر إلى طلـوع الشـمس ، فانه أسـرع في طلب الـرزق من الضـرب في الأرض ، وهي السـاعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده» [2] وسئل الصـادق (ع) عن الآية فقـــال : «تقـــول حين تصـــبح وحين تمسي عشر مرات ، لا إله إلّا الله وحـده لا شـريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير» [3].

وهكـذا ينبغي أن يفتتح الإنسـان المـؤمن يومه الجديد بالذكر والصلاة والقرآن ، يسـتمد من كل ذلك زخما روحيا يزيده نشاطا في عمله ، وإرادة يتحدى بها شبهات الكفـار وأضاليلهم ، وكل الضغوط الـتي يواجهها في حياته اليومية ، ولأن الإنسان قد يتعرض لتحدي الضغوط ، وربما ضـعف أمامها أكثر من مرة في اليوم الواحد ، لذلك تأتي الـدعوة اليه في طرفي النهار وطرفي الليل.

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 118
(2) المصدر
(3) المصدر

(وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)
الظهر والعصر.
(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ)
يعني أوله حيث صلاة المغرب والعشاء.
(وَأَدْبارَ السُّجُودِ)
يعـني النافلة الـتي تعقب صـلاة المغـرب (الأربع أو الغفيلـــة) قـــال الامـــام الرضا (ع): «أربع ركعـــات بعد المغرب» [1] وقال الامام الصادق (ع): «**ركعـتين اللـتين بعد المغرب هما أدبار السجود**» [2].
[41 ـ 42] وبالاضـافة إلى الصـبر والتسـبيح ينبغي للمؤمن لكي يقاوم تحـديات الأعـداء أن يفكر في الآخـرة وفي المصـير الـذي ينتهـون اليه في الـدنيا حينما يظهر المؤمنون بدولة الحق.
(وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكـانٍ قَـرِيبٍ* يَـوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)
قال علي ابن إبراهيم (رض) : «ينـادي المنـادي باسم القائم واسم أبيه» وعن الصيحة قال : «صيحة القـائم من السماء» [3] ان العاقبة السوء الـتي تنتظر أعـداء الرسـالة تكـون في الآخـرة متجسـدة في ألـوان العـذاب الالهي ، ولكنها تتجلى دنيويا في

(1) المصدر
(2) المصدر
(3) المصدر

دولة الحق التي يظهر بها قائم أهل البيت عليهم السلام.

وكما ان دولة القــائم (عج) هي تجل أصــغر لعــذاب الآخرة على الظلمة ، فان دول الحق الاخــرى الــتي تظهر على أيدي المؤمنين هي تجل محــدود لهـذه الدولة ، والى هذه الفكرة نجد إشارة في قوله تعــالى : «**فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ* يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْـدُهُمْ شَـيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَـرُونَ* وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا عَـذاباً دُونَ ذلِـكَ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُـونَ**» [1] ولعل كلمة الخروج في الآية التي نحن بصـدد تفسـيرها تعـني ــ بالاضافة إلى الخروج إلى البعث ـ خروج دولة الحق.

[43] ثم يعود السياق الى تأكيد الحقيقة الـتي يكـذب بها الكـافرون فكـانت سـببا لانحرافـات بعيـدة اخـرى في حيـاتهم ، وهي البعث بعد المـوت ، وقد تقـدمت الاشـارة إليها في قوله تعالى ، حاكيا عن الكفّـار : «**أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**» [2].

(**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ**)

بلى. قد تكـون هنـاك أسـبابا طبيعية ظاهرية للحيـاة والمـــــوت ، ولكن الواقع الـــــذي يغيب عن أذهاننا إنهما والبعث بيد الله ، وهذه الحقائق الثلاث (الحياة+ الموت+ البعث) تثبت بعضـها بعضـا. ولو أن الكـافرين تفكـروا في وجـودهم وحيـاتهم لاهتـدوا إلى أن الله هو الـذي أوجـدهم وأنه الـــذي يميتهم وأنهم يبعثـــون ، وليس كما زعمـــوا : «**وَقـــالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الــدُّنْيا نَمُــوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الــدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِــذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**» [3].

---

(1) الطور / 45 ـ 47

(2) ق / 3

(3) الجاثية / 24

[44] إن مشـكلة الإنسـان العميقة الـتي تجعله يكفر بـالبعث أو يشك في الآخـرة ، هي شـكه في قـدرة الله ، بسبب نظرته المحدودة إلى الحيـاة ، فـاذا به يسـتبعد كما في هـذه السـورة أن يرجع الإنسـان سـويا بعد تحوله إلى تراب أو رميم من العظام لـذلك يؤكد الله يسر الأمر عليه فيقول :

(**يَـوْمَ تَشَـقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِـراعاً ذلِـكَ حَشْـرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ**)

كما تشـــقق عن الفطر والنبــات ، ولكن العملية تتم في فترة زمنية ووجيزة جدا ، فـاذا بالنـاس جميعا وقـوف ينظرون ، وهـذه من أصـعب السـاعات على البشر ، قـال الامـــام علي (ع): «أشد ســـاعات ابن آدم ثلاث (منهـــا) الساعة التي يقـوم فيها من القـبر» [1] وقـال : «**لا تنشق الأرض عن أحد يوم القيامة إلّا وملكان آخذان بضبعه (عضده) يقولان : أجب رب العزة**» [2].

[45] ويختم الله السورة بالتأكيد للنبيّ ـ ولكل داعية إلى الحق ـ بأنه ليس مسـئولا عن النـاس وليس عليه أن يجبر الناس على قبول الحق ، وإنما مسئوليته تتلخص في تبليغ رســالته إليهم ، أما الحســاب الفصل فهو عند الله ، الــذي هو أحــرص على رســالته ، وأعلم بمواقف النــاس تجاهها.

(**نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُـــــونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ**)

وما هي قيمة الايمان الذي لا يأتي عن قناعة راســخة بضـرورته؟ إنه لا ينفع صـاحبه ، ولا يخـدم الرسـالة ، وفي هذه الآية بيان لجانب من الحرية في دين الله.

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 119
(2) المصدر / ص 120

الفهرست

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق